موسوعة
أسماء الله الحسنى
وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء الرابع

اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور
الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مَوْسُوعَةُ
أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى
وَأَثَرُهَا فِي اسْتِخْلَافِ الإِنْسَانِ فِي الأَرْضِ
الجُزْءُ الرَّابِعُ

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلطَّبعَةُ ٱلأولى

1430 هـ ــ 2009 م

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد - بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق ــ حلبوني ــ جادة ابن سينا ــ بناء الجابي

ص.ب : 311 ــ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541

بيروت ــ برج أبي حيدر ــ خلف دبوس الأصلي ــ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ــ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهــرِسُ ٱلْمَوْضُوعَات

اللطيف جل جلاله

اللطيف : « من أسمائه الحسنىٰ ، وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه ، ويلطف بعبده في الأمور الخارجية عنه ، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر . وهـٰذا من آثار علمه ، وكرمه ، ورحمته ، فلهـٰذا كان معنىٰ اللطيف نوعين :

الأول : أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار ، والبواطن ، والخبايا ، والخفايا ، ومكنونات الصدور ، ومغيبات الأمور ، وما لطف ودقّ من كل شيء .

الثاني : لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتمَّ عليه إحسانه ، ويشمله بكرمه ويرقيه إلىٰ المنازل العالية ، فييسره لليسرىٰ ، ويجنبه العسرىٰ » [1] .

اللطيف : « إنما يستحق هـٰذا الاسم مَنْ يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ، ثم يسلك في إيصالها إلىٰ المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل ، واللطف في الإدراك ؛ تم معنىٰ اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالىٰ ، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا ؛ فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق ، وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها ؛ فلا يدخل أيضاً تحت الحصر ؛ إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 60 .

وعرف دقائق الرفق فيها ، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنىٰ اسم اللطيف » [1] .

اللطيف من أسماء ٱلله الحسنىٰ الدالة علىٰ الّلين والمقاربة من المخلوق بالعفو والتسامح والتواد ، ولذا : اللطيف هو من يملك القوة المطلقة ، ويملك العفو والرحمة ويفعل ذلك متىٰ ما يريد ، وهو العليم الخبير .

اللطيف مالك العذاب والحساب والعقاب لمن يشاء وفقاً لما تقدمه الأيدي وهو المسامح بالعفو والمغفرة والرحمة والعطاء ، قال تعالىٰ : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [2] .

الحمد لله الذي لا تحيط به الأوهام ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .

أحمده علىٰ آلائه ، وأشكره علىٰ نعمائه ، وأستهديه من القول والعمل لما يقربني منه ويرضيه ، وكيف لا يرجىٰ حلمه وكرمه وشمول لطفه ورحمته وقد سبق وجود العباد لطفه ورأفته ، إلـٰهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بنا قبل وجود ضعفنا أفتمنعنا منهما بعد وجود ضعفنا ، إلـٰهنا وصفت نفسك في كتابك العزيز الذي أنزلته إلينا باللطف والرأفة ، فقلت فيه : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [3] .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 101 .
(2) التوبة ، 103ـ106 .
(3) الشورىٰ ، 19 .

اللطيف هو الذي بيده كل شيء ويعفو عن كثير ، ويتجاوز عن الأخطاء استجابة لمن دعاه طاعة وإخلاصاً ، ولأنه يعلم السراء والضراء ، ولا تخفىٰ عليه خافية ، فهو لا يستجيب إلا عند الوجوب ، وفي ذلك لطفٌ بالعباد الذين لو أدركوا العاقبة ؛ لكانت الطاعة مع الصبر من أجل المستقبل الأفضل الذي لا يعلمه إلا هو جل جلاله ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [1] . الأنفس متعددة الطباع ، تضعف وتقوىٰ حسب درجة الإيمان ومستوىٰ الخلافة ، فعندما تضعف تهوىٰ في غير محل وعندما تقوىٰ ؛ تصبر حتىٰ تنال أجراً ، ولذا فاللطف بالعباد في الأقوال والأفعال التي يقدمون عليها وهم لا يدركون العاقبة ، فيتيح لهم ٱلله لطفاً يحول بينهم وبين العاقبة غير المحمودة .

وعليه فاللطيف بعباده ـ كما قال ابن عباس ـ : « حفي بهم . وقال عكرمة : بارٌّ بهم . وقال السديُّ : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطف بالبَرِّ والفاجر . وقال القُرَظيُّ : لطيف بهم في العرض والمحاسبة » [2] .

إنَّ اتصاف ٱلله تعالىٰ باللطف والرأفة دليل إثبات علىٰ أنه الأكبر والأعظم والمهيمن جلَّ جلاله ، سبحانك ما أعظم شأنك لطفت بنا ونحن للطف محتاجون ، افتمنعنا لاحتياجنا إليه ؛ وأنت أرحم الراحمين ؟ سبحانك لا إلـٰه إلا أنت بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا أليك فارحمنا يا خير الراحمين !

فاللطيف اسم إنما يستحقه من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ، ثم يسلك في إيصالها إلىٰ المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك ؛ تم معنىٰ اللطف ،

---

(1) البقرة ، 216 .

(2) القرطبي ، مصدر سابق ، الجزء السادس عشر ، ص 19 .

ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالىٰ ، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق وأما رفقه في الأفعال ، ولطفه فيها ؛ فلا يدخل أيضاً تحت الحصر ؛ إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله ، وعرف دقائق الرفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنىٰ اسم اللطيف ، وشرح ذلك يستدعي تطويلاً ، ثم لا يتصور أن يفي بعُشره عَشرة مجلدات كبيرة .

جاء في اللغة : لَطُفَ بِهِ ولَه ، كنَصَرَ ، يَلْطُفُ لُطْفاً (بالضمِّ) : إذا رَفَقَ به ، وأَنا أَلْطُفُ بِهِ : إذا أَرَيْتُهُ مَوَدَّةً ورِفْقاً في مُعامَلةٍ ، وهو لَطِيفٌ بهـٰذا الأمْرِ رَفيقٌ بمُداراتِه ، والمَشْهُورُ تعدِيَتُه بالباءِ ، كقولِه تَعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ، وجاءَ مُعَدًّىٰ باللام كقوله تعالىٰ : ﴿رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ . ولَطافَةً علىٰ القياس ، فمَعْناه : صَغُرَ ، ودَقَّ ، فهو لَطِيفٌ .

واللَّطِيـفُ : صفَـةٌ مـن صفـات ٱلله تَعـالَـىٰ ، واسـمٌ مـن أَسمـائـه ، ومَعْناه : البَرُّ بعباده المُحْسُن إلىٰ خَلْقه بإيصال المنافعِ إِلَيْهم برفْقٍ ولُطْفٍ ، وهو من لَطُفَ ككَرُمَ لُطْفاً ولَطافَةً بمعنَىٰ دَقَّ ، وقال الفَيُّوميُّ : إِنَّهما متقاربان .

واللَّطِيفُ : هو الَّذي اجْتَمَعَ له الرِّفْقُ في الفعْلِ ، والعلْمُ بدَقائق المَصالحِ ، وإيصالها إلىٰ من قَدَّرَها لَهُ من خَلْقِه . واللُّطْفُ المطلق لا يجمع لأنه واحد ، أمّا الأَلاطِفُ : الأَجِبَّةُ ، جمعُ الأَلْطَفِ أَفْعَل من اللُّطْفِ بمعنىٰ الرِّفْقِ . وهـٰذه من صفات المستخلفين في الأرض ، الذين ميزهم ٱلله بالقيم والفضائل التي بها تُدرك الأمور ، ويتم التوفيق فيها بلطفٍ . وفي ذلك يقول تاج العروس : « تَلاطَفُوا : تَواصَلُوا » [1] .

واللطائف : جمع لطيفة ، وكل شيء دقيق محكم ، وغامض خفي ،

---

(1) تاج العروس ، ج 1 ، ص 6120 .

يحتاج إلىٰ الرفق والتأني في إدراكه ؛ فهو لطيف . واللطيف مستعار من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة من الشيء الخفي . وقيل : اللطيف العليم بالغوامض والدقائق من المعاني والحقائق ، ولذا يقال للحاذق في صنعته : لطيف .

اللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق الذي يجل عن إدراك البصائر ، فضلاً عن الأبصار ، ويعز عن شعور الأسرار فضلاً عن الأفكار ، ويتعالىٰ عن مشابهة الصور والأمثال ، وينزه عن حلول الألوان والأشكال ، فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هـٰذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون علىٰ الإطلاق بل بالقياس إلىٰ ما هو دونه في اللطافة (1) .

والأصل في اللطيف التدبير ، ثم حذف ، واجريت الصفة للمدبر علىٰ جهة المبالغة ، وفلان لطيف الحيلة : إذا كان يتوصل إلىٰ بغيته بالرفق والسهولة ، ويكون اللطف حسن العشرة ، فَيُحب ، والعصمة هي اللطيفة التي يمتنع بها عن المعصية اختياراً . ويسمىٰ ٱلله تعالىٰ لطيفاً ؛ لأنه يواصل نعمه إلىٰ عباده . وتختلف عن المداراة ؛ لأنها ضرب من الاحتيال ، والختل .

أمور تستوجب اللطف :

الأمر الأول :

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (3) .

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 5 ، ص 467 .
(2) النساء ، 38 .
(3) النساء ، 39 .

أي : وأيُّ شيء يَكرُثهم [1] لو سلكوا الطريقة الحميدة ، وعَدَلُوا عن الرياء إلىٰ الإخلاص والإيمان بالله ، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً وأنفق مما رزقه ٱلله في الوجوه التي يحبُّها ٱلله ويرضاها .

في الآية السابقة استغراب استفساري يستوجب استجواب من الذين يتعلق الأمر بهم ، ولٰكن لأنهم لا يدركون أمرهم والعاقبة المترتبة عليه ، فكانت المعرفة للذين آمنوا وعملوا الصالحات حتىٰ جاء وصفهم بالخلفاء في الأرض دون غيرهم ، ولهٰذا كان القول الاستغرابي موجه للمؤمنين العارفين والمستخلفين فيها ، وذلك بأسباب إدراكهم إياه . أما غيرهم من غير المستخلفين فيها فهم أولئك المستغرب من أجلهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

الأمر الثاني :

وقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أي : وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم ، فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه لعمل صالح يرضىٰ به عنه ، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي ، الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه ؛ فقد خاب وخَسِرَ في الدنيا والآخرة ، اللهُمَّ الطف بنا إنك تعلم مالا نعلم ، سبحانك إنك ترىٰ مالا نرىٰ ، وتسمع مالا نسمع .

استدلالات علىٰ لطفه تعالىٰ :

الإنسان بين ظروف الطرب ، والغضب يتأرجح ، وبين ساعات الشدة ، والفرج يتأرجح ، ومع وسوسة الخناس الوسواس يخنس ويوسوس فيمتد وينكمش ، والخليفة في مقابل ذلك بإيمانه يزداد قوة ، وبين هٰذا وذاك قد

(1) في القاموس : كَرَثَه الغمُّ ، يكرُثه كرْثاً : اشتدَّ عليه ، وبلغ منه المشقَّة .

أوهم إبليس خلقاً كثيراً ؛ أنه لا إلـٰه ، ولا صانع ، وأنَّ هـٰذه الأشياء اللطيفة كانت بلا مكون ، وهـٰؤلاء ومن علىٰ أمثالهم لم يدركوا الصانع بالحسِّ ، ولم يستعملوا في معرفته العقل فجحدوه ، دون أن يعقلوا ويتساءلوا :

ـ هل يشك ذو عقل في وجود صانع لطيف لهـٰذه الأشياء اللطيفة ؟

ـ ألا يكون وراء كل مخلوق خالق ؟

ـ ألا يكون الخالق أفضل من المخلوق ؟

ـ ألا يكون المخلوق مسبوقا بخالق لا سابق عليه ؟

ـ ألا يكون من يأتي بالشمس من المشرق ، ويتحكم في أمرها مع أمر النجوم والكواكب دون أن يحدث تماسٌّ ، أو صدام ، ودون أن يكون أحدٌ غيره قادراً علىٰ أن يأتي بالشمس من المغرب ، ألا يكون هو الأول ، والآخر الذي لم يكن من قبله أول ولا من ورائه آخر ؟ ! ولأنه كذلك جل جلاله : ألا ينبغي علينا الشهادة به واحداً أحداً لا شريك له ؟ ولأنه كذلك سبحانه وتعالىٰ : ألا يكون من الأفضل لنا أن نصلِّي ، ونسلم علىٰ من أمرنا بالصلاة والسلام عليهم دون أن نفرق بين أحد منهم ؟

من يدرك ما تدل عليه هـٰذه التساؤلات يكتشف فيها لطفاً من لطيف خبير ، فهـٰذا المهاد الموضوع ، وهـٰذا السقف المرفوع ، وهـٰذه الأبنية العجيبة ، والقوانين الجارية علىٰ وجه الحكمة أما تدل علىٰ صانع بديع ؟ !

وإذا كانت البعرة ـ كما تقول العرب ـ تدل علىٰ البعير ؟ ألا يكون البعير يدل علىٰ خالق البعير ؟ !

وعليه :

لماذا لا ننظر إلىٰ الإبل ؛ حتىٰ نتمكَّن من معرفة الإجابة علىٰ الكيفية التي بها خلقها ؟ !

ولماذا لا ننظر إلىٰ السماء ؛ حتىٰ نتمكَّن من معرفة الكيفية التي بها رُفعت ؟ !

ولماذا لا ننظر إلىٰ الجبال ؛ حتىٰ نتمكَّن من معرفة الكيفية التي بها نُصبت ؟ !

ولماذا لا ننظر إلىٰ الأرض ؛ حتىٰ نتمكَّن من معرفة الكيفية التي بها بُسطت ؟ !

ولماذا لا يُذكِّر بعضنا البعض بالمعجزات ؛ حتىٰ يتمَّ التمكُّن من الاستخلاف في الأرض بقوة الإرادة ، لا بقوة السيطرة ؟ !

ولذا ، فإذا فكَّر الإنسان وتذكَّر عرف : أنَّ وراء كل مخلوق خالق ، ووراء كل كيفية لطيفٌ خبير .

لو تأمل الإنسان نفسه ؛ لكفت دليلاً ، ولشفت غليلاً ، فإنَّ في هٰذا الجسد من الحكم ما لا يسع ذكره في كتاب ، ومن تأمل تحديد الأسنان لتقطيع وتقريض الأضراس لتطحن واللسان يقلب الممضوغ وتسليط الكبد علىٰ الطعام ينضجه ثم ينفذ إلىٰ كل جارحة قدر ما تحتاج إليه من الغذاء . لو نظر لعقله وهو يفكر ، وهو يتحايل ، وهو يتدبر ، وهو يشطح ، وهو يتأمَّر ، وهو يتأمل وهو يُحب ويستنبط ألا يحس بأن من ورائه قوةً تدفعه لأن يعرف ويؤمن ؟ !

وهٰذه الأصابع التي هيأت فيها العقد لتطوىٰ ، وتنفتح فيمكن العمل بها ولم تجوف لكثرة عملها إذ لو جوفت لصدمها الشيء القوي فكسرها وجعل بعضها أطول من بعض لتستوي إذا ضُمَّت .

وأخفىٰ النفس في البدن التي فيها قوامه ، وهي التي إذا ذهبت ؛ فسد العقل الذي يرشد إلىٰ المصالح .

ولذا فالنفس لا أحد يراها بالرغم من وجودها والاتفاق عليها بين الناس في مختلف أديانهم وأعراقهم وأعرافهم ومعتقداتهم وعلومهم . النفس هي

النفس وإن تنوعت بين ضالة ، ومهتدية ، وبين أمَّارة بالسوء ومطمئنة ، وبالرغم من أن كلَّ موجود وبالعينين يُرىٰ يُصوَّر ، إلا أن الموجود الذي لا تراه العينين لا يصور ، وإلا هل هناك من يصور لنا النفس ، أو الابتسامة ، أو الغضب ، أو السعادة ، كل هـٰذه موجودة ، ويُحسُّ بها وترتسم علىٰ الوجوه حتىٰ تلحظها العقول المدركة للحقيقة . ومن يحاول قول غير ذلك ندعوه لأن يرسم لنا ابتسامةً ، أو يرسم لنا نفساً أو يرسم لنا سعادةً ، وعليه أن يفكر قبل أن يحاول الرسم في الفارق الكبير بين الابتسامة وبين المبتسم ، وبين النفس والروح والبدن ، وبين السعادة ومن تجول السعادة في نفسه حتىٰ ترتسم عليه .

ومع أنَّ النفس ذائقة للموت ، فهي التي تموت دون أن نراها ، وإلا هل هناك من يرىٰ النفس بأم عينيه في حالتيها في الحياة والممات ؟ !

بالتأكيد النفس بالرغم من وجودها فهي لا تخضع للمشاهدة ، وفي هـٰذا الأمر ألا يكون عدم رؤية الموجود معجزةً أمام من لم يفقدوا أبصارهم ؟ وبما أنها موجودة ، وهي لا تُرىٰ مُعطية صادقة ، إذاً ألا يكون من ورائها خالق لا يمكن رؤيته بالقوة التي جعلت عدم التمكن من رؤية النفس بالرغم من وجودها ؟

كلُّ شيءٍ من هـٰذه الأشياء ينادي : أفي لطف ٱلله شك ؟ ! وإنما يتخبط الجاحد لأنه طلبه من حيث الحس ، ومن الناس من جحده ؛ لأنه لما أثبت وجوده من حيث الجملة لم يدركه من حيث التفصيل [1] .

فأخبر : أنه يلطف لِما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس ، واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة ، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ، وهـٰكذا كان ظاهرُ ما امتُحن به يوسف من مفارقة أبيه ، والقائه في

(1) تلبيس إبليس ، ج 1 ، ص 55 .

السجن ، وبيعه رقيقاً ، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه ، وسجنه محناً ومصائبَ ، وباطنُها نعماً وفتحاً ، جعلها ٱلله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة . ومن هـٰذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ، ويأمرهم به من المكاره ، وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلىٰ سعادتهم في العاجل والآجل ، وقد حُفَّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، وقد قال ﷺ : « لا يقضي ٱلله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن ». فالقضاء كله خير لمن أعطيَ الشكر والصبر جالبا ما جلب » [1] .

وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد ﷺ من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء ، وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلىٰ غاية كمالهم وسعادتهم ، فتأمل قصة موسىٰ وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال ، ووحيه إلىٰ أمه أن تلقيه في اليم ، وسوقه بلطفه إلىٰ دار عدوِّه الذي قدَّر هلاكه علىٰ يديه وهو يذبح الأطفال في طلب فرماه في بيته وحجره علىٰ فراشه ، ثم قدر له سبباً أخرجه من مصر وأوصله به إلىٰ موضع لا حكم لفرعون عليه ، ثم قدر له سبباً أوصله به إلىٰ النكاح والغنىٰ بعد العزوبة والعيلة ، ثم ساقه إلىٰ بلد عدوه ، فأقام عليه به حجته ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه وكان ذلك عين نصرتهم علىٰ أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون ، وهـٰذا كله مما يبين : أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة ، والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة ، والنعمة السابغة [2] .

---

(1) شفاء العليل ، ج 1 ، ص 34 .
(2) المصدر السابق ، ص 35 .

علاقة اللطيف بأسمائه تعالىٰ :

هي علاقة توحُّد لا تزدوج ولا تجمع في اسمه المُطلق ؛ لأن عدله كما ينبغي وعلىٰ ما ينبغي ولو لم يفعل ما فعله ؛ لحصل منه أمر آخر هو أعظم ضرراً مما حصل كما أن المريض لو لم تُجرىٰ له العملية عند الضرورة ؛ لتضرر ضرراً يزيد علىٰ ألم الجراحة وتالياتها (ولله المثل الأعلىٰ) ، وبهـٰذا يكون ٱللَّه تعالىٰ عدلاً والإيمان به يقطع الإنكار ، والاعتراضَ ظاهراً ، وباطناً . وتمامه أن لا يسبَّ الدهر ، ولا ينسب الأشياء إلىٰ الفلك ، ولا يعترض عليه كما جرت به العادة ، بل يعلم : أن كل ذلك أسباب مسخرة ، وأنها رتبت ووجهت إلىٰ المسببات أحسن ترتيب وتوجيه بأقصىٰ وجوه العدل واللطف . وعلىٰ الجملة : فهو من حيث دبر الأمور حكم ، ومن حيث أوجدها الواجد ، ومن حيث رتبها مصوِّر ، ومن حيث وضع كل شيء موضعه عَدْلٌ ، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيفٌ ، ولن يعرف حقيقة هـٰذه الأسماء من لم يعرف حقيقة هـٰذه الأفعال .

من وجوه لطفه تعالىٰ :

الوجه الأول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) . يخبر تعالىٰ : أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة ، بل يوفيه بها ، ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالىٰ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (2) .

---

(1) النساء ، 40 .
(2) الأنبياء ، 47 .

وقال تعالىٰ مخبراً عن لقمان : أنه قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ (2) .

نعم : إنه هو لا إلـٰه إلا هو ، واضع الموازين بالقسط ليوم القيامة ، دون أن تُظلم نفس شيئاً ، وهو الذي أحصىٰ كل شيء وعدَّه عداً ، وهو الذي نأتيه يوم القيامة فرداً ، وهو الذي يعلم الأسباب التي بها تتزلزل الأرض ، وهو الذي يعلم علم الساعة ، وهو الذي يعلم الكيفية التي بها خُلقت الإبل ، والكيفية التي بها رُفعت السماء عن الأرض بغير عمدٍ نراها ، والكيفية التي بها نُصبت الجبال ، والكيفية التي بها سُطحت الأرض ، وهو الأول والآخر ، وهو المحيي والمميت ، وهو الذي يرىٰ الأبصار ، ولا تراه ، وهو البصير ، وهو السميع العليم ، وهو علىٰ كل شيء قدير . سبحانه لا إلـٰه إلا هو به آمنت ، وعليه توكلت ، وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليه ، ولا حول ولا قوة إلا به !

إنه الواحد من غير عدد ، الذي يعلم مالا نعلم ، وهو الباقي بعد كل أحد إلىٰ غير نهاية ولا أمد . له الكبرياءُ والعظمة ، والبهاء والعزة ، والسلطان والقدرة ، تعالىٰ عن أن يكون له شريك في سلطانه ، أو في وحدانيته نديد ، أو في تدبيره مُعين أو ظهير ، أو أن يكون له ولدٌ ، أو صاحبةٌ ، أو كُفؤٌ أحداً .

عن أبي سَعِيدٍ الخُدْري ، عن رسول ٱلله ﷺ في حديث الشفاعة الطويلِ ، وفيه : يقول ٱلله عز وجل : « ارْجِعُوا ، فَمَن وجدتم في قلبه مثقالَ حبة خردل

---

(1) لقمان ، 16 .

(2) الزلزلة ، 6ـ8 .

من إيمان ؛ فأخرجوه من النار » . وفي لفظ : « أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال ذرة من إيمان ؛ فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً » [1] .

الوجه الثاني :

إنه أنزل لطفه في قلوب خلقه ، وخاصة من استخلافهم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ [2] . خلائف جمع : خليفة ، وهم المُمكنين بالقوة التي يُراد بها الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها المستخلف ، وهي كينونة المطلوب والمرغوب والمفضل ، وهٰذه خاصية المؤمنين ، أما من يكفر بما يُراد له أن يكون عليه من درجات التفضيل فعليه كفره ، أي فعليه بكفره الذي يخرجه من درجات الاستخلاف والتفضيل الذي يرتضيه ٱلله لطفاً بعباده .

اللطف بين الناس معاملة طيبة ، ومحبة متبادلة ، وقيم وفضائل خيِّرة ، واللطف دائماً بيد من يمتلك القوة ، ومع ذلك لا يستخدمها في غير وجوب وجوهها .

الوجه الثالث :

ومن وجوه لطفه : أنه يؤلف بين قلوب عباده بعد فرقة وشقاق ، فتصبح مجتمعة علىٰ إناء واحد ؛ ولأنه هو الأدرىٰ بمصالح خلقه ، فينزل اللطف ، والرحمة كيف يشاء ومتىٰ يشاء وعلىٰ من يشاء ، ويظهر ذلك جلياً في سورة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [3] . وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ

---

(1) تفسير ابن كثير ، ج 2 ، ص 304 .

(2) فاطر ، 39 .

(3) يوسف ، 100 .

إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ بمعنىٰ : من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم ، وجَهِل بعضنا علىٰ بعض . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ ، يقول : إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء ، ومن لطفه وصنعه : أنه أخرجني من السجن ، وجاء بأهلي من البَدْوِ بعد الذي كان بيني وبينهم من بُعد الدار ، وبعد ما كنت فيه من العُبُودية والرِّق والإسار . ولذلك كان اللطف بيوسف حتىٰ أخرجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان ، وتحريشه علىٰ إخوته . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ ، بمصالح خلقه وغير ذلك ، لا يخفىٰ عليه مبادي الأمور وعواقبها ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في تدبيره (1) .

الوجه الرابع :

ألطافه جل شأنه لا تتناهىٰ ظواهرها وبواطنها في الأولىٰ والأخرىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ (2) .

الخلفاء قول ٱلله تعالىٰ بالنسبة لهم هو معطيات وبراهين وحجج يُستدل بها علىٰ الحقيقة إثباتاً ، ولذا فهم الذين يدركون حقيقة : أن نعم ٱلله تعالىٰ لا تحصىٰ من قبلهم ولا من قبل الآخرين ، مع علمهم بأنها محصيةٌ ومعدودةٌ ومسجلةٌ في لوح محفوظ لا يدركها إلا هو الذي أحصىٰ كل شيءٍ وعدَّه عداً .

ومن خلال النظر في دلائل لطفه في مشاهدة الكون المعروضة للناس كنزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرةً فهي يقيناً ظاهرة واقعة مكرورة . قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس . فأما حين يتفتح الحس الشاعر ، فإن هٰذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتىٰ المشاعر والأحاسيس . وإن القلب ليحس أحياناً : أن هٰذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين ، بخضرته وغضارته تبسم في هٰذا الوجود الشائق البهيج ! والذي

---

(1) الطبري ، ج 16 ، ص 277 .
(2) النحل ، 81 .

يحس علىٰ هـٰذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ . من لطف وعمق ومشاكلة للون هـٰذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته . فمن اللطف الإلـٰهي ذلك الدبيب اللطيف . دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرىٰ ، وهي نحيلة ضئيلة ، ويد القدرة تمدها في الهواء ، وتمدها بالقوة والشوق إلىٰ الارتفاع علىٰ جاذبية الأرض وثقلة الطين . وتلك النواة اليابسة بلطفه تبتل فترتخي وتلين لِتُسهِّل للنبتة مخرجها بعد كمون ، سبحانه بكل شيء لطيف عليم خبير [1] ! وَمِنْ عَجَائِب اللَّطِيف الْخَبِير أَنَّهَا تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِد ؛ وَنحن بطبيعتنا نُفَضِّل بَعْضهَا عَلَىٰ بَعْض فِي الأُكُل المتنوع فضل من ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [2] .

الوجه الخامس :

اللطيف الموصل الشيء باللِّين والرفق ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [3] . فمن لطفه خلقه الجنين في بطن أمه في ظلماتٍ ثلاث ، وحفظه فيها ، وتغذيته بواسطة حبل السرة إلىٰ أن ينفصل ، فيستقل بالتناول بالفم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة ، بل يتفقأ البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في الحال ، ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلىٰ وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السن ، ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلىٰ طحن الطعام ، ثم تقسيم الأسنان إلىٰ عريضة للطحن

(1) في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص 212 .
(2) الرعد ، 4 .
(3) الشورىٰ ، 19 .

وإلىٰ أنياب للكسر وإلىٰ ثنايا حادة الأطراف للقطع ، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلىٰ المطحن كالمجرفة ، ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها وقد تعاون علىٰ إصلاحها خلق لا يحصىٰ عددهم من مصلح الأرض ، وزارعها ، وساقيها ، وحاصدها ، ومنقيها ، وطاحنها ، وعاجنها ، وخابزها إلىٰ غير ذلك [1] .

فالله لطيف بعباده ، وحفي بهم ، وبارٌّ بهم ، ورفيق بهم ؛ فهو لطيف بالبر والفاجر ، حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم . ولطفه بهم في الرزق ظاهر من وجهين : أحدهما : أنه جعل الرزق من الطيبات . والثاني : أنه لم يدفعه مرة واحدة فيتبذر . وقال الجنيد : لطيف بأوليائه حتىٰ عرفوه ، ولطف بأعدائه لما جحدوه . قال الثقفي :

وَمَنْ شقَّ فاهُ ٱللهُ قدَّر رِزْقَه ... وربِّي بمن يلجأ إليهِ لطيفُ

وبناء علىٰ ما سبق : فإن رزق ٱلله لعباده وهم غير قادرين فعل خير من اللطيف القوي العزيز ، ولذلك كمنت العزة في القوة الكامنة هي الأخرىٰ في الرزق الذي رزقه اللطيف لعباده ، ولهٰذا فإن ٱلله هو اللطيف بعبادة ويرزق من يشاء بغير حساب . سبحانه ما أعظم شأنه ، وهو علىٰ كل شيء قدير [2] !

الوجه السادس :

اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه ، فحينئذ يقبله ، ويقبل عليه . فعندما ييئس العباد من العباد لا ملجأ منه إلا إليه قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [3] . ينجيكم منها عائد علىٰ الآية السابقة لهٰذه الآية الكريمة في سورة الأنعام المتعلقة بظلمات

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 102 .
(2) المصدر السابق ، ص 102 .
(3) الأنعام ، 64 .

البر والبحر ، فجاءت هـٰذه الآية لتؤكد علىٰ النجاة منها ومن كل كرب أي من كل شدة أو عسرة أو أي غم يضيق بالنفس ، ولذلك فإن لطف ٱلله بعباده ظاهر في كل فعل من أفعال النجاة ، مما يجعل المؤمنين منهم هم العباد الصالحين الذين يُراد لهم الاستخلاف في الأرض ، أمَّا أولئك المشركين ؛ فهم الذين يلطف ٱلله بهم ؛ وهم يشركون . وبناء علىٰ ذلك ينقسم الناس إلىٰ أربع مجموعات :

المجموعة الأولىٰ : هي المؤمنة بالمطلق بأسمائه وصفاته في أقوالها وأفعالها ، وهـٰؤلاء هم المستخلفون في الأرض . وهـٰؤلاء هم الطائعون الحامدون الشاكرون الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر .

المجموعة الثانية : هي المسلمة التي لم يدخل الإيمان قلوبها بعد ، فهي التي تغفل ، وتقصِّر في أداء عباداتها ، وتنسىٰ اتّباع ما يجب ، والامتناع عما لا يجب ، وعندما تضيق بها الحظيرة ويلم بها الكرب تعود وتلتجئ إلىٰ ٱلله وذلك لعلمها بأنه هو اللطيف الذي لن تجد مخرجاً لها من كربها إلا به فتعود إليه وقد تعود ثانية إلىٰ لهوها ، وستظل هـٰكذا حتىٰ يدخل الإيمان في قلوبها . وهـٰؤلاء هم من عباد ٱلله الذين أنعم عليهم بالإسلام ، فيوحدون ٱلله ولا يلتجئون إلىٰ سواه في كل شدة ، أو مكروه يلم بهم ، وقد يكون منهم المحظوظون بما تقدم أيديهم من أفعال الخير .

المجموعة الثالثة : هي المشركة الغائبة عن الوحدانية وأسرارها وهـٰؤلاء منهم من يقول : إن ٱلله ثالث ثلاثة ، وهم عن وحدانيته غافلون يذكرون ٱلله كما يذكرون عيسىٰ ، عليه الصلاة والسلام ، وأمه ، وهـٰؤلاء مع أنهم يُسلِّمون بوجود ٱلله تعالىٰ إلا أنهم يشركون معه مَنْ خلق ، وفي ذلك لا يستقيم عندهم أمر الوحدانية .

المجموعة الرابعة : هي المجموعة المشركة التي تتخذ من دون ٱلله

أرباباً ، فيعبدون ما دونه ، وهم يظنون : أن ما يعبدونه من دونه سيقربهم إليه زُلفىٰ .

المجموعة الخامسة : هي الكافرة التي لا تؤمن إلا بما تلامسه مادة حسية مباشرة ، وهـٰؤلاء هم الكفرة الفجرة الذين أنعم ٱلله عليهم بالعقل ؛ وهم به ضالون .

وعليه لو لم يكن ٱلله هو اللطيف الخبير بعباده ؛ لكان العقاب مقدماً ، وليس مؤخراً ، الذي خلق كل شيء يدرك أمر كل شيء ، ولأنه يعلم ويدرك أمر كل شيء كان بهم لطيفاً خبيراً .

الوجه السابع :

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ، ويستر عليهم المثالب ؛ وعلىٰ هـٰذا قال النبي ﷺ : « يا من أظهر الجميل وستر القبيح ! » . وهو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل . وقيل : هو الذي يجبر الكسير ، وييسر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ، ولا يرجىٰ إلا فضله . وقيل : هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة (1) .

اللطيف هو الذي يُحبب العباد في أفعال الخير ، وهو الذي يجازيهم علىٰ فعلها ، وهو الذي يُمكنهم من كشف الضرر والمرض ويُمكنهم من اكتشاف علاجه ، وهو الذي يُمكِّن من إدراك السيئة ، ويُمكِّن من سترتها بأقوال الخير وأفعاله ، وهو الذي ألهمنا بالذاكرة التي تحفظ التاريخ ، وبالعقل الذي به ندركه واحداً أحداً لا شريك له ، ولذا فهو اللطيف بعباده الذين به يؤمنون ، والذين به يسلمون ، والذين به يشركون ويكفرون الذين قال فيهم تعالىٰ : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (2) ، فمهل : تعني : أعطهم الفرصة ،

---

(1) تفسير القرطبي ، الجزء السادس عشر ، ص 18 .

(2) الطارق ، 17 .

ولا تستعجل عليهم ، فالله لطيف بعباده ، ولطفه هـٰذا هو المحتوي لإعطاء الفرصة لهم لعلهم يتبينوا ويستبصروا الحق فيؤمنون به ، فإن لم يؤمنوا ؛ ستكون العاقبة لهم أكثر شدَّةً ، ويومها يدركون : أنه لا نافع لهم ، لا مال ، ولا بنون .

الوجه الثامن :

التيسير دون التعسير ، واللطف قبل الشدَّة ، والتقدير ، ومراعاة الظرف والحاجة ، والرحمة والمغفرة قبل العقاب ، ولا يكلفه الطاعة فوق الطاقة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [1] وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [3] وقال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [4] . في الآيات الكريمة السابقة ورد لطفه بالعباد ، وتيسيره لهم سبل الحياة ، وتفطينه لهم بالنعم التي لا تحصىٰ ؛ ليسعوا ويبحثوا حتىٰ يتمكنوا من العيش الرغيد ، وتبيانه لِما وهب لهم من نعم ظاهرة وباطنة ، وذلك لأجل أن يتذكروا ويتفكروا ؛ حتىٰ تعمهم الهداية ويصبحوا من عباده المستخلفين في الأرض ، وهـٰذا الأمر هو الذي يُريد لهم أن يكونوا عليه اللطيف الخبير .

الوجه التاسع :

ولأن اللطيف هو الذي يمهل ولا يهمل ؛ فهو الذي لا يعاجل من عصاه ، ولا يخيب من رجاه ، وهو الذي لا يُرد سائله ، ولا ييأس آمله ، وهو الذي يعفو عمن يهفو ، وهو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وهو الذي أوقد في

---

(1) النحل 18 .
(2) لقمان ، 20 .
(3) الحج 78 .
(4) النساء 28 .

أسرار العارفين من المشاهدة سراجاً ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجاً ، وأجزل لهم من سحائب بره ماءً ثجاجاً . والحمد لله إن المستخلفين لا يقنطون من رحمة ٱلله !

الوجه العاشر :

يرزق من يشاء حكمة ، ويحرم من يشاء حكمة . ولذا في تفضيله لقوم من الأقوام بالمال حكمة ، وفي تمييزه للبعض بالقدرات والاستعدادات والمهارات والعلوم والعقل حكمة ، وفي خلقه الذكر والأنثىٰ حكمة ، وفي خلقه لليابسة والماء حكمة ، وفي خلقه للإنس والملائكة والجن حكمة ، وفي تحكُّمه وهيمنته وخلقه بالمطلق حكمة ، فجعل البعض في حاجة إلىٰ البعض ، لأجل أن يكون الوجود وجود حق ، فيه يجاز بالثواب من يحسن فيحسن ٱلله إليه ، وفيه من يجاز بالعقاب فيدخله ناراً ، ولهٰذا بين هٰذا وذاك الكثيرون منتشرون علىٰ درجات السلم القيمي الذي يرتضيه اللطيف الخبير سبحانه جل جلاله ! وفي هٰذا وذاك سَخِرَ البعض من البعض ، أو سخَّر البعضُ البعضَ ، وكان البعض للبعض فتنة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (1) . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (2) .

الوجه الحادي عشر :

ومن لطفه : أن ما من ذرة من ذرات العوالم إلا وهي في حيطة تربيته سبحانه بل ما من شيء مما أحاط به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات إلا وهو في حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آناً واحداً ؛ لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار إلا في مطمورة العدم ، ومهاوي البوار ؛ لٰكن يفيض عليه

---

(1) الزخرف ، 32 .
(2) الفرقان 20 .

من الجناب الأقدس تعالىٰ شأنه ، وتقدَّس من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته ما لا يحيط بذلك فلك التعبير ، ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير . وآثار تربيته تعالىٰ واضحة المنار ساطعة الأنوار ، فسبحانه من رب لا يضاهىٰ ، ومنان لا يحصىٰ كرمه ، ولا يتناهىٰ ، ونحن في تيار بحر جوده سابحون ، وعن إقامة مراسم شكره قاصرون .

الوجه الثاني عشر :

وما أحسن القول أنه تعالىٰ يملك عباداً غيرك وأنت ليس لك رب سواه ثم إنك تتساهل في خدمته والقيام في وظائف طاعته كأن لك رباً بل أرباباً غيره وهو سبحانه يعتني بتربيتك حتىٰ كأنه لا عبد له سواك فسبحانه ما أتم تربيته وأعظم لطفه ورحمته ، ولأنه لطيف فهو الذي يُنسي العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا . ولأنه اللطيف جعل في الأرض خلائف وميزهم بالإيمان وأورثهم الأرض وجعل فيهم الخطيئة قابلة للمغفرة بكلمة استغفار ونية صادقة .

الوجه الثالث عشر :

من تفكر في عجائب صنع الإنسان وما خصه ٱلله به من كمال الخلق والإتقان وما يلحقه من ضروب المنن والإحسان ؛ وجد نفسه مغموراً في لطف مولاه مرفوقاً به في أول منشئه ومنتهاه . قال بعض الحكماء : قد أدركت العقول مما أودع ٱلله في الإنسان اثنتي عشرة ألف حكمة ، وأما الذي لم تدركه العقول ؛ فلا يعلمه إلا ٱلله ، هـٰذا في خاصة نفسه ، وأما في غذائه وشرابه ولباسه وسائر لوازمه فأكثر من ذلك . قال تعالىٰ : ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ (1) وقال : ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (2) . فسبحان من أعجزت العقول بدائع ألطافه ، وقصَّرت الأفكار عن عظيم أوصافه ، وهو اللطيف

---

(1) التين 4 .

(2) عبس 24 .

الخبير ما أكثر لطائفه للمبتدئين ، وأوضحها للمستيقظين ، وأعظمها في جميع المخلوقين ! قد سرىٰ لطفه في جميع الأكوان ، وأبهرت حكمته أفكار الإنس والجان .

قال الشاعر :

فمن لطفه حفظ الجنين وصونه ... بمستودعٍ قد مرَّ فيه وقد حلا
تكنفه باللطف في ظلماته ... ولا مال يغنيه هناك ولا أهلا
جرىٰ في مجاري عرقه بتلطفٍ ... بلا طلب جرياً علىٰ قدرة سهلا
أجرىٰ له في الثَّدْي لطف غذائه ... شراباً هنيئاً ما ألذَّ وما أحلا

الوجه الرابع عشر :

يخبر تعالىٰ عن حلمه ولطفه بعباده ، فيقول : ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [1] . أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا علىٰ أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلىٰ إرادة ذلك ، فلهٰذا لا يستجيب لهم ـ والحالة هٰذه ـ لطفاً ورحمةً ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء ؛ ولهٰذا قال : ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أي : لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك ، لأهلكهم ، ولٰكن لا ينبغي الإكثار من ذلك ، كما جاء في الحديث : عن جابر قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « لا تدعوا علىٰ أنفسكم ، لا تدعوا علىٰ أولادكم ، لا تدعوا علىٰ أموالكم ، لا توافقوا من ٱلله ساعةً فيها إجابةٌ ، فيستجب لكم » [2] .

(1) يونس 11 .
(2) تفسير ابن كثير ، ج 4 ، 251 .

الوجه الخامس عشر :

قال تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾ [1] . انظر إلىٰ سعة لطف ٱلله تعالىٰ في هـٰذه الآية الكريمة وإمداده بمن شاء من عباده ، فإنه ذكر وهب بن منبه : أنَّ ذا القرنين كان رجلاً من الإسكندرية ابن امرأة عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان خارجاً عن قومه ولم يكن بأفضلهم حسباً ولا نسباً ولـٰكنه نشأ فيٰ ذات حسن وجمال وحلم ومروءة وعفة من لدن كان غلاماً الىٰ أن بلغ رجلاً ولم يزل منذ نشأ يتخلَّق بمكارم الاخلاق ويسمو الىٰ معالىٰ الامور الىٰ أن علا صيته وعزَّ في قومه وألقىٰ ٱلله تعالىٰ عليه الهيبة ، ثم إنه زاد به الامر إلىٰ أن حدث نفسه بالأشياء ، فكان أول ما أجمع عليه رأيه الإسلام فأسلم ثم دعا قومه الىٰ الإسلام فأسلموا ثم كان من أمره ما كان . انظر كيف يسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون لأجل ما يشاء حتىٰ يجيء علىٰ وجه الصواب [2] . هـٰذا ما ورد في تفسير حقي ، ولـٰكن في حقيقة الأمر ذو القرنين لا يعرف أصله من حيث المكان والأقوام ولـٰكن الآيات الكريمة ركزت علىٰ القيم من العدل والإيمان ودفع الظلم والدعوة والجهاد وإعانة المستضعفين ، وهو نموذج للخليفة ومثالٌ للحكام .

اللطيف : (صاحب المكارم والمواعظ والحكم والمعجزات) إن التجأت إليه ؛ حفظك من كل سوء ، وإن قصدته بنية صافية وأنت في حاجة ؛ كانت الإجابة محققة للطموح وأكثر ، وإن أحببته ؛ أدناك ، وإن نمت دون أن تدري بما يحاط بك ؛ أحاطك برعايته ، وإن أطعته ؛ كافاك ، وإن أغضبته ، عافاك ، وإن أعرضت عنه دعاك ، وإن أقبلت إليه هداك ، وإن عصيته راعاك . ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية ، وكلفهم دون الطاقة ، ويسَّر لهم

(1) الكهف 91 .
(2) تفسير حقي ، ج 7 ، ص 439 .

الوصول إلىٰ سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر ، فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلىٰ الأبد . ومن لطفه إخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم ، وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، وإخراج العسل من النحل ، وأعجب من ذلك خلقه من النطفة مستودعاً لمعرفته ، وحاملاً لأمانته ، ومشاهداً لملكوت سمٰواته . وهٰذا أيضاً لا يمكن إحصاؤه .

وحظ الخليفة من هٰذا الوصف الرفق بعباد ٱلله عز وجل والتلطُّف بهم من غير إزراء وعنف ومن غير تعصُّب وخصام وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلىٰ قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة ؛ فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة .

والعبد المحظوظ هو من يستمد لطفه من اللطيف المطلق حتىٰ يخلفه في الأرض قولاً وفعلاً ويؤمن به واحداً أحداً لا شريك له ، لا إلٰه إلا هو ، لم يكن له صاحبةً ولا ولداً سبحانه هو الأول والآخر ! ولذا فاللطف معاملة حسنة مع وافر التقدير والاحترام والاعتبار دون كللٍ ولا مللٍ طاعةً لإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

وعليه فاللطف في السلوك معاملة حسنة بين الناس ، معاملة الوالدين بإحسان تولِّد الرضا في نفوسهم علىٰ الأبناء وفي هٰذا الأمر لطف مشترك (لطف الأبناء بوالديهم ، يولِّد لطف ٱلله بالأبناء والآباء معاً) ، ولطف ربُّ العمل بالعاملين يولِّد لطف ٱلله علىٰ العاملين وأرباب العمل ، ولطف الزوجين علىٰ بعضهما بعضاً ، ولطفهما بأبنائهم يولد لطف ٱلله عليهما وعلىٰ الأبناء ، ولطف الإنسان بنفسه يولِّد ٱلله فيه نفساً مطمئنَّة .

ولهٰذا فالحظ الكبير للإنسان أن يعمل كل ما من شأنه أن يستمد به لطف ٱلله حتىٰ يصبح من المستخلفين في الأرض الذين يعملون علىٰ إصلاحها ، ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق .

إذاً حظ الخليفة أن يكون خليفة ، حتىٰ يُدرك من لا تدركه الأبصار بعقله وقلبه الذي بهما يميِّز بين ما يجب ويقدم عليه ، وبين مالا يجب ويتجنبه أو يبتعد عنه أو يعمل علىٰ إصلاحه . قال تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ (1) . جاء فعل الأمر هنا لأجل الاعتراف بالحقيقة ، وهي أنَّ ٱلله واحدٌ أحدٌ لا شريك له ، وأنَّ محمداً رسول للواحد الأحد ، أي : آمنوا فإن ٱلله واحد ، وأن محمداً رسوله ، ﴿وَأَنفِقُواْ ﴾ تصدقوا مما رزقكم ٱلله مصدر كل رزق ، حيث لا رزق إلا منه ، ولأنه منه تصدقوا حتىٰ يلطف ٱلله بكم ، وبأحوالكم فيمدكم بواسع رحمته بالمزيد في الرزق . وهـٰذا لطفٌ منه جل جلاله . ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ المستخلفين فيه هو من عند ٱلله وهو مصدر الرزق الذي يمدكم به لطفاً من السماء والأرض ، وهـٰذا دليل علىٰ أن أصل الملك لله تعالىٰ ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي ٱلله . والمستخلفون هم الذين ورثوا مَنْ سبقهم من الأقوام التي زالت وانتهت ، وهم الذين سيتركونها دون أن يبقىٰ لهم شيءٌ منها إلا الأعمال الصالحة التي تجعلهم خلفاء في الجنة دائمين . ولذلك يترتب الأجر الكبير علىٰ الإنفاق في وجه ٱلله دون تبذير أو إسراف وفي الأوجه التي يرتضيها ٱلله وفقاً لِما نصَّ عليه في كتابه العزيز .

قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (2) . فمعنىٰ البصر : هو المجهر اللطيف الذي ركبه ٱلله في حاسة النظر ، به تدرك المبصرات ، فالمعنىٰ : أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ؛ لأنه متعالٍ أن يكون مبصراً في ذاته ، فالأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً ، كالأجسام والهيئات ، إنه الواحد الأحد الذي تدركه العقول وتطمأن

(1) الحديد 7 .

(2) الأنعام ، 103 .

إليه القلوب ، وهو الذي يُدرك الأبصار والعقول وما خلق مما نعلم وما لا نعلم سبحانه هو العليم الحكيم ! ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ وهو لِلُطفِ إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك . ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار . ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بكل أمر وفعل ، ولطيف فهو يدرك الأبصار ، لا تلطف عن إدراكه ، وهـٰذا من باب اللطف [1] . ولأن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، فإن الخبرة تناسب من يدرك شيئاً ، ومن يدركها يكون خبيراً بها وخبيراً بأمرها [2] .

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ . ومما لا يليق بصفات الباري أن يكون اللطف بمعنىٰ الدقة والغموض ، ويكون بمعنىٰ الصغر في نعوت الأجسام ، وذلك في حق ٱلله ممتنع ، فوجب المصير فيه إلىٰ التأويل ، وهو من الوجوه الآتية :

الوجه الأول : المراد لطف صنعه في تركيب أبدان الحيوانات من الأجزاء الدقيقة ، والأغشية الرقيقة ، والمنافذ الضيقة التي لا يعلمها أحد إلا ٱلله تعالىٰ .

الوجه الثاني : أنه سبحانه لطيف في الإنعام والرأفة والرحمة .

والوجه الثالث : أنه لطيف بعباده ، حيث يثني عليهم عند الطاعة ، ويأمرهم بالتوبة عند المعصية ، ولا يقطع عنهم سواد رحمته سواء كانوا مطيعين أو كانوا عصاة .

الوجه الرابع : أنه لطيف بهم حيث لا يأمرهم فوق طاقتهم ، وينعم عليهم بما هو فوق استحقاقهم .

وأما الخبير : فهو من الخبر ، وهو : العلم والتجربة والمعايشة

(1) الكشاف للزمخشري ، ج 2 ، ص 153 .
(2) الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 1 . ص 112 .

والمعرفة التامة عن وعي ودراية ، والمعنىٰ : أنه لطيف بعباده مع كونه عالماً بما هم عليه من ارتكاب المعاصي والإقدام علىٰ القبائح . وقيل (اللطيف) : أنه يلطف عن أن تدركه الأبصار وهو الخبير بكل لطيف ، فهو يدرك الأبصار ، ولا يلطف شيء عن إدراكه ، وهـٰذا وجه حسن . و(اللطيف) : الوجه فيه هو : أنه إذا قال هو لطف بدل قوله : لطيف فكأنه قال اللطيف شيء له لطف ، ففي اللطيف لطف وشيءٌ آخر ، فأراد أن يبين كثرة اللطف ، فجعله كله لطفاً . واختلفوا في اللطيف ، فقال بعضهم : المراد : العالم . وقال آخرون : بل المراد : مَنْ يكون فاعلاً للأشياء اللطيفة التي تخفىٰ كيفية عملها علىٰ أكثر الفاعلين ، ولهـٰذا يقال : إن لطف ٱلله بعباده عجيب ، ويراد به دقائق تدبيره لهم ، وفيهم ، وهـٰذا الوجه أقرب وإلا ؛ لكان ذكر الخبير بعده تكراراً [1] .

ولأنه لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فله الصفة التنزيهه تعالىٰ عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته ، فيكون الاختيار للتَّعبير عن هـٰذا الوصف في جانب ٱلله تعالىٰ هو منتهىٰ الصَّراحة والرَّشاقة في الكلمة . وهو الّذي ينبغي التَّفسير به في كلِّ موضع اقترن فيه وصف اللَّطيف بوصف الخبير كالّذي ورد هنا والَّذي ورد في سورة المُلك . وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ حمله سائر المفسِّرين والمبيِّنين لمعنىٰ اسمه اللَّطيف في عداد الأسماء الحسنىٰ . وهـٰذا المعنىٰ هو المناسب في كلِّ موضع جاء فيه وصفه تعالىٰ به مفرداً معدَّىٰ باللّام أو بالباء نحو : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ [2] . وقوله في سورة الشورىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [3] .

(1) تفسير الرازي ، ج 6 ، ص 425 .
(2) يوسف ، 100 .
(3) الشورىٰ ، 19 .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) . في هـٰذه الآية ينادي لقمان ابنه لأجل أن يعظه بالمعجزات المتضمنة في دائرة المتوقع ، وغير المتوقع بالأوزان والمقاييس التي يعرفها الإنسان ، وفي هـٰذا الأمر إظهار ما يعجز الإنسان عنه بقوة الإرادة الإلـٰهية التي هي من صفات اللطيف ذو القدرة المطلقة . و(مثقال حبة الخردل) هو الذي يقال عنه : إنَّ الحسَّ لا يدركه إن وقع علىٰ ملمسه ، وذلك لبلاغته في الخِفة الوزنية ، أو القياسية . وفي هـٰذه الآية تنويه علىٰ الأعمال الحسنة (الخيرة) والسيئة (الشريرة) ولذلك فإن ٱلله لا يغفل عن كبيرةٍ ولا صغيرةٍ مهما صغرت في السمـٰوات أو في الأرض ؛ إنه اللطيف بالعباد ، يضاعف الحسنات لمن يشاء ، ويغفر الذنوب والخطايا لمن يشاء .

واللطيف : مَن يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلىٰ من تصلح به مسلك الرفق ، فهو وصف مؤذن بالعلم ، والقُدرة الكاملين . ففي تعقيب ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ بوصفه بـ : (اللطيف) إيماء إلىٰ أنَّ التمكُّن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة ، واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من عدم اختلال نظام صُنعه . وهنا قد استوفىٰ أصول الاعتقاد الصحيح (2) .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (3) . هـٰذه الآية توطئة للآية : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ (4) . لأن ما ذكر في الآية الآتية هو أثر من آثار لطف ٱلله بعباده ،

---

(1) لقمان 16 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 11 ، ص 127 .
(3) الشورىٰ 19 .
(4) الشورىٰ 20 .

ورفقه بهم ، وما يَسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدُّنيا ، ثم ما خصَّ به المؤمنين من رزق الآخرة .

واللطيف : البَرُّ القوي البِرِّ . ويدخل في هٰذا كثير من النعم . والمعنىٰ : أنه للطفه بجميع عباده لا يترك أحداً منهم بلا رزق ، وأنه فضَّل بعضهم علىٰ بعض في الرزق جرياً علىٰ مشيئته . فاللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء ، وخفياتها ، وسرائرها ، الذي يسوق إلىٰ عبده الخير ، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفىٰ علىٰ العباد ، ومن لطفه : أنه يُري عبده عزته في انتقامه ، وكمال اقتداره ، ثم يظهر لطفه بعد أن يُشرف العبد علىٰ الهلاك [1] .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : ﴿ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ أي : يعلم غوامضَ أحوالهم . من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاةَ بقوله : ﴿ لَطِيفُۢ ﴾ لئلا ييأسوا من إحسانه . ويقال : خاطَبَ الأغنياءَ بقوله : ﴿ لَطِيفُۢ ﴾ : ليعلموا : أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراءَ . بقوله : ﴿ لَطِيفُۢ ﴾ أي : أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء . ويقال : سماعُ قوله : ﴿ ٱللَّهُ ﴾ يوجِبُ الهيبةَ والفزع ، وسماعُ ﴿ لَطِيفُۢ ﴾ يوجِبُ السكونَ والطمأنينة . فسماعُ قوله : ﴿ ٱللَّهُ ﴾ أوجب لهم تهويلاً ، وسماع قوله : ﴿ لَطِيفُۢ ﴾ أوجب لهم تأميلاً . ويقال : مَنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف ، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ : أنه لطيف . ويقال : مِنْ لُطفِه بالعبد إبهام عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادتَه ؛ لاتَّكَلَ عليه ، وأَقَلَّ عملَه . ولو عَلِمَ شقاوتَه ؛ لأيِسَ ، ولَتَرَكَ عَمَله . فأراده أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة . ويقال : من لطفه بالعبد إخفاءُ أَجَلِه عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه . ويقال : من لطفه بالعبد : أنه يُنْسِيه ما عمله في الدنيا من الزلَّة ؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة . ويقال : اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ ، وحفظ

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 544 .

علىٰ عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار [1] .

(اللطيف) العالم بدقائق الأشياء يرىٰ أثر النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . فإن قلت : ذكرُ الخبير بعد اللطيف تكرارٌ ؛ قلت . لا تكرار فيه ، إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح ، وغوامضها وما دق منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها الىٰ المستصلح علىٰ سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل ، واللطف في الإدراك ؛ تم معنىٰ اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك فىٰ العلم والفعل إلا ٱلله تعالىٰ . والله لطيف بعباده ومن لطفه بهم : أنه يوصل اليهم ما يحتاجون إليه بسهولة ، فمن قوته الرغيف ، لو تفكر فيه يعلم كم عين سهرت فيه من أول الأمر حتىٰ تم وصلح للأكل من الحارث والباذر للبذر والحاصد والدايس والمذري والطاحن والعاجن والخابز ويتشعب من ذلك الآلات التي تتوقف عليها هـٰذه الأعمال من الأخشاب والحجارة والحديد والحبال والدواب بحيث لا تكاد تنحصر .

وهـٰكذا كلُّ شيء ينعم به علىٰ عبده من مطعوم ومشروب وملبوس فيه مقدماتٌ كثيرة لو احتاج العبد إلىٰ مباشرتها بنفسه ؛ لعجز عن ذلك . ومن سنة ٱلله سبحانه حفظ كل لطيفة في طيِّ كل كثيفة كصيانة الودائع في المواضع المجهولة ألا ترىٰ : أنَّه جعل في التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر وفي الصَّدف في البحر معدن الدُّرَرِ ، وفي النحل معدن الشهد وفي الدود معدن الحرير ، وكذا جعل قلب العبد محلاً ومعدناً لمعرفته ومحبته وهو مضغة لحم فالقلب خلق لهـٰذا لا لغيره ، فعلىٰ العبد أن يطهِّره عن لوث التعلق بما سوىٰ ٱلله فإن ٱلله تعالىٰ لطف به بإيجاده ذلك القلب في جوفه [2] .

(1) تفسير القشيري ، ج 7 ، ص 177 .
(2) تفسير حقي ، ج 15 ، 456 .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [(1)] . ختم ٱلله تعالىٰ هـٰذه السورة بهـٰذا اللطف بالحثّ علىٰ التحمُّل ، ووعد بأننا إذا تحلَّينا بهـٰذه الأخلاق ؛ فإنه سيكون معنا ، وينصرنا ، ويوفقنا لِما يحبُّه ويرضاه . ادعُ يا محمد إلىٰ دين ربك بالحكمة ، والقول اللطيف ، وبالموعظة الحسنة ، وجادل من يخالفك بالتي هي أحسن ، وإن أردتم عقاب من يعتدي عليكم أيُّها المسلمون ؛ فخذوا حقكم بأن تعاقبوا بمثل ما فعل بكم ، وتأكدوا : أنكم إن صبرتم وتسامحتم ولم تقتصُّوا لانفسكم ؛ فإنه خير لكم في الدنيا والآخرة ، لما في ذلك من ضبط النفس واستجلاب القلوب . فعاقِبوا لأجل الحق ، ولا تعاقبوا لأجل أنفسكم ، أو من أجل باطل . إن ٱلله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها ، والذين يحسنون في كل شيء ، فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومع ذلك لا تستسلموا للعدوِّ ، فإن استسلمتم له قد يقدم علىٰ تشويه دينكم ، ولهـٰذا من حقكم التسامح والتصافح والتصالح ولـٰكن كل ذلك لا يكون علىٰ حساب الدين والعِرض والكرامة . نسأل ٱلله تعالىٰ أن يجعلنا من الصالحين والمصلحين في هـٰذه الأرض لِما يحبه ويرضاه ، وأن يجعلنا من الوارثين في جنة النعيم ، وأن يوفِّق امتنا إلىٰ الإحسان والتقوىٰ والاتحاد . والحمد لله رب العالمين [(2)] !

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [(3)] . هـٰذا إخبار من ٱلله بسعة علمه ، وشمول لطفه ، فقال : ﴿ وَأَسِرُّواْ

---

(1) النحل ، 125 ، 126 .
(2) تفسير القطان ، ج 2 ، ص 336 .
(3) الملك 13 - 14 .

قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾ أي : كلها سواء لديه ، لا يخفىٰ عليه منها خافية . ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي : بما فيها من النيات ، والإرادات ، فكيف بالأقوال والأفعال ، التي تُسمع وتُرىٰ ؟ ! ثم تساءل جل جلاله : ـ مستدلاً بدليل عقلي علىٰ علمه ـ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ وفي هـٰذا التساؤل ، استدل بدليل عقلي ، أي : فمن خلق الخلق ، وأتقنه وأحسنه ، كيف لا يعلمه ؟ ! إنه تساؤل استغرابي يشير إلىٰ أصحاب العقول الذين لا ينظرون إلىٰ الكيفية التي تكون عليها الخلائق ، أو التي كانت عليها ؛ حتىٰ يُدركوا : أنه الحق . ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الذي لطف علمه وخبره ، حتىٰ أدرك السرائر والضمائر ، والخبايا والخفايا والغيوب ، وهو الذي ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ . ومن معاني اللطيف : أنه الذي يلطف بعبده ووليه ، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر ، ويعصمه من الشر ، من حيث لا يحتسب ، ويرقيه إلىٰ أعلىٰ المراتب بأسباب لا تكون من (العبد) علىٰ بال ، حتىٰ إنه يذيقه المكاره ؛ ليتوصل بها إلىٰ المحابِّ الجليلة ، والمقامات النبيلة [(1)] .

وقوله تعالىٰ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فإنه سبحانه لما قدم نفىٰ إدراك الأبصار له ؛ عطف علىٰ ذلك قوله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ خطاباً للسامع بما يفهم ؛ إذ العادة : أن كلَّ لطيف لا تدركه الأبصار ألا ترىٰ : أن حاسة البصر إنما تدرك اللون من كل متلون ، والكون من كل متكون ، فإدراكها إنما هو للمركبات دون المفردات ولذلك لما قال : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ عطف عليه قوله ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ مخصصاً لذاته سبحانه بصفة الكمال ؛ لأنه ليس كل من أدرك شيئاً كان خبيراً بذلك الشيء ؛ لأن المدرك للشيء قد يدركه ليخبره ، ولما كان الأمر أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه يدرك كل شيء مع الخبرة به ، وإنما خص الإبصار بإدراكه ليزيد في الكلام

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 867 ـ 877 .

ضرباً من المحاسن يسمىٰ التعطف ، ولو كان الكلام لا تبصره الأبصار وهو يبصــر الأبصــار ؛ لــم تكــن لفظتــا : اللطيــف ، الخبيــر مناسبتيــن قبــل لما قبلهما [1] .

وقوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ دَلَّتْ عَلَىٰ عِلْمِهِ بِالأَشْيَاءِ مِنْ وُجُوهٍ تَضَمَّنَتْ الْبَرَاهِينَ لأَهْلِ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ وهٰذه الوجوه هي :

الأول : أَنَّهُ خَالِقٌ لَهَا ، وَالْخَلْقُ هُوَ الإِبْدَاعُ بِتَقْدِيرٍ فَتَضَمَّنَ تَقْدِيرُهَا فِي الْعِلْمِ قَبْلَ تَكْوِينِهَا . الثاني : أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ للإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ ؛ فَيَلْزَمُ تَصَوُّرُ الْمُرَادِ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ .

الثالث : أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْهُ وَهُوَ سَبَبُهَا التَّامُّ ، وَالْعِلْمُ بِالأَصْلِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِالْفَرْعِ ، فَعِلْمُهُ بِنَفْسِهِ يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ لَطِيفٌ يُدْرِكُ الدَّقِيقَ خَبِيرٌ يُدْرِكُ الْخَفِيَّ ، وَهَذَا هُوَ الْمُقْتَضِي لِلْعِلْمِ بِالأَشْيَاءِ فَيَجِبُ وُجُودُ الْمُقْتَضِي لِوُجُودِ السَّبَبِ التَّامِّ [2] .

فَالأَعْرَابُ أَهْلٌ لِلنَّظَرِ عَلَىٰ طَرِيقِ الْعَامَّةِ ، كَمَا قَالَ الأَصْمَعِيُّ لأَعْرَابِيٍّ : بِمَ عَرَفْت رَبَّك ؟ فَقَالَ : الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ الْبَعِيرِ ، وَأَثَرُ الأَقْدَام عَلَىٰ السَّيْرِ ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ وَبُحُورٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ أَلَا تَدُلُّ عَلَىٰ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ ؟ [3] .

اللطيف : هو متىٰ أعطاك ؛ أشهدك بره ، ومتىٰ منعك ، أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك . قلت من أسمائه تعالىٰ اللطيف والرحيم فهو تعالىٰ لطيف بعباده رحيم بخلقه في كل وقت وعلىٰ

---

(1) البرهان ، ج 1 ، ص 80 ، 81 .
(2) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية ، ج 3 ، ص 403 .
(3) شرح النيل وشفاء العليل ، ج 35 ، ص 64 .

كل حال ، سواء أعطاهم أو منعهم ، وسواء بسطهم أو قبضهم ، فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم بره وإحسانه ، فعرفوا : أنه سبحانه بارٌّ بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد محسن ، فتعظم محبتهم فيه ، ويكثر شوقهم ، واشتياقهم إليه ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم . وفي هـٰذا مالا مزيد عليه من البر والإحسان والجود والامتنان . وإن منعهم أو قبضهم أشهدهم قهره ، وكبرياءه ، فعلموا : أنه تعالىٰ قهار كبير عظيم جليل فخافوا من سطوته ، وذابوا من خشيته ، وخضعوا تحت قهره ، فدامت عبادتهم وقلَّت ذنوبهم ، ومحيت مساويهم ، واضمحلت خطيئتهم ، فوردوا يوم القيامة خفافاً مطهرين فرحين مبهجين ؛ إذ لا يجمع ٱلله علىٰ عبده خوفين ، ولا أمنين فمن أخافه في الدنيا آمنه يوم القيامة ، ومن آمنه في الدنيا فاغتر أخافه يوم القيمة كما في الحديث ، فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء فإنه متىٰ أعطاك ؛ أشهدك بره ورحمته وكرمه فعرفت بذلك : أنه بر كريم رؤوف رحيم ، فتتعلق بكرمه ، وجوده دون غيره ، فتتحرر من رق الطمع ، ويذهب عنك الغمُّ ، والجزع ، وتتخلَّق أيضاً بوصف الكرم والرحمة والإحسان فإن ٱلله يحب أن يتخلق عبده بخلقه وفي الحديث : « تخلقوا بأخلاق الرحمـٰن » . وقالت عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ كان خلق رسول ٱلله ﷺ القرآن . والقرآن فيه أوصاف الرحمـٰن ، فكأنها قالت كان خلقه خلق الرحمـٰن [1] .

إن الذين يتخلَّقون بأخلاق القرآن هم المؤمنون حقّاً الذين قال فيهم عز وجل : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [2] . الضمير عائد علىٰ نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين آمنوا معه ، وهم

(1) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم ، ج 1 ، ص 110 .
(2) يونس 73 ، 74 .

(الخلائف) وفي هـٰذه الآية الكريمة جاء استثناء الجزء من الكل ، فالكل في الأصل هم الذين يراد لهم أن يكونوا خلائف ليرثوا الأرض ، ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء فيها بغير حق ، وجاء الاستثناء من الاستخلاف للذين كذبوا وهم المفسدون ، وسافكو الدماء فيها بغير حق ، ولذا هم الذين كانت لهم العاقبة الكبرىٰ بأسباب إنذارهم من قبل الرُّسُل وكفرهم بما نُذروا به ، فحق عليهم القول فدُمِّروا بالغرق تدميراً ، وهـٰكذا يتجدَّد التدمير للذين يفسدون ، ويسفكون الدماء فيها بغير حق .

والآية الكبرىٰ من هـٰذه الآية : إن الذين آمنوا بماء جاءهم به الرُسُل والأنبياء بقوا علىٰ الأرض مستخلفين فيها بالحق ، وهـٰذا لطف من اللطيف الخبير الذي بيده كل الخير .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ المقصود من بعد نوح عليه الصلاة والسلام ، وهم : هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم . ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فجاؤوا بالبينات الواضحات التي لا لبس ولا غموض ولا شك فيها ، إنها اليقين من اللطيف الحكيم . ومع ذلك لقد تمَّ تكذيب الذين أتوا من بعده بالمعجزات نبأ ، أو رسالةً من اللطيف المطلق .

﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي : نثبت ، ونختم علىٰ قلوب المجاوزين بكفرهم حدود الاستخلاف في الأرض .

فَهَّمَنا ٱلله وإياكم مواقع خطابه ، وجعلنا ممن تأدَّب بما عرفناه من آدابه إنه اللطيف بأحبابه !

من التحلِّي باللطف كصفةٍ من الصفات التي تنشر الرحمة والمودة وتكون مدخلاً إلىٰ الإسلام ما فعله النبي ﷺ مع أحد الذين تطاولوا عليه ؛ ليتأكد من لطف أخلاقه وصبره وحلمه ﷺ ، ولما أكَّد النبي ﷺ بالدليل العملي ما كان

يصبو إليه المختبر ؛ دخل الرجل الإسلام ، وأصبح هـٰذا الموقف من المواقف التي يتعلَّم منها الناس جميعاً اللطف في المعاملة ، واللطف الذي نعنيه يشمل الصبر علىٰ الأذىٰ والحلم عند الغضب والعفو عن المسيء عند المقدرة ، فعن عبد الله بن سلام ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « إن ٱلله تبارك وتعالىٰ لما أراد هدي زيد بن سَعْنَةَ ، قال زيد بن سَعْنَة : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا شيئين لم أخبرهما منه : هل يسبق (حلمه جهله ، ولا يزيده شدَّة الجهل عليه إلا حلماً) ، فكنت ألطف به لئن أخالطه فأعرف حلمه من جهله ، قال زيد بن سَعْنَة فخرج رسول ٱلله ﷺ يوماً من الحجرات ، ومعه عليُّ بن أبي طالب ، رضي ٱلله عنه ، فأتاه رجل علىٰ راحلته ، فقال : يا رسول ٱلله إن بصرىٰ قرية بني فلان قد أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وكنتَ حدَّثتهم إن أسلموا آتاهم الرزق رغداً ، وقد أصابتهم سنةٌ ، وشدَّةٌ ، وقحوطٌ من الغيث ، فأنا أخشىٰ يا رسول ٱلله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت ، فنظر إليَّ رجل وإلىٰ جانبه ، أراه عليّاً ، رضي ٱلله عنه ، فقال : يا رسول ٱلله ! ما بقي منه شيء ، قال زيد بن سَعْنَة : فدنوت إليه ، فقلت : يا محمد هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلىٰ أجل كذا ، وكذا ! فقال : (لا يا يهودي ، ولـٰكن أبيعك تمراً معلوماً إلىٰ أجل معلوم ، ولا أسمي حائط بني فلان) فقلت : نعم ، فبايعني ، فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمرٍ معلوم إلىٰ أجل كذا وكذا فأعطاها الرَّجل ، فقال : اعدل عليهم ، وأعنهم بها ، فقال زيد بن سَعْنَة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين ، أو ثلاثة ؛ أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، فقلت له : ألا تقضيني يا محمد حقي ، فو ٱلله ما علمتكم يا بني عبد المطلب لَسَيِّئي القضاء مطل ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم ! ونظرت إلىٰ عمر ، فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره ، فقال : يا عدو ٱلله أتقول لرسول ٱلله ﷺ ما أسمع ، وتصنع به ما أرىٰ ؟! فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته ؛

لضربت بسيفي رأسك ! ورسول ٱلله ﷺ ينظر إلىٰ عمر في سكونٍ ، وتؤدةٍ ، وتبُّسمٍ ، ثم قال : « يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلىٰ غير هـٰذا : أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه ! اذهب به يا عمر فأعطه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمرٍ » فقلت : ما هـٰذه الزيادة يا عمر ! قال : أمرني رسول ٱلله ﷺ أن أزيدك مكان ما نقمتك . قلت : أتعرفني يا عمر ؟! قال : لا ، فقال : من أنت ؟ قلت : زيد بن سَعْنَة ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر ، قال : فما دعاك أن فعلت برسول ٱلله ﷺ ما فعلت ، وقلت له ما قلت ؟ قلت له : يا عمر ! لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول ٱلله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : (هل يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدَّة الجهل عليه إلا حلماً) فقد اختبرتهما ، فأشهدك يا عمر ! أني قد رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ! وأشهدك : أنَّ شطر مالي ـ فإني أكثرهم مالاً ـ صدقة علىٰ أمة محمد ﷺ ! فقال عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : أو علىٰ بعضهم ، فإنك لا تسعهم . قلت : أو علىٰ بعضهم ، فرجع زيد إلىٰ رسول ٱلله ﷺ ، فقال زيد : أشهد أنَّ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفي زيد في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر ورحم ٱلله زيداً ! »[1] . فاللطف في المعاملة وحلم الأخلاق حوَّلا الكافر إلىٰ مؤمن أوقف نصف ماله علىٰ الأمة التي انتسب إليها ، وقد أسلم زيد ، وحسن إسلامه ، ونال شرف الشهادة في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر كما تروي كتب السيرة .

وهـٰذا السلوك النبويُّ مردُّه إلىٰ القرآن الكريم ؛ حيث يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[2] فمن شدة اللطف لا يقابل الإساءة

(1) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 15 ، ص 211
(2) الشورىٰ ، 37 .

بمثلها ولا ينسيه الغضب التحلي باللطف والصفح والحلم والبر ، ولهـٰذا نبّه النبي ﷺ علىٰ ضرورة البعد عن الغضب في الوصية الموجزة التي أوصىٰ من جاء يطلب الوصية والنصيحة . فعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ : أَنَّ رَجُلاً أَتَىٰ إِلَىٰ رسول الله ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ أَعِيشُ بِهِنَّ وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ ، فَأَنْسَىٰ . فَقَالَ رسول الله ﷺ : « لا تَغْضَبْ » (1) .

ومن اللطف كظم الغيظ والعفو عن الناس قريبهم وبعيدهم وهما من صفات التقوىٰ والإحسان ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ بكظم الغيظ ، والسكوت عليه ، وعدم ظهوره لا بقول ولا بفعل ، والكاظمين الغيظ هم الذين يكفون غيظهم عن الانتقام لأنفسهم ، ويردون غيظهم في أجوافهم ، وهـٰذا اللطف من الصبر والحلم ، وهو كقوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ فبلطف الأخلاق يسيطر الخليفة علىٰ غضبه ، ويطفئ بلطفه نار ثورته ، كما قال النبي ﷺ : « من كظم غيظاً وهو يقدر علىٰ إنفاذه ؛ ملأ ٱلله قلبه أمناً ، وإيماناً » (3) .

فمن اللطف كظم الغيظ ، والعفو ، والتحكم في النفس ، لذا فمن يحكم نفسه أحسن من الذي يحكم مدينة . وهنا يكون المؤمن سيداً ملكاً متوجاً بخلق رحماني ، لا يتطلب إلا اللطف واللين والبر والرفق ، وكلها مندرجة في (اللطيف) اسماً لله وصفة في المتخلّق بأسماء ٱلله .

قال الشاعر :

إنَّ اللَّطيف من الأسماء معلوم ولطفه ظاهرٌ في الخلق موسوم

---

(1) المنتقىٰ ـ شرح الموطأ ، ج 4 ، ص 295

(2) آل عمران134 .

(3) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج 2 ، ص 193

هــو اللَّطيــف فمــا يبــدو لنــاظــرنــا وكيــف يــدرك لطـف الــذات معــدوم
لطـف اللَّطيــف بنــا نعــت لــه ولنــا فــاللُّطـف فـي عينـه عليـه محكـوم [1]

فالله اللطيف لا يدرك ، ولا يضرب له المثل ، ولا يجادل فيه لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

واللطيف هو الكريم وقد جاء هـٰذا المعنىٰ بلفظ رائق رائع مريح للنفس مع أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فكان سيدنا إبراهيم من أكرم البشر حتىٰ أطلق عليه أبو الضيفان . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [3] .

فلأن ٱلله كان حفيا بسيدنا إبراهيم فقد تعامل مع أبيه أو عمه علىٰ حسب التفاسير بلطف وكرم فقال له : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ . لماذا ؟ لأنه قد تعلم الكرم من الكريم ، واللطف من اللطيف جلَّ جلاله .

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ أمان لك مني ، ولن أعاودك فيما كرهت ، وسأطلب لك المغفرة من ربي . وهـٰذا من لطف سيدنا إبراهيم في الدعوة إلىٰ ٱلله ، ويؤكد : أنَّ ٱلله لطيفٌ بر كريمٌ . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ لطيفاً بي مكرماً لي يجيبني لما أدعوه له .

وكما أنَّ السلام فيه السلامة من الأذىٰ ومن كل مكروه فـ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ تعني : سلمت مني لا أصيبك بمكروه ، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله علىٰ كفره ، وهـٰذا سلام هجران ، ومفارقة ، وسلام بر ولطف ، وهو جواب الحليم للسفيه . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [4] ،

(1) الفتوحات المكية ، ج 4 ، ص 147 .
(2) النحل ، 74 .
(3) مريم 47 .
(4) الفرقان 63 .

وقوله تعالىٰ : ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وفي هـٰذا القول الحق ملاطفة في المعنىٰ والدلالة ، وذلك لوثوقه من وجوب خفض جناح الذل من الرحمة ، وطلب المغفرة للجاهل ؛ لأجل أن يتوب ويهتدي للحق ، ولذا لا يكون الإستغفار إلا من خليفة مؤمن بالله واحداً أحداً . وفي هـٰذا الأمر يتضح لطف الخليفة في المعاملة الحسنة ، وذلك بأسباب استمداده للصفات الحسان من اللطيف المطلق جل جلاله .

ومن مظاهر التحلِّي باللطف كخلقٍ راقٍ أن يكون الكلام لين مع الجميع ، لا فحش فيه ، ولا شدَّة ، ولا نهر وهـٰذا يستمد بالطبع من القرآن الكريم والهدي المحمدي ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [1] وهـٰذا حالهم في المُعاملة مع غيرِهم فإذا خاطبُوهم بالسُّوءِ ؛ قالوا سلاماً لا خيرَ بيننا وبينكمُ ، ولا شرَّ . وهـٰذا اللين في القولِ يسلمُون به من الأذيَّةِ والإثمِ ، وحثَّ علىٰ اللطف مع الجاهلين بحقيقة الأشياء ، فالكلام الطيب اللطيف من أعظم الأشياء التي ترضي ٱلله والعباد ؛ لأن اللطف في الكلام يؤلف القلوب ، ويريح النفوس ، ويدخل الطمأنينة ، ويجمع الشتات من الناس ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [2] . وقوله عز وجل : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ فبرحمة من ٱلله لنت لهم ، وبحسن أخلاقك وكثرة احتمالك وعدم التسرع بتعنيفهم . وهـٰذا اللطف توفيق ٱلله عز وجل لنبيه محمداً ﷺ للرفق والتلطف بهم ، وإن ٱلله تعالىٰ ألقىٰ في قلب نبيه ﷺ الرحمة واللطف حتىٰ فعل ذلك معهم . ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ جافياً .

(1) الفرقان 63 .
(2) آل عمران ، 159 .

﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قاسي القلب ، قليل الاحتمال . ﴿ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ لنفروا عنك وتفرقوا حتىٰ لا يبقىٰ منهم أحد عندك . ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ تجاوز عن زلاتهم . ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ واسأل ٱلله المغفرة لهم . وهـٰذا كله لطف من اللطيف الخبير ، عزَّ وجلَّ .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ ٱللهِ إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ . فَقَالَ : « كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ » . قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ ٱللهِ أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ . قَالَ ﷺ : « أَفْشِ السَّلاَمَ . وَأَطْعِمْ الطَّعَامَ ، وَصِلِ الأَرْحَامَ ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » [1] .

ومن اللطف إطعام الطعام ؛ لأنه من أعظم القربات عند ٱلله أن يطعم الإنسان أخاه الإنسان خبزاً ، أو يدخل السرور إلىٰ قلبه بحاجة يقضيها ، أو دين يدفعه عنه ، وبأسباب لطفه نعود للطعام ؛ لأن فيه بذل القوت الذي هو أساس الحياة ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [2] ففي الآية جمع لمن يستحقون الطعام من مساكين وأيتام وأسرىٰ وهـٰؤلاء يغلُّ عنهم كثير من الناس إلا من رحم ربي ، ووضع في قلبه اللطف والشفقة والرحمة ، وليس ذلك فحسب بل ببذل الطعام مع الاحتياج إليه ، وهـٰذا قمة البذل والعطاء ، وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [3] وتوضح الآية أنواعاً من البر واللطف بشكل

(1) مسند أحمد ، ج 16 ، ص 132 .
(2) الإنسان ، 8 .
(3) البقرة ، 177 .

أوسع ، وما في الآية من صفات للمحسنين الذين تخلقوا بأخلاق النبي ﷺ الذي تخلق بخلق القرآن الكريم ، ولأن الخلق الطيب لا يكون إلا من مصدر لطيف طيب ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ : أَنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ ، أَيُّ الْكَلاَمِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ ﷺ : « مَا اصْطَفَىٰ ٱللهُ لِملاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ »(1) فبذكر ٱلله تلين القلوب ، وتطمئن ، ويطيب الكلام ، وينتشر السلام ، وتعمُّ الرحمة بواسع لطفه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(2) .

وهـٰؤلاء هم المؤمنون الذين تخلَّقوا بخلق القرآن وبهدي الحبيب ﷺ الذين يطمئنون بذكر ٱلله قولاً وعملاً ويريحون غيرهم بلطفهم وبرِّهم وهـم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(3) .

وهـٰذا نزر يسير من ألطاف ٱلله اللطيف ، ومن الأخلاق التي يتحلىٰ بها الخليفة من موادعةٍ ، ورقةٍ ، ومودةٍ ، ومحبةٍ ، ولينٍ ، ورفقٍ ، وسلامٍ ، وكلها تستمد من اسم ٱلله (اللطيف) .

اللهُمَّ إنك اللطيف بودِّك وعفوك ورحمتك فاعفُ عنا ، وارحمنا بلطفك وودّك ! اللهُمَّ إننا نعلم يقينا إنك تعذب من تشاء ، وتعفو عمَّن وترحم مَنْ تشاء ، وتحاسب وتعاقب من تشاء ؛ اللهُمَّ اجعلنا من عبادك الذين أنت بهم لطيف ، ولا تجعلنا من المعذبين في النار يا اللطيف يا القهار يا عالم الأخبار

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 266 .
(2) آل عمران ، 190 ، 191 .
(3) الرعد ، 28 .

والأسرار ! سبحانك ما أعظم شأنك لطيف بالجنين في بطن أمه ترزقه من أحشائها ، ولطيف به رضيع تغذيه من لبنها ، ولطيف بشبابه تمدُّه برزق وقوة من رزقك وقوتك ، ولطيف بعجزه تمدُّه بالرعاية والعناية من غير ما يحتسب . اللهُمَّ الطف بنا وبأبنائنا وأزواجنا رعايةً وعنايةً تامةً ورزقاً حلالاً ! اللهُمَّ إنك اللطيف تعلم ما تخفي صدورنا وما تبديه وتعلم مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ فالطف بحالنا وأحوالنا وارزقنا وارحمنا إنك عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ! سبحانك يا من لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . اللهُمَّ يا اللطيف اجعلنا من الذين يقيمون الصَّلاَةَ وَيأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَينهون عَنِ الْمُنْكَرِ واجعلنا من الصابرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه !

الخَبِير جلّ جلاله

اسم ٱلله تعالىٰ (الخبير) يأتي بمعنىٰ العليم ، لـٰكن العلم إذا أضيف إلىٰ الخفايا الباطنة ؛ سمي خبرة ، وسمي صاحبها : خبيراً [1] .

الخَبِيرُ من أَسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو العالم بما كان ، وما يكون ، وخَبُرْتُ بالأَمر ، أَي : علمته ، وخَبَرْتُ الأَمرَ ، أَخْبُرُهُ : إذا عرفته علىٰ حقيقته . وقوله تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [2] أَي : اسأَل عنه خبيراً يَخْبُرُ ؛ والخَبَرُ ما أَتاك من نَبإٍ عمن تَسْتَخْبِرُ ، والجمع : أَخْبَارٌ ، وأَخابِير جمع الجمع . فأَما قوله تعالىٰ في سورة الزلزلة : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فمعناه : يوم تزلزل تُخْبِرُ بما عُمِلَ عليها . وخَبَّرَه بكذا ، وأَخْبَرَه : نَبَّأَهُ . واسْتَخْبَرَه : سأَله عن الخَبَرِ ، وطلب أَن يُخْبِرَهُ . والاسْتِخْبارُ ، والتَّخَبُّرُ : السؤال عن الخَبَر ، وفي حديث الحديبية : أَنه بعث عَيْناً من خُزَاعَةَ يَتَخَبَّر له خَبَرَ قريش ؛ أَي : يَتَعَرَّفُ . يقال : تَخَبَّرَ الخَبَرَ ، واسْتَخْبَر : إذا سأَل عن الأَخبَارِ ؛ ليعرفها . والخابِرُ : المُخْتَبِرُ ، المُجَرِّبُ . ورجل خابر ، وخَبِير : عالم بالخَبَرِ . والخَبِيرُ : المُخْبِرُ وقال أَبو حنيفة في وصف شجر : أَخْبَرَني بذلك الخَبِرُ . فجاء به علىٰ مثال فَعِلٍ . قال ابن سيده وهـٰذا لا يكاد يعرف إلاَّ أَن يكون علىٰ النسب . وأَخْبَرَهُ خُبُورَهُ : أَنْبأَهُ ما عنده ،

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ص 93 .

(2) الفرقان 59 .

وحكي اللحياني عن الكسائي : ما يُدْرَىٰ له أَيْنَ خَبَرٌ وما يُدُرَىٰ له ما خَبَرٌ . أَي : ما يدرىٰ ، وأَين : صلة ، وما : صلة . والمَخْبَرُ : خلاف المَنْظَرِ ، وكذلك المَخْبَرَةُ ، والمَخْبُرَةُ بضم الباء ، وهو نقيض المَرْآىٰ . والخِبْرُ ، والخُبْرُ ، والخِبْرَةُ ، والخُبْرَةُ ، والمَخْبَرَةُ ، والمَخْبُرَةُ كلُّه العِلْمُ بالشيء . تقول : لي به خِبْرٌ . وقد خَبَرَهُ يَخْبُره خُبْراً ، وخُبْرَةً ، وخِبْراً . واخْتَبَره ، وتَخَبَّرهُ . يقال : من أَين خَبَرْتَ هـٰذا الأَمر ؟ أَي : من أَين علمت ؟ وقولهم : لأَخْبُرَنَّ خُبْرَكَ ؛ أَي : لأَعْلَمَنَّ عِلْمَك . يقال : صَدَّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ . وأَما قول أَبي الدرداء : وجدتُ الناسَ اخْبُرْ تَقْلَه ؛ فيريد : أَنك إِذا خَبَرْتَهُم ؛ قليتهم فأَخرج الكلام علىٰ لفظ الأَمر ، ومعناه : الخَبَرُ ، والخُبْرُ مَخْبُرَةُ الإِنسان ، والخِبْرَةُ : الاختبارُ ، وخَبَرْتُ الرجل أَخْبُرُه خُبْرَاً ، وخُبْرَةً ، والخِبْيرُ : العالم . قال المنذري : سمعت ثعلباً يقول في قوله كَفَىٰ قَوْماً بِصاحِبِهمْ خَبِيراً ، فقال : هـٰذا مقلوب ، إِنَّما ينبغي أَن يقول كفىٰ قوماً بصاحبهم خُبْراً (1) .

الخبير من الأسماء الحاصلة بسبب العلم : قال تعالىٰ : في حقِّ الملائكة : ﴿ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ .

واعلم : أنه لا يجوز أن يقال : إن ٱلله معلم ؛ لأن لفظ المعلم مشعر بنوع نقيصة ، ولا يجوز إطلاق لفظ العلامة علىٰ ٱلله تعالىٰ ؛ لأنها وإن أفادت المبالغة ؛ لـٰكنها تفيد : أن هـٰذه المبالغة إنما حصلت بالكدِّ ، والعناء ، وذلك في حق ٱلله تعالىٰ محال .

ولفظ الخبر والخبرة ، كالمرادف للعلم ، حتىٰ قال بعضهم في حدِّ العلم : إنه الخبر .

الاسم الخبير ذو صلة بأسماء إلـٰهية أخرىٰ مثل : البصير ، والحكيم ،

---

(1) لسان العرب المحيط ، ج 4 ، ص 226 .

والعليم ، واللطيف . وعادة ما تأتىٰ هـٰذه الأسماء قبل الاسم الخبير وهـٰذا ما ورد في عموم القرآن الكريم إذا كان الاسم معرفاً بـ : (أل) ، وقد ورد الاسم نكرة ، بلفظ (خبير) لتوضيح مدلول (الرحمـٰن) .

وقد جاء اسم الخبير وصفة خبير لكلٍّ منهما دلالة ، أما الاسم فقد جاء في ستِّ آيات ؛ والصفة جاءت اثنتا عشرة مرةً [1] .

الاسم بصيغة المعرفة :

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [2] .

جاء الاسم هنا مع الاسم القاهر والحكيم ، وهو بمثابة الوسيلة الناجعة في السيطرة علىٰ العباد بحكمة تتممها الخبرة حتىٰ لا يكون القهر مسرفاً فيؤذي العباد ويضرُّ بهم ، و في الآية إشارة للإنسان الذي استخلفه ٱلله حتىٰ يمارس القهر ، والغلبة بحكمة وخبرة مع من يريد أن يقهر الآخرين ، أو يلحقهم بضرر ، وذلك من أجل ألا تفسد الأرض محلَّ الخلافة التي وهبها ٱلله للإنسان .

فالخبير هو مالك المعرفة التامة والمطلقة التي بها لا يمكن أن تحدث الأخطاء كما هو حال البشر الذين لم يبلغوا صور الكمال ، ولن يبلغوه ، ولهـٰذا جاء الاستخلاف للإنسان الذي يُدرك الحقَّ ويتبعه .

وعليه فالقاهر فوق عباده هو الخبير بحكمته ، التي بها يحقق المغالبة قهراً . وقهراً تدل علىٰ حدوث الفعل بالقوة التي لا تواجهها قوةٌ ولو اجتمعت .

وبناء علىٰ ذلك كلما امتلك الإنسان الخبرة بوعيٍ ودرايةٍ ومارسها

(1) لسان العرب ، ج 4 ، ص 226 .
(2) الأنعام ، 18 .

بحكمةٍ ؛ تغلَّب وتفوَّقَ علىٰ خصمه من الذين لا خبرة لهم ، وخبرة الإنسان تُستمد من خبرته بالخبير الحكيم الذي استخلفه في الأرض ، من خلال إلمامه بما أنزل من الآيات والذكر الحكيم . ولهٰذا لا قهر إلا بقوة ، ولا قوة إلا من حكيم خبير .

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) .

والله يذكِّر الإنسان : أنه سبحانه الذي خلق الكون من أرض وسماء بالحق أي : بحكمة ، وله الأمر المطلق يوم النفخ ، وهو يعلم غيب الإنسان وشهادته ؛ لأن ٱلله ليس عنده غيب ، ولٰكن الغيب عند الإنسان ، وعند الملائكة ، وما خلق وذرأ وبرأ في عالمه المرئي ، وغير المرئي ،

والغيب أنواع ثلاثة :

غيب جزئي :

يعلمه من الخلق العاقل فعلىٰ سبيل المثال : قد يعلم الإنسان شيء لا يعلمه غيره من البشر مثل كم يملك ومتىٰ نام ومتىٰ استيقظ وماذا ينوي أن يعمل غداً ، وهٰذا شهادة عند صاحب هٰذه الأشياء ، وغيب عند آخرين ، ومع ذلك قد لا يبلغ اليوم الغد الذي ينوي أن يعمل فيه الشيء الذي قد أضمره في نفسه ، بأسباب علم الغيب المطلق .

والجزء هو المختزل في الكل ، والمحتوىٰ علىٰ المتجزئ والمختزل له ، فكلمة رجل ، تختزل كل الرجال فيها ، وهيٰ جزء من كلمة إنسان . وكلمة عصفور ، تتكون من كل العصافير المتجزئة من كلمة طير ، وبمختلف أنواع

(1) الأنعام ، 73 .

العصافير وأشكالها وألوانها ، وأماكن تواجدها ، ولذلك فهناك من ينتقل في تحليله من الكل إلىٰ الجزء ، وهناك من ينتقل من الجزء إلىٰ الكل . فهـٰذه طرق وأساليب لا ينبغي قولبتها ، بل يفضل أن تكون المرونة في استعمالاتها ، ولهـٰذا : لا جزء إلا من كل . فجسم الإنسان كوحدة واحدة كلي ، وأطرافه جزء منه ، والفؤاد كذلك ، والقلب جزء من الفؤاد ، والبطين جزء من القلب . والإنسان كفرد ، جزء من الجماعة ، والجماعة جزء من المجتمع ، والمجتمع جزء من الأمة ، والأمة جزء من البشرية علىٰ مستوىٰ المعمورة ، وهـٰكذا تتجزأ الأشياء زيادةً ، أو نقصاناً من الكل أو إليه .

غيب متجزئ : الغيب المتجزئ ، هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الخبراء ، وهم الذين يعلمون بالكيفية التي يمكن أن تكون عليها الأشياء ، أو المخلوقات ، ولهـٰذا يتساءل ٱلله الخبير المطلق بقوله تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [1] .

في هـٰذه الآية الكريمة لم يأت التساؤل عن الإبل ، بل جاء التساؤل عن الكيفية التي بها خلقت ، أو التي عليها خُلقت ، ولذا فالإبل وجودها إثبات للمشاهد ، أما الكيفية التي خلقت عليها ؛ فلا يتمكَّن من إدراكها إلا الخبراء في تتبع المعلومة ، وتقصِّيها ، أي : إنهم هم الذين لا تقتصر معارفهم علىٰ المشاهد فقط ، بل هم الذين يمتدون في تفكيرهم وبصائرهم إلىٰ معرفة المجرد الذي لا يُدرك إلا عقلاً ويقيناً (الكيفية التي خلقت عليها أو بها الإبل والكيفية التي رفعت السماء بها ونصبت الجبال وسطحت الأرض) . هـٰذه المعرفة هي التي تُسمىٰ معرفة الخبير ، التي لا تُدرك من غيره ، والمستخلفون في الأرض هم الذين يدركون بها يقيناً لا ظنَّ فيه .

---

(1) الغاشية ، 17ـ21 .

والمتجزئ هو المختزل في الجزء ، والمتكون من المحتوىٰ الذي يتضمنه ، ويميزه عن غيره ، فكلمة حسين كاسم هي متجزئ من الأسماء ، وتشتمل علىٰ كل الذين أسمهم حسين ، ولـٰكن أيُّ حُسين أعني ؟ هـٰذا الأمر يستوجب تمييزه عن غيره وإلا لن تكتمل المعرفة أو المتعرف عليه دون غيره ممَّن يندرجون تحت هـٰذا الاسم ، ممَّا يجعل اسم الأب مميزاً في بعض الأحيان ، واسم الأم ، أو اللقب ، والديانة ، والجنسية ، والمهنة ، والمرحلة العمرية ، وعلاقته بالحالة المدروسة . وكذلك كلمة فلاح وصياد وطالب وأستاذ ، هـٰذه صفات تتوحد في المهنة أو الحرفة ، وتتجزأ من حيث العمر ، والدور الذي تقوم به ، وكذلك اللغة التي تتكلمها والديانة التي فيها تعتقد والأمة التي تنتمي إليها .

وعليه ينبغي أن لا يغفل التحليل العلمي عن تتبع التداخل ، والترابط بين الجزء ، والمتجزئ ، والكل مع مراعاة ما يتداخل بينها من متغيرات . ولهـٰذا يحدث الاختلاف مع بعض من المعتزلة ؛ الذين انقسموا علىٰ طائفتين : الأولىٰ التي حاولت بالبحث الجدلي إثبات الجزء الذي لا يتجزأ ، وكان علىٰ رأسها أبو الهذيل . والثانية تقول بأن الجزء يتجزأ إلىٰ مالا نهاية ، وعلىٰ رأسها أتباع إبراهيم بن سيار النظام .

وبناء علىٰ ذلك أتساءل : كيف تقبل الطائفتان : أن لكل بداية نهاية ، ولا تقبل بنهاية المتجزئ منه ؟ وكيف تقبل بأن الكل ينقسم إلىٰ أجزاء ، ولا تقبل بان الجزء يتجزأ إلىٰ أجزاء متناهية . فإذا قطع متسابق مسافة كيلو متر علىٰ مضمار كرة القدم ، فتكون هـٰذه المسافة كلية ، وبما أنها كلية ، ألا يكون لها أجزاء تقبل القسمة إليها ، وهي الأمتار ؟ وفىٰ ذات الوقت ألا يكون لهـٰذه الأجزاء جزئيات تقبل القسمة إليها ، وهي السنتيمترات ؟ وهـٰكذا ينقسم الكل إلىٰ الجزء وإلىٰ المتجزئ الذي يُمكن مشاهدته أو ملاحظته وإدراكه والتعرف عليه سواء بالعين المجردة ، أو بوسائل تقنية .

وعليه مَنْ تقتصر معرفته ، أو إيمانه علىٰ الجزء أو المتجزئ المشاهد فقط حتىٰ يصدر أحكامه بأنه الحق في ذاته فهو قاصر عن الخبرة ، ولهـٰذا لن يوصف بالخبير ، فالذي يوصف بالخبير هو من يستمدُّ خبرته ممَّا أعلمه الخبير المطلق به .

غيب كلي :

والكلُّ هو المشتمل علىٰ كل جزء ، ومتجزئ في دائرة النسبية ، والممكن المتوقع ، وغير المتوقع . فالإنسان كمفهوم كلِّيٍّ يختزل كل البشر من حيث المضمون والجوهر ، وهـٰكذا كلمة الطير تختزل كلَّ الطيور ، ومثلها كلمة النبات تختزل كل النباتات بجميع أنواعها وأشكالها ، ومثلها أيضاً الحيوان . فأيُّ إنسان أعني ؟ الرجال أم النساء أم الشيوخ أم الأطفال ، أم ماذا أعني ؟ . وأي طير أعني ؟ هل أعني بذلك الحمام ، أم الصقور ، أم الغربان أم ماذا ؟ وأي نبات أعني ؟ وأي حيوان أعني ؟

وعليه فالكلُّ احتوائي يحمل في مكوناته الجزء والمتجزئ منه . ولهـٰذا فهو شمولي يُطلق علىٰ كل من يشتركون في النوع والصنف ، أو الصفات والخصائص والمهن والحرف . وقد يكون الشكل كليٌّ عندما يستقل عن غيره ، وقد يكون جزْءاً عندما يُقارن أو يرتبط بغيره ممن تربطه به علاقات في الكم ، أو الكيف . فالشكل الرباعي الذي مساحته علىٰ سبيل المثال تساوىٰ افتراضاً (400) متر مربع ، يكون طول ضلعه (20) متراً . ولذلك فالمربع ككل يتجزأ إلىٰ أربعة أجزاء ، وكل جزء يتجزأ إلىٰ (20) متراً ، ولهـٰذا ينقسم الكل إلىٰ أجزاء ، والأجزاء تنقسم إلىٰ متجزئات ، وهـٰكذا إلىٰ النهاية . فعندما تُقطع مسافة (500) متر عدواً ، قد يُنظر إلىٰ هـٰذه المسافة بمنظور كلي ، ولـٰكن إذا ما قارنا هـٰذه المسافة بمسافة (1000) متر تصبح تلك المسافة جزء وليست بكل ، وهـٰكذا إذا ما قارنا مسافة الألف متر بمسافة (2000) متر ، يصبح الألف السابق جزء من كل ، وهـٰكذا دائماً الكل يتجزأ إلىٰ النهاية .

ومع أن كل جزء قابل لأن يتجزأ ، إلا أنَّ المعرفة التامة قد لا تتم إلا بمشاهدة وملاحظة الكلِّ ، وهـٰذه لم تكن بيد مخلوقٍ ، بل إنها بيد الخبير البصير جلَّ جلاله .

والغيب الكلي لا يعلمه إلا ٱلله مثل الحياة والموت والعدم ، وكذلك الأرض التي يمكن أن يكون الموت عليها والزمان ، وهـٰذا الغيب لا يطَّلع عليه أحد ممَّن خلق .

قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) .

هنا جاء الاسم الخبير ليتمِّمَ الاسم اللطيف في باب إدراك الرؤية للطافته التي لا تدرك ، ولـٰكنه بخبرته يجعل كلاًّ يرىٰ ، ولـٰكن علىٰ قدره لا علىٰ قدر المرئي ، وكما قرر أهل السنة بإثبات الرؤية مع التفويض ؛ أي : بترك الكيفية للخبير .

ثم يأتي الاسم الخبير مع الأرض والسماء لتذكير الإنسان بحكمة ٱلله وتجليه بخبرته في عالم الملك ، وهو العالم المرئي للإنسان بإخفاء ما يريد من نعم ونقم في باطن الأرض ، وكذلك ما ينزل من السماء بأمره سبحانه وتعالىٰ وما يصعد إليها وفيها من أعمال وملائكة ، وهو ما يعرف بعالم الملكوت فيقول تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (2) .

---

(1) الأنعام ، 102 - 103 .
(2) سبأ ، 1 ، 2 .

وهنا أيضاً الاسم الخبير يتمم الاسم الحكيم الذي يثبت ملك السماء والأرض لله الذي يعلم أسرار الأرض ، وأسرار السماء .

ولنعرفَ علم الغيب علينا أن نميزه عن علم المستقبل ، فعلم الغيب المطلق لا يعلمه إلا ٱلله الحكيم الخبير ، أما علم المستقبل ؛ فالبشر علىٰ علم به . ولتوضيح ذلك فإن علم المستقبل هو : الوقت المنتظر الذي يحتوي علىٰ الآمال ، وهو غير قابل للتذكُّر مع أنه قابل للتفكُّر ، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة ، بل هو المتطلع إلىٰ ما هو متوقع ، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة ، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن ، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة ، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة ، فلا زمان بلا حركة ، ولا حركة بلا زمان ، ولا حياة بدونهما .

المستقبل لا يحصىٰ ، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة ، ولهـٰذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية ، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلىٰ النهاية مع الزمان ، فبالضرورة سيأتي غداً لا محالة ، وغداً قد يكون نهاية لما سبق ، وقد يكون استمراراً له ، وهـٰذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة .

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هـٰذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة ، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه ، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع ، والذي من أجله نتنفس ، ونشرب ، ونأكل ، ونفكِّر ، ونتعلم ، ونعمل ، ونتصدق ، ونصلي ، ونحب ، ونتزوج ، وندَّخر وفق حاجاتنا ، ونؤمِّن علىٰ أرواحنا وممتلكاتنا ، ونخاف ، وهو نهاية البداية وثبات الحركة ، وعليه كل حركة من أجل المستقبل .

يتكوَّن كلٌّ من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوىٰ ومضمون) . وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل ، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل ، وعندما تصل الحركة إلىٰ لحظة النهاية ، يكون العدم ، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم ، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة ، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل .

ولو لم يكن هناك مستقبل ؛ ما كان هناك أمل ، ولا أمانٍ ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه ، وهو ما يشغلنا . وبناء علىٰ ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية ، لكي نعرف من نحن ، وما يجب علينا القيام به ، ونعرف من أجل ماذا نُفكِّر ، ومن أجل ماذا نتعلم ؟ ومن أجل ماذا نعمل ، ونحلل ، ونعالج ؟ ولماذا طرحت هـٰذه الأسئلة ؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان ، أم ينبغي أن يقتصر عليه ؟ .

إذا كانت الإجابة بتجاوزه ؛ فإننا نفكر ، وإذا كانت بالاقتصار عليه ؛ فإننا نتذكر ، وننتظر ، نتذكر الماضي ، وننتظر حتىٰ يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية ، أي : نعطل قدراتنا ، ومواهبنا ، ولا نفكر ، لأن الغد لم يأتِ بعد . كل هـٰذه وتلك الأمثال تجعلنا نتذكر كما قال تعالىٰ في سورة الحشر : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وكذلك يقول تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ **فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [1] .

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة ، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن ، مع أن هـٰذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة ، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي ، وتكون الشجرة في الآن ، وتكون الثمار في المستقبل . وهـٰكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل

---

(1) الأعراف 176 .

الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلىٰ مرحلة الشيخوخة المتأخرة .

إنَّ ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل ، ولهٰذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاَّ في الآن ، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل ، ومستقبله سواء أكان سالباً أم موجباً ، هو ما كان له حاضر في الماضي . إذاً الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضراً في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتىٰ يعاقب ، أو يجازي به ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (1) .

تؤكِّد هٰذه الآية علىٰ أنَّ كلَّ عملٍ ماضٍ هو من أجل المستقبل ، وهٰكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلىٰ أن يجد نفسه في الزمن المستقبل ، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي ، بل إنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل ، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية ، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب ، ولهٰذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً ؛ لكي يكون لنا مستقبلٌ خيِّر . وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسي في الماضي ، وتصبح علىٰ خير المستقبل ، وحتىٰ إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلىٰ سجل الزمان والحركة : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (2) .

---

(1) آل عمران 30 .

(2) المجادلة 6 .

تؤكِّد هـٰذه الآية علىٰ أنَّ كلَّ شيءٍ وجد يمكن إحصاؤه ، ولـٰكن لقصور القدرات البشرية وعدم مقدرتها عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصيٌّ من قبل الخالق عز وجل ، ولهـٰذا كلُّ عملٍ قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ، ويتحقَّق له الجزاء .

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها ، وبالتالي يمكن التعرف علىٰ الأوقات وحصرها وعدها ، ولـٰكنه من غير الممكن عد الزمان ، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المئة حبة تصبح هـٰذه الأولىٰ في الماضي ، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن ، وتكون(98) حبة واقعة في المستقبل ، ولـٰكن إذا قررت أن تكرر التسبيح ، أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة ، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرىٰ واقعة في المستقبل ، وذلك لأنها هي الأخرىٰ سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية ، وفي هـٰذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ هي(98) حبة ، بل يكون عدد الحبات المتبقية(99) حبة ، وعلىٰ هـٰذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو(99) حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح علىٰ أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع ، ولا يكون العد التنازلي إلىٰ الصفر إلا في الدورة التسبيحية الأخيرة ، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (1) .

إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ، ونكون نحن مساءلين عنه ، ولهـٰذا لن ينتهي الماضي بعد ؛ لأن نهايته هي في الآن

(1) آل عمران 30 .

المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية . ويكون قولنا : إنَّ الزمان كالخيط ، والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة ، وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً . وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة ، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة ، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة . فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة ، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك ، أو أثرت في الحالة الصحية ، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب ، والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هٰذه الحالة بالنسبة إلىٰ الباحث ، أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل ، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر ، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي .

ومع أنَّ الزمان لم يكن له شكلٌ ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرىٰ المتحركة ، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركةٍ ، فيقول ٱلله سبحانه وتعالىٰ في سورة الإسراء : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [1] . ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور ، ولا كانت هناك حركة ، أي : لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن علىٰ سطح الأرض ، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرىٰ لا تعتمد علىٰ حركة الأرض ، ولذلك لم يقل ٱلله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟

---

(1) الإسراء 12 .

عَـدَدَ ٱلسِّنِينَ ﴾ ، ولهـٰذا قلنا : الزمان والحركة لا يعدَّان ، بل الذي يعدُّ هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه ، وهـٰذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة ، وهـٰكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد . والفارق بين الأجسام ، والمواقيت هو : أن الأجسام قابلة للمسِّ المادي ، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر ؛ فلا يمكن لمسها مادياً ، ولهـٰذا من الممكن الاحتفاظ بشيءٍ ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات ، ولا يمكن الاحتفاظ بشيءٍ ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات . وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار ، وما كان الفجر والمغرب ، وما عرفنا عدد السنين والحساب ، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه .

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر ، فالذي يشاهد هو المتحرك ، وليست الحركة ، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلحظ حركتها ، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلاّ أنها لا تُلمس ، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتىٰ لو لم يُلمس كالليل والنهار ، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما .

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلحظان ، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك ، وبين الحركة والامتداد . فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل ، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث ، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل ، وهـٰكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية ، فالامتداد يكون في

تكوين الشكل ، وفي تحديد اتجاه حركة الشكل ، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها ، ودورانها حول الشمس ، فهي لا تمتد إلاّ في مجالها الفلكي ، ولهـٰذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة ، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتدُّ المتحرك سواء أكان المتحرك قلماً لرسم مستقيمٍ أو منحنياً أو أيِّ شكل ، أو حركة كوكب ، أو حركة كائن من الكائنات .

الزمان والحركة متناهيان ؛ حيث إنهما محصوران بين قوة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتداداً ، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد ، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناهٍ ؛ فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر ؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا ، والتي بها تعدُّ أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا ، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر ، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هـٰذا الذي نعرفه ، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول . وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية ، إذاً ممَّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية .

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها ، ولهـٰذا تنتظم حركة المواقيت ، وتتزامن مع حركة الكواكب ، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد ، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ، ويتضاعف زمن الليل ، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة . فاليوم هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس ، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هـٰذا اليوم الذي يماثله من عامنا هـٰذا ، الاختلاف بينهما في المحتوىٰ الذي تتضمنه الأيام ، فمحتوىٰ هـٰذا اليوم قد لا يماثل محتوىٰ العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه ، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية ، والمحتوىٰ اليومي مختلف بين الحين والآخر ، فاليوم الذي ولد

فيه محمد رسول ٱلله ﷺ هو اليوم الذي توفي فيه ، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوىٰ مختلف .

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلىٰ جنب مع الحاضر والمستقبل ، ولو عُدنا إلىٰ الماضي البعيد إلىٰ أن نصل إلىٰ النقطة الآن ؛ فلا نجد ماضياً علىٰ الإطلاق ، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل ، ولا نجد الماضي ، وذلك لعدم تكوُّنه بعد ، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضياً وحدها ، وكل ما عداها مستقبل ، ولهٰذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر ، لا بالماضي الذي في تعداده إلا الآن الواحدة ، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلا اللحظة الآنية ، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل ، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا ، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها ، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة ، والتي يكون فيها كلُّ الماضي كمحتوىٰ هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا) ، ولهٰذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد ، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل ، وما خف منه .

والاسم (الخبير) لكونه حاصلاً من علم ٱلله ، فهو أداة للخليفة يخبره بتجليه عليه بهٰذا الاسم ما يحدث علىٰ كافة الأصعدة مع أهله وأتباعه وأعدائه ؛ وفي مثل هٰذا الأمر قد أُخْبر النبي ﷺ بما حدث مع أزواجه ـ عليهنَّ السلام ـ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] .

والاسم الخبير يأتي مع الاسم العليم ليوطئ لسيد الخلق كيفية التعامل مع

---

(1) التحريم ، 3 .

أمهات المؤمنين ، ويشير لجميع الخلق : أن العليم الخبير هو مصدر علمه ﷺ لأنه المنوط بهداية الخلق جميعاً ، ومن يسير علي هديه يكون خليفة له فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم يحيي به الإسلام ؛ لم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة » . وقال رسول ٱلله ﷺ لمّا سألوه عن خلفائه : قالوا : ومن خلفاؤك يا رسول ٱلله ! قال : الذين يُحْيُون سنتي ، ويعلمونها الناس » [1] .

إذاً فكل من يسير علىٰ هدي الحبيب ﷺ يكون خليفةً علىٰ قدر التزامه بالمنهج الإلـٰهي الذي أ نزله ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونفذه النبي ﷺ ، وهـٰؤلاء هم الذين قال ٱلله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [2] .

الاسم الخبير بصيغة النكرة :

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴾ [3] .

ولأن الاسم الخبير من أسماء الكمال ؛ فهو يتصرف في الكون كله في الأولىٰ والآخرة وفي حياة الإنسان وفي علاقته الاجتماعية ، وحتىٰ مع أعدائه . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ

(1) كنز العمال ، ج 10 ، ص 260 .
(2) الملك ، 12 ، 13 .
(3) النساء ، 34 ، 35 .

أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) .

وفي الصلح بين الزوجين نجد الاسم الخبير يتفاعل مع الاسم العليم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (2) .

وفي إقامة العدل الإلـٰهي يطلب ٱلله عباده المؤمنين بوصفهم الخلفاء الحقيقيين بعد النبي ﷺ حتىٰ مع أنفسهم ولو علىٰ أنفسهم ، أو ذويهم في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (3) .

والهلاك يتحقق بعدم اتباع المنهج الذي رسمه ٱلله للخليفة وفي هـٰذا ذنب كبير بل ذنوب لا يحصيها إلا ٱلله بخبرته وبصره الذي يحيط بكل شيء .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (4) .

---

(1) النساء ، 94 .
(2) النساء ، 128 .
(3) النساء ، 135 ـ 136 .
(4) الإسراء ، 16 ، 17 .

وفي مسألة الرزق نرىٰ الاسم الخبير يتفاعل مع الاسم البصير بنفس الرؤية السابقة في قوله ٱلله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [1] .

والاسم الخبير يتفاعل مع قضايا متعددة في باقي الآيات الآتية في قوله تعالىٰ : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [2] .

---

(1) الإسراء ، 29ـ38 .

(2) الإسراء ، 88ـ96 .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (2) .

الخطاب الرباني في هٰذه الآية الكريمة موجه إلىٰ النبي ﷺ ليتمسَّك بالحقِّ ، ولا يطيع الكفرة والمنافقين الذين لا يصمدون علىٰ اتباع الحق ، ولا يصمدون علىٰ مقاومته ، وفي هٰذا الأمر حكمة من ٱلله تعالىٰ تتضمَّن المساندة للنبي ومناصرته بالبينة التي خاطب بها ٱلله تعالىٰ رسوله الكريم ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ الذي تمسك باتباع الوحي الموحىٰ إليه من الخبير جل جلاله ، مما جعل تمسك الرسول بالوحي أمر تسليم بخبرة الخبير الذي يعلم ما لا يعلمون .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ

---

(1) الفرقان ، 56ـ62 .
(2) الأحزاب ، 1 ، 2 .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ (2) .

وللولوج إلىٰ روحانيات الاسم الخبير يجب أن نطرق باب اللغة حتىٰ يتسنىٰ فهم مدلول الاسم ، ثم ننطلق إلىٰ مائدة ٱلله (القرآن) لنتذوق عذب مذاق الاسم الخبير من خلال تفسير الآيات السابقة ومن خلال هدي النبي ﷺ بوصفه المتخلق بأسماء ٱلله ، وهو الذي قال فيه ٱلله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وكيف لا وقد قالت عنه أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ : (كان قرآناً يمشي علىٰ الأرض) . والقرآن يحوي الاسم الخبير وعليه فالخبير خُلُقٌ من أخلاق النبي ﷺ ولٰكن من خلال تجلي اسم ٱلله الخبير عليه ، ومن خلال تطبيق النبي ﷺ له اتباعاً لشرع ٱلله المنزل عليه ﷺ .

ومن يرد أن يصل إلىٰ التحلِّي بهٰذا الاسم عليه بالتخلِّي عن أي منهج لا يوافق القرآن وهدي النبي ﷺ بوسطية ، واعتدال ، فبدونهما لا يصل الإنسان إلىٰ التخلق بأخلاق القرآن ، ولا تتحقق فيه الخلافة التي أرادها له ٱلله عزّ وجل . وهٰكذا يعزز الاستخلاف في الأرض باتباع الوحي وسنة الموحىٰ إليه سيدنا محمد ، صلوات ٱلله وسلامه عليه .

لذا فغير السائرين علىٰ هدي سيد الخلق وإن امتلكوا أسباب الحضارة المادية ؛ ليسوا بخلفاء ؛ لأنهم يفسدون إن لم يهتدوا إلىٰ الإصلاح فيها ؛ وإلا هل يعتقد بأن يكون المفسد فيها خليفةً لمن يريد لها الإصلاح جل جلاله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ

(1) التحريم ، 31ـ34 .
(2) الفتح ، 11 .

أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [1] . أي : إنه لا خير في الفرقة والخصومة ، ولا خير في الفساد ، ولأن ٱلله هو الخبير المطلق جاء قوله : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ ﴾ ثم جاء قوله : ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ ﴾ جاءت شرطية ، والإحسان دائماً عمل خير ، وليس بعمل سوء أو مكروه ، ولأنه إحسان ؛ فهو يقع في دائرة رضا ٱلله تعالىٰ الخبير العليم بأعمال الإحسان ، وتفضيلاتها في رضا ٱلله تعالىٰ .

ويُذكرّ ٱلله الناس بخلقهم وموتهم وبعثهم حتىٰ يتوخوا الحذر ، ولا يفسدوا في الأرض ، فيقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [3] .

أي : إذا جاء فعل النهي فلينته الناس عن الفساد ، ولا فساد إلا عن كفر ونفاق ، أو شرك وضلال ، ولذا فبطبيعة الحال من يؤمن لا يُفسد ، وعليه أكبر إصلاح هو الإيمان ، فمن يؤمن يتقي ربه ، ويستمد خبرته منه ، وهٰذه الخبرة هي التي تجعله علىٰ مقدرة تمييزية (يميِّز بين ما يجب ، ويقدم عليه ، وبين ما لا يجب ، ويبتعد عنه ، وينهىٰ آخرين) . ولأن الخبير العليم ينهىٰ بالمطلق

---

(1) النساء ، 128 .
(2) الروم ، 40 ، 41 .
(3) البقرة ، 11 ، 12 .

عن الفساد ، ويحث بالمطلق علىٰ الإصلاح ؛ فمن يريد أن يكون خليفة له في الأرض فعليه أن يلتزم ، ويفعل بما أمر ، وإلا هل يعتقد أن يتم الاستخلاف بدون استمداد الصفة بين الخليفة ومستخلفه ؟ !

ولذا فمن يشتري الضلال بالهداية يخسر الخلافة الحقيقية في الأرض ، وهـٰذا الأمر جعل الملائكة يتساءلون : هل سيكون خليفة في الأرض يفسد ، ويسفك الدماء فيها ؟

والمقصود بهـٰؤلاء المفسدين الذين أساؤوا استخدام أدوات الخلافة التي خلقها ٱلله في الأرض ، وقال ٱلله تعالىٰ للملائكة : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ، فسجدوا لمَّا فهموا : أنَّ هناك من لا يفسد ، وهو المقصود بالخليفة .

والله مازال يخاطبهم ، ويأمرهم بعدم الفساد في الأرض التي أصلحها لتكون مقراً للخلافة ، وهم يصرُّون علىٰ الفساد بالابتعاد عن المنهج الذي ارتسمه لهم .

فيقول في عددٍ من الآيات الكريمة :

﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا

(1) الأعراف ، 56 ، 57 .
(2) الأعراف ، 85 .

فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (2) .

لماذا يهلك ٱلله القرىٰ ؟

لكي لا يكونوا مستخلفين فيها . أي : لو لم يكونوا من الظالمين ؛ لبقيت القرىٰ بخيرٍ وعلىٰ خير . وبذلك لو كان السابقون لا يُفسدون في الأرض ، وينهون عن كل مُفسد ، لكان الاستخلاف للناس جميعاً ، ولـٰكن لأن أكثرهم لا يعلمون ، وأكثرهم لا يفقهون ، وأكثرهم ظالمون ، ومفسدون ؛ فحق القول عليهم بالدمار ، ولم ينج إلا المؤمنون ، وهم القلة المشار إليها في هـٰذه الآية الكريمة .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (3) .

وقال جل جلاله : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (4) .

وعليه ، لو تذكرنا قارون ، فكم من قارون يعيش بيننا ، وكم مِنْ مَنْ

---

(1) البقرة ، 204ـ206 .
(2) هود ، 116 ، 117 .
(3) القصص ، 77 .
(4) الروم 41 .

يعجب الناس ماله ، ونفوذه ، وسلطانه ، ووسامته ، ولـٰكنه إذا تولىٰ أمر الناس ؛ سعىٰ في الأرض فساداً ، وذلك لعدم التزامه المنهج الإلـٰهي ، ولا الطريق المحمدي ، وبهـٰذا فهو لا يستحق سجود الملائكة ، ولا شرف الخلافة .

الخبير هو مَنْ خبره يتَّسق مع علمه ، فلا ينفصل عنه ، ولذا هناك أسماء حاصلة من تجلي العلم الإلـٰهي ، منها الخبير ، وهـٰذا ما جاء عند المفسرين .

ولصلة الاسم الخبير بالعليم نعرف بأسباب العلم تنار العقول ، والقلوب ، فالعلم يسبق الخبرة التي لا تأتي إلا بعد تجربة ومعايشة وممارسة ، ولا خبرة نافعة وشافية إلا بعد علم . وهـٰذا الأمر يتعلق بالإنسان ، أما في حق ٱلله ، فأسماؤه وصفاته أزلية غير حادثة والذي ورد عند المفسرين علىٰ سبيل التوضيح للناس ، وضرب الأمثلة لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (1) . هـٰذه الآية الكريمة لا تعطي مجالاً للمقارنة بين العليم الخبير المطلق ، وبين الذي له من العلم والخبرة بدون مطلقية ، ولذلك لا يستوي الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ، ولا يستوي من يعلم بغير مطلقية مع العليم الخبير المطلق .

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (2) ويعني بقوله : « القاهر »، المذلِّل المستعبد خلقه ، العالي عليهم . وقوله (فوق عباده) لأنه وصف نفسه تعالىٰ ذكره بقهره إياهم . ومن صفة كلّ قاهر شيئًا أن يكون مستعلياً عليه .

فمعنىٰ الكلام إذًا : والله الغالب عبادَه ، المذلُّ لهم ، العالي عليهم بتذليله لهم ، وخلقه إياهم ، فهو فوقهم بقهره إياهم ، وهم دونه (وهو

(1) النحل ، 74 .
(2) الأنعام ، 18 .

الحكيم) في علِّوه علىٰ عباده ، وقهره إياهم بقدرته ، وفي سائر تدبيره (الخبير) بمصالح الأشياء ومضارِّها ، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور ، ولا يقع في تدبيره خلل . والمراد من كونه حكيماً أن يكون مصيباً في أقواله وأفعاله ، ومن كونه خبيراً ، كونه عالماً بحقائقها من غير اشتباهٍ ، ومن غير التباس ، مع معرفته الكاملة بمبررات وجودها من عدمه ، ومعرفته التامة بالتوقيت المناسب لقوله ، أو فعله سبحانه لا إلـٰه إلا هو !

وقد اجتمعت صفات القهر والحكمة والخبرة ولـٰكن صفة الخبرة هي المهيمنة ؛ إذ لولا الخبرة ؛ لما كان الأمر في موضعه ـ تعالىٰ ٱلله علواً كبيراً ـ علىٰ ذلك ، فقهره بحكمة ، وحكمته بخبرة ، وهـٰذا إذا تحقق في إنسان صار خليفةً بقدر تخلقه بالاسم الخبير وما له صلة به من أسماء إلـٰهية أخرىٰ حيث إن الأسماء الإلـٰهية مرتبطةٌ ببعضها ارتباطاً وثيقاً ، والمتخلق بها إن لم يتحلَّ بالا سم الخبير كانت خلافته ناقصة .

﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ إشارة إلىٰ أن خلق هـٰذه الأشياء بالحكمة والخبرة . والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها ، فيمكن منه إيجاد أمثال هـٰذه مرة أخرىٰ في الآخرة . الحكيم ذو الحكمة البالغة ، وهي العلم بالأشياء علىٰ ما هي عليه ، والإتيان بالأفعال علىٰ ما ينبغي ، أو المبالغ في الأحكام وهو إتقان التدبير ، وإحسان التقدير .

والحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمراً ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ، فالفاعل الذي فعله علىٰ وفق العلم هو الحكيم ، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله : (حكيم) أي : في الابتداء يخلق كما ينبغي و(خبير) أي : بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق ، وما لا يصدر إلىٰ ماذا يكون مصير كلِّ أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء .

قال تعالىٰ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] .

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي كل غيب وشهادة ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في كل ما يفعله ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية . ٱلله تعالىٰ الذي هو العناية الأولىٰ عبارة عن إحاطته سبحانه بالكل حضوراً ، فالخزائن المشتملة علىٰ جميع الغيوب حاضرة لذاته ، وليس هناك شيء زائد ولا يعلمها إلا هو سبحانه . وكذا أبواب تلك الخزائن مغلقة ، ومفاتيحها بيده تعالىٰ لا يطلع علىٰ ما فيها أحد غيره عز وجل ، وهو القادر علىٰ أن يفتح منها ما شاء لمن يشاء . هـٰذا وقد حقق كثير من الراسخين في العلم : أنَّ حقائق الأشياء وماهياتها ثابتة في الأزل وهي في ثبوتها غير مجعولة ، وإنما المجعول الصور الوجودية ، وهي لا تتبدل ، ولا تتغير ، ولا تتصف بالهلاك أصلاً [2] مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [4] اللطافة ضد الكثافة ، والمراد به حُسن المعاملة ، وحُسن التقدير .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [5] .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : إنه خلق كل شيء دون أن يترك شيئاً ما بينهما ، وفي هـٰذا الخلق ما قد تمَّ التعرف عليه ، وهناك ما لم يتم التعرف عليه بعد ، وسيتم التعرف عليه لاحقاً ، وهناك ما تمَّ خلقه وقد لا يتم

(1) الأنعام ، 73 .
(2) تفسير أبي السعود ، ج 2 ، ص 341 .
(3) القصص ، 88 .
(4) الملك ، 14 .
(5) الفرقان ، 59 .

التعرف عليه ، وهـٰذه مشيئة ٱلله في خلقه الذي جعل كلَّ شيء بمقدار ، وجعل وراء كل مخلوق سرًّا كامناً حتىٰ ولو تم التعرف عليه . كان خلق هـٰذا الخلق العظيم من الخبير البصير ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في مدتها من أيام الدنيا ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أصل الاستواء : الاستقرار ، والتساوي ، واعتدال الشيء في ذاته ، والعرش مكان لمكانة عظيمة ، ذات نظام بديع ، تحيط بكلِّ شيء ، ولا يحيط بها شيء غير المسبحين بحمده ، وهم يحملون العرش ويعبدون الواحد الأحد الخبير البصير . ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ متعلق بما بعده ، وهو : ﴿خَبِيرًا﴾ كما في قوله ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ونظائره أي : فاسأل خبيراً بما ذكر من الخلق ، والاستواء يعني : الذي خلق واستوىٰ ؛ لأنه هو الخبير بأفعاله ، وصفاته [1] .

(الخبير) اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وصفة من صفاته ، يوحي بالإحاطة والتدبير والعلم ، وهو الذي يعلم بالأمر ، وما يجب العمل تجاهه ، فيرشد إليه من لم يحط به علماً ، ولهـٰذا يوضع الاسم الخبير ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة العلم لله تعالىٰ وهي (العليم ، اللطيف ، الشهيد ، الحسيب ، المحصي ، الواجد ، السميع ، البصير ، الرقيب ، المهيمن ، الواسع ، المؤمن) .

يأتي اسم الخبير بمعنىٰ العليم ؛ إذ يمكن القول : إن الجمع بينهما يوحي بالإحاطة بالأمور في جميع الجوانب الظاهر منها والباطن ، ولنقرأ قول ٱلله تعالىٰ : ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [2]

(1) تفسير حقي ، ج 9 ، ص 259 .
(2) الكهف 66ـ70

هـٰذه الآيات المتتابعة تتحدث عن حدثٍ عظيم يطرح كثيراً من التساؤلات التي تحيلنا إلىٰ الخبير العليم ، كانت البداية باللقاء بين موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسيدنا الخضر ، عليه الصلاة والسلام ، الذي وصف بالعبد ، وهـٰذا من باب التشريف كما سُمي النبي محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالعبد في قوله تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] فكان اختيارنا لهـٰذه القصة : أنها اتسمت بمدلولاتٍ كثيرةٍ ، وكلها تدور حول اسم ٱلله تعالىٰ الخبير ؛ إذ تثير في تشكيلاتها كوامن النفس الإنسانية ، وتلهبها لتطلعها علىٰ إحاطة ٱلله تعالىٰ بالأمور في جميع جوانبها ، مما يخلق حالة إيمانية قوية ينعم بها المؤمن ؛ ليواصل مشواره في هـٰذه الدنيا ، ويُقبل علىٰ العبادة بقلب عامر بالإيمان ، ولذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ نقطة التقاء هـٰذه يتشكل منها أمور عدة أبرز ما يَسِمُها : أنها بدأت بالاستفهام ، وهـٰذا الكلام موجه لنبي ، وليس لإنسان عادي ، مما يحمل إشارات عدة ؛ أهمها : أن ما يأتي يخرج عن نطاق المعرفة المتحققة . ثم تم الاتفاق بين الطرفين ، الطرف الأول يصبر ، بينما الطرف الثاني يرفض السؤال عن ما يجري حتىٰ يبتدئ هو بيانه ، فكانت الرحلة التي أرادها ٱلله تبارك وتعالىٰ ، رحلة اتسمت بالعبر ، والدروس والعظات ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا

---

(1) الإسراء ، 1 .

يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [1] هـٰذه القصة نلتمس من قراءتها : أنها ما كان لها أن تستمر ، فقوله تعالىٰ المتكرر (فَانْطَلَقَا) يوحي بالبداية المتجددة للقصة ، فبعد كل لفظة : (فَانْطَلَقَا) يبدأ حدث جديد ، وإن الأحداث الواردة في النص القرآني ، يمكن من خلالها أن نبين دور الخليفة في الأرض ، وكذلك نبين علم ٱلله تعالىٰ الواسع الذي يتجاوز كلَّ ما يصل إليه الخليفة من علم وتطور معرفي ، كان الفعل الأول هو خرق السفينة ، فكان رد فعل موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ رفض هـٰذا الفعل بوصفه خارجاً عن كل التعاليم والشرائع التي أمر ٱلله تعالىٰ بها ، ثم كان الفعل الثاني وهو قتل الغلام ، وهو مشهد أيضاً خارجٌ عن كل ما أمر ٱلله تعالىٰ به ، ونهىٰ عنه ، ولهـٰذا نَكرَهُ موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم يأتي الفعل الثالث وهو يختلف اختلافاً جذرياً مع ما سبق مما ترك انطباعاً متحيِّراً لدىٰ موسىٰ ، عليه الصلاة والسلام ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [2] لم يكن معهما زادٌ ، فسألا أهل قرية الطعام ، فلم يقبل أحدٌ أن يطعمهما . وإظهار لفظ (أَهْلَهَا) دون الإتيان بضميرهم بأن يقال : استطعماهم ، لزيادة التصريح ، تشنيعاً بهم في لؤمهم ؛ إذ أبوا أن يضيفوهما . وذلك لؤم ؛ لأنّ الضيافة كانت شائعةً في الأمم من عهد إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وهي من المواساة المتبعة عند الناس . ويقوم بها من ينتدب إليها ممَّن يمر عليهم عابر السبيل ، ويسألهم الضيافة ، أو من أعدّ نفسه لذلك من كرام القبيل ، فإباية أهل قرية كلهم من الإضافة لؤم لتلك القرية [3] .

ثم بعد ذلك وجدا جداراً أشرف علىٰ السقوط ، فقام الخضر ـ عليه

(1) الكهف 71 ـ 77 .
(2) الكهف 77 .
(3) التحرير والتنوير ج 8 ص 415 .

الصلاة والسلام ـ بإقامة الجدار ، وهنا أيضاً تكلَّم موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لـٰكن ليس من باب الرفض لهـٰذا العمل بل من باب طلب الأجر بما قام به الخضر عليه الصلاة والسلام .

هـٰذه القصة شاع فيها جوُّ الرَّفض الذي تبناه موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ والدال علىٰ علمه المحدود بالرغم من كونه نبياً من الأنبياء ، كما بينت لنا صفة ٱلله تعالىٰ (الخبير) وفق تجليات هـٰذه القصة بعد التوضيح الذي عرضه الخضر ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكل الأفعال التي قام بها ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (1) والإيضاحات هنا كلها تشير إلىٰ علم ٱلله تعالىٰ بما سيكون ، ولذا فهو الخبير العليم بالأمر ، وكلِّ أمرٍ سبحانه جل جلاله ! أي : إنه يعلم بالأمر ، وأيِّ أمر قبل أن يعلمه العباد إلا من أظهرهم تعالىٰ علىٰ شيء من علمه ، كما هو حال أبونا آدم عليه الصلاة والسلام الذي علَّمه الأسماء ، فأعلم بها من يتعلَّق الأمر بهم .

يقول تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (2) الآية . هنا رسمت صورة الرزق المتحقق للخلق ، ليس هناك استثناء حتىٰ الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه ، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا

---

(1) الكهف 78ـ82 .

(2) الإسراء 20 .

علىٰ حسب ما قدر لهم ، فالعدالة متحققة هنا للكل ، أما قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (1) هنا تبدأ مرحلة جديدة ، ففيها الرزق يتشكل ضمن ثنائية يمتلكها ٱلله تعالىٰ ، فهو وحده يوسع الرزق ويبسطه علىٰ من يشاء ، ويقدِّره ، ويضيِّقه علىٰ من يشاء ، فالتوزيع بهٰذه الطريقة المرتبطة بالمشيئة يحيلنا إلىٰ عظمة ٱلله تعالىٰ وقدرته فهي تمثل جانباً مهمَّاً من جوانب عظمته وحكمته في تسيير هٰذا الكون بأجمعه ، فضلاً عن ذلك : إن ارتباط هٰذا التوزيع بقضية مهمة جداً ، وهي قضية الإصلاح والإفساد ، بمعنىٰ : أن ٱلله تعالىٰ يعلم ما يصلح العباد ، وما يفسدهم ، وهنا يتجلىٰ لنا اسم الخبير بكافة تشكيلاته ، وارتباطاته بالرزق ، ولأنه الخبير المطلق فهو يعلم متىٰ يبسط الرزق ، ولمن يبسطه ، ومتىٰ يقبض ، وعمن يقبضه سبحانه إنه الخبير البصير ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (2) هٰذه الآية الكريمة رسمت لنا إحاطة ٱلله تعالىٰ بعباده ، فهو الخبير البصير ، فلو أن ٱلله تعالىٰ أعطىٰ عباده من الرزق فوق حاجتهم ؛ لحملهم علىٰ البغي ، والطغيان ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (3) فضلاً عن ذلك لتجاوز بعضهم علىٰ بعض ، ولٰكن ٱلله تعالىٰ يعطيهم علىٰ ما فيه صلاحهم ، فيغني من يستحق الغنىٰ ، ويفقر من يستحق الفقر بحسب ما يقدره ٱلله تعالىٰ من المصلحة في ذلك ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (4) إن ٱلله لو بسط الرّزق للنّاس كلهم ؛ لكان بسطه مفسداً لهم ؛ لأن الذي يستغني يتطرقه

(1) الرعد 26 .
(2) الشورىٰ 27 .
(3) العلق 6 ، 7 .
(4) الشورىٰ 27 .

نسيان الالتجاء إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ويحمله علىٰ الاعتداء علىٰ الناس ، فكان من خير المؤمنينَ الأجلّ لهم ألا يبسط لهم في الرِّزق ، وكان ذلك منوطاً بحكمة أرادها ٱلله من تدبير هـٰذا العالم تَطّرد في الناس مؤمِنهم وكافرِهم ، وقد كان في ذلك للمؤمن فائدة أخرىٰ ، وهي ألا يشغله غناه عن العمل الذي به يفوز في الآخرة ، فلا تشغله أموالُه عنه [1] .

يتجلَّىٰ اسم ٱلله تعالىٰ (الخبير) في كل ما يدور حولنا ، فالله تعالىٰ يضع الأشياء في مواضعها لخبره بحالها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه وفي غير مكانه وفي غير زمانه ، ولهـٰذا فهو الخبير بكل حال وأمر . ولأنه الخبير يهب لمن يشاء ذكوراً ، ويهب لمن يشاء إناثاً ويجعل من يشاء عقيماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [2] . ولأنه الخبير جل جلاله فلا ينزل شيئاً في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه ، وحكمته ، وخبرته ، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء ، والفضل ، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان . هـٰذه التشكيلات المختلفة هي الأسس التي تقوم عليها الدنيا والآخرة ، فالحرمان والمنع والعطاء والفضل كلها صور متحققة في الدنيا ، وهي نفسها يستند الحساب الأخروي عليها ، فوضعها في مواضعها التي وضعت لها صورة من صور (الخبير) جل جلاله ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ [3] هـٰذه الآية الكريمة تحيل إلىٰ أمرٍ عظيمٍ جداً ، وهو أمر الرسالة السماوية ، فهي لابد لها من يحملها ويقوم

---

(1) التحرير والتنوير ج 13 ص 124 .
(2) الشورىٰ 49 ، 50 .
(3) الأنعام 124 .

بإيصالها إلىٰ الناس كافة ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) فالله تعالىٰ هو خالق كل شيء ، وهو يختار مِن خَلْقِه يشاء ، فهو الذي خَلَقَ البشرية ، وهو بخبرته تعالىٰ يختار منها ما يشاء متىٰ يشاء سبحانه ، وهـٰذا الاصطفاء هو مراتب كثيرة جداً وعباد ٱلله يتفاضلون في هـٰذا الاصطفاء تفاضلاً عظيمًا ، وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم حيث يجعلُ رسالاته ، وهو أعلم حيث يجعل فضله ، وهو أخبر متىٰ تكون رسالته ، وعلىٰ من تكون ، وإلىٰ من تكون ، وأين تكون بالتحديد . سبحانه إنه ربيِّ جل جلاله !

وحظ الخليفة من اسم ٱلله تعالىٰ (الخبير) أن يكون شديد البحث عن كلِّ ما يوصله إلىٰ ٱلله تعالىٰ وفق معايير الخير والصلاح والإصلاح ، فالخوف المتحقق هو حافز للخليفة كي يفكر مراراً عند التفكير في أيِّ عملٍ يريد القيام به ، جاعلاً بين عينيه دائماً ثنائية الثواب والعقاب ، فبهما وبمعرفتهما يصل إلىٰ مرضاة ٱلله تبارك وتعالىٰ ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (2) هـٰذه هي القاعدة التي يريدها الخبير تبارك وتعالىٰ ، فبها يتحقَّق الثواب المطلوب الذي يصل بصاحبه إلىٰ مرضاته عز وجل ، وبها يتجنَّب العقاب المترتب علىٰ كلِّ من يخالفها ، والله تعالىٰ رسم للخلق أجمعين طريق الخير والشر ، لـٰكن العبرة بالاتباع ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (3) فقد أعطاه ٱلله تبارك وتعالىٰ العقل والسمع والبصر ليدرك ويعقل ويفكر حتىٰ يتدبر أمره ، وكلَّ أمرٍ يتعلق بأمره ، وبين له طريق الهدىٰ وطريق

---

(1) القصص 68 .

(2) الحشر 7 .

(3) الإنسان 3 .

الضلال ؛ ليختار بطوعه بين الخير والشر (بين ما يجب وما لا يجب) ، أي : بين الطاعة والمعصية ، فضلاً عن ذلك لابدَّ للخليفة من المعرفة بالحلال والحرام والعلم بكل ما يقربه إلىٰ ٱلله تعالىٰ .

إذاً يكون الخليفة خبيراً إذا اطَّلع وتعلَّم وجرَّب واتقىٰ ٱلله في كل ما اطلع وتعلم وجرب ، وعندما يصبح كذلك يتذكر ويتفكر كل ما يجب ويقدم عليه راضياً وبكلِّ إرادة ، ويتفكر ويتذكر كلَّ ما لا يجب ويجتنبه ويبتعد عنه وينتهي راضياً وبكلِّ إرادة . ولذا فالخبير المطلق خبير بعلمه المطلق ، والخبير بالإضافة خبير بعلمه وتجربته اللذين يمدَّانه بالمعرفة وحسن التصرف في دائرة مخافة ٱلله تعالىٰ .

يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (1) هـٰذه الآية الكريمة اشتملت علىٰ خمسة أشياء لا يعلمها إلا ٱلله العليم الخبير ، فهـٰذه الأشياء الخمسة تمثل المحاور الأساسية في الدين الإسلامي ، إنها من الغيبيات التي لا يعلمها إلا ٱلله تعالىٰ ، وهي :

1 ـ **قيام الساعة** : يمثل صورة نهائية للوجود بكلِّ تفصيلاته ، فليس هناك مُلكٌ إلا ملك ٱلله تعالىٰ ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (2) إذ ينتهي كلُّ شيء وتبدأ عملية الحساب التي وُعد بها كلُّ الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ

(1) لقمان 34 .
(2) غافر 16 .

أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ (1) فهٰذه هي صورة الآخرة بكل تجلياتها ، ولا أحد يعرف عنها ، ويخبرها متىٰ تحدث إلا الخبير العليم جلَّ جلاله .

2 ـ **إنزال الغيث** : فإنَّ ٱلله تعالىٰ ينزل الغيث في وقته المقدر ، ومكانه المعين ، ولا يعلم أحدٌ من خلقه شيئاً من ذلك ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (2) .

3 ـ **علم الأرحام** : الأرحام فهٰذا الوعاء الذي لا يعلم ما يكون فيه إلا ٱلله تعالىٰ ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ فهو مرتبط بالهبة المتحققة من ٱلله تعالىٰ بأنواعها المختلفة ، يقول تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

4 ـ **عدم دراية النفس بما ستكسب غدٍ** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ما تكسبه النفس في غدها خير أو شر وربما كانت عازمة علىٰ خير ، فعملت شراً . وعازمةً علىٰ شر ، فعملت خيراً .

5 ـ **عدم دراية النفس بأي أرض تموت** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أين تموت ، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت : لا أبرحها ، وأقبر فيها . فترمي بها مرامي القدر حتىٰ تموت في

---

(1) الحاقة 18 ـ 37 .

(2) الشورىٰ 28 .

(3) الشورىٰ 49 ـ 50 .

مكان لم يخطر ببالها ، ولا حدّثتها به ظنونها . سبحانه عز وجل إنه الخبير العليـم ! روي : أنَّ ملـك المـوت مـرَّ علـىٰ سليمـان ـ عليـه الصـلاة والسلام ـ فجعل ينظر إلىٰ رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فقال الرجل مَنْ هـٰذا ؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدني . وسأل سليمان أن يحمله علىٰ الريح ويلقيه ببلاد الهند ؛ ففعل . ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجباً منه ، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك [1] . والذي يعلم ذلك كله هو ٱلله تعالىٰ وحده لا اله إلا هو العليم الخبير ، به آمنت ، وعليه توكلت ، وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليه إنه ربيِّ الخبير الحفيظ جل جلاله !

وعليه فالخبير عليم :

والخبير اسم من أسماء ٱلله سبحانه وتعالىٰ الدال علىٰ علمه المسبق والمطلق ، فالخالق عز وجل يعلم بالحدث حتىٰ قبل أن يحدث لأنه يحيط بعلمه كل شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [2] ، فإحاطته بالشيء إحاطةً كاملة مطلقة تمكِّنه من أن يكون خبيراً ، وعليماً به ؛ إذ إن الإحاطة تكون من جميع الجهات ، وكذلك إحاطة الخالق لخلقه من كلِّ جهة فلا مجال لهـٰذا المخلوق أن يتجه أو يغيِّر شيئاً دون أن يكون ٱلله تعالىٰ عالماً به مسبقاً بخبرته المطلقة بما سيكون عليه هـٰذا المخلوق من تفكيرٍ وتدبيرٍ سواء نطق به الإنسان وصرَّح ، أو كتمه في صدره ، واحتفظ به ، قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا

(1) الكشاف ج 5 ص 292 .
(2) البقرة 255 .

تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (1) فإن المولىٰ عز وجل بإحاطته ، فهو مطَّلع وخبير بكل شيء لا تفوته صغيرة ولا كبيرة ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (2) ، فخبرته تعالىٰ المطلقة تنبعث من علمه بما كان وما سيكون ، فالقدر بيده جلَّ جلاله ، ووسع علمه كلَّ شيء .

بذلك لا يمكن أن تأتي الخبرة عن جهلٍ أو علمٍ محدود ، فالخبرة تتكون من العلم بظواهر الأمور وخفاياها ؛ لأن مجرد العلم بظواهر الأمور لا يعطينا الخبرة الكافية التي تجعل من حكمنا علىٰ الأشياء بميزان صحيح وعادل ، كذلك فإنَّ علم ٱلله تعالىٰ لا يختصُّ بالإنسان فقط وما يقوم به من لفظٍ وعمل ، بل إنها تتعداه لكل هـٰذا الكون وما في السمـٰوات والأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (3) ، فلا يمكن الفصل بين الأشياء المترابطة بالمكان والزمن لتأثير كلٍّ منهما في الآخر ، فالمولىٰ عز وجل قد جعل من الزمان والمكان متغيرات لا تثبت ، ولا تدوم ، وهـٰذا من شأنه أن يجعل من المخلوقات كذلك لا تثبت علىٰ حال ولا تدوم ، وهـٰذا يتطلب العلم والدراية الكافيين لمعرفة متىٰ ، وكيف يجب أن يأتي الحدث وينتهي .

والخبرة والعلم الكامل بالشيء لا يأتي بمجرد جمع معلومات كثيرة ومستمرة عن شيءٍ ما ، بل يجب أن تكون بمعرفة الأصل والبداية ، فالله تعالىٰ بخلقه لنا فهو عليمٌ ببدايتنا وأصلنا . وكيف لا وهو الخالق لنا ، ولله المثل الأعلىٰ الذي لا نستطيع أن نقيس علىٰ علمه أيَّ علمٍ آخر ، ولـٰكننا نلاحظ : أنه

---

(1) طه 6 ، 7 .
(2) العاديات 9 ـ 11 .
(3) الفرقان 6 .

مثلاً عند اختراع الإنسان لشيءٍ ما كجهاز الحاسوب مثلاً ، أو أي جهازٍ آخر فسنلاحظ : أنه بمجرد حدوث أي خلل بسيط عن طريق إصدار صوتٍ ما أو توقف عمله أو ظهور أية إشارة غريبة عن الجهاز أو الآلة فإنك تجد المهندس الذي أشرف علىٰ تركيب هـٰذا الجهاز قد تعرَّف علىٰ العطل أو الخلل الذي أصاب الجهاز لعلمه الكامل بكل ما يخص الجهاز من تركيبه ومزاياه وعيوبه ومدة صلاحيته وغيرها من المعلومات التي بدأت باختراع هـٰذا الجهاز ، والتي بدورها تعطي المخترع أو المهندس الخبرة الكافية للتعرف علىٰ كل زوايا ونواحي وخبايا هـٰذا الجهاز ، وبالتالي فإنه سيتعامل معه بكل ثقة لعلمه وخبرته به ، فما بالك بالعليم والخبير المطلق الذي لا حدود لعلمه أو خبرته ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [2] ، فالخالق يُدرك مسبقاً ما سيكون عليه حال جميع مخلوقاته ، وكيف لا وهو الخالق العظيم الرقيب علىٰ خلقه ، قال تعالىٰ : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [3] ، وقوله كذلك : ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] .

والخبير جل جلاله تكون خبرته بالبشر وكلِّ ما خلق خبرةً عن حقٍّ وذلك لأنه يملك الموازيين العادلة لقياس كل الأمور المتعلقة بالخلق والكون ، فلا يمكن أن يحدث خللٌ ما في نظام هـٰذا الخلق ، وذلك لدرايته وخبرته وعلمه بما فيه صلاح أو فساد هـٰذا الكون .

---

(1) الأنبياء 4 .
(2) الحج 70 .
(3) الحج 76 .
(4) النور 64 .

والخبير بالإضافة يجب أن يكون خبيراً بخبايا النفس كي يتعامل مع ذاته بالشكل الصحيح ، وبالتالي ينعكس ذلك علىٰ أسلوبه في التعامل مع من حوله ، والخليفة بالإضافة هو من وصل إلىٰ أعلىٰ درجات الرضا عن النفس ، فتسكن بذلك الطمأنينة والهدوء لعلمه بما يتلاءم مع نفسه ، وما يرضيها وما يقوِّيها ويرفع من معنوياتها ، وما يؤثر فيها سلباً وإيجاباً ، وبذلك تزداد ثقة الخليفة بنفسه ، وبهٰذه الثقة لا يمكن أن يخضع لتأثير أيِّ مؤثر سلبي من شأنه أن يهوي به إلىٰ منحدر الضلال والخسارة .

الخبير هو المحاسب :

بخبرته المطلقة عز وجل فقد امتلك الميزان العادل للحساب ، فلا يقضي بأمرٍ علىٰ غير دراية منه ، ولا يرضىٰ الظلم للعباد ، فهو لا يأخذ بظاهر الأمور ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [1] ، ففي هٰذه الآية الكريمة قدَّم المولىٰ عز وجل علمه المطلق الذي وضَّحه بقوله : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ عن حكمه وحسابه العادل للبشر الذين سيحاسبهم الخالق جل جلاله علىٰ أعمالٍ قاموا بها لا يستطيعون إنكارها فيكون تسجيلها دليلاً علىٰ القيام بها في الحياة الدنيا ، فلا يمكن أن يكتب ٱلله عملاً علىٰ إنسانٍ دون أن يقوم به .

وقد كان ٱلله شاهداً مطلقاً علىٰ كل الخلق ، وما يقومون به من أفعالٍ وأقوالٍ في حياتهم الدنيا ، ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [2] ، وقد نتجت هٰذه الشهادة من خبرته ومراقبته للعباد جميعاً ، وبذلك فشهادته هي الحق الذي يحكم به علىٰ العباد يوم يقوم الحساب ، فلا يظلم ، ولا يتجاوز الحد في الجزاء ، أو العقاب في حين أنه ما من قاضٍ

(1) آل عمران 182 .
(2) الإسراء 96 .

مهما كانت درجة عدله أو خبرته في القضاء وبعد نظره قادر علىٰ أن يحكم بحكمٍ عادل دون اللجوء إلىٰ الأخذ بأقوال الشاهدين ، والاستماع لأقوال المتهمين ؛ لكي يستطيع أن يستخلص الحكم المناسب ، وبذلك فقد يقع هـٰذا القاضي في زلاتٍ كثيرة ، كأن يكون هناك ثغرات يدخل منها المتهمون لرد التهمة عنهم ، واتهام أبرياء لا دليل علىٰ براءتهم فلا يستطيع القاضي أن يثبت العكس ؛ لأن علمه وخبرته محدودان في نطاق ملف خاص بالقضية ، فلا يستطيع أن يكون شاهداً ببصره ، أو سمعه لعجز القدرة البشرية عن ذلك الأمر .

والخبير المطلق يُخْرِج يوم القيامة البشر من القبور للحساب العادل بعد إبطال جميع الحجج والبراهين التي قد يفكر الإنسان الخاسر إلىٰ اللجوء إليها ، بل إن الخالق بعلمه السابق لكل شيء قد وضَّح بخبرته المطلقة بالعباد ، وبيَّن لهم كيفية السير علىٰ طريق الهدىٰ والضلال بوضع القوانين التي تعمل علىٰ ضبط تصرفات وسلوك العباد ، فمنهم من التزم بها التزاماً شبه كامل ، ومنهم من قصَّر ، ومنهم من ابتعد عنها نهائياً ، وقد اخبر ٱلله العباد ببعض أمور الغيب التي تخصهم من عقاب وحساب وجزاء وبعض ما يتعلق بالحياة والموت والجنة والنار عن طريق إنزال الوحي علىٰ رسله ، صلوات ٱلله عليهم وسلامه ، وقد تجلىٰ في القرآن الكريم الذي بين أيدينا ـ بعد أن وعد ٱلله بحفظه لعلمه بما يوسوس به الشيطان في بعض نفوس البشر ـ الكثيرُ من التعاليم المتعلقة بحياة الفرد علىٰ أنه خليفته في الأرض ، وبالتالي فقد منحه الخالق بعض علمه وخبرته ليعينه علىٰ خلافة الأرض ، فيمارس مسؤولياته بشكل سليم وصحيح ؛ إذ إن لديه المصدر والمرجع الذي يفيده ، ويعينه في ممارسة دوره في الحياة .

ولهـٰذا : الكون يستقي كلَّ الأحكام المنظمة لأمور حياته فيه لكي ينال الجزاء الأوفىٰ في الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ [1] .

ومن هنا نجد : أن ٱلله تعالىٰ قد سهَّل بعلمه وخبرته بالخلق أمور الحياة بتوضيحها له ، وبذلك فإن العليم بالإضافة يستطيع أن يسن القوانين التي تناسب مجتمعه ، وتنظمه ، وتنشر فيه العدل ، والإخاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [2] .

وخليفة ٱلله يجب أن يكون شاهداً علىٰ الحق ، وموجهاً خبرته للمنفعة لا للضرر والفساد ، وإذا طُلِب منه أن يكون شهيداً ؛ فليكن علىٰ حق ، ولا يتبع الهوىٰ ، فيخسر في الدنيا والآخرة ؛ لأن الخليفة هو من سعىٰ لإظهار الحق ، وتكوين الخبرة الكافية التي تؤهله لأن يكون علىٰ يقين : أنه لا يُسْتغل بسبب عدم درايته وعلمه وخبرته .

الخبير هو الحي القيوم :

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [3] ، فالخبرة لا يمكن أن تتكون لدىٰ من كان غافلاً ، أو فاقداً للحياة ، لأن الخبرة صفة من صفات استمرارية الحياة ، فكيف بالحيِّ القيوم الذي لا يموت ولا يفنىٰ ، بالتالي لا يمكن تصوُّر مقدار خبرته إذا قيست

(1) الفرقان 45ـ 49 .
(2) آل عمران 104 .
(3) آل عمران 2ـ 5 .

بالحياة الأبدية الأزلية ، وبعلمه الذي لا حد مكانيّاً ولا زمانيّاً له ، ومن صفاته السميع البصير ؛ الذي لا يخفىٰ علىٰ سمعه ، أو بصره أيُّ شيء .

وبما أنه القائم علىٰ أمور العباد ؛ فبالتالي فإنه لا يمكن أن يكون قائماً علىٰ أمور الخلق دون أن يكون لديه الخبرة الكاملة غير المحدودة .

والخليفة يسعىٰ لأن يتصف بصفات ٱلله عز وجل ، فلا يمكن أن يكون جاهلاً ، أو غافلاً ، أو عديم الخبرة ، بل عليه أن يكون مراقباً للأحداث والأمور مستفيداً من كل ما يحصل حوله بشكلٍ إيجابي ، ومنظم ، وسوي .

الخبير هو اللطيف :

يدرك سبحانه وتعالىٰ بخبرته المطلقة ما هو في صالح عباده ، مع عدم رضا المخلوق أحياناً عن قدره الذي كتبه ٱلله تعالىٰ عليه ، قال تعالىٰ : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [1] ، ففي هٰذه الآية الكريمة توضيح لهٰذا الاعتراض الآدمي علىٰ ما كتبه المولىٰ عز وجل عليه ، وتلا هٰذا الاعتراض البشري تأكيد الخالق لعدم خبرة البشر بما ينفعهم وما يضرهم ، وأتبعها مباشرةً بالتأكيد علىٰ علمه المطلق بكل شيء وبجميع الخلق ، وذلك لكي يوضِّح ويبيِّن للخلق : أنَّ بعلمهم المحدود ، وخبرتهم المحدودة لا يكون حكمهم علىٰ الأمور غير سليم ؛ لأنهم يعتمدون علىٰ ظواهر الأشياء لا خفاياها ، ولذلك علىٰ الخليفة أن يوطد ثقته بخالقه وبأنه اللطيف بعباده الرحيمُ بهم .

وإذا فرضنا مثلاً : أن ٱلله تعالىٰ قد أنبأ الإنسان بما قد يصيبه مسبقاً من مرضٍ أو فرحٍ ، أو قد أعلمه بموعد موته فإن ذلك بالتأكيد سيجعل من هٰذا الإنسان ميتاً وهو حي ؛ إذ أن الإنسان خُلِق ضعيفاً قد لا يحتمل أن يكون علىٰ

---

(1) البقرة 216 .

علم بكل تلك الأمور ، وهنا يتجلىٰ لطف ٱلله بنا بترك كل تلك الأمور غيبية لا يصل علم ، وإدراك الإنسان إليها .

وفي لطفه عز وجل رحمة تتضح في أن الخالق سبحانه وتعالىٰ بالرغم من علمه المسبق ، وخبرته المطلقة بجميع الخلق ، ومن ضمن ذلك علمه بالنوايا التي تسبق الأعمال . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « يَقُولُ ٱللهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَعْمَلَهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا ؛ فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي ؛ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا ؛ فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ »[1] . فكم هي كبيرة ومطلقة رحمة ٱلله بعباده فهو يعطي الفرصة تلو الأخرىٰ للتوبة وبذلك فهو التواب الرحيم لخبرته بنوايا البشر .

الخبير هو الصبور :

يمكننا القول بما أن ٱلله هو الخبير ؛ فهو أيضاً الصبور ؛ لأن الخبرة تتطلب الصبر ، وعدم التعجل في أيِّ أمر ، فبالرغم من علمه ، وخبرته بما سيكون من كل فرد ؛ فإنه صبور علىٰ كل ما يصدر من البعض من أذىٰ ، أو زلل ، ومن هنا يمكن الربط بين : أنه سبحانه وتعالىٰ الخبير ، والصبور ، ولله المثل الأعلىٰ فلو أتينا علىٰ المستوىٰ الآدمي ؛ فسنجد : أن أكثر الناس صبراً علىٰ الأخطاء والإساءات في حقهم هم العلماء ؛ إذ أنه لديهم الخبرة والمعرفة اللتان تؤهلهم لأن يكونوا مهيئين علىٰ الأقل لبعض ما سيصدر من سلوكيات من حولهم من خلال تعاملهم ومعرفتهم بطباعهم ، فيواجهون هٰذا بالصبر الذي يرقىٰ به لمستوىٰ التسامح والمغفرة ، فإذا كان هٰذا هو تعامل البشر لبعضهم البعض باختلاف درجات العلم بينهم فما بالك بالصبر الذي يصدر عن العليم والخبير المطلق الذي أمدنا أصلاً بالصبر والتحمل من عنده سبحانه وتعالىٰ .

---

(1) صحيح البخاري ، ج 23 ، ص 20 .

فلذلك علىٰ الخليفة أن يكون مستحقاً لصبر ٱلله المطلق عليه ، ومستحقاً أيضا للبشرىٰ التي أعدها ٱلله للصابرين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (1) ، وهـٰذا دليلٌ علىٰ أن الصبر أمرٌ عظيم ، لا يستطيعه جميع البشر .

ولا بد أن يترافق مع خبرة الخليفة عدَّةُ صفات أخرىٰ ، تدعم خبرته ، منها :

أولاً : العلم :

لا يمكن أن يصل الخليفة إلىٰ أن يكون خليفة ٱلله في الأرض إلا إذا كان علىٰ قدرٍ كبيرٍ من العلم والخبرة ، اللذان يشكلان أساساً مهماً في تكوين شخصية الخليفة ، فالخبير بالإضافة يستمدُّ خبرته من علمه وقدرته علىٰ اختراق الأمور وتحليلها بالشكل الصحيح السويِّ .

وإذا كان الخليفة لابدَّ له من الاتصاف بصفات الخالق سبحانه وتعالىٰ الذي قرن علمه بخبرته في كثير من الآيات الكريمة ومنها قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (3) ، فلابد إذاً أن يصل بعلمه إلىٰ حدِّ تكوين الخبرة الكافية ، وبعد النظر المطلوب للوصول لأفضل النتائج .

---

(1) البقرة 155ـ157 .

(2) النساء 35 .

(3) التحريم 3 .

وبذلك يكون علم الخليفة مرسِّخاً خبرته ، ومكوِّناً له ، ليستفيد منه في وجوه الخير ويفيد غيره من المسلمين .

ثانياً : الحلم :

لا تتكون الخبرة للإنسان في وجود التعجل والتسرع ، لأن من شأن ذلك أن يجعل من ذلك الإنسان قصير النظر ، وضيق الأفق ، ولـٰكن الحلم يترك مساحة كبيرة لإمكانية تكوين الخبرة الكافية ، فبحلمه وصبره يصبح الإنسان حكيماً وبالتالي فالحكمة لا تأتي إلا بالخبرة التي تتكوَّن بالتدريج لدىٰ الإنسان .

ومن نتائج اقتران الخبرة بالحلم :

1 ـ تحديد طريقة تعامله مع الآخرين :

عندما يتوفر الحلم في نفس الإنسان ؛ فذلك يتيح له مراقبة انفعالات الناس من حوله ، وردود أفعالهم ، وكيفية التعامل مع كلٍّ واحدٍ منهم ، وهـٰذا بحدِّ ذاته خبرة بمن حوله تتيح له فرصة فهم من حوله ، ولـٰكن في وجود التهوُّر والتسرع فإنه يفوت الإنسان فرص فهم البشر ، ويظل الإنسان فارغاً لا يستطيع التعامل مع مجريات الأمور حوله ، فالغضب يطفئ التفكير المنطقي الصائب الذي يصل بصاحبه إلىٰ أفضل النتائج .

2 ـ تهيئة نفسه لمواجهة أيِّ موقف :

عندما تتكون لدىٰ الإنسان بحلمه الخبرة الكافية ؛ فإن من شأن ذلك أن يُهيئ الإنسان لمواجهة أيِّ موقف سواء كان يتطلب القوة أو اللين ، أو إذا كان هـٰذا الموقف حزيناً أو مفرحاً ، فالإنسان مخلوق متطور ، وقابل للتعلم ، وهـٰذا ما يجعل الفروقات الكبيرة بين البشر في تكوين الخبرات والوصول إلىٰ درجات متقدمة من العلم .

وكلما وصل الإنسان إلىٰ تكوين خبراته بالطريق الصحيح ؛ عاد ذلك

بالخير علىٰ صاحبه ، وانعكس ذلك علىٰ من حواه ، واستطاع أن يجعل من خبرته مانعاً للتأثر السلب من جرَّاء أزمةٍ ما ، فلا يستسلم ، أو ينهار بسبب عدم توقع ما حدث ، بل إنه يحسن التصرف عند المواجهة لتوقعه ما قد يحدث ولتأنيه في ردة الفعل من جانبه .

وخليفة ٱلله يكون علىٰ درجة كافية من العلم والدراية بالأمر ؛ الشيء الذي يرفع لديه نسبة التوقع ، وهـٰذا يجعله يتميز بالفراسة ، والذكاء الاجتماعي ، والدراية في سلوك المحيطين به ، وبالتالي يكون هـٰذا الخليفة أكثر تسامحاً ولطفاً بمن حوله ؛ لما اكتسبه من كياسة ، ولطف ، ورحمة .

والله تعالىٰ الخبير المطلق هو الميسر لأمورنا المختلفة في الحياة ، فهو الذي يساعدنا في تجاوز المصاعب ، والتغلب عليها ؛ لعلمه بالضعف البشري ، قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (1) ، وهو الخبير ؛ لأنه أخبرنا بقصص الأمم السابقة كما ورد في القرآن الكريم ، والذي لولا ذلك لما علمنا شيئاً عما سبق ، ولما كانت العظة والعبرة مما أصابهم ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، وقد كان رسول ٱلله ﷺ خاتم الرسل والأنبياء فكان آخر المخبرين ، فلم يترك شيئاً عليه الصلاة والسلام إلا وقد أخبرنا به بوحي من ٱلله سواء أكانت معاملات مادية ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ

---

(1) النساء 28 .

(2) يوسف 111 .

بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [2] ، أو كانت أخلاقية مثل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [3] ، أو دينية مثل ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي

---

(1) النساء 12 .

(2) البقرة 282 .

(3) الحجرات 11ـ13 .

ٱلْقُـرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) ، وغيرها لتشمل جميع الجوانب التي تحيط بنا .

والعلم البشري الذي نفخر به الآن ، والذي توصل إلىٰ كيفية تكوين الإنسان وتطوره منذ بداية تكوينه نطفةً إلىٰ أن تكوَّن ولداً ، ولـٰكن عند الرجوع لأصل هـٰذه المعلومات المستقاة منه ؛ فإننا سنجد القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسي لكل تلك الحقائق ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (2) ، وقد أخبرنا الخبير بكل تلك الحقائق علىٰ لسان رسولنا الكريم محمد ﷺ وبذلك كان مصدراً لأخذ المعلومات الثابتة التي تعتمد علىٰ الحقيقة .

وقد كان لنا في رسول ٱلله ﷺ أسوةٌ حسنة فهو المعلم لنا ، فسبحان الذي علَّمه ، فأحسن علمه ! قال عز وجل : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (3) ، وهنا

(1) البقرة 177 ـ 179 .
(2) الحج 5 .
(3) النجم 1 ـ 5 .

تسقط عنا الحجة ؛ لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الكمال بذاته ، والعدل ، والرحمة .

ولذلك فعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يؤمن ويثق بالخبير المطلق ، فيصل إلىٰ الاقتناع ، والغنىٰ عن الشكوىٰ لعلمه بأن الخالق علىٰ دراية بما فيه فلا يتجه إلا له عز وجل ، ولا يطلب إلا منه .

اللهُمَّ يا الخبير بأحوالنا اجعل أحوالنا علىٰ خير ، ويسر أمورنا إلىٰ ما تحبه وترضاه ، وكن لنا حافظاً ونصيراً ! اللهُمَّ إننا آمنا بك وبرسولك الكريم محمد عليه الصلاة والسلام وبالنور الذي أنزلت فأنر عقولنا ، وقلوبنا بما أنزلت من آيات كريمة في لوحك المحفوظ الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ إنك سميع مجيب قريب الدعاء ! اللهُمَّ كفِّر عنا من سيئاتنا ، وكفِّر عنا العناء والبلاء والشقاء إنك بنا عليمٌ خبير ! اللهُمَّ إنك الخبير بما نقول وما نسمع ونعمل فلا تجعلنا من الضالين ! اللهُمَّ إن لك ميراث السمٰوات والأرض فاجعلنا من المستخلفين فيها والوارثين . اللهُمَّ إنك الخبير البصير فاجعل أبصارنا مبصرةً بما أنت عليه خبير ، واجعل حواسنا طائعة لك فيما تحبه ، وترضاه ، أنت الخبير سبحانك لا إلـه إلا أنت !

اللهُمَّ يا الخبير بأحوال العباد ، يا من لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء اجعلنا متواضعين بعلم مفيد ، وبخبرة تفيد ، إننا نخافك ونخجل منك لعلمك السر والعلن ! اللهُمَّ اجعل خبرتنا ، وعلمنا المحدودين منبهاً لنا لخشيتك ، وحبك !

اللهُمَّ يا الخبير يا من لا يخفىٰ عليه ضعفنا ، وفقرنا ، وحاجتنا إليه ارحمنا بواسع رحمتك ، ويسر لنا أمورنا ، واقض عنا دَيننا ، وبارك لنا يا الخبير في أولادنا ، وأزواجنا ، وأهلنا ، وعقولنا ، وصحتنا ، وأمتنا يا ٱلله علىٰ دين الإسلام ، إنك بنا رؤوف خبير !

الحليم جل جلاله

الحليم : « الذي قد كمل في حلمه » [1] .

الحليم : « هو الذي يشاهد معصية العصاة ، ويرىٰ مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزُّه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله علىٰ المسارعة إلىٰ الانتقام ـ مع غاية الاقتدار ـ عجلةٌ ، وطيش » [2] .

الحليم : الصفوح عن الذنب مع القدرة علىٰ المؤاخذة به ، وهو الدائم علىٰ الصفح دون كلل ولا ملل ، ولذا في أسم الحليم صفة الرحمة متصلة ، لا تنقطع ، ولا تنفصل .

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له   مواردُ تحمي صفوَه أنْ يُكدَّرا

الحليم : هو ٱلله عز وجل بيده أمر كل شيء ؛ بيده الثواب ، وبيده العقاب ، إلا أن ثوابه أوسع من عقابه ، ورحمته أعمُّ وأشمل من نقمته ؛ فرحمته تعم المخلوقات جميعاً والبشر جميعاً المطيع منهم والعاصي ، أما نقمته فهي لا تكون إلا علىٰ مشركٍ ، وكافر ، وعاصٍ ، ومعاندٍ ، ومتكبِّرٍ علىٰ ذاته العلية ، وهي أيضا تلحق كل مفسد وسافك للدماء في الأرض بغير حق ، وتلحق كل ظالم .

---

(1) القائد إلىٰ العقائد ، ج 1 ، ص 158 .

(2) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 103 .

وصفة ٱلله حليم وردت في آيات كثيرة مقترنة بصفة ٱلله غفور ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (1) . ووردت مقترنة بصفة (غني) في قوله عز وجل : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (2) ، واقترنت بصفة (شكور) في قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (3) . واقترنت بصفة (عليم) في قوله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (4) .

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱلله رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ » (5) .

والحليم في اللغة صفة للموصوف بالحلم ، فعله : حَلِم ، يَحلِم حِلماً . وصفة الحلم تعني : الأناة ، ومعالجة الأمور بصبر ، وعلم ، وحكمة ، وفي مقابلها العجلة مفسدةٌ لأمور الدين والدنيا . والحليم هو الذي يرغب في العفو ، ولا يسارع بالعقوبة ، قال ٱلله تعالىٰ في وصف نبيه إبراهيم ﷺ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (6) .

وفي لسان العرب الحِلْمُ : الأناةُ ، والعقل . ويجمع علىٰ أحلام ، وحُلُوم ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (7) .

---

(1) البقرة ، 225 .
(2) البقرة ، 263 .
(3) التغابن ، 17 .
(4) الأحزاب ، 51 .
(5) صحيح البخاري ، ج19 ، ص 426 .
(6) التوبة ، 114 .
(7) الطور ، 32 .

وقال جرير :

هل من حُلُومٍ لأقوامٍ فتنذرَهم ما جرَّب الناس مِنْ عضِّي وتضريسي

وفي حديث النبي ﷺ في صلاة الجمعة « ليليني منكم أولوا الأحلام ، والنهىٰ »[1] . أي : ذوو العقول ، والألباب ، واحدها : حِلْمٌ ، وكأنه من الحِلْم ، والأناة ، والتثبت في الأمور ، وذلك من شعار العقلاء .

والحليم عز وجل هو الصبور المتصف بالحلم ، يتمهل ، ولا يتعجل ، بل يتجاوز عن الزلات ، ويعفو عن السيئات ، فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة ، والثواب ، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون إلىٰ الطاعة والصواب ، ولو أنه عَجَّلَ لعباده الجزاء ؛ ما نجا أحد من العقاب ، ولـٰكن ٱلله عز وجل هو الحليم ذو الصَّفحِ والأناةِ ، استخلف الإنسان في أرضه ، واسترعاه في ملكه ، واستبقاه إلىٰ يوم موعود وأجل محدود ، فأجَّل بحلمه عقاب الكافرين ، وعجَّل بفضله ثواب المؤمنين[2] .

والحَليمُ في صفة ٱلله ـ عز وجل ـ معناه : الصبور ، وقيل : معناه : أنه الذي لا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يستفزه الغضب عليهم ، ولـٰكنه جعل لكل شيءٍ مقداراً ، فهو منتهٍ إليه[3] .

والحليم هو الذي لا يعاجل العصاة بالنقمة ، بل يعفو ، أو يؤخر ، يعفو ٱلله تعالىٰ عن الذي يعلم : أنه قد ندم علىٰ فعله للمعاصي ، وعقد العزم علىٰ التوبة ، فهـٰذا يستحقُّ من الحليم أن يعفو عن سيئاته نهائياً دون توقع وقوع العقاب عليه ، وذلك كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ

(1) صحيح مسلم ، ج2 ، ص 426 .
(2) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ص 215 .
(3) لسان العرب ، ج12 ، ص 115 .

ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [1] .

بل يتعدَّىٰ كرمه ذلك ، فيبدل ٱلله تلك السيئات والمعاصي التي ندم عليها العاصي التائب إلىٰ حسنات ، وذلك مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [2] .

أو يؤخر ٱلله عز وجل برحمته وحلمه معاقبة العصاة المصرِّين علىٰ معاصيهم ، والمعاندين ـ لا لشيءٍ إلاَّ التكبر والغرور ـ مع قدرته عليهم ؛ إن شاء . قال تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [3] ، حيث قرن شدة العقاب مع قبول التوبة وغفران الذنب وهـٰذا دليل علىٰ قدرته علىٰ عقابهم ؛ إن شاء ذلك ، فهو يفتح بذلك أبواب رحمته ويمنحهم فرصة للتوبة والعودة إلىٰ الطريق الصواب ، فيكونون بذلك من الصنف الأول الذين يبدل ٱلله سيئاتهم حسنات ؛ إذا صدقت توبتهم .

وفي تفسير الحليم : أنه الذي لا يعجل بالعقوبة والانتقام ، ولا يحبس عن عباده بذنوبهم الفضل والإنعام ، بل يرزق العاصي كما يرزق المطيع ، وإن كان بينهما تفاضل علىٰ مقتضىٰ الحكمة ، وهو ذو الصفح مع القدرة علىٰ العقاب .

« فالحليم » ، يحلم عن أهل معاصيه بترك معاجلتهم في الدنيا بعقوبتهم ، وتأخيرهم ليتوبوا ، فيستحقوا جنته بدل نقمته ، وهـٰذا يقتضي أن يكون الحليم صبوراً ، يصبر علىٰ أذىٰ من أساء إليه مع أنه مالك القوة التامة التي يتصف بها بالمطلق .

---

(1) هود ، 114 ، ص 234 .

(2) الفرقان ، 70 .

(3) غافر ، 3 .

ومعنىٰ ذلك : أن ٱلله تعالىٰ واسع الحلم حتىٰ علىٰ الكافر الذي ينسب إليه الولد ، والندَّ . وقال المازري : حقيقة الصبر منع النفس من الانتقام ، أو غيره ، فالصبر نتيجة الامتناع .

وقال القاضي : الحليم : هو الصبور ، وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام ، وهو الصفوح مع القدرة علىٰ الانتقام [1] .

والصفوح ذو الصفح الذي لا يستفزُّه غضب ، فيعجل ، ولا يستخفه جهل جاهل مع قدرته علىٰ الانتقام .

وقال أبو سليمان الخطابي : ولا يستحق اسم الحليم مَنْ سامح مع العجز عن المجازاة ، إنما الحليم الصفوح مع القدرة ، المتأني ؛ الذي لا يعجِّل بالعقوبة .

وقال أحد الشعراء في هـٰذا المعنىٰ :

لا يـدرك المجـد أقـوامٌ وإن كـرمـوا حتـىٰ يـذلُّـوا وإن عـزُّوا لأقـوام
ويُشْتَمـوا فتـرىٰ الألـوانَ مسفـرةً لا صفـح ذلٍّ ولـٰكـن صفـح أحـلام [2]

والفرق بين الحليم ، والصبور : أنه الذي لا يشمئز من الأمر ، ثم لا يستفزه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله علىٰ المسارعة إلىٰ الانتقام ـ مع غاية الاقتدار ـ عجلةٌ ، أو طيشٌ . كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [3] . إي لولا حلمه ما ترك علىٰ ظهر الأرض التي استخلفهم فيها من دابة تدبُّ بالحياة ، ولذلك جعل العقاب

(1) شرح النووي علىٰ مسلم ، ج 9 ، ص 180 .
(2) زاد المسير ، ج 1 ، ص 222 .
(3) النحل ، 61 .

الشديد مؤجلاً ، والثواب الجزيل مؤجَّلاً ؛ حتىٰ تكون الفرصة متاحةً للمغفرة لمن يتدبَّر أمرَه ، ويتذكَّر ، ويتفكَّر في خلق الحليم صاحب المغفرة .

ومعنىٰ الحليم ، والصبور في أسماء ٱلله متقارب ، إلا أنَّ الفرق بينهما : أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم .

وأرىٰ : أن الصبر مشتملٌ علىٰ صفة الحلم ، وليس العكس ، فلو لم يكن صبوراً علىٰ الأذىٰ ، وصبوراً في كبح جماح النفس الداعية للانتقام والمعاقبة علىٰ الإساءة بمثلها ؛ لما أمكن أن يكون حليماً يعفو عن الإساءة ، ويتسامح مع فاعلها ، بل أكثر من ذلك ؛ حيث يتيح له فرصة ليصلح ما أخطأ بقوله ، أو فعله . وهـٰذا الرأي ينطبق كل الانطباق علىٰ الإنسان لا علىٰ الذات الإلـٰهية ؛ لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يوجد نزاع بين نفسه وإرادته ، فهو حليم ، وصبور علىٰ المسيئين بإرادته دون أي مقاومة ، أما الإنسان الذي خلقه ٱلله عز وجل واستخلفه في الأرض ، كما قال تعالىٰ في العديد من الآيات منها قوله جل وعلا : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (3) .

---

(1) الحديد ، 7 .
(2) البقرة ، 30 .
(3) ص ، 26 .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) .

ولا يمكن أن يكون خلفاء ٱلله في الأرض جميع أبناء آدم الصالح منهم والطالح ، فلا يكون خليفة لله إلا من كان أهلا لذلك بصدق قوله ، وفعله ، وطاعته لله الذي يستمدُّ صفاته الخلقية منه ، وذلك بدليل تنكير لفظة (خليفة) في قوله تعالىٰ للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (2) . والنكرة تدل علىٰ العموم ، فلو كان المقصود بالخليفة كل أفراد بني آدم لعرَّفها للدلالة عليهم جميعاً ، ولٰكنه بتنكيرها يدل علىٰ أنَّ هناك من يستحق أن يكون خليفة له في الأرض ، وهو المؤمن المطيع الموحد المتصف بصفات ٱلله عز وجل ، وهناك من لا يستحق أن يكون خليفة فيها ، وهو العاصي والمشرك والكافر وغير المتصف بصفات ٱلله تعالىٰ .

فحظُّ العبد من وصف الحليم ظاهر ، فالحلم من محاسن خصال العباد وفي الحديث الشريف : « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم مرتبة الصائم القائم » (3) .

وقد حثَّنا ٱلله سبحانه وتعالىٰ علىٰ لسان نبيه عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن نكون ربانيين في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (4) .

ونحن نعتبر : أنَّ الأوامر التي أخبرنا بها ٱلله سبحانه وتعالىٰ في القرآن الكريم علىٰ لسان أنبيائه ـ صلوات ٱلله عليهم وسلامه جميعاً ـ هي أوامر لنا

---

(1) النمل ، 62 .
(2) البقرة ، 30 .
(3) المعجم الأوسط للطبراني ، ج 14 ص 33 .
(4) آل عمران ، 79 .

لأننا نؤمن بهم جميعاً ، ولا نفرق بين أحد من رسله ، ونؤمن بما أُنزِل إليهم من الكتب السماوية ؛ لأنها نابعة من مصدر واحد هو ٱلله ـ عز وجل ـ وبذلك أمرنا عز وجل في قوله تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (1) .

« والرباني منسوب إلىٰ الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة ، والرباني هو العالم بدين الرب ، القوي المتمسك بطاعة ٱلله » (2) ، ولعل الرباني هو العالم بدين ٱلله المتمسك بطاعته والمتصف بصفاته العُلىٰ ؛ ليكون بذلك أهلا لاستخلاف ٱلله في الأرض . ومن هٰذه الصفات : الحليم ، عزَّ وجل .

فالعبد الذي يستحقُّ أن يكون خليفة لله تعالىٰ لابدَّ أن يكون حليماً مع الناس يعفو عن سيئاتهم ، متسامحاً مع غفلتهم ، تاركاً لهم حرية الإرادة فيما يأمر به لأجل أن يكونوا خلائف مطيعين مصلحين غير ظالمين ، ولا مفسدين ، ولا سافكي دماء . قال تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (3) .

والأخذ بالعفو بالنسبة للحليم بالإضافة يعني : أن تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وأن تحسن إلىٰ من أساء إليك ؛ وأنت تقتدي بالحليم المطلق الذي تؤمن بأن كل شيء بيديه ، وهو يعفو بحلمه وقدرته ورحمته ، ولذا فالعفو من صفاته جل جلاله .

والإعراض عن الجاهلين يكون بعدم مكافأتهم في السفاهة ، وعدم مماراتهم فيها ، وبالحلم عنهم ، وبمقابلة السيئات بالحسنات .

---

(1) البقرة ، 136 .
(2) فتح القدير ، ج 1 ، ص 486 .
(3) الأعراف ، 199 .

والحِلم لا يكون حلماً مع الضعف والعجز عن المعاقبة ، والجهل بالفعل المحلوم عنه ، ولذلك فلابدَّ أن يستوجب الحلم عدة أشياء ضرورية لاعتباره حلماً ، منها :

1 ـ القوة :

فالحلم يعتبر ضعفاً إذا لم يكن الحليم قوياً ، فيكون بذلك مثلبةً لا مكرمةً .

وقد قال النابغة في ذلك :

ولا خيـر فـي حلـمٍ إذا لـم يكـن لـه مــواردُ تحمـــي صفــوَه أن يكـــدَّرا

وقد بين ٱلله عز وجل مدىٰ قوته في كثير من الآيات منها قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [1] ، أي : إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ عاقب الكفار من أهل الشرك الذين ماتوا في غزوة بدر بالموت ، والهلاك قتلاً ، كما أنه عز وجل عاقب آل فرعون بالموت ، والهلاك غرقاً .

وهـٰذا يدل علىٰ أن ٱلله ـ عز وجل ـ قويٌّ في أخذه للكفار شديد العقاب لمن عصاه ، ولا شيء يعجزه من إنزال عقابه علىٰ من يستحقُّه ، ولـٰكنه يصبر عليهم ، ويؤخر معاقبتهم حلماً بهم ، ولإتاحة الفرصة لهم للتوبة والرجوع عن الخطأ .

2 ـ العلم بالشيء ونفي الجهل به :

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ عالم عليم بدقائق الأمور وأخفاها ، كما يعلم عظائم الأمور وأظهرها ، ولا يُخْفىٰ عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ

(1) الأنفال ، 52 .

وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (1) ، وقال عز وجل : ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ (3) ، وقال جل من قائل : ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (4) ، وقال جل وعلا : ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ (5) .

والآيات الدالة علىٰ علم ٱلله كثيرة جداً ، وتشير كلُّها علىٰ أن ٱلله ـ عز وجل ـ لا تَخْفىٰ عليه خافية في هـٰذا الكون كله ، وأن علمه ببعض المعلومات لا يمنعه عن العلم بغيره ، فإنه تعالىٰ لا يشغله شأن عن شأن ، فقد قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (6) ، وبالبديهي : أن ٱلله تعالىٰ يعلم أعمال عباده المسيء منهم والمطيع ، وما يجول في نفوسهم وعقولهم ، فنحن جزء بسيط من هـٰذا الكون الكبير الذي يديره ٱلله ذو القوة المجيد ، وما العقاب ، والجزاء الذي كتبه ٱلله سبحانه وتعالىٰ علىٰ عباده إلاَّ عن علمه بمن يستحق الجزاء الحسن ، ومن يستحق العقاب . وإن أخَّره عنه في الدنيا ، ولم يعجل له به ؛ فلا يظن العبد العاصي : أن ٱلله تعالىٰ غافل عنه بتأخير عقابه ؛ لأن الغفلة في حقه مستحيلة ، وقد ذكر ٱلله تعالىٰ ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، مثل

---

(1) سبأ ، 3 .
(2) البقرة ، 77 .
(3) التوبة ، 78 .
(4) الأنبياء ، 4 .
(5) سبأ ، 2 .
(6) الأنعام ، 56 .

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [1] وأيضاً قوله تعالىٰ : ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [2] .

وأيضاً حذّر ٱلله عز وجل العباد من نفسه ، ومن عقابه مع تركه باب التوبة مفتوحاً أمام مرتكب المعاصي رحمةً به ، وحلماً عليه ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [3] وهـٰذا يكون مع الإنسان المستخلف في الأرض من قِبَل ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فإنه ينبغي له أن يتصف بصفات الخالق عز وجل ، وأن يكون حليماً مع الآخرين ، يعفو عن سيئاتهم حِلماً عن قدرةٍ وقوةٍ وعلمٍ فإنه إن لم يكن قوياً ؛ يُعتبر حلمه ضعفاً ، وإن لم يكن قادراً ؛ اعْتُبِرَ حلمه عجزاً ، وإن لم يكن عالماً اعْتُبِر حلمه غفلة ، وحمقاً .

والإسلام يحب أن يكون أتباعه أقوياء لا ضعفاء ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [4] ، وفي حديث أبي هريرة قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ ٱلله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير » [5] .

3 ـ القدرة :

إذا كان الحليم قادراً علىٰ مجازاة المسيء الذي حَلَمَ عليه ، وعفا عن

---

(1) آل عمران ، 99 .

(2) الأنعام ، 132 .

(3) البقرة ، 235 .

(4) الأنفال 60 ، 61 .

(5) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 142 .

إساءته برد الإساءة بمثلها ، أو بإنزال عقاب آخر قد يكون أكبر منها ، أو مساوٍ لها ؛ فإن عفوه وصفحه عن الإساءة مع هـٰذه القدرة يكون حِلماً أما إذا لم تكن لديه القدرة علىٰ المعاقبة ؛ فلا يكون عفوه حلماً بل يكون ضعفاً وعجزاً .

قدرة ٱلله عز وجل علىٰ أفعاله لا حدَّ لها ولا يحتاج في فعله إلىٰ آلات وأدوات ، ولا يحتاج إلىٰ تقدم المادة والمدَّة ، بل أمره إذا أراد أن يفعل فعلاً ما أن يقول له كن ، وبذلك أعلمنا ٱلله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] .

وقدرة ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا تفاوت فيها بين الأفعال الكثيرة والأفعال القليلة ، فقال عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] ، ولا يعود علىٰ ٱلله تعالىٰ من أفعاله تعبٌ ، ولا يمسه نصبٌ ، قال سبحانه تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [3] .

وفي تفسير قوله عز وجل : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [4] قال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء ٱلله أن يقيموا علينا الساعة لقولهم : ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [5] ، وهـٰذا يدل علىٰ عظم هـٰذا القول المفترىٰ علىٰ ٱلله ـ جل وعلا ـ سبحانه عمَّا يقولون ! فهو منزه عن أن يكون له ولد ، ولولا أنَّ ٱلله تبارك وتعالىٰ لا يضعه كفر الكافر ، ولا يرفعه إيمان المؤمن ، ولا يزيد هـٰذا في ملكه ، كما لا ينقص ذلك في ملكه ؛

---

(1) النحل ، 40 .
(2) النحل ، 77 .
(3) ق ، 38 .
(4) مريم 90 .
(5) البقرة ، 116 .

لانفطرت السموات ، وانشقت الأرض ، ولـٰكنه القدوس الحكيم الحليم لم يبال بما قاله المبطلون ، ولم يعاقب هـٰؤلاء الفجرة بما قالوه من أكاذيب في حقِّه ، سبحانه وتعالىٰ !

وقد رغَّبَ ٱلله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ في الحِلْم ، وذلك في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (1) ؛ حيث إنه في إجراء صفتي ﴿ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ علىٰ اسم الجلالة في هـٰذه الآية إيماء إلىٰ ذلك ، فمناسبة صفة العليم لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ ﴾ ظاهرة ، ومناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود هو ترغيب الرسول ﷺ في أليق الأحوال بصفة الحليم ؛ لأن همَّه عليه الصلاة والسلام التخلق بخُلُق القرآن (2) ، وقد قالت السيدة عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ : « كان خلقه القرآن » (3) .

وقد أجرىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نبيه محمد ﷺ صفاتاً من صفاته مثل رؤوف رحيم ، ومثل : شاهد ، فقد قال عز وجل في كتابه العزيز يصف سيدنا محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (4) وفي قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ (5) ، وأيضاً في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (6) .

وفي كلِّ تلك الآيات وغيرها دلالاتٌ واضحة علىٰ أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ

---

(1) الأحزاب ، 51 .
(2) التحرير والتنوير ، ج 11 ، 298 .
(3) مسند أحمد ج 5 ص 116 .
(4) التوبة ، 128 .
(5) المزمل ، 15 .
(6) الأحزاب ، 45 .

جعل أنبياءه الذين هم خلفاء ٱلله في أرضه بحق يتخلقون بصفاتٍ من صفاته عز وجل حتىٰ يسيروا كما يحب ٱلله بين خَلْقه ، فها هو وكما وصف سيدنا محمداً ﷺ في الآيات السابقة نراه يصف نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحليم وذلك في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (1) فقد أجرىٰ تعالىٰ وصف الحليم علىٰ سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في معاملته مع أبيه وقومه ، ولهـٰذا : الخليفة هو الذي يكون حليماً مع والديه ، ومع بني جنسه علىٰ الحق ، وفي غير معصية ٱلله تعالىٰ .

وبما أنَّ الأنبياء هم أفضل من وطئت أقدامهم وجه الأرض بما خصوا به من الرسالات ؛ فلابدَّ أن يكونوا قدوةً لنا نقتدي بهم في أفعالهم ، وأخلاقهم ، وأقوالهم ؛ حتىٰ نكون ممَّن يستحقون أن يكونوا خلفاء ٱلله ، عز وجل . فقد كان سيدنا محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يغري أصحابه بالحلم في كثيرٍ من المواقف ، فها هو يقول لعمر بن الخطاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « يا عمر ! أما علمت : أنَّ الحليم كاد أن يكون نبيّاً » (2) . وهـٰذا يبين لنا مكانة الإنسان الذي يتصف بصفة الحلم ، فلا يستخفه طيشٌ ، ولا غضبٌ ، بل يتأنَّىٰ ، ويفكر ، ويعفو عن المسيء إليه ، فيكون في ذلك خيرٌ كبيرٌ ، كما حدث مع الأعرابي في هـٰذا الحديث : فقد أسلم هو وألف رجل بعده بفضل ٱلله عز وجل وحلم النبي ﷺ ولو أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يحلم عليه ، وأطاع عمر بن الخطاب في قتله ، لما حدث ذلك الخيرُ كلُّه .

وكذلك في حلمه عن الرماة الذين خالفوا أوامرهُ في غزوة أحد ، وكانوا بذلك سبباً في نكسة المسلمين في تلك الغزوة . وفي قول الرسول ﷺ أيضاً : « إن ٱلله يحب الحليم الحيي الغني النفس المتعفف ،ويبغض الغني

---

(1) التوبة ، 114 .

(2) دلائل النبوة للبيهقي ، ج6 ، ص 168 .

الفاحش البذيء ، والسائل الملحف »[1] .

اللهُمَّ اجعلنا ممن يتخلقون بأخلاق أنبيائك ، ويتصفون بصفاتك العُلا ، واجعلنا من الطائعين لأمرك ! واستغفر ٱلله من كل خطيئة ، أو ذنب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

والحلم صفة من صفات ٱلله ـ عز وجل ـ ولا بد أن نقدر صفات ٱلله وأسمائه جميعاً حقَّ قدرها ، فلا نكون كالذين استخفوا بها ، واستعجلوا عقاب ٱلله استهزاءً ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] .

فالحلم فوق أنه صفة كريمة تدل علىٰ الحكمة والعلم والصبر إلا أنه يدلُّ باللزوم علىٰ عدَّة صفات أخرىٰ ، فهو يدل علىٰ الحياة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والغنىٰ ، والعزة ، والرأفة ، والرحمة ، وعلو الشأن ، والعظمة ، وغير ذلك من صفات الكمال ، وهي صفات ثابتة في ذات ٱلله ـ عز وجل ـ ويستحيل في حقه عكسها .

أما في ذات الإنسان وهو مخلوق ، فإن هـٰذه الصفات ليست ثابتةً في ذاته ، ولا يستحيل عكسها في حقِّه ، فإنه لا يتصف بهـٰذه الصفات الكريمة إلا من تقرب إلىٰ ٱلله عز وجل بالطاعة والعبادة ، ومن حرص علىٰ الاقتداء بالأنبياء ـ عليهم صلوات ٱلله وسلامه ـ في أخلاقهم فيتخلق بأخلاق القرآن الكريم ويعمل جاهداً علىٰ الاتصاف بصفات ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فيكون بذلك قد دخل دائرة الخليفة الذي قصده تعالىٰ في قوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] . والإنسان المستخلف في الأرض لا بد أن يكون راجح العقل

---

(1) تفسير الطبري ، ج 5 ، ص 600 .
(2) الأنفال ، 32 .
(3) البقرة ، 30 .

حتىٰ يكون حلمه في موضعه ومع من يستحقه ، فالحلم في غير موضعه لا يعدُّ حلماً .

ويدخل تحت صفة الحليم أيضاً صلة الرحم ، فالإنسان يجب عليه أن يصل رحمه ، ولا يقطعه أبداً ، وإن كان منهم إساءة في حقه ، فالواجب عليه أن يتجاوز عن هـٰذه الإساءة بحلمه ، ويقابلها دائماً بالإحسان إليهم ، ومداومة وصلهم ، فهم أولىٰ بحلمه من غيرهم ، وقد قال رسول ٱلله ﷺ في حديث أبو هريرة : « ألا أدلكم علىٰ مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول ٱلله ! قال : « صل من قطعك ، وأعطِ من حرمك ، واعفُ عمَّن من ظلمك » [1] .

وكل هـٰذه الأخلاق تكون حلماً علىٰ الآخرين ؛ لأن فيها صبراً علىٰ أذاهم ، بل أكثر من ذلك : إنه يقابل إساءتهم من قطيعةٍ وحرمان وظلم ، بالإحسان إليهم المتمثل في الوصل والعطاء والعفو عن الظلم مع القدرة علىٰ الانتقام .

والحلم صفةٌ عامة يتبعها عدة صفات داخلة فيها ، أو هي من توابعها ، وكل هـٰذه الصفات هي صفات حميدة ، يُمْدَح من يتصف بها ، وتهفو إليها كل النفوس السليمة ، والقلوب المؤمنة ، ومنها :

1 ـ الكرم :

فالحلم يعتبر كرماً من الحليم علىٰ المحلوم عنه بتجاوزه عن إساءته ، وعدم إجراء العقاب في حقه مع استحقاق المسيء لذلك العقاب قصاصاً عادلاً ، ولـٰكن تكرُّماً من الحليم لم يعاقبه علىٰ إساءته مع قدرته عليه ، بل تسامح تاركاً باب الإصلاح مفتوحاً .

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 17 ، ص 118 .

وقد ورد هـٰذا المعنىٰ في تفسير قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ [1] . أي : المتجاوز الحليم عن جهل العباد [2] ، « وهو الأكرم الذي له الكمال في زيادة كرمه علىٰ كل كرم ، يُنْعم علىٰ عباده النعم التي لا تحصىٰ ، ويحلُم عنهم ، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه ، وركوبهم المناهي ، وإطراحهم الأوامر ، ويقبَل توبتهم ، ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم . فما لكرمه غاية ، ولا أمد ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرمٌ » [3] . وفي هـٰذا الأمر ألحق ٱلله تعالىٰ يبين ما في الآية السابقة بقوله : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [4] : أن القلم رحمة والعلم رحمة والكتابة بالقلم حلم من الحليم بحال المستخلفين في الأرض ، سبحانه جل جلاله !

وعليه : الحليم هو الذي يعلم الصعاب ، ويعلم بالأحوال ، ويذلل الصعاب استجابة للأحوال ، فبحلمه خلق القلم ، وأنزل العلم ، وربط العلاقات بين القلم ، والعلم ، والعليم ، والمتعلم ، فكان الحق قولاً ، وعملاً ، وكان العدل والميزان حلماً بأحوال العباد حتىٰ لا يظلم أحدُ أحداً ، وهـٰذه رحمة من رحمته الواسعة التي بها جعل العباد مستخلفين فيها ليصلحوا ، ولا يفسدوا ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [5] .

---

(1) العلق ، 3 .

(2) تنوير المقباس ، ج 2 ص 148 .

(3) تفسير الكشاف ، ج 7 ص 155 .

(4) العلق ، 5 ، 4 .

(5) التغابن 16 ـ 18 .

2 ـ الرحمة :

وأيضاً يعتبر الحلم رحمةً من الحليم القوي الذي يعلم من نفسه القدرة علىٰ معاقبة من أساء في حقه لو أراد ذلك بالمسيء المحلوم عنه لا لعجزٍ ولا خوفٍ ، ولـٰكن رحمةً به وإتاحةً للفرصة له للتوبة والندم حتىٰ يكون ممن ينالون الثواب بدل العقاب . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (1) .

ويتضح هـٰذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (2) . فتأخير العقوبة عن الظالمين من بني آدم هو نتاج حلم الحليم المطلق ـ جل جلاله ـ وهو رحمةٌ من ٱلله بالمذنب نفسه ، بإعطائه فرصة للتوبة لسببين :

السبب الأول : لغاية استخلافية حيث إن أصل خلقه في أحسن تقويم .

والثانية : لتكون له الجنة عاقبة مع المتقين الذين كانوا هم المستخلفين في الأرض .

فعن ابن مسعود قال : « كاد الجعل يهلك بذنب ابن آدم » ، وقيل لو أُهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء (3) .

---

(1) الأنعام 54ـ56 .
(2) النحل ، 61 .
(3) تفسر الكشاف ، ج3 ص 367 .

وقد فسَّر ابن عاشور في تفسيره قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [1] بأنها استئناف الثناء علىٰ سيدنا إبراهيم ﷺ ، و(أواهٌ) فُسِر بمعانٍ ترجع إلىٰ الشفقة ، إما علىٰ النفس ، فتفيد الضراعة إلىٰ ٱلله والاستغفار ، وإما علىٰ الناس ، فتفيد الرحمة بهم ، والدعاء لهم لأجل الهداية إلىٰ الحق [2] .

3 ـ **الرفق** :

والحلم كذلك يُعْتبر رفقاً من الحليم بالمحلوم عنه ، فالحليم ترك المعاقبة للمسيء ترفقاً به ؛ لعلمه : أنه لن يطيقَ ما يمكن أن يقع عليه من العقاب ، وأملاً في أن يندم علىٰ إساءته ويرجع عنها حتىٰ لا يتعرَّض للعقاب ؛ إن لم يتب ويستغفـر . وفـي حـديـث عـائشـة ـ رضـي ٱلله عنهـا ـ قـالـت : قـال رسول ٱلله ﷺ : « إن ٱلله رفيقٌ يحب الرفق ، ويعطي علىٰ الرفق ما لا يعطي علىٰ العنف ، وما لا يعطي علىٰ ما سواه » [3] .

وعنها أيضاً ؛ قالت : قال رسول ٱلله ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه » [4] ، وقد جعل النبي ﷺ من لا يتصف بالرفق محروماً من الخير كما جاء في حديث جرير بن عبد الله ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من يُحرم من الرفق يُحرم الخير كلَّه » [5] .

فعلىٰ عباد ٱلله الذين يحسنون عبادتهم ، ويطيعون خالقهم ، ويدركون معنىٰ أن يكون العبد خليفةً لخالقه ، ومعنىٰ أن يستخلفه خالقه في شيءٍ ماأن

---

(1) التوبة ، 114 .
(2) التحرير والتنوير ، ج6 ص 393 .
(3) صحيح مسلم ، ج 12 ص 486 .
(4) صحيح مسلم ، ج 12 ، ص 487 .
(5) صحيح مسلم ، ج 12 ص 485 .

يحرصوا كل الحرص علىٰ الاتصاف بصفات ٱلله عامةً ، ويتخلق بخلق رسول الله ﷺ ؛ وذلك بأن يكون حليماً في حياته مع من سواه من العباد : حليماً مع والديه ، وأبنائه ، وزوجه ، وجيرانه ، وأصدقائه ، وزملائه ، وعلىٰ كل من يتولىٰ أمرهم أو يؤتمن عليهم ، فيكون بذلك قد اكتسب كل الصفات التي يتضمنها الحليم من رفقٍ ورحمةٍ وكرمٍ ، وغيرها من الصفات التي تعد من فضائل الأخلاق ، فينال بذلك احترام وتقدير العباد له كجزاء دنيوي من ٱلله سبحانه وتعالىٰ وينال رضا ٱلله عنه في الآخرة ، ويكون بذلك فيمن يستحقون أن يتشرفوا بخلافة ٱلله ، وأن يكونوا خلفاءَ للمولىٰ في الأرض ، فينالون بذلك فضل الدنيا والآخرة .

وخلاصة القول في ذلك : أن الحلم هو : تجرُّع الغيظ ، ودعامة العقل وعلامة علو الهمة والثقة بالنفس ، فلا يحركها الغضب بسرعة .

وأنَّ الحليم لهو من أوسع الناس صدراً ، وألينهم عريكةً ، وأشدهم ثباتاً وأقواهم جناناً ، فلا تستفزه بدايات الأمور ، وينظر إلىٰ عواقبها ومآلاتها ، ولذلك من يفتقد هـٰذه الخِلَّة قد يُفْسِد أكثر مما يُصْلِح .

والحلم من الصفات التي يحبها ٱلله في عباده ، فعلىٰ العبد أن يدرك : أنَّ توحيد ٱلله في اسمه الحليم مقتضاه أن يكون الموحد حليماً صبوراً يتأنىٰ في رأيه وحكمه وقوله وفعله ، ويتخيَّر ما هو أنفع له وللآخرين ، ويبادر بالتوبة إلىٰ ٱلله الحليم . روىٰ مسلم من حديث ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أن النبي ﷺ قال لأشج بن عبد القيس : « إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الحِلْمُ وَالأَنَاةُ » [1] . وفي رواية أخرىٰ عند أبي داود وحسنها الألباني : « إِنَّ فِيكَ خَلتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ : الحِلمُ وَالأَنَاةُ » . قَال : يَا رَسُول ٱللهِ ! أَنَا أَتَخَلقُ بِهِمَا ، أَمِ ٱللهُ جَبَلنِي عَليْهِمَا ؟ قَال : بَل ٱللهُ جَبَلكَ عَليْهِمَا » . قَال الحَمْدُ للهِ الذِي

(1) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 107 .

جَبَلَنِي عَلَىٰ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ » [1] .

وعلينا أن نعرِّف الحلم ، والإمهال : إنَّ كلَّ حلم إمهال ، وليس كلُّ إمهال حلماً ؛ لأن ٱلله تعالىٰ لو أمهل من أخذه لم يكن هـٰذا الإمهال حلماً ؛ لأن الحلم صفة مدح والإمهال علىٰ هـٰذا الوجه مذموم ، وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الاصطلاح فالإمهال تفضل ، والانتقام عدل ، وعلىٰ هـٰذا يجب أن يكون ضد الحلم السفه إذا كان الحلم واجباً لأن ضده استفساد فلو فعله لم يكن ظلماً إلا أنه لم يكن حكمة ، ألا ترىٰ : أنه قد يكون الشيء سفهاً وإن لم يكن ضدُّه حلماً . وهـٰذا نحو صرف الثواب عن المستحق إلىٰ غيره ؛ لأن ذلك يكون ظلماً من حيث حرمان من استحقه ، ويكون سفهاً من حيث وضعه في غير موضعه ، ولو أعطي مثل ثواب المطيعين من لم يطع ؛ لم يكن ذلك ظلماً لأحد ، ولـٰكن كان سفهاً ؛ لأنه وضع الشيء في غير موضعه ، وقولنا : ٱلله حليم من صفات الفعل ، ويكون من صفات الذات بمعنىٰ أهل لأن يحلم إذا عصي ، ويفرق بين الحلم ، والإمهال من وجه آخر ، وهو : أن الحلم لا يكون إلا عن المستحق للانتقام ، وليس كذلك الإمهال ألا ترىٰ : أنك تمهل غريمك إلىٰ مدة ، ولا يكون ذلك منك حلماً ، ولذا فالحلم لين ، والحليم عطوف رؤوف بحال من هم في حاجة ، فيتجاوز عنهم حتىٰ يعلموا : أنه رؤوف رحمـٰن رحيم .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ إذاً الحليم هو الذي يعلم ما في أنفسنا ، وهو الذي لا تخفىٰ عنه خافية ، فهو يعلم الظاهر والباطن وهو علىٰ كل شيء قدير ، ولأنه كذلك لو شاء ؛ لعاقبنا علىٰ ما في أنفسنا من شكوك أو ظنون أو نوايا حيث لا كمال في العباد . وفي ذلك جاء في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة

---

(1) سنن أبي داود ، ج 1 ، ص 457 .

« الحليم : هو الذي يَدِرُّ علىٰ خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم ، وكثرة زلاتهم ، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم » [1] .

وحلمه : أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه ؛ حتىٰ إنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوىٰ عليها بنعم ربه ، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به ، فيستره بما يقيِّض له من أسباب الستر ، ويعفو عنه ويغفر له ، فهو يتحبَّب إلىٰ عباده بالنعم ، وبعضهم يتبغَّضون إليه بالمعاصي .

ويستحي تعالىٰ ممَّن شاب في الإسلام أن يعذبه ، وممَّن يمد يديه إليه أن يردهما صفراً ، ويدعو عباده إلىٰ دعائه ، ويعدهم بالإجابة ، وهو الحيي الستِّير يحب أهل الحياء والستر ، ومن ستر مسلماً ستر ٱلله عليه في الدنيا والآخرة ، ولهـٰذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها ، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس ، وإنَّ من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره ، فيصبح يكشف ستر ٱلله عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

الحليم جل جلاله هو الذي يشاهد معصية العصاة ، ويرىٰ مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله علىٰ المسارعة إلىٰ الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ص 55 .
(2) النور 19 ، 20 .

أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

الحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة فكل من لا يعاجل بالعقوبة سمي فيما بيننا حليماً ، وليس قول من قال : « إن الحليم هو من لا يعاقب » بصواب ، وفي ذلك قال الشاعر :

حليمــاً إذا مــا نــال عــاقــب مجمــلاً أشـــدَّ العقــاب أو عفــا لــم يثــرَّب

ولذا فالْحَلِيمِ هو من يصفح مع امتلاكه للقوة ، والقدرة ، وهو الذي بيده الأمر ، ولا يعجِّل بالعقوبة ، وهو الَّذِي لا يَحْبِسُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ عَنْ عِبَادِهِ لأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ يَرْزُقُ الْعَاصِي كَمَا يَرْزُقُ الْمُطِيعَ ، وَيُبْقِيهِ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ فِي مَعَاصِيهِ ، والحليم سبحانه صبور يتمهل ولا يتعجل ، فهو يمهل عباده الطائعين ؛ ليزدادوا من الطاعة والثواب ، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون للطاعة والصواب ، ولو أنه عجَّل بالجزاء أحداً ما نجا أحد من عقاب ، ولٰكن ٱلله سبحانه هو الحليم ذو الصَّفحِ والأناةِ ، استخلف الإنسان في أرضه ، واسترعاه ، واستبقاه في هٰذه الحياة إلىٰ يوم موعود ، وأجل محدود .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ وهٰذا مدح عظيم من ٱلله تعالىٰ للخليفة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولذا فالحليم هو الذي لا يتعجَّل بمكافأة غيره ، بل يتأنىٰ فيه فيؤخر ويعفو ، ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض بالحق يصلح فيها ، ولا يفسد ، ولا يسفك دماً بغير حق ، ويتقي ٱلله ربه في القول ، والفعل ، والعمل .

الدعاء باسم الحليم :

قد ورد الدعاء باسم الحليم دعاء مسألة في العديد من الأحاديث النبوية

---

(1) النحل 61 ـ 64 .

الشريفة ، فعن ابن عباس ؛ قال : كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب : « لا إلـٰه إلا ٱلله العظيم الحليم ، لا إلـٰه إلا ٱلله رب السموات والأرض رب العرش العظيم » [1] .

ورویٰ الترمذي عن عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : كان رسول ٱلله ﷺ يقول : « اللهُمَّ عافني في جسدي ، وعافني في بصري ، واجعله الوارث مني ، لا إلـٰه إلا ٱلله الحليم الكريم سبحان ٱلله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » [2] .

وعليه الحلم يقوم علىٰ ثنائية طرفاها : (الإمهال ، والقدرة) ، فلا حلم بدون مهلة تسمح بالتراجع أو التغيير ، ولا حلم بدون قدرة علىٰ الانتقام أو العقاب ؛ لان الحليم هو الصفوح عن الذنب مع القدرة علىٰ المؤاخذة به [3] .

وحلم الحليم لاشك فيه إمهال ، وهو جزء من حلمه سبحانه ؛ لأن كل حلم إمهال ، وليس كلُّ إمهالٍ حلماً ؛ لأن ٱلله تعالىٰ لو أمهل من أخذه ؛ لم يكن هـٰذا الإمهال حلماً ؛ لأن الحلم صفة مدح ، والإمهال علىٰ هـٰذا الوجه مذموم ، وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصطلاح فالإمهال تفضل ، والانتقام عدل ، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر ، وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحق للانتقام ، وليس كذلك الإمهال ألا ترىٰ أنك تمهل غريمك إلىٰ مدة ولا يكون ذلك منك حلماً . وقال بعضهم : لا يجوز أن يمهل أحدٌ غيره في وقت إلا ليأخذه في وقت آخر [4] .

---

(1) صحيح البخاري ، ج 19 ، ص 426 .
(2) سنن الترمذي ، ج 11 ، ص 384 .
(3) البحر المحيط ، ج 2 ، ص 374 .
(4) الفروق اللغوية ج 1 ، ص 198 .

وعلىٰ ذلك يمكن أن نحدد بعض ملامح إمهال الحليم ؛ وهو علىٰ نوعين :

أولاً : الإمهـال المطلـق : وهـو الإمهـال الـذي عـمَّ بـه الحليـم خلقـه بالعموم ، ولم يخصَّ به أحداً من خلقه ، وهو راجع إلىٰ إرادته عز وجل ، وله غايات منها :

أ ـ **العودة عن المعصية** : إنَّ الحليم هو المريد لإسقاط العقوبة في الأصل عن المعصية [1] ، ولهـٰذا كان الإمهال وهدفه المراجعة والتفكر في أمر المعصية التي يقوم بها العبد من خلال الآيات : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [2] ، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [3] ، فهـٰذه الآيات وغيرها من آيات الحليم سبحانه وتعالىٰ هي للتفكر والتدبر ومراجعة العمل وأخذ الدروس والعبر ، ومثلها الأمثال ، يقول الحليم سبحانه ضارباً الأمثال : ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [4] ، فعلينا التدبر ، ويقول عز من قائل : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [5] ، وفي تفسير الرازي : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ يعني : حقيقتها ، وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوىٰ ٱلله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنىٰ حكميٌّ ، وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل ، والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم ،

---

(1) الأسماء والصفات للبيقهي ص 349 .
(2) الفرقان 37 .
(3) العنكبوت 35 .
(4) إبراهيم 45 .
(5) العنكبوت 43 .

وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر ؛ أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً ، وكون المدرك عاقلاً ، ولا يحتاج إلىٰ كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلىٰ علم سابق فلابدَّ من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً في غاية الدقة فيدركه ، ولا يدركه بتمامه ، ويعقله إذا كان عالماً . إذا علم هـٰذا ؛ فقوله : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ يعني : هو ضرب للناس أمثالاً وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها ، فلا يدركها إلا العلماء »[1] .

وهـٰذه الأمثال تُضرب لإثارة العقل الإنساني ، ودعوته للتفكر في الدواعي والأسباب الموجبة لضرب هـٰذا المثل ، ثم استخلاص العبر من أجل حصول الفائدة ، وفي ذلك كله مهلة زمنية تتاح للعبد لكي ينجلي عنده ظلام الضلال ، وينبجس صبح الهداية ، وهـٰذا المراد من ضرب الأمثال من الحليم .

ثم يأتي أهل الذكر من المتبحرين في كتاب ٱلله وسنة نبيه وهـٰؤلاء من علامات الهدىٰ التي أمر الحليم عباده بالعودة إليهم لاستبيان الحق . فقال عزَّ من قائل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، هـٰذه كلها من دوافع التذكر والعودة ، فإذا استنفد العبد كل ذلك ولم يرجع عن معصيته إلىٰ طاعة الخالق عز وجل ؛ يحل عليه غضب ٱلله ، ويكون قد دخل في ساعة العقاب علىٰ ما يشاء ٱلله سبحانه ، فإن شاء ؛ عاقب ، وإن شاء ؛ مد المهلة ، وٱلله واسع عليم رحيم كريم .

ومدُّ المهلة أكثر قرباً من حظ العبد ؛ لأن الحليم وهو الذي يؤخر العقوبة علىٰ مستحقيها ، ثم قد يعفو عنهم[3] ، وهو الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان ، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً ، فهو يمهلهم ؛

---

(1) تفسير الرازي ج 12 ، ص 172 .

(2) النحل 43 .

(3) الاعتقاد للبيقهي ج 1 ، ص 58 .

ليتوبوا ، ولا يهملهم إذا أصروا ، واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا [1] .

ب ـ **الزيادة في الطاعة** : ويكون من غايات مهلة الحليم أن يزداد العباد علوا في درجات الطاعة أملا في زيادة الأجر والثواب وارتقاء الدرجات العلىٰ في اليوم الآخر ، وقد دعاهم الحليم إلىٰ ذلك ورغبهم فيه فقال جل جلاله : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [2] . وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلىٰ طاعة ٱلله .

وقد وصفهم الحليم بأنهم من ذوي الألباب الذين يعرفون حق ٱلله فيزيدون في طاعته ، ويكثرون من ذكره طمعاً في زيادة أجره ، وهم يعلمون : أنه الكريم : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [3] .

وهٰذا من لطف الحليم المتصف بالحلم ، والحلم صفة كريمة تقوم علىٰ الحكمة والعلم والصبر ، والحليم سبحانه صبور يتمهل ، ولا يتعجل ، فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ؛ ليزدادوا من الطاعة ، والثواب [4] .

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ص 95 .

(2) المطففين 22ـ26 .

(3) آل عمران ، 190ـ194 .

(4) أسماء الله الحسنىٰ ، ص 30 .

والموصوفون هنا بالعلم (ذوي الألباب) يدركون رحمة الحليم بهم في مسألة الإمهال لزيادة الثواب ، فهم يسعون للوصول إلىٰ درجة المقربين : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (1) ، أو أن يكونوا من أصحاب الدرجات العلىٰ : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (2) ، أو أن يكونوا من المفلحين أصحاب الفوز العظيم : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (3) ، وهم في كل ذلك يهزهم الشوق إلىٰ مزيد الحليم المخفي الذي وعدهم ، فشَّوقهم ، وجعلهم يتنافسون في الطاعات ، ويرغبون في المزيد : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (4) ، انظر عظمة العطاء ، هو الجنة بكل ما فيها وبكل عظمتها تتحرك باتجاههم وليس هم من يركض إليها ! اللهُمَّ يا حليم اجعلنا منهم وأمة حبيبك محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه !

ج ـ **الزيادة في الإثم** : ومن غايات المهلة ما خُص به الكافرون لعلة الكفر والإصرار عليه ، وذلك لزيادة الإثم ، يقول الحليم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (5) ، فالمهلة هنا مهلة زمنية ومادية ؛ حيث إن

---

(1) الواقعة 88ـ89 .
(2) طه 75ـ76 .
(3) التوبة 88ـ89 .
(4) ق 31ـ35 .
(5) آل عمران 178 .

الإمداد المادي يحتاج بكل تأكيد إلىٰ مساحة زمنية ، والغاية زيادة ارتكاب الإثم ، وهـٰذا ما تؤكده الآية الكريمة التي يقول الحليم سبحانه وتعالىٰ فيها : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (1) .

وتبقىٰ رحمة الحليم أوسع من سخطه ، فلو حدث أن انتبه أحد من الذين كفروا ، وعاد إلىٰ ٱلله مخلصاً ؛ فإنه سيجد ٱلله تواباً بحلمه وكرمه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) ، وسيجد من ٱلله رحمة في الدنيا واسعة ، فإذا عاد عاد ٱلله عليه بالنقمة والعذاب : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (3) .

هـٰذا الحديث كان عن المهلة المطلقة ، وهي مطلقة من حيث النوع ، وليس من حيث الزمن ، فالمطلق هنا البشر من عبيد ٱلله ، وليس الزمن ، فلا زمن مطلق لأي شيء سوىٰ الخلود الأخروي إما في الجنة جعلنا ٱلله من الخالدين فيها : ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (4) ، وإما في النار أجارنا ٱلله من عذابها ! ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (5) .

---

(1) المؤمنون 52ـ56 .
(2) النساء 110 .
(3) البقرة 275 .
(4) آل عمران 15 .
(5) البقرة 161ـ162 .

ثانياً : الإمهال المحدد : وهو ما كتب ٱلله له الانتهاء بعد فعل ، أو زمن ، فالحليم عليم بعباده وبمتغيرات وتقلبات نفوسهم ؛ لذا فقد شملهم بالمهلة ، وكتب عليهم ثوابت من عنده ، فإذا أخلُّوا بها ؛ انتهت المهلة التي حددها الحليم لهم ، فربما يكون الانتهاء بعد فعل مشروط ، أي أن يفعل العبد فعلاً منع منه ، ونبه إلىٰ عاقبته ، كما فعل بنو إسرائيل : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [1] . فقد اقترن انتهاء المهلة بفعل الإحسان ، فإذا انتهىٰ الإحسان ؛ انتهت المهلة ، وكذلك فإن كل انتهاء لمهلة الحليم يرتبط بكل تأكيد بفعل العباد ، فمتىٰ ما غيروا ؛ انتهت مهلة الرحمة ، وبدأ العذاب : ﴿ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [2] .

وقد يكون الانتهاء بعد زمن قدَّره الحليم سبحانه وتعالىٰ ، فهو لا يُعجِّل العقاب للعصاة قبل وقته المقدر [3] ، وهي مهلة محدَّدة جعلها الحليم سبحانه كنوع من التحدي للأقوام التي وعدها بالعذاب ؛ حيث حدَّدها في الغالب بزمن مخصوص ، فهل يستطيع هـٰؤلاء ردَّ العذاب وعندهم مهلة للتفكر وتدبير أمر إن شاؤوا ؟ وقد أعطىٰ قوم ثمود مهلةً محدودة ، وتحدَّاهم أن يقدروا علىٰ رد

---

(1) الإسراء4ـ8 .
(2) الرعد 11 .
(3) المواقف الإيجي ، ج 3 ، ص 319 .

العذاب ، فقال تعالىٰ : ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [1] . وأمهل قوم لوط مهلة الليلة ، فقال : إن موعد العذاب الصبح : ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [2] .

وإذا سأل سائل : لماذا الإمهال ؟ نقول : لأنه الحليم ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [3] .

فإذا قال : لماذا هو حليم ؟ نقول : لأنه العليم ، ولماذا هو عليم ؟ لأنه الخالق : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [4] .

فالله هو الخالق ، والعليم بخلقه ، الحليم بهم ، فقد خلق الخلق ؛ وهو يعلم ما به من النقص الحاصل أمام كماله جل شأنه ، فكان حليماً به ، هٰذا النقص نتج عنه ضعف في العبد يتمثل في الآتي :

1 ـ **أنَّه هلوع** : أي : ألا يَصْبِرُ علىٰ خَيْرٍ ولا شَرٍّ حتىٰ يَفْعَلَ في كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرَ الحَقِّ [5] ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [6] ، هٰذا الهلع يوقع العبد في الذنب أحياناً ، فلو لم يجد المهلة من الحليم سبحانه للتراجع ، والاستغفار لهلك ، فسبحان الحليم العليم .

وعلىٰ الخليفة أن يفهم هٰذه الخصلة في نفسه ، وفي غيره ، فيعامل

(1) الذاريات 43ـ45 .
(2) هود 81 .
(3) البقرة 235 .
(4) الحجر 86 .
(5) تاج العروس 1 ، 53 .
(6) المعارج 19 .

العباد معاملة العارف بهلعهم من حيث حلمه عليهم ، وإدراكه لما يصيبهم من علل تؤدي بهم إلىٰ الوقوع في الخطأ .

2 ـ **أنّه عجول** : قال تعالىٰ : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (1) ، والعجالة شكل من أشكال الضعف ، إما أمام رغبة يتعجل في تحقيقها ، أو في قول يسبق إلىٰ النطق به ، وهـٰذا محاسب عليه كما الفعل ؛ لأن سبحانه يقول : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (2) ، وهـٰذه العجالة يصاحبها في الغالب عمل يتعدىٰ به حدود ٱلله ، أو ينتج عنه معصية ، ولو لم يكن الحلم منه عز وجل ؛ لحل بالعباد غضب ٱلله ، ونزلت بهم عقوبته ، وعلىٰ الخليفة أن يتأنىٰ في النظر إلىٰ الأمور ، وأن يتأنىٰ في الحكم علىٰ الأشياء حتىٰ لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد الحليم له أن يكون من فعلٍ ، أو قول .

3 ـ **أنّه جزوع** : وهو قلة الصبر : ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (3) ، وهو من أمراض النفس المؤقتة التي تدفع بالإنسان إلىٰ ارتكاب عمل خارج عن الطاعة ، وما أن ينتهي الجزع حتىٰ يعود الإنسان إلىٰ رشده ، ولو لم يكن الإمهال من الحليم الرحيم بحيث يرجع العبد إلىٰ استقراره النفسي ، ثم يستغفر ، ويتوب ؛ لوقع في غضب ٱلله سبحانه وتعالىٰ .

4 ـ **أنّه مَنُوْع** : أي مانع للخير : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (4) ، وإذا كثر ماله ، ونال الغنىٰ ؛ تراه يبخل علىٰ المحتاج ، فلا ينفق في سبيل ٱلله ، ولا يقرض محتاجاً مع توصية الحليم له بذلك ، بل أكثر من ذلك : فقد

---

(1) الإسراء 11 .
(2) ق ، 18 .
(3) المعارج 20 .
(4) المعارج 21 .

نسب الاقتراض بمجمله إليه بقوله : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] ، فلو لم تكن من مهلة لكي يتراجع العبد بعد أن يرىٰ الآيات ، ويتدبر الأمثال ، ويستمع لأهل الذكر ؛ لوقع عليه سخط ٱلله عندما يمنع ، فالمهلة هنا رحمة من الحليم الرحيم بعباده .

5 ـ **أنَّه ضعيف** : قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [2] ، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم ، فقد ضعف آدم أمام الشيطان ، فاستجاب لدعوته بمخالفة الخالق : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [3] ، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [4] ، والآيات التي توضح صورة الضعف الإنساني

---

(1) الحديد 11 .

(2) النساء 28 .

(3) الأعراف 19ـ22 .

(4) المائدة 27ـ31 .

كثيرة ، وكلها تشير إلىٰ أن الإنسان غير قادر علىٰ أن يكون قوياً بالمطلق ؛ لأنه ليس القوي المطلق ، فالقوي المطلق هو ٱلله ، فكان لابد أن يظهر الضعف فيمن سواه ، هـٰذا الضعف يحتاج إلىٰ مهلةٍ يستعين بها العبد ، فيتقوىٰ بالطاعة والعودة والإنابة إلىٰ ٱلله الحليم .

هـٰذه مفسرات دواعي المهلة وغيرها يعلمها الحليم الحكيم جل جلاله .

أمَّا الطرف الثاني من ثنائية الحلم فهي القدرة ، وهي قدرة الأخذ ، وقدرة الترك معاً ، فهو سبحانه حليم لا تهزه معصية العاصي ؛ لأنها لا تضره ، ولا تنفعه سبحانه وتعالىٰ ، فهو الغني القادر ، « وهو الذي يشاهد معصية العصاة ويرىٰ مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزُّه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله علىٰ المسارعة إلىٰ الانتقام مع غاية الاقتدار عجلةٌ ، وطيش »[1] ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[2] .

فقدرة الحليم حاصلة بالدليل ، فكلُّ الأقوام المُهلكة أدلةٌ علىٰ قدرته سبحانه وتعالىٰ ويكفي أن نذكر عاداً ، وثمود لنقول : سبحان القادر ! ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[3] .

وهو حليم في عطائه ، فهو « الَّذِي لا يَحْبِسُ إِنْعَامَهُ وَأَفْضَالَهُ عَنْ عِبَادِهِ لأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ يَرْزُقُ الْعَاصِي كَمَا يَرْزُقُ الْمُطِيعَ ، وَيُبْقِيهِ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ فِي مَعَاصِيهِ كَمَا يُبْقِي الْبَرَّ التَّقِيَّ ، وَقَدْ يَقِيهِ الآفَاتِ وَالْبَلايَا وَهُوَ غَافِلٌ لا يَذْكُرُهُ

(1) المقصد الأسنىٰ ، الغزالي ، ج 1 ، 103 .
(2) النحل 61 .
(3) الحاقة 4ـ6 .

فَضْلاً عَنْ أَنْ يَدْعُوَهُ كَمَا يَقِيهَا النَّاسِكَ الَّذِي يَسْأَلُهُ ، وَرُبَّمَا شَغَلَتْهُ الْعِبَادَةُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ » [1] .

فالرزق شامل للجميع بحلم الحليم سبحانه : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] ، فهو الذي يَدِرُّ علىٰ خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم وكثرة زلاتهم ، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم [3] .

وحلمه سبحانه وتعالىٰ فيه مودة واضحة الملامح للقاصي والداني ؛ لأنه الودود ، فالعبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إلىٰ ٱلله ، حتىٰ إنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوىٰ عليها بنعم ربه ، والربُّ مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه ، وفضيحته ، وإحلال العقوبة به ، فيستره بما يقيِّض له من أسباب الستر ، ويعفو عنه ، ويغفر له ، فهو يتحبب إلىٰ عباده بالنعم ، وهم يتبغَّضون إليه بالمعاصي ، خيره إليهم بعدد اللحظات ، وشرهم إليه صاعد ، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي ، وكلِّ قبيح [4] .

وحلم الخليفة يكون كحلم إبراهيم الذي حمده الرب الحليم سبحانه وتعالىٰ ، فقال عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [5] . وهـٰذا مدح عظيم من ٱلله تعالىٰ لإبراهيم ، فالحليم هو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره ، بل يتأنىٰ فيه ، فيؤخر ، ويعفو ، ومَنْ هـٰذا حاله(الله) فإنه يحب من غيره هـٰذه الطريقة (العبد الخليفة) ، وهـٰذا كالدلالة علىٰ أنَّ جداله كان في أمر متعلق بالحلم

---

(1) الأسماء والصفات 1 ، 142 .
(2) هود 6 .
(3) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 55 .
(4) المرجع السابق ، ج 1 ، ص 95 .
(5) هود 75 .

وتأخير العقاب ، ثم ضم إلىٰ ذلك ماله تعلق بالحلم ، وهو قوله : ﴿ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلىٰ الغير ، فلما رأىٰ مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط ؛ عظم حزنه بسبب ذلك ، وأخذ يتأوه عليه ، فلذلك وصفه ٱلله تعالىٰ بهـٰذه الصفة ، ووصفه أيضاً بأنه مُنيب ؛ لأن من ظهرت فيه هـٰذه الشفقة العظيمة علىٰ الغير ؛ فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلىٰ ٱلله في إزالة ذلك العذاب عنهم ، أو يقال : إن من كان لا يرضىٰ بوقوع غيره في الشدائد فأن لا يرضىٰ بوقوع نفسه فيها كان أولىٰ ، ولا طريق إلىٰ صون النفس عن الوقوع في عذاب ٱلله إلا بالتوبة ، والإنابة ، فوجب فيمن هـٰذا شأنه أن يكون منيباً [1] .

اللهُمَّ يا حليم كن بنا رؤوفاً رحيماً ، واجعلنا ممن يحلمون في التعامل مع الآخرين ، فلا نتسرع في أحكامنا مع من نعمل ، ونتعامل ويسيئون إلينا ، ومكِّنا من الصبر حتىٰ نمتلك الحلم ! اللهُمَّ بحلمك ليِّنْ قلوبنا علىٰ ذوي العلاقة بنا مِنْ والِدَيْن ، وزوجات ، وأبناء ، وجيران ، وإخوة في الوطن ، والدين واحفظنا يا حليم من كل بلاء وشقاء ، ومن كل فتنة !

اللهُمَّ يا حليم اجعلنا أشداء علىٰ أعداء الدين ، وليِّنين علىٰ أحبائه ، واجعلنا أشداء علىٰ الظلم ، ولينين مع كل عدل ، واجعلنا رحماء فيما بينهم ! اللهُمَّ إنَّ الحلم من صفاتك الحسان ، فكن بنا حليماً رحيماً !

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون حليماً مع نفسه ؛ لكي يتمكن من أن يكون كذلك مع غيره ، ولـٰكن كيف يكون الإنسان حليماً مع نفسه ؟

أولاً : أن يكون حليماً في تدريب النفس علىٰ مقاومة الشهوات :

إنَّ الإنسان مخلوق ضعيف ، والدنيا مليئة بالشهوات والمغريات الكثيرة

---

(1) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 444 .

التي إن قاوم الإنسان إحداها ؛ صعُب عليه مقاومة غيرها ، قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (1) ، وهـٰذا الضعف الذي تتفاوت نسبته من إنسان لآخر حسب الجانب الديني والأخلاقي ، وحسب البيئة والمجتمع ودرجة العلم وغيرها من العوامل التي يتأثر بها الإنسان وتؤثر علىٰ سلوكه ، لذلك فقد يضعف هـٰذا الإنسان أمام شهوةٍ ما ، فيزل ، ويُخطئ ، وبعد صحوة الإنسان من ذلك واتضاح الرؤية لديه بعد تضليلها يبدأ في الاستغفار والعودة لطريق الحق ، ولـٰكننا نجد : أنه في الأغلب يتكرر وقوع نفس الإنسان في ذنوب وأخطاء ، ويأتي هنا كيفية علاج هـٰذا الإنسان لهـٰذه المعضلة ، ويختلف البشر في ذلك ، فهناك من لا يصبر علىٰ تدريبها ، وتعويدها علىٰ العودة للحق والاستغفار وطلب التوبة من ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، في حين نجد القلة من يتصف بالحلم في معالجة نفسه ، وإرجاعها لحب خالقها ، وطلب رضاه ، فلا يمل من محاورة الذات ، ومخاطبتها باللين ، ويصبر علىٰ معالجتها من أيِّ مرضٍ قد يصيبها أو ضعفٍ قد يعتريها ، فلا ييأس ، ولا يتعب من تلك المحاولات لإعادة النفس إلىٰ طريق الحقِّ ، والهداية ، والتوبة .

ومن أخطر الأمور علىٰ الإنسان أن لا يكون حليماً مع نفسه ، فتراه ضجراً متأففاً فاقداً للقدرة علىٰ معالجتها ، فيصل إلىٰ اليأس من إصلاحها ؛ ليجد نفسه إما غارقاً في الذنوب ، والخطايا بحجة : أن ٱلله لن يغفر له كثرة ذنوبه ، فما الفائدة من الاستغفار طالما الذنب يتكرر ، أو تجده مريضاً نفسياً من الشعور بالخوف المرضي من العقاب .

ولأن خليفة ٱلله لابد أن يتصف بصفات خالقه عز وجل ، فوجب عليه أن يكون حليماً مع ذاته معطياً لها الفرص المتكررة للهداية ، والعودة للصواب

(1) النساء 28 .

والرشاد ، فإذا كان الخالق حليماً بنا لطيفاً صبوراً علينا ؛ فكيف لا نكون نحن كذلك من أنفسنا التي أوصانا ٱلله تعالىٰ بها ، وأودعها أمانةً في رقابنا ؟ !

وإذا وصل الإنسان إلىٰ أن يكون حليماً في تعويد نفسه علىٰ التوبة والصبر علىٰ التفاهم ، وفتح باب الحوار معها ؛ فسوف ينعكس هـٰذا الشعور بالرضا عن الذات علىٰ طريقة التعامل مع من حوله ، فنراه هادئاً راضياً حليماً صبوراً معهم ، لا يتهور ، ولا يتعجل في أي أمرٍ يجمع بينه وبينهم ، فيخلق بذلك هـٰذا الخليفة جواً من الهدوء النفسي والراحة له ولمن حوله ، فلا يتعجل بالعقاب لمن أساء إليه ، ولا يتهور في ردِّ الإساءة والمبالغة فيها ؛ إذ كان لا بد من الرد فبحلمه لن يتجاوز حقه في الرد ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [1] ، ومن الآية السابقة نجد :

1 ـ أنَّ رسول ٱلله ﷺ كان حليماً وصبوراً حتىٰ مع غير المسلمين ، وهـٰذا دليل علىٰ ما للحِلْم من نتائج مثمرة ؛ إذ إنه لنا في رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام أسوةٌ حسنة ، فهو من علّمه ربه ، وأدبه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يجعل من الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهجاً ونبراساً يسير عليه ويتخلق بأخلاقه التي كان الحلم من ضمنها ، فما كان الرسول الكريم ﷺ ليصل إلىٰ ذلك دون اتخاذ الحلم سبيلاً للخطاب ، وأسلوباً للإقناع .

---

(1) النحل 125 ، 128 .

(2) القلم 4 .

2 ـ وأنَّ الآية الكريمة السابقة أقرّت : أنه من صفات الحليم القدرة علىٰ المجــادلــة والصبــر علــىٰ الحــوار مــع المسلميــن ، وغيــر المسلمين : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ ، فالخليفة لابدَّ أن يملك القدرة علىٰ فن الكلام ، والاستماع معاً ، فلا يتذمَّر من حوارٍ طال مع مشركٍ بالله ، أو مع كافرٍ به ، بل عليه أن يكون حليماً معهم لعله يصل إلىٰ إقناعهم بالحق وإيصالهم للحقيقة ، فلا يتعجَّل ، ولا يتذمَّر من ذلك .

3 ـ بالرغم من إعطاء الحق للإنسان بمعاقبة من أساء إليه إلا أن المولىٰ عز وجل جعل من الصبر خيراً لصاحبه ، والصبر درجة من درجات الحلم ؛ لأن في الصبر الكثير من الفوائد التي تعود علىٰ الحليم عينه ، وعلىٰ من حوله ، فنبدأ بالفوائد التي تعود علىٰ الإنسان نفسه :

أولاً : كسب رضا المولىٰ عز وجل :

لا يصل الإنسان إلىٰ أن يكون حليماً إلا إذا كان علىٰ درجة من حبِّ ٱلله تعالىٰ تجعله محباً لأن يتصف بصفاته ، عاملاً بأوامره ، وفي ذلك الخير العظيم ، إذ تكون مكافأة الخالق له متمثلةً في جنة النعيم التي هي مأواه ، كما وعده ٱلله تعالىٰ .

ثانياً : الحِلم يقوِّي صاحبه علىٰ وسوسات الشيطان :

فلا سلطان للشيطان علىٰ الحليم بالإضافة ؛ لأن الحلم من شأنه أن يطفئ نار الغضب التي يؤججها الشيطان في نفس الإنسان في لحظة قد تكون نتيجتها الدمار والندم ، ولأن من شأن التعجل والتهور أن يجلبا الندم للإنسان ، كأن يسارع في تصديق أي خبر دون التأني في تصديقه ، فيقع في الخطأ كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [1] ، فيأتي هنا دور الشيطان في وسوسته للإنسان

(1) الحجرات 6 .

بالتهور والتعجل في الأمر دون أن يفكر ، ويتأنىٰ . ونستطيع أن نربط من خلال فهمنا للآية الكريمة السابقة بين العجلة والجهل الذي لا يؤدي إلا للندم ، فالتهور والتعجل لا يصدران عن إنسان حكيم ، وعلىٰ درجةٍ من العلم تجعله مترفعاً عن التهور والعجلة ، وخاصة إذا كان ذلك في حقِّ مَنْ حولك ، وتُعْتبر العجلة من الجهل ؛ لأنها تُلغي الحكمة وبعد النظر ، فلا يستطيع رؤية الأمور من زاوية صحيحة تؤهله لأن يكون من خلفاء ٱلله في الأرض ، وبالتالي فالحلم مرتبط بالعلم بالشيء ، وعاقبته ، فلن تجد حليماً عن جهل .

ثالثاً : الوصول إلىٰ أفضل الحلول :

لا يمكن أن يصل الإنسان إلىٰ معالجة مشاكله التي يمرُّ بها إلا بالتروي والتأني ، لكي يرىٰ الأمور ، ويقيسها من كل الزوايا ، فيختار الأسلم ، وليس الأسرع لمجرد هـٰكذا ، فنجد كافة شرائح المجتمع بحاجة للحلم في مواجهة المشاكل والأزمات ، مثل :

أ ـ الوالدين :

فلابدَّ أن يدرك الوالدان متىٰ يكون الحلم مفيداً مع الأبناء ، فلا يتعجلان بالعقاب ، ولا يتهوران ، فيندفعان دون رادع بالتلفظ بالألفاظ المؤذية للأبناء دون وعي منهما بنتيجة ذلك ، بل لابد أن يكون الحلم الإيجابي أسلوب التعامل في الأسرة ؛ لكي يتعلم الأبناء الحلم بمن حولهم ومن ضمنهم الوالدان ، وصلة الرحم ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ؛ إذ إنه إذا نشأ الأبناء في جو مشحون متوتر وعصبي فإنه لا محالة : أن ذلك سيكون له الأثر البليغ في تكوين شخصية الأبناء علىٰ نفس الأسلوب المتوتر المتشنج ، فلا يعد هناك من مكان للتفاهم والحوار الأسري ومن شأن ذلك أن يؤدي إلىٰ ضياع الأبناء في رحلة البحث عن مستمع يصبر عليهم ، ويحلم عنهم .

ولابد أن يدرك الوالدان الفروق بين الأبناء ، سواء كانت في الشخصية

والنفسية والعقلية ، فيتعاملون بذكاء وفطنة مدركين متىٰ يكون ، ومع مَنْ الحلم والصبر والحزم ، فلا يجب أن يخلط الوالدان بين الابن العنيد ، والمشاغب ، والعصبي ، والذكي ، والغبي بل لابد من الفصل في أسلوب التعامل مع كل واحدٍ منهم .

ب ـ المعلم :

نلاحظ في أسلوب التعليم المتبع : أنه يقل استعمال أسلوب الاستماع والإنصات للمتعلم من قِبَل المعلم ، مع أن التعليم ليس محدوداً علىٰ تلقي التلميذ للمعلومات العلمية فقط ، بل يجب إعداده لأن يكون إنساناً نافعاً سوياً معطياً ، وهـٰذا لا يتأتىٰ إلا بإعدادهم نفسياً ، وتهيئتهم ليكونوا رحماء أقوياء متصفين بالحلم والحكمة .

فالمعلم بحاجة إلىٰ الحلم والصبر والتأني في تعامله مع المتعلمين باختلاف شخصياتهم ومستوياتهم العقلية والأخلاقية ، فنجد من بين المتعلمين المشاغب ، وغير السوي نفسياً ، وغيرهم الأمر الذي استدعىٰ عدم التعجل والتهور في اتباع الأسلوب المناسب لكل فئة من المتعلمين ، فالحلم يجعل من الطالب المتمرد مطيعاً متفهماً بعد أن يستشعر آدميته ، وقيمته .

وعلىٰ ذلك يجب أن يكون المعلم مثالاً للمتعلم ، فحريٌ به أن يكون حليماً لا يتشدد ، ولا يعاقب مَنْ لا يستحق العقاب بل عليه ألاَّ يلجأ للعقاب قدر الإمكان ، ولا يتهور المعلم في التلفظ بألفاظ لا تليق بمكانته العلمية قد تقوده العجلة ، والعصبية لاستعمالها ، بل لعل حلمه عن المتعلم عند صدور الخطأ منه يفتح باباً من الودِّ والمحبة ، ويمد جسراً للحوار والاحترام والتقدير ، فيصبح المعلم كبيراً في نظره الذي سيخجل من رفعه في وجه معلمه . والمعلم المشارك ، والمحاور أفضل من المعلم غير المشارك ، وغير المحاور لطلبته .

ج ـ الدعاة :

لا يمكن أن يستغني الداعي للحق عن الحلم ، فنحن نلاحظ في مجتمعنا الإسلامي : أنه يزخر بالدعاة للحق والخير ، ونلاحظ أيضاً مدىٰ اتساع صدرهم ، وصبرهم علىٰ الحوار مع الغرب ، وغير المسلمين ، وحلمهم مع المسلمين العاصين ؛ لأنهم يدركون ما من سبيل للوصول بالإنسانية إلىٰ أعلىٰ درجات الرقي إلا باتباع الدين الحق الذي جاء به رسولنا الكريم ﷺ ولا يمكن إقناع البشر عنوةً بذلك . قال تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (1) ، لذلك فقد كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثالاً للحلم ، والصبر علىٰ أذىٰ الناس حتىٰ أقربهم إليه مثل عمِّه أبي لهب حين تمادىٰ في إيذائه ، وإلحاق الضرر به ، وكذلك يتضح لنا حلمه في موقف صلح الحديبية الذي أثارت شروطه التي وضعها كفار قريش غضب المسلمين جميعاً إلا أن رسول ٱلله ﷺ بحلمه ، وحكمته آثر ، ورأىٰ الصواب في الموافقة عليها رغم الاعتراض عليها من المسلمين ؛ الذين أدركوا في نهاية الأمر مدىٰ جدوىٰ حلم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في ذلك ؛ إذ إنه أدىٰ إلىٰ فتح مكة المكرمة .

فقد وازن الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين الحلم والقوة التي تجلب العزة والرفعة ، فلم يكن حلمه عن جهلٍ أو ضعف ، بل عن علمٍ وقوة ، فلا يكون الضعيف حليماً أبداً .

وهنالك أمور تُعِين الإنسان علىٰ أن يتحلَّىٰ بالحلم ، منها :

1 ـ ذكر ٱلله تعالىٰ :

من سكن حب ٱلله تعالىٰ قلبه فقد وصل إلىٰ التحلي بأروع الخصال ، ومنها الحلم ، فلا يمكن لعقلٍ يؤمن بالله ، وقلبٍ يخشىٰ ٱلله ، ولسانٍ يذكر ٱلله تعالىٰ أن يكون عجولاً هلوعاً لا يهدأ ولا يصبر علىٰ أمر ولا يحلم ؛ لأن القلب

---

(1) البقرة 256 .

لا يطمئن إلا بذكر الخالق ـ عز وجل ـ وبالتالي فالطمأنينة تبعث علىٰ الحلم ، والتأني والصبر ، أما البعد عن المولىٰ عز وجل ؛ فيجعل من الإنسان متوتراً لا صبر عنده ولا تأني ، فتراه كثير الخطأ والزلل ، فطوبىٰ لمن سكن حبُّ ٱلله وخشيته قلبه ، وعقله ، فاستحق بذلك الأجر العظيم ! قال جل جلاله في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (1) ، وبهذا الحب يبقىٰ الإنسان داعماً ذاته بالصبر والحلم والحكمة ، وذلك من أسباب القوة ، فيكون بذلك متغلباً بذلك علىٰ الطبع الغالب علىٰ أكثر البشر ، قال ٱلله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (2) .

إذاً فمداومة ذكر الخالق ومصاحبة حبه من أعظم أسباب اتصاف الخليفة بصفات ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، من رحمةٍ وحكمة وحلم وعلم وغيرها ، فلا يستطيع الخليفة أن يصل إلىٰ درجة الحلم وهو بعيد عن ٱلله تعالىٰ ، فالبعد عن ٱلله قربٌ من الشيطان الذي لا يترك وسيلة لإبعاد الإنسان عن الحلم لما في ذلك من خيرٍ للإنسان وصلاح أمره في الدنيا والآخرة ، ففي الحلم إدراكٌ للحقائق ، واستنباطٌ للعبر ، ومعالجةٌ صحيحة لما يصادفنا في الحياة ، ونشرٌ للفضيلة والحب بين البشر الأمر الذي ينفر منه الشيطان ولا ييأس من محاولة زرع الشر والفساد بدفع الإنسان للتهور والعجلة وإبعاده عن الحكمة والحلم . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (3) ، فلا سبيل للتغلب علىٰ وسوسات الشيطان الرجيم إلا إذا امتلأ القلب بحب ٱلله ، وذكره الدائم .

(1) الملك 12 .

(2) المعارج 19 ، 21 .

(3) البقرة 268 ، 269 .

2 ـ اللجوء إلىٰ ٱلله :

الخليفة هو الذي يلجأ إلىٰ ٱلله تعالىٰ في الفرح والترح ، فلا يسكن الفرح قلبه فينسىٰ بنشوته شكر ٱلله تعالىٰ علىٰ ذلك ، ولا يحيط الحزن والألم حياته إلا وكان المولىٰ عز وجل رفيقه ، وملجأه الذي يدعوه ، ويستعين به ، واللجوء إلىٰ ٱلله يجعل الإنسان مترفعاً بذلك عن اللجوء لغيره مما يصل به لأن يكون قوياً عزيزاً متوكلاً واثقاً من قدرة خالقه وقوته ورحمته ، فمن شأن اللجوء إلىٰ ٱلله والتوكل عليه في جميع الأمور أن يعلِّما الإنسان علىٰ الحلم ، ويعوِّداه علىٰ الصبر ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] ، فلا يمكن أن يكون الإنسان متوكلاً علىٰ ٱلله وهو عجول لا يصبر علىٰ ما عند ٱلله ، فيسرع طالباً ما يحتاجه من غير ٱلله بالرغم من عدم قدرتهم علىٰ منحه أيَّ شيء إذا أمعن النظر وحكَّم عقله وتأنىٰ ، ولـٰكن من توكل علىٰ المولىٰ عز وجل واتقىٰ فينال بذلك البشرىٰ والأجر العظيم ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾[2] .

(1) النحل 42 .
(2) يونس 62 ، 70 .

3 ـ **الاقتداء برسول ٱلله عليه الصلاة والسلام :**

من جعل رسول ٱلله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثلاً يسير عليه ؛ فقد وصل بالتأكيد إلىٰ استحقاقه أن يكون خليفة ٱلله بتخلقه بخلقه ويعمل بعمله ويسير علىٰ نهجه ، فحب رسول ٱلله ﷺ إذا تمكن من قلب المسلم ؛ أسكن فيه الحلم ، وتعوَّد علىٰ الصبر ؛ لما كانت عليه سيرة الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من صبرٍ علىٰ الأذىٰ وحلمٍ عن المسيئين مع توافر قدرته علىٰ عقابهم .

فإذا أردت أن تستسهل اتصافك بالحلم ؛ فليس عليك إلا أن تحب ٱلله ورسوله الكريم وتجعله عليه السلام حياً دائماً ماثلاً بمواقفه بين عينيك ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [1] .

ولـٰكن في المقابل من اشترىٰ حب ٱلله ورسوله بمتاع الحياة الدنيا ؛ فقد سلَّم بذلك نفسه للشيطان يعبث بنفسه ويقوده للهلاك والضلال ، فلا يغلب سيطرة الشيطان علىٰ الإنسان ويرده إلا قلبٌ ممتلىءٌ بحب ٱلله ورسوله الكريم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [2] .

4 ـ **الإكثار من الطاعات التي منها :**

أ ـ **الصلاة :**

بما أن الصلاة أساسٌ لاتصال العبد بربه ، وركنٌ من أركان الإسلام فقد

---

(1) الأحزاب 21 .

(2) التوبة 24 .

كانت لها من الأثر الكبير في بناء شخصية المؤمن ، فالصلاة بنهيها الإنسان عن فعل المنكر والرذيلة تجعله حليماً وصبوراً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (2) ، ففي هٰذه الآيات الكريمة نجد : أن ٱلله تعالىٰ وضح الطبع الغالب علىٰ البشر ، وهو التسرع وعدم القدرة علىٰ تحمل الضيق والأزمات ، ولٰكنه استثنىٰ من كل البشر المصلين الذين يحافظون علىٰ صلاتهم ، فلا ينقطعون عنها وكذلك المتصدقين بأموالهم .

فالصلاة هي بحد ذاتها تغرس في قلب المصلي الرحمة والعفو فتجعله حليماً برحمته علىٰ مَنْ حوله ، لا يستسهل معاقبة المسيئين له ، ولا يبادر بالغضب ، والانفعال المبالغ فيه .

ب ـ الصيام :

صيام شهر رمضان المفروض علىٰ المسلمين جميعاً في حقيقته هو درسٌ في تعليم المسلمين الحلم والصبر ، فالذي يصبر علىٰ الجوع والعطش لابد أن يصبر علىٰ ما يصيبه من كربٍ ، أو همٍّ ، ومن ضمن آداب الصيام عدم غضب الصائم والخروج عن طوره .

(اللهُمَّ إني صائم) هٰذه الجملة التي علىٰ الصائم أن يكررها في حال تعرضه لضغطٍ نفسي ، أو عندما يواجه موقفاً يحتاج لكبح جماح نفسه ، بذلك يكون من السهل علىٰ المؤمن الصادق الذي تعوَّد الحلم في صيامه عمَّن أساء إليه أن يحلم عمَّن يصيبونه بالأذىٰ والضرر المعنوي والمادي .

---

(1) العنكبوت 45 .
(2) المعارج 19 ، 26 .

ج ـ الزكاة :

من شأن المحافظة علىٰ الزكاة أن تجعل من المسلم حليماً . كيف ذلك ؟

إن إخراج الزكاة من مال المسلم الخاص يعني بالمفهوم الدنيوي : أن هـٰذا المال قد نقص ، ولـٰكن تعوُّد المسلم علىٰ الزكاة تجعله متقبلاً ومحباً لذلك ، وهـٰذا الأمر يجعله مهيئاً لأن يكون حليماً مع نفسه في حال تعرض ماله للخسارة والضياع ، بأن يكون حب ٱلله وقناعته بأن هـٰذا المال من عند ٱلله وما هو إلا متاع الحياة الدنيا ، عندها سيصل المؤمن إلىٰ استسهال خسارة المال الذي يخصُّه ، فلا يصل إلىٰ درجة الجنون واختلال العقل كما نجد في بعض حالات رجال الأعمال ، والأغنياء الذين يخسرون أموالهم بسبب صفقةٍ خاسرة ، فنراهم متشدِّدين في معاقبة أنفسهم ، ومن حولهم .

ولـٰكن المؤمن الذي تعوَّد ، وداوم علىٰ الزكاة وإخراج الصدقات فإنه سيواجه خسارته بنفسٍ راضية موكلاً أمره لله ، فلا يأخذه الغضب والحزن عن تقَبُّل الأمر الواقع ومعايشة الحقيقة بقلبٍ يتسع للأزمات ، فيصل به الحلم لأن يرضىٰ بقضاء ٱلله وقدره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (1) .

فالحليم بالإضافة من واجه أزمته وكربه بالتوكل علىٰ الخالق عز وجل ، فلا يبالغ في معاقبة نفسه علىٰ أمرٍ مكتوب ومقدَّرٍ عليه .

د ـ الحج :

من أركان الإسلام الخمسة فريضة الحج التي تتطلب من المسلم طلب

(1) البقرة 155 ، 157 .

السماح ممن أساء إليهم قبل توجهه لأداء فريضة الحج ، وأن يطهِّر قلبه من كل شر أو خطيئة ، وأن يملأ نفسه بالصفات الحميدة التي يجب أن يكون عليها من أدىٰ فريضة الحج ، ومنها الحلم ، بأن لا يضيِّع حجه بالغضب ، والانفعال السريع الذي يطفئ نور العقل ، فيتهور ، ويقوم بما لا يتناسب معه كحاج لبيت ٱلله الشريف .

وخليفة ٱلله يجب أن تتوافر فيه صفاتٌ تدعم الحلم في نفسه منها :

أولاً : أن يكون حلمه عن قدرة وقوة :

فلا يمكن أن يقال عن إنسانٍ ضعيفٍ متهاونٍ في حقه رغماً عنه غيرِ قادر علىٰ رد حقه المسلوب حليمٌ ، ولا يمكن أن يكون نهج (الحليم بالإضافة) الضعف والاستسلام والتنازل عن حقه ، فلا يبحث عن الشفقة والرحمة ممن هم أقوىٰ منه وأقدر ، بل (الحليم بالإضافة) من كان حلمه نابعاً من قوته النفسية والجسدية ، الأمر الذي يغنيه عن الاستجداء والتوسل للوصول لما يريد أو لاسترداد حقه ؛ لأنَّ بعض الحقوق تضيع ، ولا سبيل لإرجاعها إذا تهاون المسلم في بعض المواقف مثل :

الاعتداء علىٰ حرمات المسلمين من أرضٍ ، وعرض :

مصداقاً لقوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (1) ، فلا يمكن أن يكون الحلم في الردِّ ، بل يكون في كيفية الرد ، فالتأني والحلم في اختيار طريقة الرد لها نتائج فعَّالة ، وإيجابية أكثر من التهور في ذلك .

الاستهزاء والسخرية والتطاول علىٰ ٱلله تعالىٰ ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام :

---

(1) البقرة 190 .

كما يحدث في عصرنا هـٰذا من تطاول بعض الجهلة والحاقدين من الغرب علىٰ رسولنا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين بحجة حرية التعبير ، فلا مجال للحلم والصبر علىٰ مثل هـٰذه الأفعال التي لا يرضاها المسلم الذي تربىٰ علىٰ العزة والأنفة ، والذي كبر علىٰ حب ٱلله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلا يجب أن نستمع ونرىٰ كل ما ينشر ، وما يُقال عن ديننا ورسولنا ونبقىٰ صامتين راجين أن يُقال عنا من أصحاب الحلم ، بل الصمت هنا هو ضعفٌ ، وهزيمة نفسية كبيرة .

ثانياً : أن يكون حلمه مختلطاً بالحكمة وبعد النظر :

من شأن الحلم أن يرقىٰ بالإنسان إلىٰ درجة الحكمة في اتخاذ قرارٍ ما ، أو اختيار أسلوب للتفاهم ، فالإنسان الذي يستحق أن يستخلفه ٱلله في الأرض هو الذي يصل به حلمه إلىٰ التوصل لأفضل الحلول واجتياز أصعب الأزمات والخروج منها بنفسية سوية وقوية قادرة علىٰ المضي في الحياة بثباتٍ وعزيمة ، فالحلم يترافق مع الحكمة ، ويشكلان معاً إنساناً فطناً بعيد النظر .

نحن نلاحظ : أنَّ ما من مشكلة أو معضلة تعامل معها الإنسان بعصبيةٍ ، وتضجُّر ، وتسرُّع إلا وتفاقمت وكبرت ، لذلك لا يوجد أروع من الحليم الحكيم الذي يعطي للخليفة مساحةً للتمعن والتأمل ويمنحه فرصة للتحليل والأخذ بأسباب النجاح ، ولا بد أن تكون الحكمة إحدىٰ المكونات لشخصية الخليفة ، ولا نستطيع أن نأتي علىٰ ذكر الحكمة دون ذكر الحكيم لقمان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (1) ، فالحكمة والحلم نعمة من ٱلله تعالىٰ ينعم بها علىٰ خلفائه في الأرض .

---

(1) لقمان 12 .

لا بدَّ أن يكون حلمه عن علمٍ ودراية :

فالعلم بالأمر يتيح للإنسان تحديد سبل التعامل مع أي موضوع ، فمن أكبر أسباب التوتر والعجلة في التعامل مع مشكلةٍ ما هو الجهل بأسلوب التعامل ، وقصر نظره فيما يحيط به .

وبذلك لا يجب أن نخلط بين الحلم والهوان ، فالحلم في الواقع يجب أن يكون زيادة في الرفعة والسمو ، وأن يكون نبعاً نستمد منه كرامتنا معيناً لنا في التحلي بالصبر ، والثبات ، والقوة ، فلا يرضىٰ الخالق عز وجل لخلفائه إلا العزة والأنفة ، قال تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [1] .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون يقرن حلمه بالقدرة ؛ إذ إنه لا يستقيم وجود الحلم في الإنسان بوجود الضعف والتخاذل داخله ، فالحلم يرتكز ويقوم علىٰ أساس من ثقة الإنسان بقدرته وقوته النابعة من حبه للاتصاف بصفات ٱلله تعالىٰ ، فلا يوجِّه قدراته في نوبات الغضب والتهور ، فلا يبالغ إذا امتلك القدرة في العقاب ولا يتجاوز الحدَّ في أخذ حقه ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [2] ، فمن هـٰذه الآيات الكريمة نستطيع أن ندرك التالي :

* إن الإنسان يستطيع أن ينتصر علىٰ ظلمه بالصبر والحلم ، وهـٰذه قدرة لا تتوافر لدىٰ البشر جميعاً ، بل إننا نجد الأقلية النادرة هم من يتمتعون بهـٰذه القدرة علىٰ الصبر والحلم .

(1) المنافقون من 8 .
(2) الشورىٰ 39 ، 43 .

* أوضح ، وأقرَّ المولىٰ عز وجل : أنه لا يجوز للعبد المبالغة والتعدي في استرداد الحق ، حتىٰ وإن كان قادراً علىٰ ذلك ، فلا يجوز استخدام القدرة التي وهبها الخالق عز وجل للإنسان في وجوه الباطل الذي من شأنه ضياع الحقوق وعدم الشعور بالأمان والحماية في المجتمع المسلم .

* أردف ٱلله تعالىٰ أمره بالعدل في استرداد الحق بالأفضل من ذلك ألا وهو العَفْو ، والحِلْم عمن أساء وظلم ، لأن في ذلك خيرٌ للإنسان وللمجتمع الإسلامي عامةً ، فمن شأن العفو والحلم أن يشيع المحبة والود بين المسلمين ، فلا يتردد مسلم عن العفو والحلم عند المقدرة .

* الظلم هزيمة بعكس العفو فهو انتصار وقوة ، تكون ثماره عائدة علىٰ الإنسان وعلىٰ من حوله ، والصبر والجلد عند وقوع الظلم هٰذا بحد ذاته قوة وثبات ، وخير دليل علىٰ ذلك : أن جميع الرسل والأنبياء والصالحين قد كانوا أقدر الناس علىٰ فعل ما يريدون وذلك بسبب القدرات التي حباهم الخالق بها مثل ما وهب ٱلله تعالىٰ لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من معجزات كتسخير الرياح وغيرها مما يمنحه القوة الفائقة لفعل ما لا يستطيعه باقي البشر وبالرغم من ذلك فقد جعل عَلَيْهِ السَّلَامُ منها مصدراً للخير والصلاح ، وكذلك سيدنا داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [1] وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾ [2] .

وخليفة ٱلله هو من عفا عند امتلاكه المقدرة علىٰ العقاب ، وحلم عمن لم يحلم عليه قبلاً ، فيرد عليه بحلمه وعفوه ، فمن نتائج ذلك ما يلي :

1 ـ إظهار سماحة ديننا الإسلامي للعالم : فالدين الإسلامي عمل علىٰ ترسيخ أروع وأنبل الأخلاق بين البشر ، فتسمو الآدمية فوق كل شيء ،

(1) الأنبياء 79 .
(2) الأنبياء 81 .

ومن بين هٰذه الأخلاق الدعوة للحلم ، والعفو عند المقدرة ؛ ليشيع بذلك التسامح ، والأخوة بين المسلمين .

2 ـ نشر المحبة والرحمة بين العباد ، فيتضاءل الظلم والطغيان في المجتمع ، وبذلك ينمو الشعور بالأمان ، والود في نفوس المسلمين .

3 ـ الأجر العظيم الذي وعد ٱلله تعالىٰ به عباده الصابرين واللذين يتميزون بالعفو عند المقدرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] .

اللهُمَّ يا الحليم يا من كان حلمه رحمة ووداً يمده معينا لنا علىٰ التوبة والاستغفار استر عيوبنا بحلمك علينا ورحمتك بنا ، واجعل من قلوبنا وعقولنا مواطن الحلم والصبر ! اللهُمَّ اجعلنا نتملك من الحلم ما نطفئ به نار الغضب ، والتهور فلا نكون من النادمين !

اللهُمَّ يا الحليم اجعل لنا من صفتك نصيباً نترفع به عن الصغائر والرذائل والنقائص والعيوب فنكون من عبادك الطائعين المتقربين إليك بالخيرات والمكارم !

اللهُمَّ يا ٱلله يا أحلم الحالمين اجعلنا ممَّن يحلمون في التعامل مع الآخرين ، فلا نتسرع في أحكامنا علىٰ من نتعامل معهم ويسيئون إلينا ! ومكِنّا اللهُمَّ من الصبر حتىٰ نمتلك القدرة علىٰ الحلم علىٰ من يظلموننا فنقابل أذاهم بإحسان ، فنكون بذلك ممَّن يتصفون بصفاتك ، ويدعون إلىٰ سبيلك بالقول والفعل ، ومن أرادنا بعد ذلك يا الحليم بمكر فامكر به ، ومن أرادنا بكيد فكده ، وكد كيده ، ومن أخطأ فينا ، وندم ، واستغفر ، فأنت التواب الرحيم !

---

(1) الشورىٰ 40 .

العَظِيم جلّ جلاله

العظيم المطلق هو الذي جاوز جميع حدود العقول حتىٰ لا تتصور الإحاطة بكنهه ، وذلك هو ٱلله تعالىٰ [1] .

العظيم في اللغة : عَظَّمَهُ ، يُعَظِّمُهُ تعظيماً ، أي : كبَّره . وسمعت خبراً فأَعْظَمتُه ، أي : عَظُمَ في عيني . ورأيت شيئاً فاستعظمته . واستعظمْتُ الشيء : أخذت أُعَظِّمُهُ . وعُظْمُ الشيءِ : أعظمُهُ ، وأكبرُهُ ، ومُعْظَمُ الشيءِ أَكْثَرُهُ . والعُظْم : جلُّ الشيء وأكثره . والعَظَمَةُ من التَعَظُّمِ والزُّهوِّ والنَّخوة ، والعَظَمة بفتحتين الكِبْرِيَاءُ . وعَظُمَ الرَّجُلُ عَظامةً ، فهو عظيمٌ في الرأي والمجد . والعظيمةُ : المُلِمَّةُ النَّازلةُ الفظيعة . ومن سُنن العرب الإتيان بلفظ الجميع والمراد واحد واثنان كقوله جلَّ ثناؤه : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ ﴾ يُراد به واحد واثنان وما فوق . وقال قَتَادةُ في قوله جلَّ ثناؤه : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ [2] . كان رجلُ من القوم لا يمالِئُهم علىٰ أقاويلهم في النبي ﷺ ويَسير مُجانِباً لهم ، فسمَّاهُ ٱلله جلَّ ثناؤه طائفةً ؛ وهو واحد . ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع ، فيقال للرجل العظيم : انظروا في أمري . وكان بعض أصحابنا يقول : إنما يقال هٰذا لأنَّ الرّجل العظيم يقول : نحن فعَلْنا . فعلىٰ هٰذا الابتداء خُوطبوا في الجواب . قال ٱلله جلَّ ثناؤه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 104 .
(2) التوبة 66 .

فالرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتقدير ، وكلَّت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول دون معرفة قدره ، وردَّت عظمته العقول فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئةً ؛ وهي حسيرة . وإنما امروا بالنظر والتفكير فيما خلق بالتقدير ، وإنما يقال : كيف لمن لم يكن مرة ثم كان ؟ فأما الذي يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل ؛ فإنه لا يعلم كيف هو . إلا هو وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ولا يموت ولا يبلىٰ ؟ ! وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهىٰ يعرفه عارف أو يحد قدره واصف علىٰ أنَّه الحق المبين ؟! لا حق أحق منه ، ولا شيء أبين منه ! والدليل علىٰ عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفةٍ أصغر خلقه لا تكاد تراه صغيراً يحول ويزول . ويخبر تعالىٰ : أن له أسماء وصفها بكونها حسنىٰ ؛ أي : حسان ، وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها كما يدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فأسماؤه الدالة علىٰ صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها ، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض بل هو علىٰ سبيل التقريب والتفهم ، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىً ، وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص ، فله صفة العلي العظيم ؛ واسم العظيم هو المستحق لأوصاف العلو والرفعة والجلال والكمال والعظمة والتقديس وهو من الصفات التي يستحقها بذاته . وهو في أول الوضع إنما أطلق علىٰ الأجسام ، فيقال هـٰذا جسم عظيم ، وهـٰذا الجسم أعظم من ذلك الجسم في مجالات المقارنة والفوارق في الأقوال والصفات والأفعال والمساحات والأطوال إذا كان امتداد مساحته في الطول والعرض والعمق والتجزئي ، وفي مقابل ما يقارن بغيره بالشبه والتماثل والتطابق يأتي العظيم الذي لا يقارن بشبيه سبحانه واحد أحد لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيط بكل شيء ، ولا يحاط بشيء .

(العظيم المطلق) هو الذي يحيط بكل شيء علماً وبصراً وسمعاً ،

و(العظيم بالإضافة) هو الخليفة الذي يستمد عظمته من العظيم المطلق فيحيط بالأشياء في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع وفقاً لنظرية النسبية .

ولذا في دائرة الممكن كل عظيم نسبي مهما عجبنا ، ومهما تفاخرنا بإعجابنا به ، فالفيل عظيم مع أن البصر يحيط بأطرافه فهو عظيم إلىٰ ما دونه ، وأما الأرض فلا يتصور أن يحيط البصر بأطرافها من علىٰ ظهرها ويحوطها من علوٍّ من السماء ، وهٰكذا وفقاً لدائرة النسبية تتسع السماء وتمتدُّ حتىٰ يعجز البصر عن الإحاطة بها من قبل المستخلف في الأرض والوارثين فيها مهما تعاظم شأنهم ، وفي غير محل للمقارنة ؛ إذ تحاط الأرض بهيمنة مع غيرها مما عرفنا واكتشفنا ولم نكتشف بالبصير العظيم جل جلاله .

وعليه : إن في مدركات البصائر تفاوتاً ، فمنها ما تحيط العقول بكنه حقيقته ، ومنها ما تَقْصُر العقول عنه ، وما تُقْصُر العقول عنه ، وينقسم إلىٰ ما يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها وإلىٰ ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلا بكنه حقيقته ، وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقول حتىٰ لا تتصور الإحاطة بكنهه ، وذلك هو ٱلله تعالىٰ .

والعظيم من العباد الأنبياء والعلماء والخلفاء والسلاطين والحكام الذين إذا عرف العاقل شيئاً من صفاتهم ؛ امتلأ بالهيبة صدره ، وصار مستوفىٰ بالهيبة قلبه حتىٰ لا يبقىٰ فيه متسع ، فالنبي عظيم في حق أمته ، والسلطان في حق رعيته ، والشيخ في حق مريده ، والأستاذ في حق تلاميذه ، ولٰكن من أين أتت هٰذه الهيبة ؟ هي تلك التي غرسها ٱلله في قلوب الرعية حتىٰ تكون له طائعة ، وهنا تكمن العظمة المطلقة لله تعالىٰ ، فهٰؤلاء الأنبياء والخلفاء والسلاطين تم اختيارهم ورعايتهم بحيث يكونوا علىٰ مقدرة للقيام بالمهام المنوطة بهم ، ولٰكن كل عظيم غير ٱلله عز وجل هو ناقص وليس بعظيم مطلق لأنه إنما يظهر بالإضافة إلىٰ شيءٍ دون شيءٍ سوىٰ عظمة ٱلله تعالىٰ ، فإنه العظيم المطلق لا بطريق الإضافة ، والمعظم في صفة ٱلله تعالىٰ يفيد عظم

الشأن والسلطان وليس المراد به وصفه بعظم الأجزاء ؛ لأن ذلك من صفات المخلوقين ، تعالىٰ ٱلله عن ذلك علواً كبيراً ! ولا شك : أن ما وصف ٱلله به من هـٰذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم مناف لما وصف به المخلوق منها كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذات المخلوق ، فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق ، كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق . فالعزة لله ، والجبروت لله ، والعظمة لله ، والكبرياء لله ، والسلطان لله ، والملك لله ، والحكم لله ، والنور لله ، والقوة لله ، والتسبيح لله ، والتقديس لله رب العرش العظيم ، ما أعظم شأنك وأفخر ملكك وأعلىٰ مكانك وأقربك من خلقك وألطفك بعبادك وأرفعك لسرك !

العظيم والكبير :

لا فرق بين العظيم والكبير ، ولـٰكن لكل صفة إضافة في الإعجاز ، ولذا فمن الصعب علينا أن نذكر وجه الفرق بين معنييهما في حق ٱلله تعالىٰ ولـٰكنا لا نشك في أصل الافتراق ؛ فالعرب في استعمالها تفرق بين اللفظين ؛ إذ تستعمل الكبير حيث لا تستعمل العظيم ، ولو كانا مترادفين ؛ لتواردا في كلٍّ . وأن العظيم قد يكون من جهة الكثرة ومن غير جهة الكثرة ، ولذلك جاز أن يوصف ٱلله تعالىٰ بأنه عظيم وإن لم يوصف بأنه كثير ، وقد يعظم الشيء من جهة الجنس ومن جهة التضاعف . وفرَّق بعضهم بين الجليل والكبير بأن قال : الجليل في أسماء ٱلله تعالىٰ هو العظيم الشأن المستحق الحمد ، والكبير فيما يجب له من صفة الحمد ، والأَجَلُّ بما ليس فوقه من هو أجل منه . والفرق بين عظيم القوم وكبير القوم : أن عظيم القوم هو الذي ليس فوقه أحد منهم فلا تكون الصفة به إلا مع السؤدد والسلطان فهو مفارق للكبير ، وكتب رسول ٱلله ﷺ : « إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس » ، والعظيم في أسماء ٱلله تعالىٰ بمعنىٰ عظيم الشأن والامتناع عن مساواة الصغير له ، وأصل الكلمة القوة ومنه سمي العظيم عظيماً لقوته ، ويجوز أن يقال : إن أصله عظيم الجثة ثم نقل

لعظيم الشأن كما فعل بالكبير ، وقال تعالىٰ : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) فسماه عظيما لعظم ما فيه من الآلام والبلاء ، وما اتسع لأن يكون فيه العظم استحق بأن يوصف أنه عظيم . والفرق بين العظيم والمتعظم : قيل : العظيم : الذي جاوز حدود العقول أن تقف علىٰ صفات كماله ، ونعوت جلاله . وأصل العظم في الأجسام ثم استعمل في مدركات البصائر ، وهي متفاوتة في العظم تفاوت الأجسام . فما لا يتصور أن يكون يحيط العقل أصلا بكنه حقيقته وصفته منها ؛ فهو العظيم المطلق ، وهو ٱلله تعالىٰ . والمتعظم : البليغ العظمة ، أو المستنكف أن يكون له نظير في عظمته . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) . فقوله : « العظيم » ، ذو العظمة ، الذي كل شيء دونه ، فلا شيء أعظم منه . عن ابن عباس : « العظيم » ، الذي قد كمل في عظمته . فقوله : « العظيم » معناه : المعظم الذي يعظمه خلقه ، ويهابونه ، ويتّقونه . و تأويل قوله : « العظيم » هو أن له عظمة هي له صفة . وننفي عنه أن يكون ذلك علىٰ معنىٰ مشابهة العظم المعروف من العباد . وكل ما دونه من خلقه هو صغير لصغرهم عن عظمته .

ولذلك لا فرق بين العظيم والكبير ، إلا بين المخلوقات ، أما بالنسبة للمطلق العظيم هو الكبير هو ٱلله ، ولأن لله أسماءً حساناً وصفاتٍ حساناً كان لكل فعل وصفة خصوصية في الدلالة والمعنىٰ دون أن يكون فارقاً في تحديد المطلق عز وجل . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (3) وقال في آية أخرىٰ : ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (4) . ومن الأسماء المشعرة بالجسمية والجهة الألفاظ المشتقة من « العلو » فمنها قوله

---

(1) الأنعام ، 15 .

(2) البقرة 255 .

(3) البقرة 255 .

(4) سبأ 23 .

تعالىٰ : (العليُّ) ومنها قوله : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [1] ، ومنها المتعالي ، ومنها اللفظ المذكور عند الكل علىٰ سبيل الإطباق ، وهو أنهم كلما ذكروه ؛ أردفوا ذلك الذكر بقولهم : « تعالىٰ » لقوله تعالىٰ في أول سورة النحل : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [2] . إذا عرفت هٰذا ؛ فالقائلون بأنه في الجهة ، والمكان ؛ قالوا : معنىٰ علوه وتعاليه كونه موجوداً في جهة فوق ، ثم هٰؤلاء منهم من قال : إنه فوق العرش ، ومنهم من قال : إنه مباين للعرش ببعد لا متناه ، وكيف كان ؛ فإن المشبِّهة حملوا لفظ العظيم والكبير علىٰ الجسمية والمقدار ، وحملوا لفظ العلي علىٰ العلو في المكان والجهة ، وأما أهل التنزيه والتقديس ؛ فإنهم حملوا العظيم والكبير علىٰ وجوه لا تفيد الجسمية والمقدار : فأحدها : أنه عظيم بحسب مدَّة الوجود ، وذلك لأنه أزلي أبدي ، وذلك هو نهاية العظمة والكبرياء في الوجود والبقاء والدوام .

وثانيها : أنه عظيم في العلم والعمل .

وثالثها : أنه عظيم في الرحمة والحكمة .

ورابعها : أنه عظيم في كمال القدرة ، وأما العلو ؛ فأهل التنزيه يحملون هٰذا اللفظ علىٰ كونه منزهاً عن صفات النقائص والحاجات .

الفرق بين العظيم والعليِّ :

بدون شك : أن العلوَّ والعظمة درجتان من درجات الكمال والوحدانية ، ومع ذلك بالعظمة يزداد العلوُّ حتىٰ يتجسد في الأفعال التي بها تتوحد الصفات مع الموصوف بها بالمطلق بالنسبة لله تعالىٰ ، وتتوحد في دائرة الممكن مع أفعال (العظيم بالإضافة) . ولذا فالخليفة هو الذي يستمدُّ صفات عظمته من صفات خالقه تعالىٰ بفروق بين عظيم ، وعليٍّ .

---

(1) الأعلىٰ 1 .

(2) النحل 1 .

ومع أنه لا فرق من حيث المطلقية بين العظيم والأعلىٰ إلا أن علىٰ مستوىٰ الخليفة فالعظيم يدل علىٰ القرب ، والأعلىٰ يدل علىٰ البعد . بيانه : هو أن ما عظم من الأشياء المدركة بالحس قريب من كل ممكن ؛ لأنه لو بعد عنه ؛ لخلا عنه موضعه ، فالعظيم بالنسبة إلىٰ الكل هو الذي يقرب من الكل ، وأما الصغير إذا قرب من جهة ؛ فقد بعد عن أخرىٰ ، وفي هـٰذا الأمر يتضح الفرق بين المخلف والمستخلف ، وأما العليُّ فهو البعيد عن كل شيء ؛ لأن ما قرب من شيء من جهة فوق يكون أبعد منه وكان أعلىٰ فالعلي المطلق بالنسبة إلىٰ كل شيء هو الذي في غاية البعد عن كل شيء مع أنه قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه مؤمناً بأنه الخليفة له في الأرض بغاية الإصلاح لا الإفساد .

والعظيم هو الذي بعلوه لا يحيط به إدراكنا ، وإذا علمنا منه وصفاً ثبوتياً من علم وقدرة ؛ يزيد تعظيمه أكثر مما وصل إليه علمنا ، فنقول : هو أعظم ، وأعلىٰ من أن يحيط به علمنا . وقولنا : « أعظم » معناه : عظيم لا عظيم مثله ، وقولنا : « أعلىٰ » معناه : هو علي ، ولا عليَّ مثله ، فالأعلىٰ مستعمل علىٰ حقيقته لفظاً ومعنىٰ ، والأعظم مستعمل علىٰ حقيقته لفظاً [1] .

الفرق بين العظيم والكبير :

العظيم المطلق هو الكبير المطلق ، ولهـٰذا لا فرق بين صفات الخالق في المطلقية ، ولـٰكن الفرق في المعنىٰ من حيث مستويات الدلالة والمضمون ، فما يدلُّ عليه العظم ، لا يتجرد منه الكبير بالتمام ، ولـٰكن لكل مسمًّىٰ خصوصية في اللغة ، فالعظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فكأن العظيم فوق الكبير من حيث الدلالة ، وهـٰكذا يكون حال الحقير دون الصغير علىٰ مستوىٰ المخلوق لا الخالق [2] .

(1) تفسير الرازي ، ج 15 ، ص 180 .
(2) المصدر السابق ، ج 1 ، ص 324 .

معاني العظمة في التفسير القرآني :

من صفاته العظام جل جلاله جعل العظمة في آياته الكريمة ، وهي في حالة التجزئة ، وفي القرآن في حالة الشمول ، ولذا جاءت الآيات السبع لسورة الفاتحة من المثاني في كل ركعة خير مثال من حيث التجزيء ، وكان الكمال في شمولية القرآن الكريم آية . قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (1) . ولهٰذا كان بأفعال وصفات البقاء والديمومة عظيماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) . وهٰكذا كان عرشه عظيماً بعظمته جل جلاله : ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (3) وكان كتابه عظيماً قرآناً كريماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (4) . ويوم القيامة عظيماً : ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (5) وهٰكذا جاء أمر الزلزلة عظيماً ، وعلمه عظيم ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

وعليه من يستمدُّ صفاته من صفات خالقه بالطبيعة سيكون أمره عظيماً ، وخلقه عظيماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (6) . وعلينا أن نفرق بين العظيم في الفعل الموجب : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (7) وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (8) وبين

---

(1) الحجر 87 .
(2) البقرة 255 .
(3) التوبة 129 .
(4) الحجر 87 .
(5) المطففين 5 ، 6 .
(6) القلم 4 .
(7) النساء 113 .
(8) الفتح 29 .

العظيم في الفعل السالب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [1] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] .

وقال ابن عَرَفة في قول ٱلله : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : سبِّحه بأسمائه ، ونزِّهه عن التَّسمية بغير ما سَمّىٰ به نفسه . قال : ومَنْ سَمَّىٰ ٱلله بغير ما سَمّىٰ به نفسه فهو مُلْحد في أسمائه ، وكلُّ من دعاه بأسمائه ؛ فمسبحٌ له بها ؛ إذ كانت أسماؤه مدائح له ، وأوْصافاً . قال ٱلله جلَّ وعزَّ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ ، فكل من دعا ٱلله بأسمائه ؛ فقد أطاعه ومدحه ، ولحقه ثوابه [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [4] . تخصيص الرحمة للذين يصلحون في الأرض ، وتخصيص العقاب للذين يُفسدون فيها ، ولذا فإن مشيئة ٱلله تعالىٰ وعظمته : أنه يجازي بالثواب عباده المصلحين ، ويجازي بالعقاب المفسدين منهم ، وهـٰذه آية من آيات العظمة التي جعلت من بني آدم خلفاء عظماء ، وجعلت منهم كفرة فجرة ، ولهـٰذا : لو يؤاخذ ٱلله الناس بظلمهم ؛ ما ترك علىٰ ظهرها من دابة ، وكان ٱلله غفوراً رحيماً ، وفي هـٰذا الأمر قال عليُّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « يختص ٱلله برحمته تعني : نبوَّته خص بها محمداً ، عليه الصلاة والسلام » [5] .

﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، يقول : ذو فضل يتفضَّل به علىٰ من أحبّ

---

(1) يوسف 28 .
(2) الأعراف 116 .
(3) تهـٰذيب اللغة ، ج 2 ، ص 46 .
(4) البقرة 105 .
(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، الجزء الثاني ، ص 61 .

وشاء من خلقه . ثم وصف فضله بالعِظَم ، فقال : (فضله عظيم) ، لأنه غير مشبهه في عِظَم موقعه ممن أفضله عليه (فضلٌ) من إفضال خلقه ، ولا يقاربه في جلالة خطره ، ولا يُدانيه .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (1) . عظمة ٱلله في هـٰذه الآية الكريمة : أنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، ومثقال الذرة هو الذي لا ثقل فيه وإن وضع علىٰ الميزان قد لا يحس بوزنه مع أنه موجود ، وإن تكن الحسنة صغيرة جداً يضاعفها وزناً حتىٰ تربو علىٰ كفتي الميزان بالثواب والأجر العظيم في دائرة الممكن غير المتوقع في مدركات العقل البشري ، وأمرٌ هـٰذا حاله ألا يكون من ورائه عظيم يُجَلُّ ، ويُشهد له بالوحدانية ؟!

قال تعالىٰ : ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ (2) . كانت السيادة والنبوة والملك في آل إبراهيم من بعده حتىٰ أنهم ورثوا ملكا لم يكن لأحد من قبلهم ، وهناك من ورث منهم ملكاً لن يكون لأحدٍ من بعدهم وهـٰكذا كان الملك العظيم بخاتمة الرسالات السماوية علىٰ يد محمد ﷺ . عن مجاهد في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ ، قال : النبوَّة .

وقوله تعالىٰ في سورة النمل : ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ يقول : ولها كرسيٌّ عظيم . وعنىٰ بالعظيم في هـٰذا الموضع : العظيم في قدره ، وعظم خطره ، لا عظمه في الكبر والسعة . وعن ابن عباس ، قوله : ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ قال : سرير كريم ، قال : حَسن الصنعة ، وعرشها : سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ . وقال تعالىٰ في سورة الصافات : ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾

(1) النساء 40 .
(2) النساء 54 .

ذِبْحًا وافياً متقبَّلاً لا عيب ، ولا نقيصة فيه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1] . يقول تعالىٰ : ولقد تفضلنا علىٰ موسىٰ وهارون ابني عمران ، فجعلناهما نبيين ، ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم ؛ الذي كانوا فيه من عُبودية آل فرعون ، ومما أهلـٰكنا به فرعون وقومه من الغرق . وقيل : ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ من الرق الذي لحق بني إسرائيل . وقيل : من الغرق الذي لحق فرعون [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] . يعود ضمير له للمعلوم المطلق (لله تعالىٰ) الذي يعود له كل شيء باعتباره أصل الأشياء وخالقها ، وجاءت السمـٰوات والأرض باعتبارها أماكن بينها مجالات للامتداد الذي يسع ويحتوي علىٰ ما تحتويه السمـٰوات والأرض وأكثر ، ولأنه العلي العظيم فهو القادر علىٰ أن يفعل الأكثر مما عرَّف به وهو السمـٰوات والأرض ، سبحانه ما أعظم شأنه ، وهو علىٰ كل شيء قدير ! ولأن له ما في السمـٰوات وما في الأرض فهو المتحكم والمهيمن علىٰ أمر كل ما في السمـٰوات والأرض بقوة ونظام تام يملأه الكمال .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [4] يعني : علىٰ الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله . وعن مجاهد : ﴿ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال : علىٰ الذنب . وعن الضحاك ؛ قال : الشرك [5] . والحنث كبيرة من الكبائر التي تستوجب

(1) الصافات 115 .
(2) تفسير البيضاوي ، ص 593 .
(3) الشورىٰ 4 .
(4) الواقعة 46 .
(5) تفسير الطبري ، ج 6 ، ص 518 .

الاستغفار والتكفير عن الذنب ، ولذا فالأمر عظيم ؛ أي : ليس هيِّناً .

وعليه عندما تسبح باسم ربِّك العظيم تعرف الحقيقة ، وعندما لا تسبح به قد تُشغل بغيره وفي هـٰذا الأمر ذنب كبير . ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1] . تعني : ذِكْرُه في كل كبيرة وصغيرة ، والعودة إليه في كل حين ، والاعتماد عليه في كل مكان وزمان ، وتوحيده واحداً أحداً لا شريك له ، فالرب الذي به يتم التسبيح هو ٱلله الواحد القهَّار جل جلاله . والأرباب قد يكونوا كثرة علىٰ المستوىٰ البشري النسبي ، فهناك رب العمل ، وهناك رب الرزق ، وهناك رب الفضل ، وهناك رب الصدقة والمساعدة ، وهـٰذه الأرباب هي ما دون الرب الأعظم الذي يعطي ، ولا يطلب ، ويخلق ، ولا يُخلق ، هو ٱلله الواحد الأحد هو ربيّ جل جلاله الذي أسبحه كثيراً ، وأذكره كثيراً ، وإليه أوليت أمري ، وأسرتي ، وما أملك ، عليه توكلت فهو حسبي !

فضله العظيم :

قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] ، دائماً وَعْدُ ٱلله حق ، ولذا لن يكون للشك مكان في أن ينال الذين يعملون الصالحات المغفرة والأجر غير المتوقع ، وهنا تكمنُ العظمة ، فالعظمة دائما تأتي من دائرة الممكن في النصف غير المتوقع ، وهـٰذا يعني أن دائرة الممكن تتكون من نصفين : (النصف المتوقع ، والنصف غير المتوقع) ولذا لا استغراب في النصف المتوقع وما يحتويه ، أما النصف غير المتوقع فهو دائماً يأتي بالمفاجأت السارة ، أو غير السارة مما يحدث الاستغراب والتساؤل الذي لا يُطرح إلا والمفاجأة تحوطه من كل جانب .

﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ جزاءً علىٰ أعمالهم التي عملوها ، ووفائهم بالعقود التي

---

(1) الواقعة ، 97 .

(2) المائدة 9 .

عاقدوا ربهم عليها . فالعظيم هو من فعله ، وخيره غير محدود مبلغه ، ولا يعرف منتهاه غيره تعالىٰ . فإن قال قائل : إن ٱلله جل ثناؤه أخبر في هـٰذه الآية : أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولم يخبر بما وعدهم ، فأين الخبر عن الموعود ؟ قيل : بلىٰ إنه قد أخبَر عن الموعود ، والموعود هو قوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (1) . الخطاب موجه للخلفاء وهم الذين آمنوا مما يجعل القول لهم حقيقة خالية من الظن والشك ، وذلك لأن المؤمنين هم الواثقون في قول مخاطبهم المطلق جل جلاله ، بأنه الحق ، وفي هـٰذا الأمر وكأنه يخاطب الصفوة (الخلفاء) دون غيرهم ، وذلك لعلمه : أنهم سيتَّقون ، وفي المقابل هم واثقون بأن يُكفِّر عنهم سيئاتهم ، ويغفر لهم ، ومغفرته بالنسبة لهم فضل عظيم عليهم .

تقوىٰ ٱلله هي التي بها يفرق الخليفة بين الحق والباطل الذي به يُعزُّ ؛ وبه يُذل الكافرين والمشركين . والفضل العظيم علىٰ المؤمنين المستخلفين في الأرض جزاءً منه لهم علىٰ طاعتهم ، وعدم معصيتهم إيَّاه جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (2) . الخطاب موجَّه للخليفة الذي اصطفاه ٱلله ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين محمدٍ ، عليه الصلاة والسلام ، وموجَّه للخليفة المقتدي بما أُرسِلَ به محمد ، عليه الصلاة والسلام . وفي هـٰذه الآية الكريمة يستوجب الأمر طاعة الرسول وطاعة الأمر الذي به بُعث رسولا . ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، العرش العظيم هو العرش الذي خلقه ، وهو الذي يملكه ،

(1) الأنفال 29 .
(2) التوبة 129 .

وهو الذي لن يكون مثله عرش ، ولهـٰذا وصف عرشه بأنه العرش العظيم ، ونحن نؤمن بأنه ربُّ العرش العظيم ، ونحمده علىٰ ملكه وعرشه ، ونسبح بحمده ونحن له شاكرون ، ونؤمن : أن ما دونه من ملوكٍ كلهم مماليكه وعبيده . وإنما عنىٰ بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، الخبرَ عن جميع ما دونه : أنهم عبيده ، وفي ملكه وسلطانه ، لأن (العرش العظيم) ، إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه (ذو العرش) دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم دون غيره ، وأن من دونه في سلطانه وملكه جارٍ عليه حكمه وقضاؤه .

ولأن ٱلله تعالىٰ يخاطب المؤمنين والكافرين (المستخلفين فيها وغير المستخلفين) إلا إنه دائماً يخصُّ المستخلفين في الأرض بالفوز العظيم دون غيرهم ممَّن خلق ؛ وإن ورثوا في الأرض مع الوارثين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) . الاستبشار مقدمات الفرحة والسعادة والتهيؤ والترقب لليوم الذي سيتحقق الفوز فيه ، ويعني الظفر بالحاجة والطِّلبة ، والنجاة من النار . والبيع هو الطاعة التامة لله ربِّ العالمين ، وقوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (2) . الصبر والمكابدة في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل أفعال لا يقوم بها إلا المؤمن الذي سيكون له الجزاء الأوفر ، وهو الفوز بالجنة ، اللهم اجعلنا من الوارثين والمستخلفين فيها ، واجعلنا من الصابرين ، ولا تكلفنا يا ألله ما لا طاقة لنا به ، وأعفُ عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فأنصرنا علىٰ القوم الكافرين ، والمفسدين في الأرض ، والسافكين الدماء فيها بغير حق !

(1) التوبة 111 .
(2) فصلت، 35 .

وعليه : وما يلقَّىٰ هـٰذه إلا ذو نصيب وجدٍّ له سابق في المبرات عظيم . عن السديِّ ، في قوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ذو جدٍّ . وقيل : إن ذلك الحظ الذي أخبر ٱلله جلَّ ثناؤه في هـٰذه الآية أنه لهـٰؤلاء القوم هو الجنة . عن قتادة : والحظُّ العظيم : الجنة [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [2] . ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ وليعلموا : أن الفضل بيد ٱلله دونهم ، ودون غيرهم من الخلق . ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يقول : يعطي فضله ذلك من يشاء من خلقه ، ليس ذلك إلىٰ أحدٍ سواه ، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ يعني : أنه يهب لمن يشاء ما يشاء من خيرات وبركات ومغفرة ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، وهو قريب مجيب لمن يدعوه بقلب سليم دون أن تكون في نفسه حاجة منتظرة ممن يؤتيهم من فضله العظيم ، ولهـٰذا فهو صاحب الفضل العظيم ، جلَّ جلاله .

تفرده بالعظمة :

ولأن ٱلله تعالىٰ خالق كل شيء ويملك كل شيء فهو بطبيعة الحال لم يكن في حاجة لأحد مثل حال العباد الذين مع أنهم خُلقوا في أحسن تقويم إلا أنهم خُلقوا وهم في حاجة ولذا فالفرق كبير بين من هو في حاجة وبين من هو في غير حاجة ، والكل في حاجة إليه . ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3] . نزلت هـٰذه الآية لما قالت اليهود : « عزير ابن ٱلله ، وقالت

---

(1) تفسير الطبري ، ج 10 ، ص 98 .
(2) الحديد 29 .
(3) البقرة 116 ، 117 .

النصارىٰ : المسيح ابن ٱلله ، وقال مشركو العرب : الملائكة بنات ٱلله »[1] . فجاءت (سبحانه) للتنزيه تنزيهه من المشاركة وتأكيداً علىٰ الوحدانية الكاملة المطلقة ، وهو خالق كل ما ذكر من عزير ، والمسيح ، والملائكة ، ولذا تقول القاعدة : (المخلوق مملوك لخالق ، وبالمطلق فهو لا يشارك الخالق في شيء) . اشتملت الآيتان الكريمتان ، علىٰ الردِّ علىٰ النصارىٰ ، وكذا من أشبههم من اليهود ، ومن مشركي العرب ، ممن جعل الملائكة بنات ٱلله ، فأكذب ٱلله جميعهم في دعواهم ، وقولهم : إن لله ولداً . والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالىٰ ليس له نظير ، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له ، فكيف يكون له ولد ! كما قال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[2] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾[3] وقال تعالىٰ : ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾[4] . في هٰذه الآيات الكريمة بيَّن : أنه السيد العظيم ، الذي لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ! ولهٰذا قال البخاري في تفسير هٰذه الآية من البقرة ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « قال ٱلله تعالىٰ : « كَذَّبني ابن آدم ؛ ولم يكن له ذلك ، وشتمني ؛ ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إيَّاي ؛ فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان . وأما شتمه إياي ؛ فقوله : لي ولد . فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً »[5] .

---

(1) تفسير البيضاوي ، ص 23 .
(2) الأنعام 10 .
(3) مريم92 ، 94 .
(4) الإخلاص 3 ، 4 .
(5) صحيح البخاري ، ج 14 ، ص 442 .

الجزاء العظيم :

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (1) . فقوله : ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أضافه إليه ، ونسبه إليه ؛ لِيدل علىٰ أنه عظيم ؛ لأن العظيم الكريم هو الذي لا يعطي إلا جَزيلاً كثيراً ، فالثواب رضاء يكافئ به من يفعل خيراً ، ويعمل صالحاً يرضاه صاحب الثواب العظيم الجليل .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ أي : عنده حُسْن الجزاء لمن عمل صالحاً ، ولذلك فالجزاء العظيم لا يكون إلا من عظيمٍ . قال ابن أبي حاتم : إن شداد بن أوس كان يقول : « يا أيها الناس ، لا تَتَّهِموا ٱلله في قضائه ، فإنه لا يبغي علىٰ مؤمن ، فإذا نزل بأحدكم شيءٌ مما يُحِبُّ ؛ فليحْمَد ٱلله ، وإذا أنزل به شيءٌ مما يكره ؛ فَلْيَصْبر ، وليحتسب ، فإن ٱلله عنده حسن الثواب (2) . لننظر إلىٰ هٰذا الجانب من العظمة الإلٰهية عندما نبحث عنها في الطبائع البشرية ؛ فهل هٰذا سهلٌ في وجوده بين البشر ؟ الجواب ـ بطبيعة الحال ـ يكون صعباً ولٰكننا نجده في فئة ألبسها ٱلله ثوبه ، وهداهم بهداه ، ونوره الذي خصهم به عن غيرهم من الخلق ؛ ليكونوا خلفاءه في أرضه التي استخلفهم فيها ، وهٰؤلاء هم الذين اصطفاهم ؛ ليكونوا علىٰ رأس هٰذه المهام الصعبة ، وهم الذين حملوا الرسالة بصعابها ، وجلالها . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ

---

(1) آل عمران ، 195 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 2 ، ص 191 .

وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

فالعظمة تتمثل في الآتي :

أولاً : العظمة في الأمانة وهي الرسالة التي تحمل مضامين ومعاني الهداية ظاهرة ، وضمنية ، ومعاني العذاب الظاهرة والباطنة ، وكل المعجزات التي تبرهن علىٰ وجود العظيم من ورائها .

ثانياً : أنَّ السمـٰوات التي لا تُلمس كالمادة ، وإن لامستنا في طبقات الجو العليا ونحن في حالة طيران في آفاق أجوائها ، وعبر مدارات ما تحمله من كواكب ، ونجومٍ سيارة ، ورجوم للشياطين ، بالرغم من كل ذلك فهي تدرك ونحن لم ندرك مركز إدراكها ، كما ندرك مراكز الإدراك في أدمغتنا ، ألا يكون أمرها والأرض والجبال أمراً عظيماً ؟ وإذا كان الأمر كذلك : ألا يكون من ورائها عليٌّ عظيم ؟ سبحانه ما من شيء إلا يُسبح باسمه جل جلاله . فالأرض التي خُلقت جلدتنا من أديمها أبت ، والسماء ، والجبال أن تحمل الأمانة : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ .

ثالثاً : العظمة تكمن في ما تدل عليه الآية ضمناً ، وهو : أن السمـٰوات والأرض والجبال ، أدركت العبء العظيم الذي في الرسالة ، ولهـٰذا ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ والإنسان لم يدرك بجهله للأعباء التي في الأمانة ومع ذلك قبل مسؤولية حملها ، فوالله إنَّ هـٰذا لأمرٌ عظيم !

رابعاً : أن يكون الإنسان هو الحامل لهـٰذه الأمانة ، فلِلَّهِ الحمد الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم حتىٰ يحمل الأمانة ، ويتحمَّل ما يترتب عليها من أعباء ، ومسؤوليات جسام ، فهـٰذه المسؤوليات منها ما يعلمه ، ومنها ما لا

(1) الأحزاب ، 72 ، 73 .

يعلمه ، ومع أنه بحمله لها يستمد عظمته من العظيم المطلق ، إلا أن البعض تخلَّىٰ عن حملها ، ولذا كان أكثرهم لا يعلمون ، وأكثرهم لا يعقلون ، وأكثرهم لا يفقهون ، مما جعل القلة هي الوارثة للخلافة بحملها للأمانة . ونأمل ـ والأمل كبير ـ أن تعم الهداية للأرض بمن باسمهم حُملت الأمانة .

خامساً : مع أنَّ الإنسان ظلومٌ جهولٌ ؛ إلا أنه علىٰ حظ مع العظمة بحمله للأمانة ؛ التي فيها معطيات الاستخلاف في الأرض ، ووراثة الجنة ، وفي هـٰذه الرسالة (الأمانة) كل مفاتيح اليقين التي من وقف عليها آمن ، وأسلم وجهه لله ، وفي هـٰذه عظمة لصاحب الأمانة ، والذي يؤمن بها (الخليفة) ؛ ومن هنا يستمدُّ الإنسان استخلافه في الأرض ، ويكون عظيماً .

سادساً : إن امتناع السمـٰوات الواسعة ، والأرض المكورة ، والجبال الصمَّاء التي لا تهتز بيسر إن لم تتزلزل أو تثور البراكين بها ، إنَّ امتناعها كان نتيجةَ خوفٍ من الأعباء واعتراف بعدم المقدرة ، وحملها الإنسان الذي لا يقارن بأيِّ حجم من الأحجام الثلاثة (السمـٰوات والأرض والجبال) ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، ولذا فالعظمة : أن الأرض تحمل الإنسان الذي قَبِلَ بحمل الأمانة ولم تحمل الأمانة مباشرة ، إنَّه الأمر العظيم !

سابعاً : أن الأرض حملت الشيء (الإنسان) ولم تحمل ما يحمله الشيء (الأمانة) وفي هـٰذا الأمر سرٌّ عظيم من ورائه عظيمٌ لا إلـٰه إلا هو .

ثامناً : قال تعالىٰ : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ . الأمر العظيم الذي حمله الإنسان بصفته الخَلقيَّة ، لم يحمله كلُّ بني آدم ، ولهـٰذا سيكون العذاب للمنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات منهم ، ويكون الجزاء العظيم توبةً علىٰ المؤمنين والمؤمنات منهم ، وفي هـٰذا عظمةٌ يتميز فيها التائب ، والتائبة عن المنافق ، والمنافقة ، والمشرك ، والمشركة .

تاسعاً : قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تبين هـٰذه الآية الكريمة عظمة ٱلله بصفته المطلقة بالمغفرة والرحمة ، ولهـٰذا فهو الذي يُعبد دون شريك ، فله الحمد ، وله الشكر علىٰ غفرانه ورحمته الواسعة لمن آمن ، وحمل الأمانة يقيناً .

قال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [1] . العظمة : أن هـٰذا الكتاب منزَّل بالحق ، وهو المُصدِّق لِما بين يديه من الكتب السابقة عليه . عن ابن عباس : (وَمُهَيْمِنًا) أي : حاكمًا علىٰ ما قبله من الكتب . إن اسم « المهيمن » هو أمين وشاهد وحاكم علىٰ كل كتاب قبله ، جعل ٱلله هـٰذا الكتاب العظيم ، الذي أنزله آخر الكتب ، وخاتمها ، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ؛ فلهـٰذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها . وتكفَّل تعالىٰ بحفظه ، فقال تعالىٰ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [2] . إنه الأمر العظيم ، الذي به نزَّل الذكر الحكيم ، وإنه علىٰ حفظه لقادر ، ولذا فلا خوف علىٰ الدين الخاتم الذي به أتم ٱلله النعم علىٰ عباده ، فالحمد لله للرب العظيم ألذي جعل في الأرض خليفة يؤمن بأنه لا خوف علىٰ الإسلام الدين العظيم .

من مظاهر أوجه عظمته تعالىٰ :

الوجه الأول : يوم المحشر :

قال تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ

---

(1) المائدة ، 48 .
(2) الحجر ، 9 .

لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ (1) . يخبر تعالىٰ عن هَول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها : انشقاق السماء ، وتفطرها ، وانفراجها بالغمام ، وهو ظُلَل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر . ثم يجيء الرب تبارك وتعالىٰ لفصل القضاء مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (2) .

الوجه الثاني : الرياح والسحاب :

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ (3) . ومن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم : أنه تعالىٰ يرسل الرياح مبشرات ، أي : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، في صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشِّراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمُّ الأرض ، ومنها ما يلقح السَّحاب ؛ ليمطر ؛ ولهـٰذا قال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أي : آلة يتطهَّر بها ، كالسَّحُور والوقود وما جرىٰ مجراه . فهـٰذا أصح ما يقال في ذلك (4) .

الوجه الثالث : لينه مع الكفار :

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(1) الفرقان ، 25 ، 26 .
(2) البقرة 210 .
(3) الفرقان ، 48 ، 49 .
(4) تفسير ابن كثير ، ج 6 ، ص 114 .

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) . يقول تعالىٰ : وما قدر المشركون ٱلله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر علىٰ كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته .

وقال السديُّ : ما عظموه حق عظمته . قال مجاهد : نزلت في قريش . وعن ابن عباس : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة ٱلله تعالىٰ عليهم ، فمن آمن : أن ٱلله علىٰ كل شي قدير ؛ فقد قدر ٱلله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك ؛ فلم يقدر ٱلله حق قدره (2) . هٰذا المظهر العظيم من مظاهر قوته وعظمته وما يقابله من كفر وجحود يأتي في هٰذه الآية الكريمة في أسلوب ملؤه الرحمة والرأفة ؛ إذ هو قادر علىٰ أن يفعل بهم ما يريد ، ولٰكن رحمته وكبرياءه تأبىٰ ذلك مادام فيهم من يذكره ، هٰكذا تمتزج العظمة والقدرة مع رحمته تعالىٰ ، وهٰذا ما يجب أن يكون في من استخلفه في أرضه بعد أن ألبسه ثوب العظمة والعزة والولاية من الرحمة والرأفة والمحاورة حتىٰ لا يقع في غضب مولاه ، فهٰذه الرعية لا يأتيها إلا من رضيه أن يكون خليفته فيهم وهو كذلك .

الوجه الرابع : نبات الأرض :

قال تعالىٰ : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) . نبه تعالىٰ علىٰ عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترؤوا علىٰ مخالفة رسوله ، وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ؛ الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار

---

(1) الزمر ، 67 .
(2) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 113 .
(3) الشعراء ، 6ـ9 .

وحيوان . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : دلالة علىٰ قدرة الخالق للأشياء ، الذي بسط الأرض ، ورفع بناء السماء ، ومع هـٰذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره ، وارتكبوا زواجره . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عَزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه . وهـٰذه عظمة لعظيم . ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه ، فلا يعجل علىٰ مَنْ عصاه ، بل ينظره ويؤجله لأجل أن يستغفر ويتوب إن أخطأ ، أو غفل ، فإن لم يَتُبْ علىٰ ما فعل من باطل ؛ يؤجله ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية : العزيز في نقمته ، وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره . وقال سعيد بن جبير : الرحيم بِمَنْ تاب إليه وأناب [1] .

وهـٰذا السلوك الرباني الذي التقت فيه العظمة والعزة مع الرحمة لابد وأن يكون لخلفائه نصيب منها ؛ ولأنه تعالىٰ جل شأنه لا يختار شيئاً عبثاً فحظ الخليفة منها أن يسير علىٰ هـٰذا النهج كما أمر ، وما هـٰذا الحمل الثقيل بسهل وإلا كلف به أيا كان . واعلم أيها العبد : أنك لو بلغت إلىٰ أن يحيط عقلك بجميع عجائب عالم الأجسام والأرواح فإياك أن تحدثك نفسك بأنك بلغت مبادئ ميادين جلال ٱلله فضلاً عن أن تبلغ الغور والمنتهىٰ . ومن دعوات رسول ٱلله عَلَيْهِ السَّلَامُ وثنائه علىٰ ٱلله : « لا ينالك غوص الفكر ، ولا ينتهي إليك نظر ناظر ، ارتفعتْ عن صفة المخلوقين صفات قدرتك ، وعلا عن ذلك كبرياء عظمتك . وإذا قلت ٱلله أكبر ؛ فاجعل عين عقلك في آفاق جلال ٱلله ، وقل : سبحانك اللهُمَّ وبحمدك » [2] .

الوجه الخامس : في البحر :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ

(1) تفسير ابن كثير ، ج 6 ، ص 135ـ136 .
(2) المصدر السابق ص 137 .

ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1] . لما أمره ٱلله ، وأوحىٰ ٱلله إلىٰ موسىٰ : ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ، فضربه بها ، وفيها عظمة ٱلله وسلطانه الذي أعطاه : ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، وهـٰذه من معجزات عظمته جل جلاله ، أي : تكومت المياه وكأنها جبال دون أن تكون ثلجاً ، وبَني الإنسان مهما بلغوا من العظمة ؛ فهم حتىٰ تاريخه لم يستطيعوا أن يجعلوا الماء كوماً متراكماً دون أن يسيل علىٰ الأرض ، أو يسيل في مجارٍ منحدرة في وديانٍ تجري ، ولهـٰذا أقول : بالعلم كل شيء ما لم يكن مستحيلاً فهو ممكن في دائرة المتوقع ، وغير المتوقع .

الوجه السادس : أم موسىٰ ، عليهما الصلاة والسلام :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [2] . كان فرعون يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم خوفاً من أن يظهر بينهم الغلام الذي يكون سبباً في هلاكه ، وذهاب دولته علىٰ يديه . وكانت القبط قد تلقَّوا هـٰذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرىٰ له مع جبَّارها ما جرىٰ ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها ٱلله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولده : أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك ملك مصر علىٰ يديه ، فكانت القبط تتحدَّث بهـٰذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ، ولن ينفع حذرٌ من قدر ؛ لأنَّ أجل ٱلله إذا جاء

(1) الشعراء 63 .
(2) القصص ، 7ـ9 .

لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهٰذا قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (1) . وقد فعل تعالىٰ ذلك بهم ، كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ (2) . وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (3) . أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسىٰ ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ، بل نفذ حكمه ، وجرىٰ قلمه في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون علىٰ يديه ، بل يكون هـٰذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ، ومرباه علىٰ فراشك ، وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلِّله ، وحتفك ، وهلاكك ، وهلاك جنودك علىٰ يديه ، لتعلم : أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم ، العزيز القوي الشديد المحال ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو الرب العظيم (4) !

الوجه السابع : في الأنهار والبحار :

هـٰذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحةً زُعَاقًا مُرَّة ، ولهـٰذا قال : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، أي : مُرّ . ثم قال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعني : السمك ،

---

(1) القصص ، 5 ـ 6 .

(2) الأعراف ، 137 .

(3) الشعراء ، 9 .

(4) تفسير ابن كثير ، ج 6 ، ص 221

﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (1) . وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي : تمخره وتشقه بحيزومها . وقال مجاهد : الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلىٰ قطر ، وإقليم إلىٰ إقليم ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ . فأما قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ونظيره قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ (2) . ففي هٰذه الآية الكريمة الآتي :

أولاً : إن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر ، وذلك لأنه تعالىٰ خصَّ كل طرف من أطراف الأرض بنوعٍ آخر من أنعمه حتىٰ أن نعمة هٰذا الطرف إذا نقلت إلىٰ الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات ، ثم إن هٰذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال ، أو بسفن البحر وهي الفلك المذكور في هٰذه الآية .

ثانياً : أنه تعالىٰ أضاف ذلك التسخير إلىٰ أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيماً لشأنه ، ومنهم من حمله علىٰ ظاهر قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3) .

الوجه الثامن : في الليل والنهار :

قال تعالىٰ : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ

---

(1) الرحمٰن ، 22 ، 23 .

(2) الشورىٰ 32 .

(3) النحل 40 .

مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾ (1) . وهـٰذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، في تسخيره الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هـٰذا ، فيزيده في قصر هـٰذا ، فيعتدلان . ثم يأخذ من هـٰذا في هـٰذا ، فيطول هـٰذا ويقصر هـٰذا ، ثم يتقارضان صيفًا وشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ النجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهنَّ مصدراً ، وانعكاساً ، ونوراً وضاحاً ، وأجرام السمـٰوات الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلىٰ منهاج مقنن محرر ، تقديراً من العلي العظيم . ﴿ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ﴾ إلىٰ يوم القيامة . ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ الذي فعل هـٰذا هو الرب العظيم ، الذي لا إلـٰه غيره ، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ من الأنداد والأصنام التي هي علىٰ صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ (2) . وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ (4) . فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته ، لا إلـٰه إلا هو ، ولا رب سواه ؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه ، العليُّ الذي لا أعلىٰ منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالىٰ وتقدَّس وتنزه ، وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً (5) ! وقال تعالىٰ : ﴿ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ (6) . وهـٰذا يدل علىٰ أن الزمان والزمانيات بأسرها ملك ٱلله تعالىٰ

---

(1) فاطر ، 13 .
(2) الحج ، 61 ، 62 .
(3) البقرة ، 255 .
(4) الرعد ، 9 .
(5) تفسير ابن كثير ، ج ، 5 ، ص ، 449 .
(6) الأنعام 13 .

وملكوته ، فتعالىٰ وتقدس عن أن يكون علوه بسبب المكان ، وأما عظمته فهي أيضاً بالمهابة والقهر والكبرياء ، ويمتنع أن تكون بسبب المقدار والحجم ، فالحق : أنه سبحانه وتعالىٰ أعلىٰ وأعظم من أن يكون من جنس الجواهر والأجسام ، تعالىٰ عما يقول الظالمون علواً كبيراً [1] ! ونسأل ٱلله العظيم أن يرحم عجزنا وقصور فهمنا بالطاعة والعلم واليقين ، وأن يعفو عن خطايانا ، فإنا لا نطلب إلا الحق ، ولا نروم إلا الصدق .

الوجه التاسع في : إنَّ بطشه شديد :

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [2] . ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : بغوا ، وعتوا ، وعصوا ، ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي : منُّوا بشدة تركيبهم وقواهم ، واعتقدوا : أنهم يمتنعون به من بأس ٱلله ! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وإن بطشه شديد ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [3] . فبارزوا الجبار بالعداوة ، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله ، فلهٰذا قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ قال بعضهم : وهي الشديدة الهبوب . وقيل : الباردة . وقيل : هي التي لها صوت .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 3 ، ص 453 .
(2) فصلت ، 15ـ18 .
(3) الذاريات ، 47 .

والحق : أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية ؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جداً . واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة ؛ ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ ﴾ أي : أشد خزياً لهم . وهنا تظهر قوته تعالىٰ وعظمته وقدرته التي ليس لها مقياس بشريٌّ ، وخاصة لمن يريدون الفساد في البلاد وبين العباد ، فأرسل ٱلله جل في علاه العذاب من حيث لا يحتسبون ، ونصر خلفاءه بنصره كما وعد ووعده الحق ، فخلفاؤه منصورون أينما كانوا ، وحيثما وجدوا ، فالرسول الكريم كان يقول : « نصرت بالرعب من مسيرة شهر » أو كما قال ، فهـٰذه الخلافة منصورة بإذن ربها أينما حلت »[(1)] .

الوجه العاشر : كلُّهم خاضعون له :

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(2)] . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ ﴾ أي : هو إلـٰه مَنْ في السماء ، وإلـٰه مَنْ في الأرض ، يعبده أهلهما ، وكلهم خاضعون له ، أذلاء بين يديه ، وهـٰذه بأسباب عظمته جل جلاله . ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . وهـٰذه الآية كقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[(3)] ، هو العظيم الواحد القهار وهو في كل مكان ولا تخفىٰ عليه خافية ، وهو الذي يعلم بأمر كل شيء في كل زمان ومكان في السموات والأرض . ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ التبارك إظهار للقوة

---

(1) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 169 .
(2) الزخرف ، 85 .
(3) الأنعام ، 3 .

والوجود الفعَّال وهو الذي لا يشغله شاغل ، وهو المحيط العليم في ملكه الذي لا ملك إلا له عز وجل ، ولا ملك إلا منه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، فسبحانه جل جلاله تعالىٰ عن الولد . ﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ : أي : استقر له السلامة من العيوب والنقائص ؛ لأنه الرب العلي العظيم ، المالك للأشياء ، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً . ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ الذي لا يعلمه إلا هو ، ولهٰذا لا يجليها لوقتها إلا هو ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : فيجازي كُّلاً بعمله ، إن خيراً ؛ فخير ، وإن شراً ؛ فشر [1] .

الوجه الحادي عشر : هو العظيم الممجد :

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] . ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : يعني : السلطان . أي : هو العظيم الممجد ، الذي كل شيء خاضع لديه ، فقير إليه . وقد ورد في الحديث الصحيح : « العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحدًا منهما أسكنته ناري » . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن الأغر أبي مسلم ، عن أبي هريرة ، وأبي سعيد ـ رضي ٱلله عنهما ـ عن رسول ٱلله ﷺ ، بنحوه [3] . وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي لا يغالب ولا يمانع ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، تعالىٰ وتقدس ، لا إلـٰه إلا هو . فهـٰذه الكبرياء التي نراها علىٰ وجه الأرض جعلها في قلوب الخلق فإن جزءاً منها منحه لخلفائه ليكون الخلائق مطيعين لخلفائه

(1) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 243 .
(2) الجاثية 37 .
(3) صحيح مسلم ، ج 7 ، 259 .

علىٰ ظهر البسيطة ؛ وإلا فكيف يستطيع رجل أن يسير علىٰ نهجه وأمره عدد لا يحصىٰ من خلقه ؟! تلك هي الخلافة التي أوردها تعالىٰ في كتابه العزيز ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [1] يعني : ما أعطاه ٱلله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خصَّ به أمتَّه من بعثته ﷺ إليهم [2] .

الوجه الثاني عشر إنَّه عظيم في خلق السمـٰوات والأرض :

قـال تعـالـىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [3] . وقوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ فيه مسائل :

الأولىٰ : أنه تعالىٰ ذكر أمر السمـٰوات والأرض في كتابه في مواضع :

ولا شك : أنَّ إكثار ذكر ٱلله تعالىٰ من ذكر السمـٰوات والأرض يدل علىٰ عظم شأنهما ، وعلىٰ أن له سبحانه وتعالىٰ فيهما أسراراً عظيمة ، وحكماً بالغة لا يصل إليها أفهام الخلق ، ولا عقولهم .

والثانية : في فضائل السماء وهي من وجوه :

الأول : أنَّ ٱلله تعالىٰ زينها بمصابيح ، تنير الليل ، وترشد الناس إلىٰ سبلهم وحيث يشاؤون .

الثاني : أنه تعالىٰ سمىٰ السموات بأسماء تدل علىٰ عظم شأنها : سماء ، وسقفاً محفوظاً ، وسبعاً طباقاً ، وسبعاً شداداً .

والثالث : أنه تعالىٰ جعل السماء قبلة الدعاء : فالأيدي ترفع إليها ، والوجوه تتوجه نحوها ، فهي الأفق العظيم الذي يستوعب تضرع وتقرب

(1) الحديد ؛ 21 .
(2) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 273 .
(3) البقرة ، 22 .

الخليفة إليه ، فرفع الرأس والأيدي معاً للسماء هو في حقيقته تضرعٌ إلىٰ ربِّ السماء جل جلاله ، وليس تضرعاً للسماء مهما عظمت .

الرابع : تفكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير ، فإن هـٰذا اللون أشدُّ الألوان موافقة للبصر وتقوية له ، حتىٰ إن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلىٰ الزرقة ، فانظر كيف جعل ٱلله تعالىٰ أديم السماء ملوناً بهـٰذا اللون الأزرق ، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها ، فهو سبحانه وتعالىٰ جعل لونها أنفع الألوان ، وهو المستنير ، وشكلها أفضل الأشكال ، وهو المستدير ، ولهـٰذا قال : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [1] يعني ما فيها من فصول ، ولو كانت سقفاً غير محيط بالأرض ؛ لكانت الفروج حاصلة [2] .

الوجه الثالث عشر : إنَّه عظيم بكمال قدرته :

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [3] . يقول تعالىٰ مخبراً عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثاً علىٰ تعظيم ما شرع من الدين القويم : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ كقوله تعالىٰ إخباراً عن نوح : أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [5] . وقوله تعالىٰ ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

---

(1) ق ، 6 .
(2) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 381 .
(3) الطلاق ، 12 .
(4) نوح ، 15 .
(5) الإسراء ، 44 .

أي : سبعاً أيضاً ، كما ثبت في الصحيحين « من ظلم قِيْدَ شِبرٍ من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين » [1] .

الوجه الرابع عشر : إنَّه عظيم بملكه وقدرته المطلقة :

إنه الخالق لكل مخلوق ، ولهٰذا فهو الذي بيده أمر ما خلق ، ومُلك كل شيء ؛ حيث لا شيء إلا به ، ولا شيء إلا منه جلَّ جلاله ، وهو الذي يخلق كل شيء ، ويباركه بقدرته وقوته المطلقة ، وهو الغفور الرحيم .

قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [2] . يمجد تعالىٰ نفسه الكريمة ، ويخبر : أنه بيده الملك ، أي : هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهٰذا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثم قال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ واستدلَّ بهٰذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودي ؛ لأنه مخلوق . ومعنىٰ الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم ، ليبلوهم ، ويختبرهم أيهم أحسن عملاً ؟ ثم قال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ أي : هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالىٰ عزيزاً ؛ هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز [3] .

الوجه الخامس عشر : لا يقوم لغضبه شيء :

قال تعالىٰ : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [4] . يقول تعالىٰ متوعدًا الكفار

---

(1) تفسير ابن كثير ، ج 8 ، ص 156 .

(2) الملك ، 1 ، 2 .

(3) تفسير ابن كثير ، ج 8 ، ص 176 .

(4) المزمل ، 11 ، 13 .

ومتهددًا وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء : ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ أي : دعني والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال ، فإنهم علىٰ الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، ﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ أي : رويداً ، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [(1)] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا ﴾ وهي : القيود . ﴿ وَجَحِيمٗا ﴾ وهي السعير المضطرمة . ﴿ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ ﴾ قال ابن عباس : « ينشب في الحلق ، فلا يدخل ، ولا يخرج » [(2)] .

الوجه السادس عشر : عظيم إعجازه وعلم غيبه جلَّ جلاله :

قال تعالىٰ : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ [(3)] . التساؤل يتضمن الحيرة ، والاستغراب ، ولذا فهو استفسار استغرابي في مضمونه حيرة ، وتعجب ، وتكون النتائج المترتبة عليه استكشافية ، كما هو الحال عند نيوتن الذي تساءل عندما شاهد التُفاحة تسقط من الشجرة بقوله : (لِمَ لا تصعد التُفاحة . لِمَ لا تصعد التُفاحة ؟) حتىٰ تمكَّن من اكتشاف قانون الجاذبية . ويتضح الاستغراب التساؤلي في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ [(4)] ! ! . وقوله تعالىٰ في سورة يونس ﷺ : ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ . وقوله تعالىٰ في سورة هود ﷺ : ﴿ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ ! !

---

(1) لقمان ، 24 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 8 ، ص 256 .

(3) النبأ ، 1 ـ 8 .

(4) الغاشية 17 ـ 21 .

التساؤل لا يلاحق الإجابة كما هو حال السؤال ، بل يسعىٰ لمعرفة الجديد الذي لم تسبق معرفته . فالتفاحة وسقوطها علىٰ الأرض عُرف بالمشاهدة المباشرة ، ولـٰكن القانون الذي علىٰ أساسه تسقط التفاحة علىٰ الأرض بالضرورة هو الذي ترتبت معرفته بعد تساؤل نيوتن : لِمَ لا تصعُد التفاحة إلىٰ أعلىٰ ؟ !

وتأخذ التساؤلات الأوجه التالية :

1 ـ في الأمور العظيمة التي يكون فيها الاختلاف والاستغراب . مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة النبأ : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ .

2 ـ عندما يكون موضوع البحث جديداً بالتمام ، كما هو حال نيوتن ، والتفاحة .

3 ـ في البحوث النظرية ، أو المكتبية ، كما هو الحال في البحوث الفكرية والفلسفية التي تجرىٰ في الدراسات العليا .

وتصاغ التساؤلات علىٰ الكيفية الآتية :

ـ ألا يكون ارتفاع مستوىٰ الطلاق علىٰ علاقة ضعيفة بارتفاع مستوىٰ التعليم ؟

ـ ألا يكون ارتفاع مستوىٰ الأداء المهني علىٰ علاقة قوية وموجبة مع ارتفاع مستويي التعليم ، والتدريب ؟

ـ ألا تكون قوة علاقة الأم الموجبة بعملها تُضعف علاقاتها مع أبنائها وتجعلها سالبة ؟

ـ لِمَ لا تُتخذ احتياطات تحقيق السلامة ، والأمان للمواطنين فيما إذا تكرر إعصارٌ كإعصار كاترينا في أمريكا ، أو كما الحال في سونامي

باندونيسيا ، والإعصار الذي ضرب أجزاء من عُمان وإيران 2007 م ؟ كل ذلك تذكير من ٱلله لخلقه .

ـ لأجل سلامة المواطنين من الغارات الحربية والهزات الأرضية المفاجئة لِمَ لا تصدر قوانين تستوجب بناء مساكن آمنة وفقاً للمواصفات الفنية ، وأن يكون من بينها طابقاً للسلامة تحت الأرض .

ولأجل معرفة المزيد في هـٰذا المضمار علينا أن نميز بين مستوجبات صياغة التساؤلات ، وبين مستوجبات صياغة الأسئلة .

السؤال : صيغة لغوية ذات أدوات استفهامية عن معارف سابقة ، وبه تستدعىٰ الإجابات مما يجعل الإجابة دائماً سابقة علىٰ السؤال ويجعل السؤال دائماً في حالة ملاحقة للإجابة .

وعند عامة الناس اعتقاد سائد بأن السؤال دائماً يسبق الإجابة ، وهـٰذا الأمر غير صحيح ، فلو لم تكن الإجابة سابقة معرفيّاً ما كان السؤال عنها . ولذا لا سؤال إلا بعد معرفة ، وإلا هل هناك من يسأل عن من لا يعرفه ، أو عن مالا يعرفه ؟ ولهـٰذا يتمُّ التعليم أولا حيث تُعطىٰ المقررات والمحاضرات ثمَّ بعد ذلك تجرىٰ الامتحانات ، فتصاغ الأسئلة وفقاً لِما تم إعطاؤه للتلاميذ والطلبة أو المتعلمين ، والمتدربين بشكلٍ عام .

السؤال لا يأتي بالجديد ، بل يُعيد ما سبق وإن قيل أو أعطي أو طُبِعَ ونُشِرَ في دوائر المعرفة الواسعة ، ومع أن المعلومة (الإجابة) تسبق السؤال ؛ إلا أن التعرف عليها قد لا يتمُّ ، أو لا يتمُّ التوفيق في عمليات استدعائها من قبل الذي أعطيت له عندما تدخل دهاليز النسيان ، أو عندما لا تكون في مستوىٰ القدرات المتلقية ، والداعية لها .

وعليه : من يصوغ أسئلةً لبحوث علمية بغرض نيل إجازة عالية ، أو دقيقة ؛ فهو لن يأتي بالجديد ، ويكون قد خلَّ بشرط أساسي لنيل الإجازة

العالية أو الدقيقة . فالسؤال كما سبق أن بينا يلاحق إجابة سابقةً عليه . أما البحث فينبغي أن يضيف شيئاً جديداً ، أو يأتي بالجديد المفيد . وهٰذا لن يتأتىٰ إلا بفروض ، أو تساؤلات علمية متطلِّعة للمستقبل .

يقول ٱلله تعالىٰ منكراً علىٰ المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : عن أيِّ شيء يتساءلون من أمر القيامة ؟ وهو النبأ العظيم ، يعني : الخبر الهائل المفظع الباهر . ثم شرع تعالىٰ يُبَيّن قدرته العظيمة علىٰ خلق الأشياء الغريبة ، والأمور العجيبة الدالة علىٰ قدرته علىٰ ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴾ ؟ أي : ممهدة للخلائق ذَلُولاً لهم ، قارّةً ساكنة ثابتة ، ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أي : جعلها لها أوتادًا أرساها بها ، وثبتها ، وقرّرها ، حتىٰ سكنت ولم تضطرب بمن عليها . وقال : ﴿ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ يعني : ذكرًا وأنثىٰ ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (1) . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (2) . أي : وحق لها أن تطيع أمره ؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانَع ولا يغالب ، بل قد قهر كلّ شيء ، وذلَّ له كل شيء (3) .

الوجه السابع عشر : خلق الأشياء :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (4) . يقول تعالىٰ آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة علىٰ قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟

---

(1) الروم ، 12 .
(2) الانشقاق 2 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 8 ، ص 356 .
(4) الغاشية ، 17ـ20 .

فإنها خَلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتىٰ ننظر إلىٰ الإبل كيف خلقت ، وإلىٰ السماء كيف رفعت ؟ قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإلـٰه الذي لا يستحق العبادة سواه . وهـٰكذا أقسم « ضِمَام » في سؤاله علىٰ رسول ٱلله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد حيث قال : « جاء رجل من أهل البادية ، فقال : يا محمد ! إنه أتانا رسولُك ، فزعَم لنا أنك تَزعُم : أن ٱلله أرسلك . قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هـٰذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » . قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هـٰذه الجبال ، آللهُ أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولُك : أن علينا خمس صلوات في يومنا ، وليلتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهـٰذا ؟ . . . الحديث إلىٰ أن قال : (فقال النبي ﷺ : « إن صدق ليدخُلَنّ الجنة ») [1] .

الوجه الثامن عشر : إنه عظيم بنعم الإيمان :

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [2] . إن نعمة ٱلله بالإيمان أعظم النعم ، والدليل عليه : أن هـٰذه النعمة لو فاتتك ؛ لكنت أشقىٰ الأشقياء أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، ثم هـٰذه النعمة من ٱلله تعالىٰ لقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [3] ثم مع أن

(1) تفسير ابن كثير ، ج 8 ، ص 387ـ 388 .
(2) البقرة ـ 122 .
(3) النحل 53 .

هـٰذه النعمة منه ؛ فإنه يشكرك عليها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ (1) . فإذا كان ٱلله تعالىٰ يشكرك علىٰ هـٰذه النعمة فبأن تشكره علىٰ ما أعطىٰ من التوفيق والهداية كان أولىٰ ، ثم إنك ما أتيت إلا بالكفران علىٰ ما قال تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ (2) فهو تعالىٰ وفىٰ بعهده ، وأنت نقضت عهدك . فعليك أن تنفق نعمه في سبيل مرضاته ، فعهده معك أن يعطيك أصناف النعم وقد فعل ، وعهدك معه أن تصرف نعمه في سبيل مرضاته ، وأنت ما فعلت ذلك : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ (3) . ثم أنعم عليك بأنواع النعم لتكون محسناً إلىٰ المحتاجين : ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ثم إنك توسلت به إلىٰ إيذاء الناس وإيحاشهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ ﴾ (4) . بذلك أعطاك النعم العظيمة لتكون مقبلاً علىٰ حمده ؛ وأنت تحمد غيره ، فانظر لو أن السلطان العظيم أنعم عليك بخلعة نفيسة ، ثم إنك في حضرته تعرض عنه ، وتبقىٰ مشغولاً بخدمة بعض الأسقاط كيف تستوجب الأدب ، والمقت فكذا هاهنا ، واعلم أنا لو اشتغلنا بشرح كيفية وفائه سبحانه بعهد الإحسان والربوبية وكيفية نقضنا لعهد الإخلاص والعبودية ؛ لما قدرنا علىٰ ذلك فإنا من أول الحياة إلىٰ آخرها ما صرنا منفكين لحظة واحدة من أنواع نعمه علىٰ ظاهرنا وباطننا وكل واحدة من تلك النعم تستدعي شكراً علىٰ حدة ، وخدمة علىٰ حدة ، ثم إنا ما أتينا بها ، بل ما تنبهنا لها وما عرفنا كيفيتها وكميتها ، ثم إنه سبحانه علىٰ تزايد غفلة البعض وتقصيرهم يزيد في أنواع النعم والرحمة والكرم ، وهم من أول عمرهم إلىٰ آخره لا يزالوا يتزايدون في درجات النقصان والتقصير واستحقاق الذم ، وهو

(1) الإسراء 19 .
(2) عبس ، 17 .
(3) العلق ، 6 ، 7 .
(4) الحديد ، 24 .

سبحانه لا يزال يزيد في الإحسان واللطف والكرم ، واستحقاق الحمد والثناء فإنه كلما كان تقصيرنا أشدُّ ؛ كان إنعامه علينا بعد ذلك أعظم وقعاً ، وكلما كان إنعامه علينا أكثر وقعاً ؛ كان تقصيرنا في شكره أقبح وأسوأ ، فلا تزال أفعال البعض تزداد قبائح ، ومحاسن أفعاله علىٰ سبيل الدوام بحيث لا تفضي إلىٰ الانقطاع . إنه العظيم المتعال جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهٰذا تخويف شديد ؛ لٰكنا نقول : إلٰهنا صدر منك ما يليق بك من الكرم والعفو والرحمة والإحسان وصدر منا ما يليق بنا من الجهل والغدر والتقصير والكسل ، فنسألك بك وبفضلك العميم أن تتجاوز عنا يا أرحم الراحمين [1] !

الوجه التاسع عشر : عظمة المشورة :

للمشورة معطيات وتترتب عليها أفعال وفقاً للآتي :

أولاً : وجود موضوع مشترك .

ثانياً : وجود أكثر من طرفٍ علىٰ علاقةٍ مباشرةٍ بالموضوع ، أو علىٰ علاقةٍ شبه مباشرة .

ثالثاً : ضرورة لمن يُدير موضوع المشاورة بين من يتعلق الأمر بهم .

رابعاً : نتيجة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع .

خامساً : فعل ورد فعل في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع .

قال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [2] . بالمشاورة يعلم خير الأمور وشرُّها . فالملك العظيم لا يشاور في المهمات العظيمة إلا خواصه والمقربين عنده ، فهٰؤلاء لما أذنبوا

---

(1) تفسير الرازي ، ج 2 ، ص 333 .

(2) آل عمران 159 .

عفا ٱلله عنهم ، فربما خطر ببالهم : أن ٱلله تعالىٰ وإن عفا عنا بفضله إلا أنه ما بقيت لنا تلك الدرجة العظيمة ، فبين ٱلله تعالىٰ : أن تلك الدرجة ما انتقصت بعد التوبة ، بل أنا أزيد فيها ، وذلك أنَّ قبل هـٰذه الواقعة ما أمرت رسولي بمشاورتكم ، وبعد هـٰذه الواقعة أمرته بمشاورتكم ، لتعلموا : أنكم الآن أعظم حالاً مما كنتم قبل ذلك ، والسبب فيه : أنكم قبل هـٰذه الواقعة كنتم تعولون علىٰ أعمالكم وطاعتكم ، والآن تعولون علىٰ فضلي وعفوي ، فيجب أن تصير درجتكم ومنزلتكم الآن أعظم مما كان قبل ذلك ، لتعلموا : أنَّ عفوي أعظم من عملكم ، وكرمي أكثر من طاعتكم . والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه [1] !

الوجه العشرون : العظمة ثبات الأجر ، وحسن الثواب :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [2] . ثم إنَّ ٱلله تعالىٰ وعد من فعل هـٰذا بأمور ثلاثة :

أولها : محو السيئات ، وغفران الذنوب ، وهو قوله : ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ وذلك هو الذي طلبوه بقولهم : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ .

وثانيها : إعطاء الثواب العظيم ، وهو قوله : ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ وهو الذي طلبوه بقولهم : ﴿ وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ .

وثالثها : أن يكون ذلك الثواب ثواباً عظيماً مقروناً بالتعظيم والإجلال ، وهو قوله : ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الذي قالوه : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ لأنه

(1) تفسير الرازي ، ج 4 ، ص 445 .
(2) آل عمران ، 195 .

سبحانه هو العظيم الذي لا نهاية لعظمته ، وإذا قال السلطان العظيم لعبده : إني أخلع عليك خلعة من عندي ؛ دلَّ ذلك علىٰ كون تلك الخلعة في نهاية الشرف . وقوله : ﴿ثَوَابًا﴾ مصدر مؤكد ، والتقدير : لأثيبنهم ثواباً من عند ٱلله ، أي : لأثيبنهم إثابة ، أو تثويباً من عند ٱلله ؛ لإن قوله : ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ في معنىٰ لأثيبنهم . ثم قال : ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ وهو تأكيد ليكون ذلك الثواب في غاية الشرف ؛ لأنه تعالىٰ لما كان قادراً علىٰ كل المقدورات ، عالماً بكل المعلومات ، غنياً عن الحاجات ؛ كان لا محالة في غاية الكرم والجود والإحسان ، فكان عنده حسن الثواب [1] .

الوجه الحادي والعشرون : العظمة بكمال الرحمة :

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [2] . اعلم : أن كمال جود ٱلله تعالىٰ ، وكمال قدرته ، وكمال رحمته بعباده معلوم ، فدعوته عبيده إلىٰ دار السلام تدل علىٰ أن دار السلام قد حصل فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؛ لأن العظيم إذا استعظم شيئاً ورغب فيه ؛ دل ذلك علىٰ كمال حال ذلك الشيء ، لا سيما وقد ملأ ٱلله هـٰذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله تعالىٰ : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [3] ونحن نذكر هاهنا كلاماً كلياً في تقرير هـٰذا المطلوب ، فيقال : الإنسان إنما يسعىٰ في يومه لغده . ولكل إنسان غدان : غدٌ في الدنيا ، وغدٌ في الآخرة [4] .

الوجه الثاني والعشرون : عظمة الفاتحة :

ذُكرت من الأسماء خمسةٌ في الفاتحة ، وهي : ٱلله ، والرب ،

---

(1) تفسير الرازي ، ج 5 ، ص 26 .
(2) يونس ، 25 .
(3) الواقعة ، 89 .
(4) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 265 .

والرحمـٰن ، والرحيم ، والمَلِكُ . فذكرت الإلـٰهية وهي إشارة إلىٰ القهارية والعظمة فعلم : أن الأرواح لا تطيق ذلك القهر والعلو ، فذكر بعده أربعة أسماء تدل علىٰ اللطف : الرب وهو يدل علىٰ التربية ، والمعتاد : أنَّ من ربىٰ أحداً ؛ فإنه لا يهمل أمره . ثم ذكر الرحمـٰن الرحيم ، وذلك هو النهاية في اللطف ، والرأفة ، ثم ختم الأمر بالمَلِك ، والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ، ولأن عائشة قالت لعليٍّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « ملكت فأسجح ، فأنت أولىٰ بأن تعفو عن هـٰؤلاء الضعفاء » [1] .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [2] يعني : بكل شيء من الكليات والجزئيات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، عالم بجميع الأشياء ، وقادر علىٰ الإنشاء بعد الإفناء ، فتبارك ٱلله رب العالمين ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

اللهُمَّ باسمك العظيم نسبِّحُك ونحمدك ونشكرك كثيراً ! اللهُمَّ يا العظيم عظِّم أقوالنا بالحُجَّة التي تحق الحق وتدمغ الباطل حتىٰ يزهق ، وعظِّم أعمالنا بكل ما يسبب إصلاحاً في الأرض ، ويقضي علىٰ الفساد ، ويحرِّم سفك الدماء بين الناس بغير حق ! اللهُمَّ إنك العظيم بوحدانيتك ، فنشهد : أنك ٱلله لا إلـٰه إلا أنت وحده لا شريك لك جل جلالك ، ونشهد : أن محمداً عبدك ورسولك فنصلي عليه ونسلم تسليماً ، ونشهد : أنك العظيم بخلقك خلقت الإنسان في أحسن تقويم فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، ونشهد : أنك العظيم بعذابك فالويل للكافرين الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ !

---

(1) تفسير الرازي ، ج 10 ، ص 360 .
(2) الطلاق ، 12 .

الغفور جلّ جلاله

اسم ٱلله الغفور : « يدلُّ علىٰ ذات ٱلله ، وعلىٰ صفة المغفرة بدلالة المطابقة ، وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمن ، وعلىٰ صفة المغفرة وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم علي الحياة ، والقيومية ، والعزة ، والأحدية ، والحكمة والعظمة ، والرأفة ، والرحمة ، وغير ذلك من أوصاف الكمال . واسم ٱلله الغفور دل علىٰ صفة من صفات الأفعال » (1) .

الغفور : اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ التي تحوي في ثناياها معاني الرحمة والود ، والقيومية ، وتمنح العبد المؤمن بالله عز وجل الذي قصَّر في حق ربه بارتكاب بعض الذنوب ، أو تركه لبعض الواجبات ، فهـٰذا الاسم يكون بمثابة فسحات متكررة من الأمل تطرد من قلب هـٰذا المؤمن شبح اليأس ، وذلك لقوله تعالىٰ مطمئناً عباده القانطين : ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) .

والغفور : يدل علىٰ استمرارية المغفرة ، أو الغفران بدون أي عوائق ، أو موانع ، بل بيسر وانسياب ، وهـٰذا ما نلاحظه من سهولة تركيب حروف الاسم (غفور) فحرف المد فيه يفيد الاستمرار اللامحدود ، وهـٰذا بخلاف اسم الغفّار الذي يفيد استمرار المغفرة اللانهائي أيضاً ؛ ولـٰكن بشروط ،

(1) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 23 ، ص 25 .

(2) الزمر 53 .

وتشديد فيها . والدالُّ علىٰ هـٰذا المعنىٰ هي حركة الشدَّة التي قبل حرف المد في اسم (الغفّار) .

وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أي شرط ، أو قيد ، أو صعوبة في مواضع عدَّة منها قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [1] ، وكذلك قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] ، وأيضاً قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] ، والكثير من الآيات القرآنية تُشْعرنا بيسر عملية الغفران ، وقربها منا ، وإمكانية الوصول إلىٰ استحقاق مغفرة الغفور ، عز وجل .

وهناك أيضاً ارتباط للمغفرة بالرحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وهـٰذا يدل علىٰ أن المغفرة الميسَّرة للعباد نوع من أنواع اللين والرحمة من الخالق لعباده التائبين ، فمن رحمة ٱلله تعالىٰ تيسير المغفرة للبشر الخطَّائين . وفي هـٰذا أيضاً استشعار لليسر ، والسهولة في اسم ٱلله (الغفور) .

فالله عز وجل يغفر الذنوب لمن أراد بقوته وإرادته ، ولا يغفرها خوفاً ، أو طمعاً بل رحمةً بعباده ، ولطفاً بهم .

وأصل الغفر في اللغة : التغطية ، والستر ، فكلُّ شيءٍ سترته فقد غفرته ، والمغفرة : التغطية علىٰ الذنوب .

---

(1) البقرة 225 .

(2) آل عمران 31 .

(3) البقرة 198 ، 199 .

واسم الغفور جل جلاله ورد في أحدَ عشرَ موضعاً من القرآن الكريم مطلقاً ومنوناً يراد به العلمية ويدلُّ علىٰ كمال الوصفية ، كما في قوله تعالىٰ في كتابه الكـريـم : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) وقـولـه تعـالـىٰ أيضاً : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ (2) ، وورد في صفة غفور اثنين وسبعين موضعاً من القرآن مثل ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وقوله أيضاً : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (4) .

ومن خلال القرآن الكريم وما ورد فيه من قصة خلق الإنسان وجدنا : أن الخطيئة لم تكن موجودة قبل خلقه ، فقد كانت الملائكة تسبح لله ، وتحمده ، وتطيعه ، وحتىٰ الشيطان نفسه كان في طاعة ٱلله لا يخرج عنها لمعصية إلا بعد أن خلق ٱلله تعالىٰ آدم ، وأمر الملائكة بالسجود له ، هنا ظهرت أول معصية وبدأ البغض ، والحقد ، وظهر الغرور ، والتكبر من جانب الشيطان الذي توعدَّ بنشر الفساد والضلال بين البشر الذين سيتبعونه ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾

(1) الحجر 49 .
(2) الكهف 58 .
(3) البقرة 173 .
(4) البقرة 235 .

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [1] .

وعندما ننظر في قصة خَلْق ٱلله للإنسان ؛ نجد ـ ولله الحمد ـ : أن أسماء ٱلله وتعالىٰ وصفاته الأزلية تمثِّل الغطاء التام لحاجات الإنسان الكثيرة ، فلا يمكن للإنسان قضاء أيِّ حاجة من حاجياته بدون اللجوء لله تعالىٰ ، فاسم (الرحيم) مثلاً يعطي معنىٰ الرحمة التي نزلت من ٱلله القوي بالإنسان الضعيف لخير ذلك الإنسان ، واسم (الغفور) يمثِّل حاجة الإنسان للمغفرة عند الخطأ واسم الشافي يحتاج إليه الإنسان المريض ، واسم الغني يحتاج إليه الفقير ، وهٰكذا . وبما أن ٱلله تعالىٰ بعلمه المطلق يعلم : أن الإنسان مخلوق ضعيف وهناك من يتوعد بتضليله ؛ فإنَّ الذنوب والأخطاء تحتاج لمن يغفرها ، ونجد هٰذه الحاجة أول ما نجدها في قصة سيدنا آدم ، فعندما خلق ٱلله آدم ، وخلق منه حواء ، وأسكنهما الجنة ؛ وضَّح لهما الحلال والحرام ، ولٰكنهما وقعا في الذنب باستماعهما لوسوسات الشيطان الرجيم الذي أغراهما بالمُحرَّم فكان لابدَّ من أن يتوبا لبارئهما ، وهنا كانت مغفرة ٱلله التي يحتاجها الإنسان لتقبل توبته ، فكانت التوبة باباً للمغفرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا

---

(1) الإسراء 61 ـ 65 .

(2) البقرة 34 ـ 37 .

تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [1] ، فخطأ سيدنا آدم وزوجه أظهرت حاجة الإنسان الضعيف إلىٰ مغفرة الغفور المطلق الأزلية .

ومن هنا نجد : أنَّ أسماء ٱلله تعالىٰ وصفاتِه كلَّها رحمةٌ للإنسان من حيث إنه يتضرع بها إلىٰ خالقه عز وجل كلٌّ حسب احتياجه ، فالفقير مثلاً يسأل ٱلله الغني أن يعطيه ، والمريض يسأل ٱلله الشافي الشفاء ، والضعيف يتضرَّع إلىٰ ٱلله القوي أن يسانده وينصره ، والمذنب يسأل ٱلله تعالىٰ المغفرة حتىٰ ينجو من عذاب الجحيم .

ونحن البشر لنا حالات حياتية معينة قد تختلُّ فيها الموازين لدينا ، فلا نعود قادرين علىٰ التصرف الصحيح في الموقف الذي نتعرض له ، فنجد أنفسنا تارةً نسعىٰ في عمل الخير ، ونحاول قدر الإمكان أن نبتعد عن الذنوب والأخطاء ، وتارة أخرىٰ نجد أن ذنوبنا التي نعتبرها بسيطةً ، أو صغيرة تختلط ببعضها البعض فنحاسب أنفسنا بعد التدبر ، والتمعُّن ، والتفكير فيما قدمنا من عملٍ نافع ووضعه في ميزان مع ما ارتكبناه من ذنب ، ونجد أنفسنا أحياناً نخلط بين عمل صالح وآخر سيئ ، كما جاء في قوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

(1) طه 116 ـ 125 .

ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] ، فإذا أحسَّ العبد : أنَّ عمله السيئ قد غلب علىٰ الحسن تملَّكه اليأس والخوف والحزن فيأتي اسم الغفور ليزرع فيه الأمل ؛ لكي ينهض من جديد ، فيتوب ، ويجدد أعماله ، ويقلبها إلىٰ أعمالٍ حسنة .

اسم ٱلله الغفور يجعل الإنسان يشعر بضآلة حجمه ، وضيق قدراته في هـٰذا الكون ؛ إذ إنه كثير الأخطاء والذنوب ، وهـٰذا من شأنه أن يجعله متواضعاً شاعراً بغيره من البشر ، وكذلك يجعله هـٰذا الاسم يدرك : أنه لن يضر ٱلله شيئاً إذا أذنب ، ولـٰكنه لو تاب ، واستغفر الغفور ، وتراجع عن خطئه ؛ يستره ٱلله ويغفر له .

الغفور هو المحاسب : فالحساب واقعٌ لا محالة يوم الدين ، فلا يمكن أن يفلت أحد من حسابه ـ عز وجل ـ وذلك تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [2] فالله تعالىٰ لن يترك العباد سدىٰ ، فيساوي بين المؤمن ، والكافر ، والمطيع ، والعاصي ، وكذلك لا يساوي بين كبائر الذنوب ، وصغائرها ، وكذلك العلم بها ، والجهل بها ، فكل ذلك يدخل في حساب ٱلله تعالىٰ للإنسان ، فمثلاً : من يعمل سوءاً وهو عالمٌ بذلك يحاسبه ٱلله علىٰ علمه بذلك ، فيكون الحساب أشد من الذي يعمل السوء علىٰ جهلٍ منه ، وذلك كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [3] .

---

(1) التوبة 102 ـ 104 .
(2) الزلزلة 1 ـ 8 .
(3) النساء 17 .

فالمحاسب المطلق يغفر لمن يشاء ، ويعذِّب من يشاء ، وليس للإنسان حجة علىٰ ٱلله بعد أن أرسل رسله بالدعوة للتوحيد ، والتبشير بالجنة والتحذير من النار مع توضيح طرق الوصول لكلٍّ منهما ، وهٰذا بحد ذاته يرفع أيَّ ستار من الممكن أن يختبئ الكافر أو العاصي خلفه يوم الدين ليبرر ما كان عليه في الحياة الدنيا فلا مغفرة تصيبه بما قدَّمت يداه .

فالحساب يتضمن المغفرة والعقاب ، المغفرة لمن يستحقها والعقاب لمن يستحقه ، وكل إنسان حسابه وجزاؤه رهين بما قدّم من أعمال ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (1) ، فهٰذه الآية الكريمة توضّح للإنسان أنه :

* الوحيد الذي يستطيع أن ينجو بنفسه التي أعطاها ٱلله له أمانة من النار بأن يستحق مغفرة الخالق بما يقدِّم من أفعال .

* إن صاحب العمل هو الذي سيجازىٰ عليه ، ويحاسَب لا أقرباءه وأهله ، فلن يشاركه أحد في أعماله ، وأفعاله التي قام بها .

* لا حجة للإنسان يوم القيامة بعد وجود كتاب أعماله وفيه مسجّل كل صغيرة وكبيرة ؛ لأن حساب الخالق عز وجل دقيق إلىٰ درجة أن الإنسان سيقول يوم الحساب : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (2) .

---

(1) الإسراء 13 ـ 15 .
(2) الكهف 47 ـ 49 .

* إن ٱلله عادل لا يعذب ولا يحاسب الإنسان إلا بعد أن يرسل الرسل والأنبياء كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ (1) .

إذاً بهـٰذا الحساب العادل ستكون مغفرته لمن يستحقها بعلمه وقيامه علىٰ أمر العباد ؛ لأن أمر الحساب يتطلب أن يكون المحاسب قائماً علىٰ الأعمال والأقوال ، فكان الغفور حياً قيوماً كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) ، بهـٰذا يكون الحساب عادلاً ، والمغفرة تشمل العباد المستحقين لها .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يحاسب نفسه أولاً قبل أن يُحَاسَب ، فيعلم متىٰ يستحق أن يغفر لنفسه ولغيره ممن حوله ، فبحسابه للآخرين سيصل إلىٰ معادلة صحيحة يدرك من خلالها كيف ومتىٰ يغفر ويعفو ، فيكون الخليفة بحق في الأرض ، فلا يتعدَّىٰ علىٰ حقِّ أحد ، ولا يتجاوز الحد في العقاب ، ويغفر متىٰ كان ذلك ميسّراً له ، ولمن حوله .

الغفور هو الغني : من صفات الخالق عز وجل : أنه الغني المطلق فهو

---

(1) النساء 165ـ169 .
(2) البقرة 255ـ256 .

ليس بحاجة شيء ، أو مخلوق ، والغني لا يحتاج أن يستأذن أحداً في أن يغفر أو أن يعاقب ، وبما أنه الغني فالبشر هم الذين بحاجة إليه وإلىٰ مغفرته وعفوه ، فلا نجاة لإنسان إلا أن يغفر له المولىٰ عز وجل ، فالخالق قوي متكبر عن كل الخلق ، والعباد هم الضعفاء كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (2) .

فالضعيف هو دائماً بحاجة إلىٰ عفو وكرم القوي ، والله عز وجل لا يقهره كفر الكافرين ، وذلك لغناه عنهم ، ولٰكنهم لا غنىٰ لهم عنه سبحانه وتعالىٰ ، فلا ملجأ للإنسان إلا لخالقه ، ولا معين له إلا هو الواحد الأحد ، فالكافر سينقلب كفره عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) فلن يضر ٱلله شيئاً بكفره وجحوده ، ولن ينفعه بإيمانه وتقواه .

وهٰذا أساس التفكير السليم الذي يقوّي العلاقة بين العبد وربه فيستحق أن يكون خليفة في الأرض ، وهو يحمل في قلبه وعقله اعتقاداً راسخاً بأنه الضعيف المحتاج إلىٰ الخالق وهو الغني سبحانه وتعالىٰ عن الخلق ، فيتودد هٰذا الخليفة إلىٰ ٱلله تعالىٰ طالباً مغفرته ؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا هو عز وجل ، وهٰذا من شأنه مساعدة الخليفة علىٰ الارتقاء بنفسه ، فيستغنىٰ عن رذائل الأمور وصغائرها ، فيكون غنياً عن كل الخلق بتوجهه لله تعالىٰ ولجوئه إليه في كل أمره صغيره وكبيره .

---

(1) آل عمران 97 .
(2) لقمان 12 .
(3) آل عمران 96 ـ 97 .

وعلىٰ الخليفة أن يعلم : أن الغنىٰ ليس بالمال والأولاد ، فكم من غني لم تسعفه أمواله من دفع الضرر عنه . وأكبر شاهد علىٰ ذلك قارون ؛ إذ إن الغني المطلق وهب له من الأموال ما لا يستطيع إنسان حصرها ، وبالرغم من ذلك ظل ضعيفاً ، ومحتاجاً لله كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) ، فقد كان قارون في الحساب البشري الدنيوي من الأغنياء ، وبالرغم من ذلك كان فقيراً في الحقيقة إلىٰ رضا الغني المطلق ، وإلىٰ مغفرته عز وجل ؛ لأن الغنىٰ الحقيقي هو استحقاق مغفرة ٱلله ، فيكون رصيد الإنسان مليئاً بالعمل الصالح والتوبة الصادقة لتحل عليه مغفرة ٱلله تعالىٰ وعفوه ، ولـٰكن الغنىٰ قد يكون مع فقر الإنسان ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا

---

(1) القصص ، 76ـ83 .

تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) .

الغفور هو الكريم : من صور كرم المولىٰ عز وجل للإنسان مغفرته له علىٰ ما تاب ورجع عنه من ذنوب ، فيعفو ٱلله تعالىٰ عنه ، ويرضىٰ عليه ، فقد كرَّم الخالق تعالىٰ الإنسان بحمل الأمانة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾ (2) ، فكان خليفته علىٰ الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (3) ، وبعد ذلك كرّمه بالعفو والمغفرة التي لا تنزل إلا علىٰ عباده المؤمنين الذين يوحدونه ويطيعونه ، فاستحقوا كرمه عز وجل ، واستحقوا مغفرته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ

---

(1) البقرة 272ـ274 .

(2) الأحزاب 72 .

(3) البقرة 30ـ33 .

يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (1) .

فالكريم المطلق لم يبخل بمغفرته وعفوه عن المذنبين ، بل ودعاهم لطلب المغفرة ، فيستجيب لهم كما في قوله تعالىٰ : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، فقد طلب الخالق عز وجل من عباده علىٰ لسان رسله وأنبيائه أن يستغفروه ، فيغفر لهم ، ويتوب عليهم ، كيف لا وهو الرحيم الغفور الكريم ؟!

وليس من خلفاء ٱلله من يبخل علىٰ نفسه بالعمل الصالح أو التوبة الصادقة ، فخليفة ٱلله هو من اتصف بالكرم في عفوه عمن أساء إليه وأخطأ في حقه ، فلا يبخل عليه بالسماح والغفران ، وألا يكون بخيلاً في طلب المغفرة من الغفور الكريم كما جاء علىٰ لسان الأنبياء والمرسلين في قوله تعالىٰ في دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ (3) ، وكذلك قوله تعالىٰ في طلب سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الغفران منه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (4) ، وأيضاً قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (5) ، فمن هـٰذه الآيات الكريمة يتضح لنا قيمة الاستغفار ،

---

(1) آل عمران 133 ـ 136 .
(2) هود 1 ـ 4 .
(3) الشعراء 82 .
(4) الأعراف 151 .
(5) الحشر 10 .

فإذا كان هـٰذا حال الرسل والأنبياء والصالحين الذين اصطفاهم ٱلله تعالىٰ وميَّزهم بالصفات النبيلة ، فكيف الحال بنا نحن البشر ؟

فلا تبخل أيها الخليفة في طلب المغفرة والعفو ، واجعل من المرسلين قدوةً ومثلاً تسير عليه في كل أمر ، ومنها طلب الغفران وقبول التوبة ، فلا تبخل في طلب المغفرة لنفسك ولوالديك وأهلك وجميع المسلمين .

الغفور هو القريب من عباده بعدَّة أمور ، منها :

1 ـ حثهم علىٰ الاستغفار : كقوله تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ (1) .

2 ـ قبوله الدعاء وإجابته لعباده كل حسب حاله وأحواله : كقوله تعالىٰ : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (2) .

وإجابة الدعوة تعني قرب ٱلله من الإنسان . قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ (3) . فالخالق عز وجل يحدد ، ويؤكد لعباده المؤمنين الذين يطلبونه دائماً ويلجؤون إليه : أنه قريب ، وليس ببعيد ، والقرب هنا يوحي بمحبة المولىٰ عز وجل بقربه لعباده وغفرانه لهم ، والخالق قريب من البشر أجمعين بعدة أشكال منها :

---

(1) هود 52 .
(2) البقرة 286 .
(3) البقرة 186 .

1 ـ إنه قريب من عباده التائبين بغفرانه لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (1) ، فيبعث الأمل بنفوسهم بتأكيده : أنه قريب منهم ، يغفر لمن يطلب الغفران ، ويتوب ويرجع للحق .

2 ـ قريب من عباده الطائعين بأنه يلبي لهم رغبتهم بدخول جنته ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (2) .

3 ـ إن الغفور قريب من عباده أجمعين بعلمه بما توسوس به أنفسهم ، كما في قوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (3) .

4 ـ وهو قريب من عباده بقيامه عليهم وحسابه لهم علىٰ كل صغيرة وكبيرة ، فيغفر ويعفو عن من يستحق المغفرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ

(1) آل عمران 135 ، 136 .
(2) البقرة 25 .
(3) ق 16 ـ 22 .

وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (2) .

فعلىٰ الخليفة أن يكون قريباً من ٱلله تعالىٰ لا يترك مجالاً للشيطان أن يوسوس له أبداً ؛ لأن عباد الرحمـٰن (أي : خلفاءه) لا سيطرة للشيطان عليهم ، وذلك كما أكّد لنا ٱلله تعالىٰ في قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) فالقرب من ٱلله تعالىٰ

---

(1) الأنبياء 47 .

(2) سبأ 3ـ6 .

(3) الحجر 28ـ49 .

يحفظ الإنسان من أي سوء قد ينزل به ، فيكون في أمان من كل شر ، ولذلك فعلىٰ الخليفة أن يكون قريباً من ربه جل جلاله .

أولاً : بالطاعات والدوام علىٰ العبادات ، وذكره والاستغفار لذنوبه والخشوع له ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (1) ، وكذلك بحبه للرسول ﷺ لقوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (2) ، فيستحق بذلك أن يكرمه ٱلله تعالىٰ بالمغفرة والعفو .

ثانياً : من قربه لنفسه : وذلك بأن يحاسبها بشكلٍ مستمر ، فيرقىٰ بها عن المفاسد والرذائل ، وأن يبني صداقة مع ذاتها بأن يتصارح معها ولا يخاف من مواجهة نفسه ، بذلك يقودها إلىٰ التفكير الجدي والعميق الذي سيصل به إلىٰ خلافته في الأرض ، ويستحق غفران ٱلله تعالىٰ له .

ثالثاً : قربه من أهله : وذلك بالإنفاق عليهم ، والإحسان إليهم ، فيكون شاعراً بما يصيبهم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

(1) الأنفال 2 ـ 4 .
(2) النساء 59 .
(3) البقرة 215 .

صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (1) .

رابعاً : قربه من أبناء الأمة : من حق المسلمين علىٰ الخليفة أن يحسن معاملتهم وخطابهم ، وأن يرفع الأذىٰ عنهم ومعهم ، وأن يعود مرضاهم ، ويدعو لأسراهم ، ويعلِّم جاهلهم ؛ لتكون أمة كلها خير ومنها الخير لقوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (2) .

فالله قريب من عباده وهو يخبرهم بذلك لكي يكون قربه منهم لمنفعة تعود عليهم ، كأن يراقب الإنسان نفسه ، وأن يشعر بالخجل من أي فعلٍ قبيح ينوي القيام به لمعرفته : أن ٱلله يراقبه ، فيتركه ، ويتوب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (3) .

الغفور هو الحي القيوم :

عملية المغفرة لا تأتي وحدها دون أي سابق ، فلابد للإنسان من ذَنْبٍ لكي يطلب مغفرة الغفور عز وجل ، وهـٰذا بالتالي يتطلب أن يكون ٱلله قائماً علىٰ أمور العباد ، فلا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ

(1) الإسراء 23ـ 26 .
(2) آل عمران 110 .
(3) النساء 110ـ 112 .

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) ، فالعلم بالذنوب يتطلب الحياة ، والقيومية ، فيكون بذلك الحساب عادلاً ، فيغفر لمن يستحق ، ويعاقب من يستحق ، ونجد أن هناك نوعين من الاستغفار :

* **استغفار من تفكيرٍ سيِّئ** : كسوء الظن ، أو الشك في غير محله ، أو التفكير في المحرمات وغيرها ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (2) .

* **استغفار من عملٍ سيِّئ** : والأعمال السيئة والفاسدة عديدة ، منها : الأعمال القولية مثل : التجسس والغيبة لقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، ومنها : الأعمال القصدية ، مثل : الزنىٰ ، والقتل العمد والغش في الميزان وأكل مال اليتيم لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (4) .

وكل من هٰذين الأمرين يتطلب غفران الغفور ، وعفوه بأن يقبل توبة التائب ، وغفران الخالق عز وجل ليست لغفلةٍ منه ، بل علىٰ وعيٍ تام وكامل بمجريات الأمور ، وكيف لا يكون قائماً علىٰ العباد ؛ وهو خالقهم ؟

الغفور هو الودود :

من أروع صور حب ٱلله تعالىٰ ، ووده لنا هي التي تتجلىٰ في غفرانه

(1) البقرة 255 .
(2) الحجرات 12 .
(3) الحجرات 12 .
(4) الإسراء 32ـ35 .

ذنوبنا ، وستره لنا ، فقد جعل ٱلله عز وجل الإنسان خليفة في الأرض ليسعىٰ فيها بالإصلاح ، والإعمار ، ولنشر الحق ، فكان نزول سيدنا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزجه إلىٰ الأرض رغم اعتراض الملائكة علىٰ خلافته منذ البداية كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) ، وهنا تتجلىٰ محبة الخالق للإنسان وتكريمه وذلك بـالآتي :

1 ـ اختياره أن يكون خليفة له في الأرض دون سائر المخلوقات الأخرىٰ من جن ، وملائكة ، فقد كرّم ٱلله تعالىٰ الإنسان باستخلافه في الأرض ، وهـٰذا أمرٌ عظيم .

2 ـ طلب الخالق من الملائكة السجود لآدم بعد خلقه ، فمن غير المعقول أن تطلب التكريم والتقديم لأحدٍ ما من غير أن تكون علىٰ صلة وثيقة مبنية علىٰ المحبة والود .

3 ـ تقديم المولىٰ عز وجل العلم للإنسان بما يجهله الملائكة والجن ، وفي هـٰذا تفضيل من ٱلله تعالىٰ للإنسان ولا يكون التفضيل إلا عند تواجد الود ، فقد كان بالإمكان أن يعلِّم ٱلله تعالىٰ الملائكة ، أو الجن مثلاً ما علَّمه للإنسان ، ولـٰكنه فضَّل هـٰذا الإنسان .

ونستطيع أن نلاحظ ونستنتج بالمقابل بغض الشيطان للإنسان وحقده عليه في بقية الآية الكريمة السابقة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ

---

(1) البقرة 30 ـ 33 .

أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (1) إذ إنه لا وجود للود في رد الشيطان علىٰ أمر ٱلله تعالىٰ بالسجود لآدم ، بل إننا نجد البغض والحسد والكراهية والاستكبار ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (2) ، ففي هـٰذه الآية الكريمة تتضح كراهية الشيطان للإنسان ، وقد كان نتيجة ذلك استحقاق الشيطان غضب ٱلله تعالىٰ عليه ، وعدم مغفرته تعالىٰ له علىٰ تكبُّره ، وعصيانه لأوامر ٱلله تعالىٰ .

فمن ذلك نستنتج : أنه من الأمور التي لا يغفرها ٱلله تعالىٰ عدم إطاعة أوامره ، والاستكبار عنها ، وهنالك الكثير من الآيات ، والأدلة التي توضح وتؤكد ذلك ، نذكر منها :

1 ـ ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (3) ، فبذلك الاستكبار عن أوامر المولىٰ عز وجل استحق الشيطان لعنة ٱلله تعالىٰ عليه .

---

(1) البقرة 34 .
(2) الأعراف 11 ـ 18 .
(3) الحجر 28 ـ 35 .

2 ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [1] ، فتكبر الإنسان وعصيانه وكفره لا يغفرها ٱلله تعالىٰ للإنسان .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون متواضعاً خاشعاً مطيعاً لما أمره ٱلله به منفذاً له ؛ كي يستحق مغفرة الخالق لذنوبه ، وإدخاله دائرة رحمته التي وسعت كل شيء ، وإطاعة هـٰذه الأوامر من شأنها أن تفتح باباً من أبواب المغفرة ، ومن ضمن هـٰذه الأوامر :

أ ـ إطاعة الرسول الكريم ﷺ :

فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [2] ، فمن الآية الكريمة السابقة نجد : أن من شروط وسمات حب العبد لله ورسوله هي الطاعة وإتباع أوامره عز وجل ، وإتباع رسوله الكريم ﷺ وبهـٰذه الطاعة يستحق هـٰذا المؤمن حب ٱلله ، وهـٰذا الحب المتبادل من شأنه أن يجعل مغفرة ٱلله قريبة ، ورحمته من هـٰذا العبد كذلك ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [3] ، فالرسول عليه الصلاة والسلام لا ينطق إلا بما علَّمه ٱلله تعالىٰ ، فمن أطاعه فقد أطاع ٱلله ، وإطاعة الرسول الكريم أمرٌ من الخالق يُلْزِم به كل من أراد مغفرته

(1) النازعات 15 ـ 26 .
(2) آل عمران 31 ، 32 .
(3) النساء 59 .

ورضاه ، فلا يمكن أن نكون مسلمين دون أن نطيع رسولنا الكريم ، وهـٰذه الطاعة إذا كانت موجودةً ؛ استحق الإنسان مغفرة المولىٰ عز وجل في حال ارتكابه ذنباً ، أو خطأً يستوجب الاستغفار ، وكذلك لابدَّ أن يكون حب ٱلله والرسول الكريم متقدِّماً عن أيِّ حبٍّ آخر في قلب المؤمن ، وإلا فإن الطاعة لن تكون كاملة إذا نازع محبتهما محبة أخرىٰ ، وذلك مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (1) .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون مطيعاً بحبٍّ وودٍّ لله ورسوله ، ومحباً بطاعته لله ورسوله ، ليستحق مغفرة الخالق عز وجل ورحمته به ، فمغفرة المولىٰ عز وجل للخليفة بالإضافة هي أكبر فوز ونجاح لهـٰذا الخليفة .

ب ـ الإحسان إلىٰ الوالدين :

تنفيذاً لقوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ (2) ، يتضح لنا من هـٰذه الآية الكريمة مدىٰ ارتباط توحيد ٱلله تعالىٰ وعبادته بالإحسان إلىٰ الوالدين ، ذلك : أنه ما من مؤمنٍ غفر ٱلله له وهو عاقٌّ لوالديه ، أو لأحدهما ، بل وقد أمرنا الخالق عز وجل أن نحسن معاملتهما ونطلب لهما الرحمة ؛ لنكون مستحقين لرحمة ٱلله تعالىٰ ومغفرته ، فحبنا وودنا لله تعالىٰ لا يمكن فصله عن حبِّ الوالدين ، والإحسان إليهما ، فيرضىٰ عنا الخالق بهـٰذا الحب .

(1) التوبة 24 .
(2) الإسراء 23 ـ 25 .

ولا يمكن أن يكون من بين خلفاء ٱلله في الأرض من هو عاقٌ ، أو مسيءٌ لوالديه ، أو لأحدهما ، فبرُّهما والعطف عليهما من سمات خلفاء ٱلله في الأرض .

ج ـ الإنفاق في وجوه الخير :

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [1] ، فقد وضّح ٱلله تعالىٰ كيفية الإنفاق الصحيح في الأماكن التي تستوجب هـٰذا الإنفاق ، وهـٰذا الإنفاق مرتبط بحب ٱلله وتوحيده ، فهي عملية مترابطة ببعضها البعض ، فإذا أحب العبد ربه ؛ فإنه لن يحب زينة الحياة الدنيا كمثل حبه له تعالىٰ ، وهـٰذا الحب يجعل منه زاهداً في متاع الحياة الدنيا الفاني ويحثه للبحث عن الخير الباقي الذي يجعله من عباد الرحمـٰن الذين رضي عنهم ، فغفر لهم ، وعفا عنهم ، وهـٰذا الإنفاق له أساسيات يجب أن يسير عليها المسلم تنفيذاً لما أمره ٱلله به بعلمه المطلق ، وخبرته اللامحدودة .

وخليفة ٱلله هو من كان حب الخالق عز وجل ورسوله مهيمناً علىٰ كافة أنواع الحب الأخرىٰ سواء كانت زوجةً ، أو أولاداً ، أو أموالاً ، أو غيرها من متاع الحياة الدنيا الفاني ، فلا يحرِّكه إلا حبه لله ، فيدفعه لكلِّ ما فيه خيره ، وصلاحه .

د ـ الصبر علىٰ البلاء :

امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ

---

(1) النساء 36 ، 37 .

وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [1] ، فمن الأمور العظام التي لا يستطيعها كل البشر هو الصبر عند حلول المصيبة أو البلاء ، كالمرض ، والموت ، ونقص الأموال ، أو الأولاد ، فكل هٰذه الصعاب تحتاج إلىٰ عزيمة وإرادة وقبلهما إيمان قوي ، والإنسان الصابر له درجة عالية عند رب العالمين ، وهٰذه الدرجة التي نالها برحمة ٱلله وصبره تغفر له زلاته ، أو أخطائه ، فكل البشر خطاؤون ، ولا يوجد من هو معصوم عن الخطأ ، ولٰكن هناك فرق بين خطأ هٰذا الإنسان الصابر المحتسب أمره لله ، وبين الإنسان المتذمر الذي لا يصبر علىٰ قضاء ٱلله وقدره .

وخليفة ٱلله لا يمكن أن يكون عجولاً هلوعاً ، بل لابد أن يملك من الصبر ما يجعله مستحقاً لمغفرة ٱلله تعالىٰ ، فيثبت عند الشدائد ، ويصبر لحكم ٱلله ويكون صبره لثقته بأن ٱلله رحيمٌ به غفورٌ له .

هـ ـ الجهاد في سبيل ٱلله :

من أروع صور الحب والود بين الخليفة وبين الخالق عز وجل هي تقديم الروح والنفس في سبيل إعلاء كلمة الحق والدفاع عن ديننا الحنيف ورسولنا الكريم ﷺ فيستشهد المؤمن لتتجدد حياته فور استشهاده ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] ، فالبشرىٰ لا تكون إلا للأحياء ، والرزق لا يكون إلا للأحياء أيضاً ، فالمولىٰ عز وجل كرَّم هٰؤلاء الشهداء بتلك المنزلة الرفيعة من الجنة .

---

(1) البقرة 155 ـ 157 .

(2) آل عمران 169 ـ 171 .

وبالطبع من وصل إلىٰ هـٰذه المنزلة فقد استحق مغفرة الغفور علىٰ ما ارتكب من أخطاء صغيرة في حياته ؛ لأنه قدَّم أغلىٰ ما يملك في سبيل المولىٰ عز وجل فإذا كان هـٰذا حال المخلوق فكيف يكون جزاء الخالق ؟ .

فطوبىٰ للشهداء الأبرار الذين اختاروا الدار الآخرة علىٰ الحياة الدنيا ، فاشتروا حبَّ ٱلله ؛ ليستحقوا بذلك مغفرته ، ورحمته بهم .

و ـ الالتزام بالعبادات :

لقد جاء رسولنا الكريم محمد ﷺ بالعديد من الأوامر الإلـٰهية الواجبة علىٰ المؤمن اتباعها ، وكذلك اشتمل القرآن الكريم علىٰ العديد من النواهي التي لابدَّ من الابتعاد والنهي عنها ، وكلما كان المؤمن ملتزماً بهـٰذه الأوامر مؤدياً للعبادات ؛ استحق بذلك غفران الخالق سبحانه وتعالىٰ ، فمثلاً الالتزام بأداء الصلاة في مواقيتها تجعل من العبد قريباً من ربه يناجيه ويطلب منه ويستغفره ، فيقبل ٱلله منه ، ويغفر له ما قد وقع فيه من أخطاءٍ في حياته الدنيا ، كما جاء في قوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) فكما جاء في الآية الكريمة السابقة من الأمور التي تُنزل مغفرة الخالق علىٰ المخلوق هي قراءة القرآن الكريم ، وإقامة الصلاة ، وأداء الزكاة ، والقتال في سبيله تعالىٰ ، والإنفاق في وجوه الخير ، والاستغفار المرافق لكل ذلك ، فبالرغم من الأعمال العظيمة التي لابد أن يقوم بها المؤمن إلا أن ٱلله تعالىٰ قرنها بالاستغفار الذي يذكِّر العبد بالغفور المطلق الذي لا حدَّ لمغفرته ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾

---

(1) المزمل 20 .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

فالخليفة لابدَّ أن يكون ممن يؤدون ما فرض الخالق عليهم من عبادات ، وهو محبٌ له راضٍ كل الرضا بذلك ، لا يملُّ ، ولا يتكلَّف ، ولا يتذمَّر ، لا يفعل ذلك من أجل هدفٍ دنيوي كما وصف المولىٰ المنافقين في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (2) .

ع ـ التوبة الصادقة :

التوبة قوة من بلغها كان عليها ، ومن لم يبلغها كان علىٰ الضعف ، ولذلك المؤمن علىٰ القوة ، وليس علىٰ الضعف . لقد خلق ٱلله تعالىٰ الإنسان وخلق الخير والشر ، وقد كان الإنسان ضعيفاً أمام الحياة ، ومغرياتها ، فأحياناً يضعف ، وأحياناً لا ، ولـٰكن الضعف البشري نوعان ، هما :

أ ـ الضعف المؤقت :

هـٰذا الضعف يصيب المسلم القوي الذي قد يضعف في لحظةٍ ، ولـٰكنه يستدرك نفسه ، ويسارع إلىٰ استغفار ربه ، والتوبة مما كان فيه ، كما حدث لسيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أزله الشيطان ، ووسوس له كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ

(1) المائدة 39 ـ 40 .
(2) النساء 142 ـ 143 .

عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] ، وكذلك يكون الضعف المؤقت الذي يوقع الإنسان تحت سيطرة الشيطان الرجيم ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [2] فينجو بنفسه من الهلاك ، هـٰذا المسلم يحمل بين جنبيه ضميراً وقلباً يفيضان بالخوف من ٱلله ومحبته والرغبة في رضاه ، فيخرجه هـٰذا الحب من هـٰذا الضعف فيقوىٰ ويستمد هـٰذه القوة مما ذكرناه ، فيستغفر لذنبه ، ويتوب كما جاء في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] .

ب ـ الضعف المستديم :

هـٰذا الضعف يصيب نفس من لا يحمل إيماناً قوياً ، ولا يسكن حبُّ الخالق قلبه بشكل يكفيه من الضياع والهلاك ، فيسيطر عليه الشيطان الرجيم ويجعله ضعيفاً تائهاً ، ويستمر هـٰذا الضعف لعدم توجهه لله تعالىٰ ، والتوكل عليه ، فيتنقل هـٰذا الإنسان من معصية لأخرىٰ ، ومن مفسدة لغيرها ، فتنقضي حياته دون أن يشعر وهو غارق في الملذات ، والرذائل ، أولئك الذين قال ٱلله تعالىٰ عنهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [4] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ

(1) البقرة 35 ـ 37 .
(2) آل عمران 135 ، 136 .
(3) الأعراف 153 .
(4) آل عمران 90 ، 91 .

ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [1] .

ولا تتحقق التوبة الصادقة التي تستحق غفران الخالق إلا بالتالي :

أولاً : ترك المعصية :

للخروج من الذنب إلىٰ المغفرة ، فإن أول خطوة لابد أن تكون الإقلاع عن الذنب نفسه ، فلا يغرق فيه مرة أخرىٰ ، بل يجب عليه أن يملك من العزيمة والإصرار ما يجعله كارهاً لفعله عازماً علىٰ عدم العودة إليه باقتناعٍ تام ورغبة في أن يرقىٰ بنفسه عن الذنوب ، قال تعالىٰ في سورة المائدة : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثانياً : العزم علىٰ عدم الرجوع إليها :

لا يعني ترك الذنب ، أو الخطأ مؤقتاً أو ترك جزء منه فقط هي توبة توجب المغفرة ، بل لابدَّ أن يقلع نهائياً لا جزئياً عن هـٰذا الذنب مع مصاحبة العزم علىٰ عدم العودة لذلك الذنب ، مهما كانت مغريات الدنيا وشهواتها .

ثالثاً : الندم :

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] ، فلابد أن يكون الشعور بالندم علىٰ ما ارتكبه هـٰذا الإنسان المذنب مصاحباً ، ومرافقاً لنفسه لصيقاً بحياته ؛ إذ إن الندم هو أول علامات التوبة النابعة من القلب ، والموجبة للمغفرة .

---

(1) النساء 137 ـ 139 .

(2) الزمر 53 .

ويعدُّ الجهل من الأمور التي تجعل من توبة الإنسان مقبولةً ، أما العلم بذلك فإنه يكون حجةً علىٰ الإنسان يوم الدين كما جاء في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ (1) ، فالآية الكريمة وضّحت بعض الأمور التي هي في بالغ الأهمية :

أولها : الجهل :

إن الجهل بالذنب يجعل من التوبة مقبولةً ، والمغفرة حاصلةً .

ثانيها : التوبة :

إن للتوبة زمنٌ محدد ، وهي أثناء حياة الإنسان بطولها ، ولـٰكنها لن تفيد إذا واجه الإنسان الموت ، فتاب حين يحضره الموت .

ثالثها : الإسلام :

وعليه فالتوبة لا تُقْبل من كافر .

والتوبة لابد أن تكون مقرونة بالعمل الصالح الذي من شأنه أن يرفع درجة المؤمن عند ربه ، كما جاء في قوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾ (2) ، فهـٰذه الآية تقرن التوبة المقبولة عند ٱلله بالعمل الصالح وهـٰذا دليل علىٰ أن التوبة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعها كل مخطئ ، وكل مسيء ، بل إنها تتطلب عزيمةً وإرادةً يدعمهما إيمانٌ ثابت . والعمل الصالح لا يمكن حصره في أعمالٍ معينة بل إنه

(1) النساء 17 ، 18 .

(2) الفرقان 70 ، 71 .

يشمل كل عملٍ مقصده الخير والصلاح ، ويُقْصد به وجه الغفور .

والمولىٰ عز وجل ودودٌ بمغفرته ، وحث الإنسان للسعي وراءها ، فقد قدَّم المولىٰ عز وجل جميع أسباب المغفرة للإنسان ، وفي هـٰذا ودٌّ واضحٌ من الخالق لهـٰذا المخلوق الذي كرّمه تعالىٰ عن كل المخلوقات ، وقبوله التوبة من أكبر الأمور التي تدلُّ علىٰ الغفور عز وجل : أنَّه ودودٌ بهـٰذه المغفرة .

لذلك فخليفة ٱلله عليه أن يكون ودوداً مع من أساء إليه فلا يبادله الإساءة ، وإذا طلب منه المسيء العفو والغفران فلا يمنعهما عنه ، ولا يجعل من قلبه مستودعاً للحقد والبغض .

والسعي في طلب المغفرة والعفو من المولىٰ عز وجل من شأنه أن يصل بالإنسان المسلم والأمة الإسلامية إلىٰ أعلىٰ درجات الرقي والتطور ، ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فمن الممكن التخيل : إذا كانت هـٰذه أخلاق كلِّ المسلمين ؛ فكيف سيكون حالهم ؟!

(1) الحجرات 9 ـ 14 .

الغفور هو الرحيم :

من صور رحمة المولىٰ عز وجل بنا هي مغفرته لنا ، وقبوله توبتنا ، وقد قرن ٱلله تعالىٰ بين المغفرة والرحمة في كثير من الآيات الكريمة ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [1] ، وقوله أيضاً : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] .

والله الغفور برحمته يترك لنا الفرصة تلو الأخرىٰ في كل مرة نخطئ فيها أو نرتكب ذنباً ، فرحمة الخالق جعلت مغفرته متكررة لتكرار الذنب ، وإلا إذا تصورنا : أنَّ مغفرة المولىٰ عز وجل لا تأتي للعبد إلا مرة واحدة ؛ لما كان لعبد أمل في دخول الجنة والفوز برضا الخالق .

ومن رحمته أيضاً المتجلية في غفرانه : أنه يغفر للإنسان ما ارتكبه قبل أن يدخل الإسلام ، فلا يحاسبه عليه بل يبدأ حسابه له بعد دخوله الإسلام ، واعتناقه الدين الحنيف ، وكذلك من صور رحمته الرائعة أنه لا يعجّل العقاب فور وقوع الذنب بل يترك الفرص للتوبة ، والرجوع للحق بالاستغفار والندم كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [3] ، فمن رحمته ترك الوقت للإنسان وإعطائه الفرص للتوبة ونيل غفران ٱلله تعالىٰ .

الغفور هو الستار :

مغفرة الذنوب نوعٌ من الستر ينعم ٱلله تعالىٰ به علىٰ عباده المستغفرين ،

---

(1) يونس 107 .
(2) الحجر 49 .
(3) الكهف 58 .

فالخالق عز وجل عندما يغفر للمسلم ذنبه فهو بذلك يستره يوم يقوم الحساب ، فـالغفـور سبحـانـه وتعـالـىٰ يغفـر ؛ أي : يستـر ويُخفـي خطيئـة العبـاد ، فالعبد المخطئ حينما يتوب إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ويتراجع عن ما قام به من خطايا ، وذنوب ؛ لا يجد سبيلا إلا أن يدعو الغفور العظيم المسؤول عن حسابه بأن يسامحه ويغفر له إضافة إلىٰ أن ٱلله يجعل من ذلك سراً ، فلا يعلم به سواه عز وجل فهو العالم بذنوب عباده وهو العليم بالتائبين والمستغفرين ، وبهـٰذا فإن هـٰذا الستر بالمغفرة يجعل من العبد مستشعراً بالأمان لثقته بأن ٱلله عز وجل لن يفضحه في ذنبه هـٰذا ، في حين أنه لو أفضىٰ هـٰذا الإنسان ما قام بارتكابه من ذنب لإنسان آخر فإنه بمجرد الانتهاء من الشكوىٰ يملؤه الخوف من إفشاء سره ، وانتشاره بين الناس من ذلك الإنسان ، وهـٰذا من دواعي ألاَّ يتجه العبد إلا لخالقه الستار الغفور فالأمان والثقة والحماية عنده هو الستار الكريم ، وهـٰذا الأمان يدفع العبد لمزيد من التعلق والارتباط بالخالق عز وجل الغفور ويزداد قرباً ورضاً عندما يتذوق حلاوة الطمأنينة التي تبعثها هـٰذه الثقة ، فيحب الستر له ولغيره ويحبه للستر من عند ٱلله ، فإن ذلك يكون دافعاً له أن يستر علىٰ المسلمين ، كما جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النبي ﷺ قَالَ « لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا في الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ ٱللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (1) .

ولو أن كل فردٍ منا تعلَّم ذلك الدرس وساعد الآخر علىٰ العودة عن ذنوبه وأخطائه بالنصح والإرشاد والدعم المعنوي والتذكير بالعقاب الرباني ، وأن يستر غيره من العباد ؛ فإن ذلك يدعِّم الثقة بينهم ويقوِّي أواصر المحبة والإخاء بين البشر ، وتلك غاية ينشدها كل مجتمع وكل ديانة والكل لا يعلم كيف السبيل لذلك أحياناً ، إنَّ الوصول لذلك ببساطة شديدة هو بالفهم والوعي

(1) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 21 .

الكامل لاسم الغفور الذي لا نستطيع الحصر الكامل لمعانيه ، فهو أكبر من قدرتنا البشرية علىٰ استيعابه بالشكل التام والكامل .

إذاً فاسم الغفور يمدنا بالإيمان الكامل والثقة والطمأنينة التامة فتمتلئ النفس بالراحة والطاعة والخضوع للغفور المطلق الذي يستر العيوب ، ويغفر الخطايا .

والغفور سبحانه وتعالىٰ يستر كل قبيح في الإنسان ، وقد دعا إلىٰ أن يستر المسلمون بعضهم بعضاً ، فيكونون رداءً يستتروا به كما جاء في حديث الرسول ﷺ « عَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ ٱللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ ٱللهُ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ ٱللهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللَّهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ ٱللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ ٱللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ ٱللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » [1] ، فمن ضمن أخلاق وصفات الخليفة الحق في الأرض أن يكون ستَّاراً لأخيه المسلم فيغفر له دون التشهير به ، فكما أن الخليفة يحب أن يُغْفَر له ، ويُسْتَر عليه ؛ فكذلك يجب أن يَغْفِر ويَسْتُر كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] فمن هـٰذه الآية الكريمة نجد :

أولاً : أنَّ مغفرة وعفو وستر العباد المسلمين علىٰ بعضهم البعض هو أمرٌ

(1) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 71 .
(2) النور 22 .

من ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا يدل علىٰ أهمية وقيمة ذلك في المجتمع المسلم وما له من تأثيرات إيجابية في بناء مجتمع مسلم سليم وقوي وإلا لما كان أمر ٱلله بذلك .

ثانياً : تعويد المسلم علىٰ الإحساس ببعضهم البعض فالذي يحبه المسلم لنفسه عليه أن يحبه لغيره ، فإذا أحب المسلم أن يغفر له ٱلله تعالىٰ ؛ عليه أن يحب أن يُغفر لأخيه المسلم .

ثالثاً : أنَّ غفران العباد المسلمين لبعضهم البعض في الدنيا سبب لمغفرة ٱلله تعالىٰ في الآخرة ، وهـٰذا بحد ذاته دافع لتزايد روح المحبة والترابط بين المسلمين .

وهـٰذا يجعلنا نشعر بالخجل من أن نفضح حين يجب أن نستر ، وأن نكون علىٰ يقين بأن ٱلله يرانا ، فالخليفة لابدَّ له من أن يحاول ستر عيوب وأخطاء الغير من البشر سواءٌ كان قريباً ، أو بعيداً هـٰذا المخطئ عنه ، وأن لا يتجه سوىٰ لله عز وجل ، وكله ثقة وإيمان بأن ٱلله لن يخذله ، عندها لن يلجأ لأيِّ مخلوقٍ آخر ، فيُسْتَر ، ويَسْتُر .

والغفور سبحانه وتعالىٰ بغفرانه وستره لذنوب عباده يخاطب الخليفة بأن يكون متعالياً عن تصيّد أخطاء الغير ، وفضحها وإشهارها ، وأن يرقىٰ عن نواقص الغير ، بل عليه أن يعين الآخرين علىٰ الترفع عن ذلك ، وأن يملأ قلبه تسامحاً ومغفرةً ، وأن يكون متفهماً لدوافع الغير ، وشخصياتهم المختلفة من شخص لآخر ، وأن لا يجعل من علمه بذنب إنسان سيفاً مسلَّطاً علىٰ رقبة ذلك الشخص ، فيكون بذلك محل ثقة واطمئنان وستر للغير ، فيكون هـٰذا الخليفة داعياً لمجتمع إسلامي منظَّمٍ خالٍ من الخوف والتوتر تكون الثقة عنوانه ، بذلك تنمو العلاقات الإنسانية الوطيدة بين العباد التي تكون حافزاً لكل فرد بأن يتخلص من عيوبه بستر عيوب غيره ، فلا يطارده الخوف من إنسانٍ آخر يعرف ما يعرفه عنه .

الغفور هو العليم :

إن مغفرة الغفور المطلق ليست عشوائيةً بل هي عن علمٍ مطلق بالبشر وبمن يستحق هٰذه المغفرة ، فليست المغفرة درجةً واحدة بل هي درجات كما أن الذنوب درجات ، قال تعالىٰ : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (1) .

ومغفرة الغفور المطلق ليست عن غفلةٍ ، بل هي عن علمٍ مطلق بكل شي بمن يتوب حقاً ، ومن يستحق مغفرته ، ومن لا يستحقها ، قال تعالىٰ : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (2) .

الغفور هو القادر :

من ثمرات الإيمان بهٰذا الاسم :

1 ـ اللجوء إلىٰ ٱلله تعالىٰ :

فالإنسان بطبعه دائم الخطأ ، ولما كان كذلك ؛ فهو يحتاج لطلب المغفرة والسماح والستر من خالقه عز وجل ، فلا يجد المسلم العاقل من هو أقرب من ٱلله تعالىٰ لمناشدته الغفران ، فلا يملك هٰذا الأمر إلا هو ، وهٰذا أساس اللجوء إليه تعالىٰ ، فلا غفور سواه يغفر لنا ، ويتوب علينا ، ومن هنا يدرك المؤمن الحق : أنه لا ملجأ له سوىٰ المولىٰ عز وجل ، فيناشده بالدعاء

(1) النساء 95 ، 96 .

(2) المائدة 39 ، 40 .

والرجاء بأن يقبل دعاءه . قال تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (1) .

2 ـ التوكل عليه :

لا فلاح لمؤمنٍ دون أن يتوكل علىٰ الخالق عز وجل ، واسم الغفور يحمل بين طياته معنىٰ التوكل . كيف يكون ذلك ؟

إن الغفور المطلق لم يضع حداً لغفرانه طالما التوحيد يسكن قلب المؤمن ، وهـٰذا يدعو المؤمن لأن يكون في توبته متوكلاً علىٰ ٱلله في غفرانه لما قام به من ذنوب وسيئات .

3 ـ الأمل المتجدِّد في النفوس :

كلَّما ذُكِر اسم الغفور تزايد الأمل في النجاة في قلوب المؤمنين ، فما من مؤمن إلا ارتكب سيئةً ، أو ذنباً لذلك فجميع المؤمنين يسعون لغفران الغفور المطلق ، وكلهم أمل في نيل ذلك الغفران ؛ لأن من ضمن أسمائه التي سمىٰ نفسه بها الغفور .

فالمغفرة تفتح باب الأمل للمذنبين . قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) .

---

(1) آل عمران 133 ـ 136 .

(2) الزمر 53 .

4 ـ نشر المحبة ، والرحمة ، والتسامح في المجتمع المسلم :

من توصل إلىٰ حب ٱلله ورسوله ، وقدَّم حبهما علىٰ ما سواهما ؛ فقد امتلأ قلبه بالحب والخير ، ولا مكان فيه للبغضاء والضغينة .

واسم الغفور يُعتبر درساً للإنسان الذي استخلفه الغفور المطلق في الأرض ، فهو يعلِّمنا : أنه أكبر من أن يعذِّب عبداً ما بسبب خطأ تراجع عنه وندم عليه ، وطلب المغفرة وتاب ، وهـٰذا بحد ذاته يعطي البشرية جمعاء درساً حيث إن ٱلله استخلف الإنسان في الأرض ، ولـٰكنه لم يتركه دون أن يعلِّمه كيف يكون خليفة ، وتقبُّل هـٰذا العلم والعمل به هو من أساسيات أن يكون خليفته تعالىٰ ، ولله المثل الأعلىٰ فمثلاً رب الأسرة عندما يكون أباً فإنه يسارع في تعليم أبنائه كيف يجب أن يكونوا بتوضيحه لهم طرق الخير والصلاح من الشر والفساد ؛ لكي يكبروا علىٰ ذلك . وكذلك القائد العسكري ؛ فإنه يقوم علىٰ تدريب أفراد مجموعته علىٰ كل ما يمكن أن يفيدهم ويمكنّهم من الدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم فيكسبوا المعركة بقوة عزيمتهم وثباتهم . وأيضاً الأستاذ الناجح هو من يعطي تلاميذه كل ما هو مفيد وأساسي في حياتهم العلمية ، والعملية علىٰ حدٍّ سواء ؛ ليتخرجوا طلبة يعتمدون علىٰ أنفسهم ، فيحسنون التعامل مع متغيرات الحياة بقلبٍ قوي وعزيمة وإيمان ، والخالق عز وجل بما أنه العليم المطلق والخالق الأوحد والخبير بعباده ؛ فإنه يعطي لكل إنسان مقداراً من العلم هو ما يحتاجه ويخصص له درساً يحتاج إليه ليسمو هـٰذا الإنسان بنفسه ويرقىٰ عن الرذائل ، ويترفع عن أخطاء من حوله وهـٰذا له الانعكاس الرائع المثمر علىٰ تركيبته النفسية والشخصية ليصبح بحق خليفة ٱلله في الأرض ، ولو أنَّ كل فردٍ استوعب هـٰذا الدرس في هـٰذه النقطة فقط لوجدنا : أنَّ كل فرد هو بحق إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ ، ولـٰكنا قد وجدنا لغة التخاطب الوجداني البشري عاليةً ليكون مجتمعنا المسلم قد حقق نموذج المجتمع الفاضل الذي دعا لوجوده الخالق عز وجل وبعث الرسل

والأنبياء كي يدعوا لهـٰذا المجتمع ؛ إذ إن هـٰذا المجتمع جاء وصفه في آخر الكتب السمـٰوية في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] ، فالأمة الفاضلة ليست بخيال ، أو وهم ، ولـٰكنها من الممكن أن تخرج للدنيا حينما نصل لفهم وعمق معنىٰ : أنه سبحانه وتعالىٰ الغفور حينها نتوصل إلىٰ الكيفية ، أو الوسيلة لإصلاح الكثير من أوجه حياتنا وأدوارها ، فمثلاً : الوالدان يقومان بكل ما عليهما من واجبات ، ويعطيان كل ما يملكان للأبناء ، ويقع علىٰ عاتقهما توضيح الصواب من الخطأ في الحياة والخير والفساد ، وفي بعض الأحيان نجد : أن أول ما يخطئ الأبناء يكون خطؤهم في حق هـٰذين الوالدين ، فهل يا ترىٰ الوالدان بدورهما يغلقان قلبهما عن السماح ، والغفران ؟ !

أبداً ؛ بل إننا نجدهما مستمران في العطاء ، فيعطيان بذلك الفرص للأبناء للتراجع والندم ، وكلهما أمل في أن يرجع الابن عن هـٰذا الخطأ ، ويندم ويدرك ما هو الخير والصلاح له هو لأن في ذلك سوء العاقبة لهـٰذا الابن ؛ إذ إن الخالق أوصانا بهما خيراً في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟

(1) آل عمران 113 ـ 115 .
(2) الإسراء 23 ـ 25 .

ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ [1] ، فالإساءة إليهما تعود بالضرر علىٰ الأبناء أولاً وقبل كل شيء ، فمسؤولية الوالدين علىٰ الأبناء تمنحهما حق السماح والمغفرة ، فإذا كان هٰذا حالنا نحن عباد الغفور الرحيم فما بلك بالله الغفور الرحمٰن الرحيم ؟!

والخليفة يرىٰ في اسم الغفور نبراساً يدله علىٰ الخير ، والإحسان ، فيكون متسامحاً ساتراً لغيره ، وهٰكذا تصبح لدينا معادلة علىٰ المستوىٰ البشري سليمة الطرفين ، الطرف الأول الشخص الذي أخطأ في حق نفسه ، أو غيره ، والطرف الآخر هو الذي وقع عليه الخطأ ، فحين يتوب ، ويعترف الطرف الأول ؛ يجد تسامحاً ، وغفراناً من الطرف الثاني .

والاستغفار يعود علىٰ الإنسان بالتالي :

أ ـ تفريج الكرب :

كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [2] ، ففي هٰذه الآية الكريمة يتضح : أنه من أهم أسباب تفريج الهم والكرب الاستغفار الصادق الذي يخرج من الإنسان المؤمن حين وقوعه في الخطأ ، فيفتح ٱلله عليه بتفريج كربه ، ونجاته من الهم والضيق .

ب ـ فتْح باب النعم :

كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ

---

(1) النساء 36 .

(2) الأنبياء 87 ، 88 .

ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، فالاستغفار يفتح باب النعم من الخالق علىٰ خلقه المستغفرين لاستحقاقهم هٰذه النعم باستغفارهم ، وتوبتهم ، فالنعم من أحد الأبواب التي يفتحها الاستغفار ، فتصيب الإنسان المستغفر ، قال تعالىٰ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (3) .

ج ـ النجاة من العذاب :

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (4) .

د ـ استحقاق الجنة :

لقوله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (5) ، فمن ضمن أسباب دخول المسلم الجنة استغفاره الذي يقرّبه من الخالق عز وجل .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون من أوائل المستغفرين ، دائم الاستغفار

---

(1) هود 52 .
(2) هود 1 ـ 4 .
(3) نوح 10 ـ 12 .
(4) الأنفال 33 .
(5) الذاريات 15 ـ 19 .

في الحياة ، فلا ينشغل بالدنيا عن استغفاره ؛ ليستحق أن يستخلفه المولىٰ عز وجل في الأرض ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (1) .

فالاستغفار واجبٌ علىٰ الخليفة وهو أصل التوبة والتقرب للمولىٰ عز وجل ، فلذلك علىٰ هـٰذا الخليفة أن يستغفر لنفسه ، وللمسلمين .

ولـٰكن متىٰ يكون الاستغفار مقبولاً ، ومتىٰ يكون مرفوضاً ؟

الاستغفار يكون مقبولاً إذا كان صادراً عن شخصٍ مسلم تائب يسعىٰ للرجوع للحق ، كما جاء في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (2) .

أما الاستغفار غير المقبول فيكون في حق الكافرين والمنافقين كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ

(1) آل عمران 135 ، 136 .
(2) آل عمران 155 .

ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (1) ، والنفاق من شأنه أن يكون مانعاً لحلول مغفرة الخالق علىٰ العبد كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (2) .

إن مغفرة المولىٰ عز وجل تسع كل شيء ، وللظلم درجات ، كما للمغفرة درجات :

فإذا كان الإنسان ظالماً كما في قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (3) فتاب سيجد ٱلله تعالىٰ غافراً لذنبه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (4) .

---

(1) التوبة 73 ـ 80 .
(2) المنافقون 1 ـ 6 .
(3) فاطر ، 32 .
(4) غافر ، 1 ـ 3 .

وإذا كان الإنسان ظلوماً كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (1) فسيجد ٱلله تعالىٰ غفوراً كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) .

وإذا كان الإنسان ظلّاماً كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (3) فسيجد ٱلله تعالىٰ غفّار للذنوب كما في قوله عز وجل : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (4) ، فمن رحمة ٱلله ، وودِّه بالإنسان : أنه مهما تكاثرت ذنوبه ، وزادت سيجد ٱلله عند توبته ذا مغفرة واسعة ، فالظالم لنفسه ، ولغيره إذا تاب ، وأناب ؛ وجد ٱلله غافراً له ، وإذا كان الإنسان ظلوماً وجد ٱلله غفوراً ، أما إذا كان ظلّاماً (أي : أنه أسرف في الذنب) فسيجد المولىٰ عز وجل غفّاراً ، فكلما كان الذنب كبيراً كانت مغفرة الخالق عز وجل أكبر وأعم حين توبته ، فكيف لا يكون كذلك وهو الغفور الرحيم ؟ ! قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (5) ، فالإنسان بجهله يتدرج في الظلم ، والخالق برحمته يزداد في المغفرة إلىٰ ما لا نهاية ، فلا حد لمغفرته ، في حين أن ظلم الإنسان محدود في علم ٱلله تعالىٰ ، فلا يتجاوز قدر معين ، فالمغفرة من عند المولىٰ عز وجل تغلب علىٰ كل الذنوب طالما كان الإنسان بعيداً عن الشرك به ، كما جاء في قوله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا

(1) الأحزاب ، 72 .
(2) النساء ، 106 .
(3) الزمر ، 53 .
(4) نوح ، 10 .
(5) الحجر ، 56 .

شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾ (1) ، فالشرك بالله تعالىٰ يحجب مغفرته تعالىٰ عن الإنسان الذي لا يوحِّد الخالق ، فيموت علىٰ كفره ، وشركه .

لذلك فإن الخليفة من كان متسامحاً غافراً لخطيئة مَنْ حوله ، لا يُظْهِر إلا كل جميل فيمن حوله ، ويستر قبيحهم ، ويدرك أن ٱلله تعالىٰ هو الغفور الذي يغفر ذنوب عباده وحده فكما : أن الخليفة يحب أن يغفر ٱلله له فيجب أن يغفر لغيره .

وهٰذا الاسم يعلّم الخليفة الحكمة علىٰ الأرض فلا يعجّل بردِّ فعلٍ مماثل للفعل الذي يتلقاه ، وأن يصبر ويترك المجال للإصلاح ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (2) فالآية الكريمة فيها قانون لو عملت به البشرية لوصلت إلىٰ السعادة ، والأمان ، وذلك وفق مايلي :

أ ـ ألا يتجاوز الإنسان الحدَّ المشروع له في ردِّ الإساءة ، بل وفق القانون الذي هو : ألا يكون الرد بشيءٍ أكبر وأعظم ، أي : أن يكون العدل في استرداد الحقوق .

ب ـ إنَّ العفو والغفران أفضل درجة عند ٱلله من معاقبة بعضنا بعضاً .

---

(1) النساء ، 116ـ121 .

(2) الشورىٰ ، 39ـ43 .

ج ـ لا حقَّ لإنسان بظلم إنسان آخر ، وسلب حقوقه .

د ـ إنَّ الصبر علىٰ الأذىٰ ليس بالأمر الهين الذي يستطيعه أيٌّ كان من البشر ، بل هو أمر عظيم وشاق علىٰ النفس البشرية ، لذلك كانت لهم البشرىٰ في الدنيا والآخرة عند رب العالمين كما جاء في قوله تعالىٰ للصابرين : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) .

هـ ـ إنَّ المغفرة تأتي مع الصبر ، فلا يمكن لإنسانٍ عجول متهور أن يغفر ويعفو ، فالصبر يضيء العقل في التفكير الصائب ، ولا يجعل للشيطان سيطرة علىٰ هـٰذا الإنسان الصابر .

وهـٰذا كله يعطي حافزاً للخليفة ليأخذ خطوة المبادرة للإصلاح وتقديم العفو والمغفرة في نفسه عن الانتقام والعقاب ، بما أن ٱلله تعالىٰ أعطاه الفرصة لذلك ، ووضّح له قانون الخلافة الحق ، وهـٰذا عامل مساعد علىٰ أن يكون الخليفة فرداً فعّالاً إيجابياً صالحاً متوازناً ؛ لأنه يحمل في قلبه دائماً نقطة ضوء ونور وخير لابد من أن نتعاون نحن المؤمنون لكي نوسّعها ونثبّتها ، فتصبح أكبر حجماً لتعُمَّ قلبه ، وتسكن روحه بالكامل ، فالفرصة هنا التي أُعْطِيت للخليفة تجعله يسلك مسلكاً واضحاً ، وصائباً في الحياة ، وهو درب العفو والخير والمحبة والإخاء ، وأن يكونوا أسوة حسنة لغيرهم من البشر .

بذلك يتم تدريب الخليفة علىٰ أن يسير بما يرضي ٱلله تعالىٰ في الحياة ، فلا تعرف القسوة طريقاً لفؤاده ، ولا يتمادىٰ في معاقبة الظالم أو المسيء ، فيتعلَّم ، ويعلِّم غيره علىٰ أن لا نأخذ الفرد بذنبه فور تمكننا من ذلك ، بل نعطيه الفرص لكي يتراجع ويندم ، وأن يترك ما هو فيه ، فيكون الخليفة قد

---

(1) آل عمران ، 142 .

أخذ بيد أخيه المسلم ، وستر عيوبه ومد له يد الأخوة والمحبة ، وهـٰذا بحد ذاته كافٍ لكي يكون لدىٰ المسلمين أفضل مجتمع يستند علىٰ أروع ، وأنبل القوانين التي تسيِّر حياتهم بالعدل والخير والمعروف .

ولابدَّ للخليفة أن يكون له في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة . عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول ٱلله ﷺ يقول : « والله إني لأستغفر ٱلله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ! »(1) ، فإذا كان هـٰذا حال رسول ٱلله ﷺ وهو خير الأنام والذي علَّمه ٱلله ، وأحسن أدبه ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(2) ، فكيف يكون حالنا نحن عباد ٱلله الخطاؤون الذين يقعون في السيئة تلو الأخرىٰ ؟

لذلك فالاستغفار يفتح باب المغفرة وقبول التوبة ، فليستغفر عباد الرحمـٰن مهما كان الخطأ صغيراً ، فالغفور يحب أن نتقرب إليه بالاستغفار والطاعة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(3) ، هـٰذه هي صفات عباد الرحمـٰن الذين رضي ٱلله عنهم ، فغفر لهم ما تقدم من ذنوب ، وقبل توبتهم ، وأسكنهم جناته ، وهم الخلفاء يسعون في الأرض بالإصلاح والخير ، ويحاربون الفساد والرذيلة ، ولا يحبون أن تشيع الفاحشة بين المسلمين ، فليغفر كلُّ ذي مقدرة ، وكلُّ إنسانٍ يأتمر بأمره عددٌ من الخلق ، فلا يكون قاسياً بل رحيماً كما كان رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا

(1) معجم المناهي اللفظية ، ج 31 ، ، ص7 .
(2) القلم ، 4 .
(3) الذاريات ، 15ـ19 .

﴿ عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) ، فالاستغفار هو مطلب من الغفور المطلق للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لأهميته بين المسلمين ، فلنغفر لبعضنا البعض ونعفو ، فيغفر لنا ٱلله تعالىٰ ، ويعفو عنا .

إن الغفور المطلق يحبُّ أن يغفر لنا ، وكيف لا وهو الغفور الرحيم الذي يحبُّ أن يسمع عباده التوابين الذين يتضرعون إليه ، ويرجون مغفرته ، عَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ؛ لَذَهَبَ ٱللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ ٱللهَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ ! » (2) .

فالمغفرة صفة من صفاته عز وجل التي تقرِّب العبد منه ، فلولا الخطأ ما كانت التوبة ، ولولا التوبة ما استحققنا مغفرة الغفور ، وهـٰذا بحد ذاته يجعل الأمل يضيء صدر كل مذنب خائف من عقاب المولىٰ طارداً اليأس بعيداً .

لأننا مؤمنون فإننا واثقون من أن الغفور يحبُّ أن يغفر لنا ، وبغفرانه نتطهر من ذنوبنا ، وبطهارتنا منها نستطيع أن نكون من عباده أصحاب النعيم .

اللهُمَّ يا من سميّت نفسك بالغفور نسألك المغفرة ، لا ملجأ لنا سواك ، ولا أمل ، ولا رجاء لنا إلا فيك أنت يا الغفور أن تغفر ذنوبنا ! اللهُمَّ إننا نشهد أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر ، واجعلنا نملك المقدرة علىٰ المغفرة والسماح ولا تجعلنا حاقدين علىٰ من يصلح في الأرض ، ويفلح ، واجعلنا علىٰ الأعمال التي تمكننا من الفوز بمغفرتك يا ٱلله !

اللهُمَّ إنك الغفور العظيم بمغفرتك تغفر الذنوب لمن تشاء من عبادك ، فاغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، وفرج كربنا ، وأنر دربنا ، وارحمنا بدوام المغفرة يا ٱلله !

---

(1) آل عمران ، 159 .

(2) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 94 .

اللهُمَّ إننا نستغفرك ، ونعوذ بك من كل شر ومن كل بلاء فاغفر ! اللهُمَّ إنك الغني بالمغفرة ، ونحن الفقراء فاغفر ! اللهُمَّ بما إنك مالك الرحمة ؛ فلا تجعل ذنباً من ذنوبنا يحول بيننا وبينها ، وأنت الغفور الرحيم !

اللهُمَّ إننا نعلم أنك أنت الغفور الرحيم فلا نلتجئ إلا إليك ، ونؤمن إنك أنت الغفور الرحيم فلا نركع ، ولا نسجد إلا إليك ، ونعلم : أنه من ظلم نفسه واستغفرك تغفر ، اللهُمَّ إننا نسألك المغفرة فاغفر !

اللهُمَّ يا الغفور يا من جعلت الملائكة يُسبِّحون بحمدك ، ويستغفرون لمن في الأرض فاجعل بيننا وبين استغفار ملائكتك صلةً ، واجعلنا من المسبحين ، والمستغفرين في الأرض باسمك الغفور !

اللهُمَّ يا الغفور قلت وقولك الحق : ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [1] اللهُمَّ إننا نسألك بأسمائك الحسنىٰ أن تغفر جميع ذنوبنا يا الغفار يا ٱلله !

اللهُمَّ يا الغفور إنَّ بطشك لشديد ، وإنك تُبْدِيءُ وتُعيد ، وإنك الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ، فاغفر ؛ لا غفَّار للذنوب إلا أنت !

✍ ✍ ✍

(1) الزمر ، 53 .

الشَّكُورُ جلّ جلاله

الشكور : « هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيماً في الآخرة غير محدود . ومن جازىٰ الحسنة بأضعافها يقال : إنه شكر . تلك الحسنة ومن أثنىٰ علىٰ المحسن أيضا يقال : إنه شكر ، فإن نظرت إلىٰ معنىٰ الزيادة في المجازاة ؛ لم يكن الشكور المطلق إلا ٱلله عز وجل » (1) .

الشَّــكُورُ : « هُوَ الَّذِي يَشْكُرُ الْيَسِيرَ مِنَ الطَّاعَةِ ، فَيُثِيبُ عَلَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الثَّوَابِ ، وَيُعْطِي الْجَزِيلَ مِنَ النِّعْمَةِ ، فَيَرْضَىٰ بِالْيَسِيرِ مِنَ الشُّكْرِ . قَالَ : وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِالشَّكُورِ تَرْغِيبُ الْخَلْقِ فِي الطَّاعَةِ » (2) .

قبل أن ندخل في عالم الاسم (الشكور) ونستكشف بعضاً من أسراره وأنواره ننظر في اللغة لنرىٰ مدلول الاسم علىٰ الخالق البارئ الذي له الاسم الشكور بالأصل ، وعلىٰ المخلوق الذي له الاسم الشكور بالفيض من ٱلله بحسن السير علىٰ المنهج الذي ارتضاه ٱلله لعباده من الأنبياء والصالحين ؛ الذين أعدَّهم للخلافة في الأرض ، وكذلك من اتَّبعهم بإحسانٍ منذ ظهورهم إلىٰ يوم الدين ليكون نور الاسم هادياً لمن أراد شكوراً .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 105 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 179 .

ويندرج تحت الاسم (الشكور) الاسم (الشاكر) ويعني في ذات الوقت : الخالق والمخلوق ، فالله له الشُّكر علىٰ وجه الكمال ، والعبد له الشكر علىٰ وجه المثال ، فيحاول العبد بكل جوارحه أن يشكر فيكون شاكراً ، ثم يجتهد في الشكر فيكون شكوراً ، ويتجلَّىٰ ٱلله علىٰ العبد بالتوفيق ، فيعمل شاكراً وشكوراً . وينال بذلك الرضا من ٱلله الشكور .

الشَّكُورُ لُغَةً : (شكر) الشُّكْرُ : عِرْفانُ الإِحسان ، ونَشْرُه ، وهو الشُّكُورُ ، شَكَرَهُ ، وشَكَرَ له ، يَشْكُرُ شُكْراً ، وشُكُوراً ، وشُكْراناً . وحكىٰ اللحياني : شكرت ٱلله ، شكرت لله ، وشَكَرْتُ بالله ، وكذلك : شكرت نعمة ٱلله ، وتَشَكَّرَ له بلاءَه كشَكَرَهُ ، وتَشَكَّرْتُ له مثل شَكَرْتُ له [1] .

والشُّكْرُ لا يكون إلاَّ عن يَدٍ ، والحَمْدُ يكون عن يدٍ ، وعن غير يدٍ ، فهـٰذا الفرق بينهما . والشُّكْرُ من ٱلله المجازاة والثناء الجميل . والشكر عن يد وغير يد في حق العباد ، ولا يجب في حق ٱلله ؛ لأنه لا يد لأحد علىٰ ٱلله ، فالله صاحب النعم وموجدها ؛ لذا فالشكر منه عطاءٌ صرف ، وإن بذل العبد قصارىٰ جهده في العمل من أجل الثواب فَلِلَّهِ الفضل والمنة في التوفيق لعمل الخير ، ولله الفضل والمنة في قبوله ، والثواب عليه [2] . ورجل شَكورٌ : كثير الشُّكْرِ . وفي التنزيل العزيز : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ . والشَّكُور من صفات ٱلله جل اسمه ، ومعناه : أَنه يزكو عنده القليلُ من أَعمال العباد ، فيضاعف لهم الجزاء ، وشُكْرُه لعباده مغفرته لهم .

وأَما الشَّكُورُ من عباد ٱلله فهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأَدائه ما وَظَّفَ عليه من عبادته ، وقال ٱلله تعالىٰ ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ

---

(1) لسان العرب ، ج 4 ، ص 424

(2) لسان العرب ، ج4 ، ص 224 .

ٱلشَّكُورُ ﴾ [1] . نصب شُكْراً لأَنه مفعول له ، كأَنه قال اعملوا لله شُكْراً ، وإِن شئت كان انتصابه علىٰ أَنه مصدر مؤكد ، والشُّكْرُ مثل الحمد إلا أَن الحمد أَعم منه فإِنك تَحْمَدُ الإِنسانَ علىٰ صفاته الجميلة ، وعلىٰ معروفه ، ولا تشكره إلا علىٰ معروفه دون صفاته .

والشُّكْرُ مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثني علىٰ المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد : أَنه مُولِيها . وفي الحديث عَنْ النَّبِيِّ قَالَ ﷺ : (لاَ يَشْكُرُ ٱللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ) [2] . معناه : أَن ٱلله لا يقبل شكر العبد علىٰ إِحسانه إِليه إِذا كان العبد لا يَشكُرُ إِحسانَ الناس ، ويَكْفُر معروفَهم لاتصال أَحد الأَمرين بالآخر . وقيل معناه : أَن من كان من طبعه وعادته كُفْرانُ نعمة الناس ، وتركُ الشُّكْرِ لهم . كان من عادته كُفْرُ نعمة ٱلله وتركُ الشكر له ، وقيل معناه : أَن من لا يشكُر الناس كان كمن لا يشكُر ٱلله وإِن شَكَرَهُ ، كما تقول : لا يُحِبُّني من لا يُحِبُّك . أَي : أَن محبتك مقرونة بمحبتي ، فمن أَحبني يحبك ، ومن لم يحبك لم يحبني . والشُّكْرُ : الثناءُ علىٰ المُحْسِنِ بما أَوْلاكَ من المعروف . يقال : شَكَرْتُه ، وشَكَرْتُ له ، وباللام أَفصح وقوله تعالىٰ : ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [3] يحتمل أَن يكون مصدراً مثل : قَعَدَ قُعُوداً . ويحتمل أَن يكون جمعاً مثل : بُرْدٍ ، وبُرُود ، وكُفْرٍ ، وكُفُورٍ . والشُّكْرانُ خلاف الكُفْرانِ [4] .

لذا فالخليفة الحقُّ يجب أن يذيب نفسه تفانياً في شكر ربه ، وهـٰذا التفاني يكون بالعمل أي : بجوارح الإنسان جميعها باليد واللسان والقدم والعين والسمع وغيرها من جوارح . وإن أردنا أن نزيد ذلك إيضاحاً ؛ قلنا : باليد

---

(1) سبأ 13 .
(2) سنن أبي داود ، ج 4 ، ص 463 .
(3) الإنسان 9 .
(4) لسان العرب ، ج4 ، ص 224

لا تسرق ، ولا تسمح لغيرها بالسرقة ، ولا تبطش بضعيف ، ولا تسمح لغيرها بذلك ، وأن تبني وتعمر ولا تهدم ولا تخرب حتىٰ تكون أداةً في خدمة الخليفة ، وهنا يتجلىٰ ٱلله عليه كما في الحديث القدسي .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ قَالَ : مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا »[1] [2] . وهـٰذا جزاء من استعمل الجوارح في الشكر ، ثم يزيد علىٰ ذلك أن يجعل لسانه ذاكراً لله متحدِّثاً بنعمه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[3] . وهـٰذا الأمر لسيد الشاكرين الذي غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر فيقابل ذلك الفضل العظيم من ٱلله بأن يتفانىٰ في شكر ربه عملاً وقولاً ونيّةً ، وعليه فمن أراد أن يكون له حظ في الخلافة فعليه بالشكر عملاً وقولاً ونيّةً للنعم التي أفاضها علينا المنعم وذلك بعبادته وإخلاص العبادة له بتوحيده ، وتمجيده ، وبمقابلة النعمة التي أسداها إلينا بعض الناس بشكرهم ؛ لأن ذلك من شكر ٱلله ، فلولا ٱلله المنعم الأصلي ما وصلت إليهم تلك النعم ، وبالتالي ما وصلت إلينا ، وهنا يكون شكر الناس جزء من شكر المنعم الحقيقي ، وهـٰذا الشكر بالثناء علىٰ أصحاب الأفضال من أنبياء وعلماء وآباء ومصلحين وقادة صالحين ، فيتحول الكون إلىٰ منظومة متناغمة من الشكر والحب من الأدنىٰ للأعلىٰ ، وزيادة العطاء من الأعلىٰ للأدنىٰ ، وهنا تحيط بنا أنوار الاسم الشكور ، وتتحقق الرتبة الشكورية في الخلق فيضاً ، ومن ٱلله عطاءً ورحمةً وزيادةً فضل .

---

(1) صحيح البخاري ، ج 20 ص 158 .

(2) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 8 ص 36 .

(3) الضحىٰ 11 .

والخليفة هو المتخلق بتلك الصفة الحميدة في الظاهر والباطن وهو من يسعىٰ لشكر ٱلله علىٰ نعمه بالجوارح الظاهرة كاليد والقدم واللسان ، وهـٰذا عمل الظاهر ويدخل فيه إقامة الشعائر الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد وسعي بين الناس بالإصلاح وقضاء حوائجهم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وحث وتحريض علي الاصلاح ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [1] لذا فالعمل شكراً لله من أفضل الأعمال الظاهرة والباطنة التي تطلب إخلاص النية لواهب النعم عز وجل فكما يكون الشكر من الخليفة باللسان يكون بالقلب وهـٰذا الشكر هو الإيمان بعينه ؛ لأنه كما قال الصادق المعصوم ﷺ : « إن الإيمان ليس بالتحلِّي ، ولا بالتمنِّي ، إنَّ الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل » [2] .

فالخلافة عمل ، وكدٌّ واجتهاد ، وليست كلماتٍ تلوكها الألسن وإنما أعمال ظاهرة تدفعها نية صادقة مع حسن التوكل علىٰ ٱلله ، فعلىٰ الخليفة العمل والرغبة في الإصلاح وعلىٰ ٱلله التوفيق ، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً رائعاً علىٰ التوكل المصحوب بالعمل المكلل بالنجاح والتوفيق ، وذلك من خلال مخلوق ضعيف في نظر البعض ، ولـٰكنه في الحقيقة عظيم بفهمه الفطري لحقيقة العمل والسعي ومعرفة معنىٰ التوفيق .

قَالَ رَسُولُ ٱلله ﷺ : « لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ ٱللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ؛ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَانًا » [3] .

ويكون الشكر في الجهر بالعمل ، وفي السر بإخلاص النية ، حينئذٍ

---

(1) هود 88 .

(2) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 8 ص 257 .

(3) سنن الترمذي ، ج 8 ، ص 342 .

يتجلىٰ ٱلله علىٰ الخليفة بالشكر التام ؛ أي : الشكر الرباني ؛ لأن الشكر صفة لله في الأصل ، وفي الخليفة بالفيض ؛ إن أعدَّ نفسه لقبولها ، والتمسك بأهدابها .

فالشكور اسم وصفة لله متأصلة ، وفي عباده متحصِّلة ، بمعنىٰ أن التجلي الأعلىٰ للشكورية لله ، والاقتباس والالتماس والتقيد بالاستغراق في التعبد قولاً وعملاً يورث هـٰذه الرتبة في العبادة ، وقليلٌ من يتحصل عليها لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (1) . وأولئك الذين اختصهم ٱلله بالخلافة ومن أراد أن يصل إلىٰ منزلتهم عليه بالسير علىٰ نهجهم ، وطريقتهم في القول والفعل والنية الصادقة .

ولاكتشاف بعضٍ من أسرار الاسم الشكور نتلمَّس ذلك في كتاب ٱلله وتفسيره وفي سيرة الحبيب ﷺ وهديه ، ولأجل ذلك نرىٰ الاسم في أصل مدلوله علىٰ ٱلله ، وفي فرعه علىٰ العباد ، وسنحاول أن نبرزه في المظهر الذي يجب أن يكون عليه عند الخليفة ؛ الذي أسكنه ٱلله الأرض ؛ ليصلح فيها ولا يسفك الدماء بغير حق .

الاسم في أصله :

أول ما نلقاه في كتاب ٱلله عن مدلول الاسم الشكور المتصل بالله عزَّ وجل يقترن بتلاوة كتاب ٱلله ، وتطبيق ما فيه بإقامة الصلاة ؛ لأن الصلاة إذا صلحت وُقبِلَتْ قُبِلَ وصلح كل عملٍ من الإنسان استقامة العلاقة بين الخالق والمخلوق وصار يخلفه في أرضه ، ومن هـٰذه الخلافة : الخلافة علىٰ مال ٱلله الذي بين أيدينا ، وتحصل الخلافة السوية فيه بحسن صرفه في مصارفه الشرعية سراً ، لأن عمل السر أقرب للتقوىٰ والإخلاص وأبعد عن الرياء ، وهـٰذه هي التجارة الرابحة لأننا أودعنا ما استخلفنا ٱلله عليه عند الذي لا تضيع عنده الودائع فتذكو

---

(1) سبأ 13 .

وتنمو عنده الأعمال التي وفقنا للقيام بها ، فيكون الجزاء منه بتمام الأجر وزيادة الفضل والستر علىٰ المعاصي بمغفرتها والشكر بما يليق برب غفور شكور ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [1] . ثم نجد في كتاب ٱلله أن من تمام شكره ميراث الكتاب ، والآن الميراث عند عباد ٱلله من أمة خاتم المرسلين ﷺ الذي ينعم عليهم ٱلله بإذهاب الحزن وبإدخالهم الجنة والتنعم فيها بنعم لا يعلم مدىٰ جمالها إلا واهبها وهٰذا العطاء من فيض ٱلله الغفور الشكور الرحيم ، أما جزاء من أهمل في حق ٱلله ولم يقم بدور الخليفة علىٰ الوجه التام ؛ فهٰذا جاحدٌ بنعمة ربه كفور بها مصيره من جنس عمله ، فيخلد في النار ذليلاً مهاناً ، وهٰذا جزاء الكفور .

الشكر قيمة وفضيلة مترتبة علىٰ فعل محبب في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، وهو مجازاة في مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحق ، ولأن ٱلله عز وجل يريد للحق أن يُحق ، ويُريد للباطل أن يُزهق ، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة ، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهق الباطل ، ولمن آمن ، وأسلم وجهه إليه واحداً أحداً لا شريك له سبحانه !

قال تعالىٰ : ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [2] . والبشرىٰ العظمىٰ بالمغفرة والشكر ودخول الجنة ، والجنة لا تكون إلا لعباد ٱلله الذين آمنوا بالله رباً ، وبسيد الخلق رسولاً مصطفىٰ ﷺ والكتاب المنزل عليه منهجاً ، وبالكعبة قبلة أي مقراً ومركزاً رئيساً لتنزل الرحمات والبركات وذلك إيذاناً بأن الوجهة المثلىٰ في التوجه للنبي العربي

(1) فاطر 29 ، 30 .

(2) فاطر 34 .

وللبيت الحرام بمكة ؛ لأن كل الشرائع السماوية محصورة فيه . فقوله : ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعني : غفور للمذنبين ، وشكور للمطيعين ، ولهٰذا كان أصحاب الجنة هم الشاكرين لله علىٰ فضله عليهم بدخولها ، فهي الدار التي لا يمسهم فيها تعب ولا كَلَال ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ (1) ، ثم تمام ذلك بصلة القربىٰ المحمدية والقربىٰ الشخصية والقربىٰ الآدمية في جميع بني آدم لأن الذين علىٰ الشريعة المحمدية هم الذين يؤدون حق الخلافة علىٰ الوجه الصحيح وهم الذين يتمم ٱلله عليهم بزيادة الفضل ، وتمام المغفرة ، وكمال الشكر ، وهٰذه البشرىٰ العظمىٰ ، فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (2) . كما سبق أن بينا : أنَّ الشكر للمطيعين والمغفرة لمن تاب بعد معصية ، فالله تعالىٰ هو الشكور علىٰ أفعالٍ نتائجها لا تعود عليه ، بل تعود علىٰ فاعليها ومع ذلك فهو الغفور الشكور الرحمٰن الرحيم الملك القدوس سبحانه رب العرش العظيم !

وقال تعالىٰ : ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (3) .

أي : إن صرفتم المال في أوجه الحق ، تجازون عليه أكبر الجزاء المرضي لكم وأكثر مما تتوقعون بالمضاعفة من ٱلله تعالىٰ ، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لأنه لم يعجل بالعقوبة ، ويجازي بالكثير ، والله يحذرنا من الفتن المتربصة بنا ؛ ألا وهي الأزواج ، والأولاد ، والمال ، فيأمرنا ٱلله باتقاء هٰذه

---

(1) الحجر 46 ، 47 .
(2) الشورىٰ 23 .
(3) التغابن 17 ، 18 .

الفتنة بالبعد عن الشح ، كما يأمرنا بالعفو والصفح والإنفاق وبالتجارة التي لا تبور مع ٱلله جلَّ شأنه ، ويبشرنا بأن نتيجة ذلك المغفرة والشكر من ٱلله وتمام هـٰذا بالحُلم الإلـٰهي الذي يسع الجميع .

والخليفة لا تمنعه نعمة المال ولا نعمة الولد ولا نعمة الزوجة عن أداء الدور المنوط به في الخلافة ، فيشكر ٱلله علىٰ هـٰذه النعم فتتحول من عوائق عن السير في طريق الخلافة إلىٰ محفزات لأداء دور الخليفة علىٰ الوجه الأكمل كما أراده ٱلله ، وكيف لا وقد استخلف ٱلله الإنسان علىٰ كل شيء في الكون كبيراً كان أم صغيراً وله حق الرعاية عليهم ، وهـٰذه الرعاية ليست لإنسان دون إنسان بل للجميع فالكل راعٍ (أي : خليفة) والكل مسؤول عن رعيته بقدر ما أعطاه ٱلله من مسئوليات تجاه الآخرين ، ومن الشكر للمنعم حسن الرعاية لمن هم في حوزته وأداء دور الخليفة علىٰ الوجه الصحيح في الرعية كبرت أم صغرت ، ويتزايد هـٰذا الدور كلما زادت المسؤولية ، وكلما اتسعت دائرة المطلوب رعايتهم . قال ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ، وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (1) .

الرعاية أمانة تستوجب الصيانة والحفاظ مع تحمّل المسؤوليات المترتبة عليها ، ومن تُقدَّم له الرعاية ينبغي أن يرتفع خلقاً لأن يشكر مع فائق التقدير والاحترام من قدم له رعاية وعناية ، وفي هـٰذا الأمر اعتراف بالفضل والجميل الطيب الذي بأسبابه تصبح المحبة في حالة تبادل بين المستخلفين في الأرض ، وأن يشكر ربه عز وجل علىٰ فضله الذي به نال الرعاية .

وعن ابن عباس قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « يوم من إمام عادل أفضل

---

(1) صحيح البخاري ، ج 3 ص 414 .

من عبادة ستين سنة ، وحدٌّ يقام في الأرض بحقه أزكىٰ فيها من مطر أربعين عاماً » (1) .

ثم تتفرع الرعاية أو الخلافة في كلِّ المجتمع ، وبذلك تشمل الخلافة كل مناحي الحياة ولـٰكنها في النهاية لابد أن تكون مجموعة في نموذج واحد وهو الخليفة الذي يؤدي شكر ٱلله بالقيام بالرعاية الكاملة علىٰ الوجه الذي كلفه به المولىٰ عز وجل ، وهـٰذه الرعاية من الخليفة بالرحمة والشفقة علىٰ من يرعاهم ، وبذلك يؤدي الخليفة الشكر لله في العباد سلوكاً ، وتوجيهاً .

والرعاية من الخليفة تلزمها الرحمة ، والشفقة ، والحنو ؛ لأن شكر ٱلله يكون برعاية خلقه ، والشكور في الخليفة فيض من الاسم الشكور الذي هو صفة لله ، والخليفة متخلق بأخلاق ٱلله علىٰ قدر استطاعته ؛ لذا فهو عطوف علىٰ رعيته يؤدي الصلاة التي تصله بالخالق ، ويشكر الخالق في خلقه ، ويخالق الرعية بالخلق الحسن الذي هو خلق ٱلله ، قال النبي ﷺ : « أفضل الأعمال الصلاة لوقتها ، وخير ما أعطي الإنسان حسن الخلق ، ألا وإن حسن الخلق من أخلاق ٱلله عز وجل » (2) .

والرحمة ملازمة للخليفة ، فهو يؤمن بالله ، ويتودد إلىٰ الناس ؛ لأن هـٰذا التودد من أفضل الأعمال بعد الإيمان ، فقال ﷺ : « أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله التودد إلىٰ الناس » (3) .

والتودد إلىٰ الخلق من الشكر بإدخال السرور عليهم ، أو قضاء دين لمن ضاقت به السبل ، أو إطعام خبز لجائع بتوفير عمل شريف له ، أو بتعليمه حرفة يتكسب منها ، وهـٰذا من باب شكر النعمة التي وهبها ٱلله للخليفة من حكم

---

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج 2 ص 350 .
(2) كشف الخفاء ، ج 1 ص 152 .
(3) السابق ص 152 .

ورجاحة عقل بتدبير أمر عجز عنه إنسان أقل منه خبرة ودراية ، وهٰذا ما حدث مع النبي ﷺ عندما جاءه سائل يسأله فنصح له وأرشده إلىٰ طريق أفضل من مسألة الناس ، وهو العمل والاجتهاد ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال : « أَنَّ رَجُلاً مِنْ الأنْصَارِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ فَقَالَ : أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟ قَالَ : بَلَىٰ حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ . قَالَ : ائْتِنِي بِهِمَا . قَالَ : فَأَتَاهُ بِهِمَا ، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ : مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟ قَالَ : رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ . قَالَ : مَنْ يَزِيدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ (مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثاً) . قَالَ : رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ ، وَأَعْطَاهُمَا الأنْصَارِيَّ وَقَالَ : اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَىٰ أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَائتِنِي بِهِ فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عُوداً بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا . فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ ، فَاشْتَرَىٰ بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ »[1] . وهنا نتذكر الحكمة القائلة : من أعطاك سمكة أطعمك يوماً ، ومن علمك الصيد أطعمك كل يوم .

وتندرج هٰذه الصفات الودية تحت النفقة المادية بالمال والخبز وما شابه ذلك ، والنفقة المعنوية بإدخال السرور ولو بكلمة أو ببشرىٰ طيبة أو بسمة صافية أو بنصيحة مخلصة ، فيقول الحبيب ﷺ : « أفضل الأعمال أن تدخل علىٰ أخيك المؤمن سروراً ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطعمه خبزاً »[2] .

والنصيحة الخالصة لوجه ٱلله تدخل السرور علىٰ المؤمن ، وتقضي عنه

(1) سنن أبي داود ، ج 4 ص 449 .
(2) كشف الخفاء ، ـج 1 ص 152 .

الدين ، وتطعمه الخبز ، وهـٰذا من شكر الخليفة لنعمة الحكمة ورجاحة العقل والعلم الذي يفيضه علىٰ أتباعه . والخليفة من يرث الإيمان الكامل عن علم وعمل ومن هـٰذا الميراث الشكر والصبر فهما لا يحصلان من دون العلم . قَالَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ في فضل العلم : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ ٱللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » (1) .

وبالعلم يرث الخليفة الأنبياء ، ومن هـٰذا الميراث العلم بأسماء ٱلله وصفاته فيعرف معناها وفوائدها ، ويتخلق بها ، فينشر نور العلم في الأرض ، ويكون في الأرض مثل النجم في السماء .

وخير العلماء من يتعلم لنفسه ولغيره ، فيحثهم علىٰ العلم وعلىٰ السير للوصول إلىٰ الحظ الأوفر من ميراث الأنبياء . وقد ورد في الأثر : حدثنا عفان قال : حدثنا أبو عقيل بشير بن عقبة قال : « سمعت الحسن يقول : العلماء ثلاثة : منهم عالم لنفسه ولغيره ، فذلك أفضلهم وخيرهم ، ومنهم عالم لنفسه فحسن ، ومنهم عالم لا لنفسه ولا لغيره ، فذلك شرهم » (2) .

ونعم ٱلله لا تحصىٰ في الأرض والبحر ، ولا يعتبر بها ، ولا تمتلك عليه خلجات نفسه إلا الصبار الشكور ، وهو الخليفة الذي لا يفتأ عن النظر في ملكوت ٱلله وآياته ؛ لأنه عالم بحق الاسم الشكور ومن هـٰذا الحق الحرص والنظر إلىٰ العلماء للتعلم منهم ؛ لأنهم ورثة الأنبياء ، وورثة المعرفة الكاملة بأسماء ٱلله تعالىٰ .

---

(1) سنن أبي داود ، ج 10 ص 49 .
(2) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 8 ص 269 .

والاسم الشكور : من أسماء الجمال والرحمة والبسط واللين ؛ لذا فقد جاء مقترناً بالاسم الغفور والاسم الحليم ، إلا أن الاسم الحليم جاء بعده ليتمم الشكر المفاض علىٰ العباد مع العلم بأن كل اسم إلـٰهي اسم مكتمل تام في ذاته ؛ لأنه من أسماء ٱلله ، وحاشا أن يلحق أسماءه نقص .

والله هو : (الشاكر ، الشكور) « الذي يشكر القليل من العمل ، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير . ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب ، ويشكر الشاكرين ، ويذكر من ذكره » [1] .

وهنا يتضح أن الاسم الشكور يشمل الاسم الشاكر ، وكلاهما من نبع الشكر الإلـٰهي الذي يفيض مغفرة وعطاءً وثواباً وستراً علىٰ من يتصف بهـٰذه الرتبة الإيمانية من العباد ، ولا تتأتىٰ هـٰذه الرتبة إلا بالصبر المطلق والصبر المطلق ، كما ورد في القرآن الكريم بصيغة (صبّار) والشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة (شَكُور)ولم يصل إلىٰ الدرجة الأعلىٰ في هـٰذه المنزلة إلا القليل من عباد ٱلله الذين وصفهم بقوله تعالىٰ : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ وهـٰؤلاء يتمم ٱلله عملهم بالقبول ويزيدهم من فضله بالمغفرة والستر والشكر ، وهـٰذا كرم خالص من ٱلله عز وجل ، فيفيضون مما أفاض ٱلله عليهم بالشفاعة لمن أراد ٱلله أن يخرجه برحمته من الشقاء إلىٰ النعيم ، وهـٰذا فيض شكوري آخر من ٱلله الشكور ، وذلك ما ورد في كتب التفسير لقوله تعالىٰ :

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ [2] .

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ ﴾ التوفيه : تمام الأجر و ثواب العمل وهو متعلق بـ : ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ علىٰ معنىٰ أنه ينتفي عنها الكساد وتنفق فلا وقف علىٰ ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ . ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ أي : جوده وتفضله وخزائن رحمته

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 948 .
(2) فاطر 30 .

ما يشاء مما لم يخطر ببالهم عند العمل ولم يستحقوا له بل هو كرم محض . ومن فضله يوم القيامة نصبهم في مقام الشفاعة ؛ ليشفعوا فيمن وجبت لهم النار من الأقرباء ، وغيرهم . ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة وهـٰذه مغفرة من غفور شكور .

و﴿غَفُورٌ﴾ ستار لكل ما صدر عنهم مما من شأنه ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها ومثيب .

والشكر علىٰ ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : الشكر ممن دونه يكون بالطاعة وترك مخالفته . (وهـٰذا من الخليفة إلىٰ ٱلله) فالإنسان بكل المقاييس دون ٱلله ؛ لذا وجب عليه أن يشكره ومن ألوان هـٰذا الشكر : طاعته فيما أمر ، وترك ما نهىٰ عنه ، وفي ذلك صبر أيما صبر ، وشكر أيما شكر ، ومن هنا تحصل الخيرية العظمىٰ لكل من يقتدي بهـٰذا السلوك ، وتتحقق فيه الخلافة المرجوة ، وكونه من الأخيار ممن قيل فيهم [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [2] . قال الزجاج : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي ﷺ ، ولـٰكنه عام في كل الأمة ، ونظيره قوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [3] ، و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [4] . فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ، ولـٰكنه أيضاً يفيد العام في حق الكل [5] .

---

(1) تفسير حقي ، ج 11 ص 281 .

(2) آل عمران ، 110 .

(3) البقرة 183 .

(4) البقرة 178 .

(5) تفسير الرازي ، ج 4 ص 342 .

وأصل الأمة : الطائفة المجتمعة علىٰ الشيء الواحد ، فأمة نبينا ﷺ هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوته ، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوته : أنهم أمته إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها ؛ وقع علىٰ الأول ، ألا ترىٰ أنه إذا قيل : أجمعت الأمة علىٰ كذا ؛ فُهِمَ منه الأول . وقال عليه الصلاة والسلام : « أمتي لا تجتمع علىٰ ضلالة » وقد ورد الحديث بلفظ آخر :

فعن أبي بصرة صاحب رسول ٱلله ﷺ : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « سألت ربي ـ عز وجل ـ أربعاً ، فأعطاني ثلاثاً ، ومنعني واحدةً . سألت ٱلله عز وجل أن لا يجمع أمتي علىٰ ضلالة ، فأعطانيها » (1) .

وروي : أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة « أمتي أمتي » فلفظ الأمة في هـٰذه المواضع وأشباهها يفهم منه المقرون بنبوته ، فأما أهل دعوته ؛ فإنه إنما يقال لهم : إنهم أمة الدعوة ، ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهـٰذا الشرط .

أما قوله : ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ففيه قولان :

الأول : أن المعنىٰ كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ، فقوله : ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي أظهرت للناس حتىٰ تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها .

والثاني : أن قوله : ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ من تمام قوله : ﴿ كُنتُمْ ﴾ والتقدير : كنتم للناس خير أمة .

ثم قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ . والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج 1 ، ص 107 .

ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم ، فهاهنا حكم تعالىٰ بثبوت وصف الخيرية لهٰذه الأمة ، ثم ذكر بعد هٰذا الحكم وهٰذه الطاعات الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهٰذه العبادات .

وهٰهنا ينبغي طرح السؤال الآتي :

من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هٰذه الأمة خير الأمم مع أن هٰذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم ؟

الجواب : تفضيلهم علىٰ الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر بأقوىٰ الوجوه ، وهو القتال ؛ لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب ، وباللسان ، وباليد ، وأقواها ما يكون بالقتال ؛ لأنه إلقاء النفس في خطر القتل .

وأعرف المعروفات الدين الحق ، والإيمان بالتوحيد ، والنبوة ، وأنكر المنكرات : الكفر بالله ، فكان الجهاد في الدين محملاً لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلىٰ أعظم المنافع ، وتخليصه من أعظم المضار ، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات ، ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوىٰ منه في سائر الشرائع ، لا جرم صار ذلك موجباً لفضل هٰذه الأمة علىٰ سائر الأمم ، وهٰذا معنىٰ ما روي عن ابن عباس : أنه قال في تفسير هٰذه الآية : قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إلـٰه إلا ٱلله ، ويقروا بما أنزل ٱلله جل جلاله ، وتقاتلونهم عليه و« لا إلـٰه إلا ٱلله » أعظم المعروف ، والتكذيب هو أنكر المنكر [1] .

الوجه الثاني من الشكر : الشكر ممن هو شكله يكون بالجزاء والمكافأة

(1) تفسير الرازي ، ج 4 ، ص 342 .

وهـٰذا من إنسان إلىٰ إنسان أي يشكر إنسان لإنسان آخر أسدىٰ إليه معروفاً ، فمن لم يشكر الناس لمعروفهم لم يشكر ٱلله .

الوجه الثالث من الشكر : والشكر ممن فوقه يكون رضا منه باليسير ، وهـٰذا من ٱلله العلي العظيم إلىٰ الإنسان ؛ لأن شكر ٱلله أعلىٰ وأجل وأسمىٰ من شكرنا [1] .

والشكور هو المجازىٰ بالخير الكثير علىٰ العمل اليسير ، والمعطىٰ بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير مجذوذة ، ومن عرف : أنه الشكور شكر نعمته ، وآثر طاعته ، وطلب رحمته ، وشهد منته .

وعطاء ٱلله الشكور ـ لمن أراد الخلافة ـ بشروط منها : تلاوة القرآن ، واتخاذه منهجاً وشريعة ، وإقامة الصلاة بوصفها وسيلة الاتصال المباشرة بين العبد وربه ، وإقامة بيوت ٱلله التي يذكر فيها اسمه ، ويسبح بحمده فيها بالغدو والآصال من رجال لا تلهيهم الدنيا بفنائها عن الآخرة بنعيمها ودوامها ، فهـٰذه التجارة الرابحة التي لا تبور وجزاؤها تمام الأجر ، وزيادة الفضل ، وستر الذنب في الدنيا والآخرة ، والتجلي عليهم بالشكورية الإلـٰهية التي تحوي المغفرة والنعيم الدائم الذي لا يعرف قدره إلا ٱلله . ويقول ابن كثير عن هـٰذا المعنىٰ في تفسير الآية التي تتناول هـٰذه الجزئية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ [2] .

يخبر تعالىٰ عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ، ويؤمنون به ، ويعملون بما فيه من إقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم ٱلله في الأوقات

(1) تفسير حقي ، ج 11 ص 281 .
(2) فاطر 29 ، 30 .

والأوجه المشروعة ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أي : يرجون ثواباً عند ٱلله لا بد من حصوله . كما جاء عن فضائل القرآن : أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم علىٰ بال . ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ أي : غفور لذنوبهم ، ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي : يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر من الحسنات ، فيستر ، ويغفر ، ويضاعف ، فيشكر [1] .

والذي يتحلىٰ بالشكر ويكون مصبوغاً بهٰذه الصفة يزيده ٱلله من فضله ، وهٰذه الزيادة بالمغفرة ، ودخول الجنة ؛ لأنه قد مارس عملاً من أعمال الخلافة ، وهو التحلي بالطاعة والخيرية التي تورث الشكر الإلٰهي ، وقليل ممن هم علىٰ هٰذه المنزلة ، أما من سار في طريق الغي والضلال ، ولم يتحلَّ بالطاعات والخيرية التي أرادها ٱلله في الخليفة فجزاؤه من جنس عمله وهل يجازىٰ بالنار إلا الكفور الجاحد لنعمة الخلافة التي لم يؤد شكرها ؟ ! وقد وضح ٱلله في منهجه الذي أرساه طريقاً للخلافة : أنها لا تتحقق إلا بالعمل بالقرآن تلاوةً ، وتطبيقاً ، وإقامة الصلاة اتصالاً بالخالق ، فتكون نوراً هادياً للعمل الصالح في الأرض عمراناً ، ومع العباد سلوكاً طيباً ومعاملة حسنة ، وبإنفاق المال في مصارفه الصحيحة لنشر الخيرية الإنسانية بسد حاجة المحتاج ، وبتوفير الحياة الكريمة لمن استخلفنا عليهم .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ

(1) تفسير ابن كثير ، ج 6 ص 545 .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (1) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ أي : مسرين النفل ، ومعلنين الفرض ، يعني : لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرۡجُونَ ﴾ خبر « إنّ » ﴿تِجَٰرَةٗ ﴾ هي طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ ﴾ لن تكسد ، يعني : تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند ٱلله ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ ﴾ متعلق بـ : ﴿لَّن تَبُورَ ﴾ أي ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أُجُورَهُمۡ ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم ، أو بتضعيف حسناتهم ، أو بتحقيق وعد لقائه . أو ﴿يَرۡجُونَ ﴾ أي راجين . واللام في : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ ﴾ تتعلق بـ : ﴿يَتۡلُونَ ﴾ وما بعده أي : فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهٰذا الغرض و ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ ﴾ لفرطاتهم ﴿شَكُورٞ ﴾ أي : غفورٌ لهم شكور لأعمالهم أي يعطي الجزيل على العمل القليل ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي القرآن . و« من » للتبيين ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا ﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هٰذا التصديق ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۚ ﴾

---

(1) فاطر 29 ـ 37 .

لما تقدمه من الكتب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ فعلَّمَك ، وأبصر أحوالك ، ورآك أهلاً لأن يوحي إليك مثل هٰذا الكتاب المعجز الذي هو عيار علىٰ سائر الكتب ، ولتكون مستخلفاً به في الأرض دون غيرك .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي : أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم الخلفاء من أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلىٰ يوم القيامة لأن ٱلله اصطفاهم علىٰ سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطاً ؛ ليكونوا شهداء علىٰ الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيداً ، واختصهم بكرامة الانتماء إلىٰ أفضل رسله . ثم رتبهم علىٰ مراتب ، فقال : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو المرجأ لأمر ٱلله : ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً : ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وهٰذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالىٰ قال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [2] . وقال عز وجل : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [3] .

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ والظالم من رجحت سيئاته ، والسابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته . وسئل أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هٰذه الآية فقال : كلهم مؤمنون ، وأما صفة الكفار فبعد هٰذا ، وهو قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفىٰ من عباده ، وكلهم راجع إلىٰ قوله : ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم أهل الإيمان المستخلفون في الأرض والمصلحون فيها . وفي الآية الكريمة السابقة قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة

---

(1) التوبة 100 .

(2) التوبة 102 .

(3) التوبة ، 106 .

إليهم والسابقون أقل من القليل . وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله . وقيل : إنما قدمه ليعرّفه : أن ذنبه لا يبعده من ربه . وقال سهل : السابق : العالم ، والمقتصد : المتعلم ، والظالم : الجاهل . والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده ، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده . وقيل : الظالم الذي يعبده علىٰ الغفلة والعادة ، والمقتصد الذي يعبده علىٰ الرغبة والرهبة ، والسابق الذي يعبده علىٰ الهيبة والاستحقاق . وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت ، أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد ألا يأخذها إلا من حلال . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي إيراث الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ خبر ثان ل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ ، والخبر : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي الفرق الثلاثة ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة جمع سوار ﴿ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ؛ أي : من ذهب مرصَّع باللؤلؤ أي : يحلون أساور ، ولؤلؤاً ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ لما فيه من نعومة الملمس ، والزينة الجمالية مع الذوق الرفيع .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ خوف النار ، أو خوف الموت ، أو هموم الدنيا . ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ ﴾ يقبل الطاعات وإن قلت ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ أي : الإقامة لا نبرح منها ، ولا نفارقها . يقال : أقمت إقامة ومقاماً ومقامة . ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من عطائه وأفضاله لا باستحقاقنا ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب ، ومشقة . ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ إعياء من التعب وفترة (1) .

ويأتي الاسم الشكور بين المغفرة والحلم كما ورد في الحديث النبوي الشريف : الحليم ثم الغفور ثم الشكور ، ويتناغم القرآن الكريم مع الحديث الشريف ، فيعطينا لمحة باهرة بأن المغفرة تسبق الشكر ، والحلم يحتوي

(1) تفسير النسفي ، ج 3 ص 169 .

الاثنين ، ويأتي ذلك باتقاء الفتنة من المال والولد ، وعلىٰ الخليفة أن يتقي ٱلله بقدر المستطاع ، وأن يطيع ٱلله ورسوله فيما أمر ونهىٰ ، وأن ينفق عن طيب خاطر وأن يبتعد عن الشح ؛ لكي يكون من المفلحين ، وأن يقرض ٱلله قرضاً حسناً من مال حلال بنفس مطمئنة لما عند ٱلله من ثواب وأجر عظيم ، وحينئذ يضاعف ٱلله له الأجر والثواب ، ويشمله بعطاء الغفور الشكور الحليم ، تقدس في ذاته ، وعظم في صفاته ، فيقول في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (1) . ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ بلاءٌ ومحنةٌ يوقعونكُم في الإثم من حيثُ لا تحتسبون ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ من آثَرَ محبةَ ٱلله تعالَىٰ وطاعَتَهُ علىٰ محبةِ الأموالِ والأولادِ والسعيِ في تدبيرِ مصالحِهِم ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ أي : ابذلُوا في تقواهُ جهدَكُم وطاقَتَكُم ﴿وَٱسۡمَعُواْ ﴾ مواعظَهُ ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ أوامرَهُ ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ مما رزقكُم في الوجوهِ التي أمركُم بالإنفاقِ فيها خالصاً لوجهِهِ ﴿ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ ﴾ أي : ائتُوا خيراً لأنفسِكُم وافعلُوا ما هو خيرٌ لها وأنفعُ وهو تأكيدٌ للحثِّ علىٰ امتثالِ هـٰذهِ الأوامرِ وبيانٌ لكونِ الأمورِ المذكورةِ خيراً لأنفسِهم ، أي : يَكُنْ خيراً لأنفسِكُم . ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الفائزونَ بكلِ مرامٍ . ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ ﴾ بصرفِ أموالِكُم إلىٰ المصارفِ التي عينها ﴿ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ مقروناً بالإخلاصِ وطيبِ النفسِ ﴿ يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ ﴾ بالواحدِ عشرةً إلىٰ سبعمئةٍ وأكثرَ . وقُرِئَ يُضعّفهُ لكُم

(1) التغابن 15 ـ 18 .

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ببركةِ الإنفاقِ ما فرطَ منكُم من بعضِ الذنوبِ ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يَعطِىٰ الجزيلَ بمقابلةِ النزرِ القليلِ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلُ بالعقوبةِ مع كثرةِ ذنوبِكُم ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يَخفىٰ عليهِ خافيةٌ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المبالغُ في القدرةِ والحكمة [1] .

في الآيات السابقة نلاحظ : أن الاسم الشكور يأتي مقترناً بالإنفاق سراً وعلانيةً وإقامة الصلاة وتلاوة القرآن ، وهو ما يعد بمثابة النهج الذي إذا سار عليه العبد ؛ كان مستحقاً للمغفرة والشكر من ٱلله إلا أن الآية الآتية فيها أمر آخر وهو المودة في القربىٰ قربىٰ الرسول ﷺ أو قربىٰ الإنسان الشخصية أو قربىٰ المسلمين عامة ، المهم أن تكون المودة حاضرة في قلوب المؤمنين لله وللرسول وللمسلمين وللخلق جميعاً ؛ لأنهم صنعة ٱلله .

ولا يصل القربىٰ إلا عباد ٱلله الذي يتوجه لهم بتلك الآيات الباهرات وهم من يستحقون الخلافة إن نفّذوا ما أُمِرُوا به من أوامر ، واجتنبوا ما نهوا عنه من نواهٍ ، وهـٰذه المودة إن وصفت بأنها حسنة إلا أنها من أعظم الحسنات عند ٱلله فيزيد ٱلله فيها أحسن منها ويغفر ويشكر لمن قام بها ، وأداها علىٰ الوجه الأكمل ، وهـٰذه بشرىٰ عظيمة لهـٰؤلاء العباد الذين يصلون القربىٰ الخاصة بالحبيب ﷺ ، وبذويهم أي : القربىٰ الخاصة بكل إنسان ممن تربطهم به صلة ، وبقربىٰ الإسلام في الأرض شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ، وذلك بتمني الخير لكل مسلم والدعاء له ظاهراً وباطناً ، والخوف علىٰ مصلحة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، والدعوة الصادقة المخلصة إلىٰ طريق الهداية لجميع البشر ؛ لأنه توجد قربىٰ غفل عنها الكثير إلا الخليفة لم يغفل عنها وهي قربىٰ آدم وحواء عليهما السلام في البشر بوجه عام ممن ليسوا علىٰ الطريق الصحيح ، وهـٰؤلاء بالطبع غير قربىٰ الرسول ﷺ أو القربىٰ الخاصة أو القربىٰ العامة من

---

(1) تفسير أبي السعود ، ج 6 ، ص 334 .

المسلمين ، ونقصد بذلك أول قربىٰ من رحم حواء وصلب آدم عليه الصلاة والسلام الذي خرجنا جميعاً منه ونندرج كلنا فيه ، فإن وصلنا هـٰذه القربىٰ تحققت فينا الخلافة ، وكنا أهل لها ، كلٌّ علىٰ قدر ما وصل منها . وهـٰذه المكانة لا تتحقق إلا في الخليفة الذي يعمر الأرض بفكره ، وترتفع بساعده ، وتزهو برؤيته الثاقبة وتوجيهه المستنير وهـٰذا الخليفة هو المتحقق بالشكر علىٰ تمامه ويتجلىٰ ٱلله عليه بالشكر علىٰ كماله بالقبول في الدنيا بين بني جنسه والرضا في الآخرة بالجنة ونعيمها والبعد عن عذاب النار وجحيمها .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (1) . يقول تعالىٰ لما ذكر روضات الجنة ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾ أي : هـٰذا حاصل لهم كائن لا محالة ، ببشارة ٱلله لهم به .

وقوله : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ أي : قل يا محمد لهـٰؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم علىٰ هـٰذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شرَّكم عني ، وتذروني أبلغ رسالات ربي ، إن لم تنصروني ، فلا تؤذوني بما بيني ، وبينكم من القرابة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك بن ميسرة ؛ قال : سمعت طاوساً عن ابن عباس : أنه سئل عن قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ فقال سعيد بن جبير : قربىٰ آل محمد ؟ فقال ابن عباس : عَجِلْت ! إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابةٌ ، فقال ﷺ : (إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة) (2) .

---

(1) الشورىٰ 23 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 7 ص 199 .

وحتىٰ لا يُحْرَمُ إنسانٌ من شرف الانتساب إلىٰ أهل البيت ، فهناك رأي يدخل الأمة المحمدية كلُّها في قربىٰ النبي ﷺ : أليس النبي ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ، وزوجاته أمهاتٌ للمؤمنين ؟ قال ٱلله تعالىٰ :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (1) .

فعليه : فكلُّ من آمن بالله رباً ، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ، وأحبَّ المسلمين ، ونصح لهم ، وعمل علىٰ نشر الخير المحمدي ؛ لتتحقق الخلافة المثلىٰ للإنسان علىٰ الأرض فهو من القربىٰ . ويؤكد ذلك التفسير الآتي :

وقيل : آل الرسول : أمته الذين قبلوا دعوته . قال ابن عطاء : لا أسألكم علىٰ دعوتكم أجراً إلا أن تتودَّدوا إليَّ بتوحيد ٱلله ، وتتقربوا إليه بدوام طاعته ، وملازمة أوامره . وقال الحسين كلُّ من تقرب إلىٰ ٱلله بطاعته ؛ وجبت عليكم محبته . أي : فإن المحب يحب المحب لكونهما محبين لمحبوبٍ واحد ، وكذا المطيع مع المطيع لشركتهما في الطاعة والانقياد .

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ من يكتسب حسنة يكون له الجزاء الأوفىٰ ﴿ نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا ﴾ أي : في الحسنة ﴿ حُسْنًا ﴾ بمضاعفة الحسنة والتوفيق لمثلها ، والإخلاص فيها ، وبزيادة لا يصل العبد إليها بوسعه مما لا يدخل تحت طوق البشر . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ هو صاحب المغفرة ، ومالك أمرها . ﴿ شَكُورٌ ﴾ لمن أطاع بتوفية الثواب ، والتفضل عليه بالزيادة ، فالشكر من ٱلله مجاز عن هٰذا المعنىٰ لأن معناه الحقيقي وهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ؛ لكونه منعماً ،

---

(1) الأحزاب 6 .

ولا يتصور من ٱلله لامتناع أن ينعم عليه أحد حتىٰ يقابل بالشكر شبهة الإثابة والتفضل بالشكر من حيث إنَّ كل واحد منهما يتضمَّن الاعتداد بفعل الغير ، وإكراماً لأجله .

وفي بحر العلوم : أو معتدٍّ بالحسنة القليلة حتىٰ يضاعفها ؛ فإن القليل عند ٱلله كثير (1) .

ولما طلب النبي ﷺ ألا يؤذىٰ لقرابته من أهل مكة ، أو لا يؤذىٰ في أهل بيته ، أو في أمته فالأحرىٰ بنا ألا نؤذيه في سنته ، وأن ندفع عنه أذىٰ الجاهلين الذين يحاولون النَّيْلَ من أمته بكل السبل . وذلك نوع من القربىٰ إلىٰ ٱلله بالبعد عن أذىٰ ٱلله ورسوله . وتلك القربىٰ تأتي من العمل الصالح والطاعة المثلىٰ لله . والفرصة مواتية للوصول إلىٰ هـٰذه القربىٰ ؛ لنصل إلىٰ تجلي ٱلله علينا بالشكورية الإلـٰهية .

ومن الشكر للنعمة التي أنعم ٱلله علينا بها وهي نعمة اتباع الخليفة الحقيقي ﷺ بحبه والدفاع عنه والتأسي بسنته بحب أهل بيته وبحب البشر عموماً ، وبحب الخير ، وبحب ٱلله ، وحب كل عمل يقربنا من ٱلله . وهـٰذا الحب من الشكر ؛ لأن النبي ﷺ طلب منا ذلك وحثنا عليه . قال رسول ٱلله ﷺ : « أحبوا ٱلله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب ٱلله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي » (2) .

وأهل بيت الرسول ﷺ ليس هم آل بيته ، ولذا فالفرق كبير بين آل إبراهيم ، وآل عمران ، وآل يعقوب ، وآل داود ، وآل ياسين ، وبين أهل محمد ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فآل إبراهيم يمتدوا حتىٰ يشملوا محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ من حيث الأصل ، وأهل محمد هم الذين آمنوا

(1) تفسير حقي ، ج 13 ، ص 80 .
(2) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 3 ، ص 418 .

به رسولاً (قربىٰ وبعدىٰ) من خديجة الكبرىٰ ، وأبو بكر الصديق إلىٰ بلال ، رضي ٱلله عنهم ، وأسرة محمد القريبة أزواجه أمهات المؤمنين ، وفاطمة الزهراء رضي ٱلله عنهنَّ هُنَّ من أهله ، وليس من آله . ولأن صلة الدم ترتبط بالمسمىٰ الذي يُنسب النسل إليه وهو المذكر ، ومحمد لم يبق له أبناء ذكور حتىٰ سن الزواج والإنجاب ، وهـٰذا أمر يعلمه ٱلله جل جلاله ، لذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (1) . جاء في الآية : ﴿عَنكُمُ ﴾ لأجل أن تحتوي المذكر والمؤنث ، ومع أن بداية الآية الحديث موجه فيها صراحة إلىٰ نساء النبي أمهاتنا الكريمات ، إلا أن خاتمة الآية جاءت بالضمير المحتوي للمذكر والمؤنث لتعمَّ الطهارة جميع أهل البيت الكرام . قال تعالىٰ : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (2) . فأهل البيت هم أصحابه الذين يطوفون ، ويسعون في ذكر ٱلله موحدين لا مشركين .

يقول القرطبي : « هـٰذه الآية تعطي : أن زوجة الرجل من أهل البيت ، فدل هـٰذا علىٰ أن أزواج الأنبياء من أهل البيت ، فعائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ وغيرها من أهل بيت النبي ﷺ » (3) . قال تعالىٰ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (4) . أهله تعود علىٰ الذين آمنوا بسيدنا لوط عليه الصلاة والسلام ، وهي لا تقتصر علىٰ من هم من صلبه ، أو دمه ، ولهـٰذا فالأهل امتزاج انتمائي للقرىٰ ، أو المدن ، أو الكتب السماوية وهي أشمل من (آل) التي تقتصر علىٰ رابطة الدم من صلب الأبناء . ولهـٰذا فالله يخاطب العموم بكلمة (أهل) ويخاطب الخاصة بكلمة (آل) . (أهل الكتاب) الذين

---

(1) الأحزاب ، 33 .
(2) هود 73 .
(3) تفسير القرطبي ، الجزء التاسع ، ص 71 .
(4) الأعراف ، 83 .

استهدفوا به ، و(أهل الإنجيل) هم المستهدفون به ، و(أهل القرىٰ) ساكنيها . و(أهل المدينة) كذلك ، وهـٰكذا (أهل الذكر) هم الذين يعلمون مما علمهم ٱلله به .

والأهل تتضمن في معناها : أصحاب ، أي : ذوي العلاقة المباشرة بالموضوع المشترك ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ (1) أي إلىٰ أصحابها مباشرةً ، وهم الذين لا شكَّ فيهم .

ولأن رسالة محمد ﷺ هي الخاتمة ، وهي للكافة لذا بطبيعة الحال أن يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ ويقول : ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ . وعليه لو قال تعالىٰ : (آل محمد) ولم يقل (أهل محمد) لكان الإسلام للخاصة مثله مثل الرسالات السابقة علىٰ نزوله . ولأنه للكافة جاءت كلمة : (أهل) جامعة لا مانعة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (2) . وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ (3) . ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة ، ولا أبا أحد من رجالكم (4) . هـٰذه الآية الكريمة نزلت في زواج الرسول ﷺ من زينب بعد أن طلقها زيد ، الذي تبناه رسول ٱلله في صغره ؛ وهو لم يكن ولده من صلبه ليقال عنه : أنه تزوج حليلة ابنه ، فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا

---

(1) النساء 58 .
(2) سبأ 28 .
(3) الأحزاب 40 .
(4) تفسير الطبري ، ج 20 ، ص 278 .

تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ [1] .

وقد ورد في التفسير في قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أيْ : إلا أن تودُّون لقرابتي منكم ، أو تودُّوا أهل قرابتي ، وقيل الاستثناء منقطع والمعنىٰ لا أسألُكم أجراً قَطُّ ، ولكنْ أسألُكم الموَّدةَ ، ولهـٰذا فالمودة بين الأهل واجبة ، وكذلك المودة فيهم بما يقدِّمونه من خير وعمل صالح لأجل الهداية للدين الكافة (الرسالة الخاتمة) . و﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ حالٌ منَها ؛ أيْ : إلا المودَّةَ ثابتةً في القُربىٰ متمكنةً في أهلِها ، أو في حقِّ القرابةِ . والقُرْبىٰ مصدرٌ كالزُّلْفىٰ بمَعْنىٰ القَرَابةِ . وقرابة الأهل متانة العلاقات علىٰ الدين الكافة . وفي هـٰذا الأمر يبتعد القريب الذي يعود إلىٰ الآل مثل أبي لهب ، ويقترب البعيد مثل بلال ابـن ربـاح وسلمـان الفـارسـي ، رضـي ٱلله عنهمـا . وفـي هـٰذا الأمـر قـال تعالىٰ : ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ [2] . وعليه من ينظر إلىٰ هـٰذا الأمر ليس له بدٌّ إلا أن يشكر ٱلله جل جلاله ، ويوحده باسمه الشكور ، واسمه العدل الذي لم يترك للظلم مكانة لتتم فيها مغالبة الحق بالباطل ؛ حتىٰ لا يتم الانحياز فيه للدم علىٰ حساب الأهل ؛ الذين يدخلون دائرة الممكن بمعطيات (الأصل ، والدين ، والانتماء) أي : الأهل تشمل وتحتوي الآل كجزء من الأهل الذين يتكونون تحت مظلة الأصل ، والدين الكافة ، وليس أي دين . ولذا فما علىٰ العباد إلا أن يتوجهوا بالشكر للشكور المطلق جل جلاله الذي لم يُقرَّ عليهم مغالبة ذوي القربىٰ عندما يكونون مناصرين للباطل ، أو عندما يكون قولهم أو فعلهم في مواجهة الحق ، ولهـٰذا كان بلال من أهله ، ولم يكن أبو لهب منهم ، وإن كان من آله .

---

(1) الأحزاب 5 .
(2) المسد 1 ـ 5 .

وقيلَ : القُرْبَىٰ : التقربُ إلىٰ ٱلله ؛ أيْ : إلاَّ أن تودُّوا ٱلله ورسولَهُ في تقربكم إليهِ بالطاعةِ والعملِ الصالح . وقُرِئَ : (إلا مودَّةً في القُربَىٰ) . ﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً ﴾ أي : يكتسبْ أيَّ حسنةٍ كانتْ ، فتتناولُ مودَّةَ ذِي القُرْبىٰ تناولاً أولياً . وعن السُّدِّيِّ : أنَّها المرادةُ ، وقيلَ : نزلتْ في الصدِّيقِ ـ رضيَ ٱلله عنه ـ ومودَّتهُ فيهم . ﴿ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا ﴾ أيْ : في الحسنة . ﴿ حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴾ بمضاعفةِ الثوابِ . وقُرِئَ : (يَزِدْ) أيْ : يزدِ ٱلله ، وقُرِئَ : (حُسْنَىٰ) . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ ﴾ لمن أذنبَ . ﴿ شَكُورٌ ﴾ لمن أطاعَ بتوفيقِه للثوابِ ، والتفضلِ عليهِ بالزيادةِ [(1)] .

وبناء علىٰ ما تقدم : فإنَّ أهل البيت هم المستخلفون في الأرض ، وليس آل البيت ، وذلك لارتباط الآل بصلة الدم كما هي الصلة بأبي لهب ، وارتباط الأهل بالدين الكافة كما هو حال الناس كافة ، ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [(2)] . فمع أنه ابن نوح (أي : من آله) إلا أنه لم يكن من أهله ، وذلك بأسباب الكفر ، فابنه كان يُسِرُّ الكفر ، ويظهر الإيمان ، ولذا فهو لم يكن من أهله [(3)] . ولأن نوح لا يعلم علم الغيب الذي لو كان به عليم لما نادىٰ ابنه بما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [(4)] ولأن ابنه يعرف أمر نفسه والحال الذي هو عليه . قال ٱلله جل جلاله : ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ

---

(1) تفسير أبي السعود ، ج 6 ص 80 .

(2) هود 45 ، 46 .

(3) تفسير القرطبي ، الجزء الرابع ، ص 45 .

(4) هود 42 .

أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾[1] .
فقوله : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ ﴾ دليل إثبات عدم الإيمان ، فلو كان مؤمناً ؛ لعرف : أنَّ الجبل لا يعصمه ؛ إن لم يكن ٱلله عاصماً له برحمته . فالمؤمن دائماً يعلم : أنه لا عاصم إلا ٱلله عز وجل ، ولهـٰذا كان الفرق كبيراً بين قوله : ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى ﴾ وبين قول أبيه عليه الصلاة والسلام الذي يملؤه الإيمان : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ .

إذاً فالشكور هو ٱلله عز وجل ، والمتخلق بهـٰذا الوصف هو الخليفة الذي يستحق الخلافة من العباد ، وعليه : فعلينا أن نستبين صفات الخليفة المتحقق بصفة الشكور ، وذلك من خلال آيات الذكر الحكيم ، ومن هدي سيد الخلق ﷺ .

الشكور ـ فرعاً ـ في العباد :

الشكور في الأصل ٱلله عزَّ وجل وهو بعد الاسم الغفور في الترتيب الوارد عن الرسول الكريم ﷺ فالشكور يسع الغفور ، والغفور فيه السَّتْر ، والشكور فيه العطاء والثواب ، ويسع الشكور الحليم ؛ لأن ٱلله بستره لذنب عبده ومغفرته له قد أمهله ، ليقبله والإمهال من الحِلْم ، والحلم من الرحمة ، والرحمة من ٱلله ، وٱلله يسع الأسماء ، والأسماء تسع الأفعال ، والعبد يتقلب في تجلِّيات الأسماء والأفعال ، ويحتويه ٱلله الرحيم الحليم ، ولـٰكن من الذي تنطبق عليه الشكورية ، أو مرتبة الشكر ، أو مرتبة شكر الشكر ؛ فقليل ما هم علىٰ هـٰذه المنزلة وليس عليها إلا نبي من أولي العزم من الرسل ، أو ولي كامل عامل بمنهج نبي من أولي العزم ، ولم يبق من مناهج أولي العزم إلا منهج المصطفىٰ ﷺ الذي كان يمارس الشكر ؛ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ لذا فمن أراد أن يكو ن من أهل الشكر فعليه الاقتداء بالنهج

---

(1) هود 43 .

المحمدي . وقد وصف بهٰذه المرتبة سيدنا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وطلبت من سيدنا داود وآله عليهم السلام بقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (1) . ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ أي : قولوا . الحمد لله . و « شكراً » : أي : اعملوا عملاً هو الشكر . وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي الشكر في ذاته ، ويبين هٰذا قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ . ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ وهو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقد قيل في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾ (2) . ويقال في صحيح البخاري : إن المراد بالشكر الصلوات الخمس . وعَنْ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : « إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ ؛ حَتَّىٰ تَرِمَ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ ، فَيُقَالُ لَهُ ، فَيَقُولُ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » (3) .

فظاهر القرآن والسنة : أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار علىٰ عمل اللسان ، فالشكر بالقلب ، واللسان ، والأركان .

قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ تدل علىٰ أن القلة هي المؤمنة

---

(1) سبأ 10 ـ 14 .

(2) لقمان 14 .

(3) صحيح البخاري ، ج 4 ص 292 .

وهي الشاكرة والحامدة لفضل ٱلله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ و ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ و ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ و ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ و ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ .

وسمع عمر بن الخطاب ـ رضي ٱلله تعالىٰ عنه ـ رجلاً يقول : « اللهُمَّ اجعلني من القليل ! فقال عمر : ما هـٰذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ، فقال عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروي : أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأكل الشعير ، ويطعم أهله الخشكار (ما خشن من الطحين ـ فارسية ـ) ، ويطعم المساكين الدرمك (الدقيق الأبيض) وروي : أنه ما شبع قط . فقيل له في ذلك ، فقال : أخاف إن شبعت أن أنسىٰ الجياع . وهـٰذا من الشكر ، ومن القليل [1] .

والخليفة الذي يرىٰ الشكر من الشكور ، ويرىٰ وجوده ، وشكره نعمتين من نعم المنعم ، ورؤية المنعم ، والنعمة نعمة أخرىٰ إلىٰ غير نهاية ، فَيَعْلَمُ : أنَّه يقوم بأداء شكره ، ولا يشكره إلا الشكور .

والشكر علىٰ ثلاثة أوجه :

1 ـ شكر بالأقوال .

2 ـ شكر بالأعمال .

3 ـ شكر بالأحوال .

فشكر الأقوال : أن يتحدث بالنعم مع نفسه إسراراً ، ومع غيره إظهاراً ، ومع ربه افتقاراً ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

وشكر الأعمال : أن يصرف نعمة ٱلله في طاعته ، ولا يعصيه بها ،

(1) تفسير حقي ، ج 1 ص 167 .

ويتدارك ما فاته من الطاعات ، وبادره من المعاصي كقوله تعالىٰ : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ .

وشكر الأحوال : أن يتجلَّىٰ المنعم بصفة الشكورية علىٰ سر العبد ، فلا يرىٰ إلا المنعم في النعمة ، والشكور في الشكر ، ويرىٰ المنعم في النعم والنعمة من المنعم ، والشكور في الشكر (1) .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) .
أفادت الآية : أن خواص ٱلله فيهم قليلةٌ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ وهـٰذا في كل زمان ، لـٰكن الشيء العزيز القليل أعلىٰ بهاءً من الكثير الذليل . فالقليل الشكور هو المستخلف المراد به استعمار الأرض والإصلاح دون سفك دماء فيها بغير حق .

ومع أن الإنسان لم يُخلق كاملاً إلا أنه خُلق في أحسن تقويم عقلاً ، وصورة ، ودلالة ظاهرة وباطنة ، ولهـٰذا فهو القادر علىٰ التمييز والإدراك الواعي مع الإحساس ، والاستنباط والاستقراء مما يؤهله لأن يكون الخليفة ، ولـٰكن أكثرهم لا يؤمنون وهـٰذه نقيصة في حق مَنْ خُلق في أحسن تقويم . وهـٰؤلاء ومن هو علىٰ مثلهم لا يستطيعون حمل الرسالة التي يُراد لهم الاستخلاف بها .

ويقصد بالإنسان الخليفة الذي ملأ الإيمان قلبه ، وعرف الباطل ، فاجتنبه ، ونهىٰ عنه ، وعرف الحق ، فأحقه ، وناصره ، ولهـٰذا كان الأنبياء

---

(1) تفسير حقي ، ج 2 ص 29 .
(2) البقرة 246 .

هم أول المستخلفين فيها ، ويأتي من بعدهم خلفاء مهديون يسيرون علىٰ منهجهم لعبادة ٱلله ، وتعمير الأرض ، والأخذ علىٰ يد المفسدين ، وهـٰؤلاء هم خاصة ٱلله في عباده الذين عليهم العبء الأكبر في عمارة الأرض .

الشكور : المبالغ في أداء الشكر علىٰ النعماء والبلواء بأن يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته وأغلب أحواله ، ومع ذلك لا يوفىٰ حقه ؛ لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا الىٰ نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرىٰ عجزه عن الشكر [1] .

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللهُ : « أحسن وجوه الشكر لنعم ٱلله تعالىٰ ألا يستعملها في معاصيه بل في طاعاته » . وعن جعفر بن سليمان سمعت ثابتاً يقول : (إنَّ داود جزأ ساعات الليل والنهار علىٰ أهله فلم تكن تأتىٰ ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي) وعن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ : ألا إنَّ داود أشكر العابدين وأيوب صابر الدنيا ، والآخرة [2] .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ يشير إلىٰ قلة من يصل الىٰ مقام الشكورية ، وهو الذي يكون شكره بالأحوال . والشكور هو ٱلله تعالىٰ لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [3] أي : إنه هو الذي يغفر للمذنبين ، ويشكر المطيعين الشاكرين له سراً وعلانية (تسبيحاً وعملاً نافعاً) .

وقد وصف ٱلله سيدنا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ، وجاء هـٰذا الوصف في القرآن الكريم الذي ارتضاه ٱلله ليكون

---

(1) تفسير حقي ، ج 11 ، ص 183 .
(2) السابق ، ج 11 ، ص 183 .
(3) فاطر 34 .

المنهج الخاتم للإنس والجن ولنرىٰ كيف كان سيدنا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبداً شكوراً :

قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [1] . قال سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي : أعطينا موسىٰ التوراة ، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى ﴾ ، يعني : التوراة هدىٰ ، ﴿ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ من الضلالة ، ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ يعنىٰ : ولياً ، وفيها تقديم . يا ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ آدم ، ﴿ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ ﴾ في السفينة . ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ ، يعنىٰ : ولياً ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ، فكان من شكره : أنه كان يذكر ٱلله عز وجل حين يأكل ، ويشرب ، ويحمد ٱلله تعالىٰ حين يفرغ ، ويذكر ٱلله سبحانه حين يقوم ، ويقعد ، ويذكر ٱلله جل ثناؤه حين يستجدُّ الثوب الجديد ، ويذكر ٱلله عز وجل حين يدخل ، ويخرج ، وينام ، ويستيقظ ، ويذكر ٱلله جل ثناؤه بكل خطوة يخطوها ، وبكل عمل يعمله ، فسماه ٱلله عز وجل عبداً شكوراً [2] . أي : إنه المتصف بالشكر لله تعالىٰ . ولهـٰذا ﴿ كَانَ ﴾ نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ أي : إنه كثيرَ الشكر في مجامع حالاتِه ، وفيه إيذانٌ بأن إنجاءَ مَنْ معه كان ببركة شكرِه عليه الصلاة والسلام ، وحثٌّ للذرية علىٰ الاقتداء به وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكُفرانِ . وكان إذا أكل ؛ قال : الحمد لله الذي أطعمني ، ولو شاء أجاعني . وإذا شرب ؛ قال : الحمد لله الذي سقاني ، ولو شاء أظمأني . وإذا اكتسىٰ ؛ قال : الحمد لله الذي كساني ، ولو شاء جردني . وإذا تغوط ؛ قال : الحمد لله الذي أخرج عنىٰ الأذىٰ في عافية ، ولو شاء حبسه ـ رويَ ـ أنه

(1) الإسراء ، 2 ، 3 .

(2) تفسير مقاتل ، ج 2 ، ص 250 .

كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه علىٰ من آمن به ، فإن وجده محتاجاً آثره به . وفيه إيذان بأن إنجاء من معه كان ببركة شكره عَلَيْهِ السَّلَامُ وحثٌّ الذرية علىٰ الاقتداء به ، وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران . فلما بالغ في الشكر ؛ سميَ شكوراً . فالله تعالىٰ بالغ في ازدياد النعمة جزاء لمبالغته في الشكر حتىٰ أنعم علىٰ ذرية من حملهم مع نوح ، وهم بنو إسرائيل بإيتاء التوراة الهادية الىٰ التوحيد المنجية من الشرك (1) .

وأول الخلفاء هم أول العابدين ، وأول العابدين هم الأنبياء . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) . عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ يقول : لم يكن للرحمـٰن ولد ، فأنا أول الشاهدين . وقال قتادة : هي كلمة من كلام العرب : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي : إن ذلك لم يكن ، فلا ينبغي (3) .

وقال أبو صخر : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي : فأنا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده . وكذا قال عبد الرحمـٰن بن زيد بن أسلم . وقال مجاهد : ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي : أول من عبده ، ووحده ، وكذبكم (4) .

والخليفة هو الذي يجتهد لإظهار الحق وإرشاد الناس لطريق النور عملاً ، واقتداءً بما جاء به النبي ﷺ من هدىٰ ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور ،

(1) حقي ، ج7 ص 172 .
(2) الزخرف ، 81ـ84 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 242 .
(4) المصدر السابق ص 243 .

وهـٰذا الدور نفسه الذي أرسل ٱلله من أجله سيدنا موسىٰ ، عليه الصلاة والسلام ، ولا يفهم ذلك ؛ ولا يقتدي به إلا العبد الخليفة الصبار الشكور . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [1] .

فالنبي ﷺ جاء ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلىٰ نور الشكر ، والتوحيد ، والشكر بإثبات النعمة للمنعم الأصلي الذي وهبها ، والكفر بحجب إثبات تلك النعمة عن خالقها ، و الله يكفر الذنوب ؛ أي : يغطيها ولا يكشف ستر العبد ؛ لذا فمن أراد العبودية الحقَّة فعليه بكشف حقيقة النعمة التي يتقلب فيها ، وإظهارها إلىٰ النور بردها إلىٰ ٱلله وشكره عليها ، وهـٰذا دور الخليفة الذي لا يكل ، ولا يمل من العمل شكراً لله وحث للآخرين علىٰ اتباع ذلك النهج وهو بذلك يخرجهم من ظلم الجحود ، وظلام إنكار النعمة بإثباتها لغير واجدها وواهبها إلىٰ النور ، نور الشكر ، والاعتراف بأن كل النعم من ٱلله ، ولا يستحق الشكر عليها غيره ، ولـٰكن أعوان الضلال يريدون أن يعيش الناس في ظلمات الكفر ، والله يريد أن يخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور ؛ لذا أرسل الرسل ، وختمهم بخير رسولٍ ، وأكمل رسالة ، وأتمِّ منهج وجعل فيه الخلافة الحقيقية علىٰ الأرض ، وتعهد بنشر منهجها ، وعلو نورها علىٰ جميع الأنوار فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [2] .

(1) إبراهيم 4 ، 5 .
(2) التوبة ، 32 ، 33 .

يقول تعالىٰ : يريد هـٰؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أي : ما بعث به رسوله من الهدىٰ ودين الحق ، بمجرد جدالهم ، وافترائهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس ، أو نور القمر بنفخه ، وهـٰذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل ٱلله به رسوله لا بدَّ أن يتمَّ ، ويظهر ؛ ولهـٰذا قال تعالىٰ مقابلاً لهم فيما راموه ، وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فالهدىٰ : هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعلم النافع . ودين الحق : هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة .

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي : علىٰ سائر الأديان ، كما ثبت في الصحيح ، عن رسول ٱلله ﷺ : أنه قال : « إن ٱلله زَوَىٰ لي الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها »[1] .

وقال رسول ٱلله ﷺ : « إنه سيُفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمَّالها في النار ، إلا من اتقىٰ ٱلله ، وأدىٰ الأمانة »[2] .

وقال رسول ٱلله ﷺ : « ليبلغن هـٰذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار ، ولا يترك ٱلله بيت مَدَر ، ولا وَبَر إلا أدخله هـٰذا الدين ، بعِزِّ عزيز ، أو بِذُلِّ ذليل ، عزّاً يعزُّ ٱلله به الإسلام ، وذلاً يذلُّ ٱلله به الكفر » . فكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلَّ ، والصغار ، والجزية[3] .

---

(1) صحيح مسلم ، ج4 ، ص 328 .
(2) المسند ، ج 5 ، ص 366 .
(3) المسند ، ج 4 ، 103 ، وقال الهيثمي في المجمع : ج 6 ، ص 14 .

وقال رسول ٱلله ﷺ يقول : « لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر ، إلا أدخله ٱلله كلمة الإسلام بعزِّ عزيز ، أو بذلِّ ذليل ، إما يعزهم ٱلله ؛ فيجعلهم من أهلها ، وإمَّا يذلُّهم فيدينون لها » [1] .

ومقام الشكر يأتي بالاستغراق في العبادة فرضاً ونافلةً ، وبكل الجوارح وبالظاهر والباطن وعلىٰ جميع الأوجه ، وبهٰذا تتحقق الخلافة الآدمية علىٰ الأرض . يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [2] .

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ نعت لأولي الألباب . أي : يذكرونه دائماً علىٰ الحالات كلِّها قائمين ، وقاعدين ، ومضطجعين ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني : يعتبرون في خلقهما [3] .

وفي التفضيل وجهان : **أحدهما** : أن التفكر يوصلك الىٰ ٱلله والعبادة توصلك إلىٰ ثواب ٱلله ، والذي يوصلك الىٰ ٱلله خير مما يوصلك الىٰ غير ٱلله .

والثاني : إنَّ التفكر عمل القلب ، والطاعة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح .

ثم شرع في تعليم الدعاء تنبيهاً علىٰ أن الدعاء إنما يجدي ، ويستحق الإجابة إذا كان بعد تقديم الوسيلة ، وهي إقامة وظائف العبودية من الذكر

---

(1) تفسير ابن كثير ، ج 4 ، ص 136 .

(2) آل عمران 191 .

(3) كشف الخفاء ، ج 1 ، ص 310 .

والفكر ، فقال ﴿رَبَّنَا﴾ يعني : يتفكرون ، ويقولون : ربنا ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [1] .

والشكر يكون بالعمل لا بالقول فقط وهٰذا الذي يقوم به الخليفة بصفته الوارث للأخلاق المحمدية والذي يعمل جاهداً علىٰ نشرها اقتداءً بالنبي ﷺ .

فعَنْ زِيَادٍ ؛ قَالَ سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ يَقُولُ : « إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّىٰ تَرِمُ قَدَمَاهُ ، أَوْ سَاقَاهُ ، فَيُقَالُ لَهُ ، فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » [2] .

وَفِيهِ : مَشْرُوعِيَّة الصَّلَاة لِلشُّكْرِ ، وَفِيهِ : أَنَّ الشُّكْر يَكُون بِالْعَمَلِ كَمَا يَكُون بِاللِّسَانِ ، كَمَا قَالَ ٱلله تَعَالَىٰ ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ : ظَنَّ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ سَبَب تَحَمُّله الْمَشَقَّة فِي الْعِبَادَة : أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْبُد الله خَوْفًا مِنْ الذُّنُوب ، وَطَلَبًا لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَة ، فَمَنْ تَحَقَّقَ : أَنَّهُ غُفِرَ لَهُ لاَ يَحْتَاج إِلَىٰ ذَلِكَ ، فَأَفَادَهُمْ : أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقًا آخَر لِلْعِبَادَةِ ، وَهُوَ الشُّكْر عَلَىٰ الْمَغْفِرَة ، وَإِيصَال النِّعْمَة لِمَنْ لاَ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ فِيهَا شَيْئاً ، فَيَتَعَيَّن كَثْرَة الشُّكْر عَلَىٰ ذَلِكَ . وَالشُّكْر : الاِعْتِرَاف بِالنِّعْمَةِ ، وَالْقِيَام بِالْخِدْمَةِ ، فَمَنْ كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ ؛ سُمِّيَ شَكُوراً ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ سُبْحَانه وَتَعَالَىٰ : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ . وَفِيهِ : مَا كَانَ النَّبِيّ ﷺ فيه مِنْ الاِجْتِهَاد فِي الْعِبَادَة وَالْخَشْيَة مِنْ رَبّه . قَالَ الْعُلَمَاء : إِنَّمَا أَلْزَم الأَنْبِيَاء أَنْفُسهمْ بِشِدَّةِ الْخَوْف لِعِلْمِهِمْ بِعَظِيمِ نِعْمَة الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ ابْتَدَأَهُمْ بِهَا قَبْل اِسْتِحْقَاقهَا . فَبَذَلُوا مَجْهُودهمْ فِي عِبَادَته ؛ لِيُؤَدُّوا بَعْض شُكْره ، مَعَ أَنَّ حُقُوق الله أَعْظَم مِنْ أَنْ يَقُوم بِهَا الْعِبَاد [3] .

وهٰذه مرتبة الشكورية عند الأنبياء ، وعلينا أن نقتدي بهم ، ونعمل

---

(1) المصدر السابق ، ج2 ، ص 374 .
(2) فتح الباري لابن حجر ، ج 4 ، ص 110 .
(3) السابق ، ص 110 .

بهديهم ؛ وقد ذكر ٱلله في كتابه صفات الشكور التي سبقها صفة (صبار) فلنقطف من بساتين القرآن لنتذوق ما قيل في هـٰذا الموضوع حول الشكور من العباد من غير الأنبياء . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (1) .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ علىٰ بلائه ﴿شَكُورٍ ﴾ لنعمائه . وقيل : لكل مؤمنٍ ، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشعار بأن الصبرَ والشكرَ عنوانُ المؤمن ؛ أي : لكل مَن يليق بكمال الصبرِ والشكر أو الإيمان ، فإن من تذكَّر ما فاض أو نزل عليه أو علىٰ مَنْ قبله من النعماء والبلاءِ ، وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقهما ، وتقديمُ الصبَّار علىٰ الشكور لتقدم متعلَّقِ الصبر ؛ أي : البلاء علىٰ متعلّق الشكر ؛ أي : النعماء ، وكون الشكر عاقبة الصبر (2) .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (3) .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ تعليلٌ لما قبله أيْ : إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتِها كثيرةً في عددِها لكلِّ مَن يُبالغ في الصَّبرِ علىٰ المشاقِّ ، فيتعبُ نفسَه في التفكرِ في الأنفسِ والآفاقِ ، ويبالغُ في الشُّكرِ علىٰ نعمائِه ، وهما صِفتا المُؤمنِ ، فكأنَّه قيلَ : لكلِّ مؤمنٍ . ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم ﴾ أي : علاهُم وأحاطَ بهم ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ ﴾ كلُّ ما يظلُّ من جبلٍ ، أو سحابٍ أو غيرِهما .

---

(1) إبراهيم 5 .

(2) تفسير أبي السعود ، ج 4 ، ص 18 .

(3) لقمان ، 31 ، 32 .

﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لزوالِ ما ينازعُ الفطرةَ من الهَوَىٰ والتَّقليدِ بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائدِ . ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي : مقيمٌ علىٰ القصدِ السويِّ الذي هو التَّوحيدُ ، أو متوسطٌ في الكُفر لانزجارِه في الجُملةِ . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدَّارٍ ؛ فإنَّه نقضٌ للعهدِ الفطريِّ ، أو رفضٌ لما كان في البحرِ . والخترُ : أشدُّ الغدرِ ، وأقبحُه . ﴿ كَفُورٍ ﴾ مبالغٌ في كفرانِ نعمِ ٱلله تعالىٰ (1) .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي : فيما ذُكر من قصَّتهم . ﴿ لَأَيَٰتٍ ﴾ معجزات عظيمةً . ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : شأنه الصَّبرُ عن الشَّهواتِ ، ودواعي الهَوَىٰ ، وعلىٰ مشاقِّ الطَّاعاتِ ، والشُّكرُ علىٰ النِّعمِ . وتخصيصُ هٰؤلاء بذلك ؛ لأنهم المُنتفعون بها (2) .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ كلُّ صبور علىٰ أمر ٱلله . ﴿ شَكُورٍ ﴾ لله تعالىٰ في جميع الأحوال وعلىٰ كل النعم (3) .

والإيمان نصفان : نصف صَبْر ، ونصف شُكْر ، لا ينزل هٰذه المنزلة إلا المؤمن الذي ارتضاه ٱلله للخلافة ، وذلك الخير كله ؛ وفي ذلك يقول الخليفة الأمثل السراج المنير والهادي إلىٰ الطريق المستقيم سيدنا محمد ﷺ .

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، لَيسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، وَكَانَ خَيْراً ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، وَكَانَ خَيْراً » (4) .

وفي الحديث أيضاً : « وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَدْعُو بِهِنَّ فِي

---

(1) تفسير أبي السعود ، ج 5 ، ص 303 .
(2) تفسير أبي السعود ، ج 5 ، ص 369 .
(3) تفسير مقاتل ، ج3 ، ص 210 .
(4) مسند أحمد ، ج 38 ، ص 401

صَلاتِنَا أَوْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلاَتِنَا : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ ، وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا ، وَلِسَانًا صَادِقًا ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ! » (1)

حَدَّثَنَا عَبْد ٱللهِ ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ مَوْلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو وَكِيعٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عَلَىٰ هَذِهِ الأَعْوَادِ أَوْ عَلَىٰ هَـٰذَا الْمِنْبَرِ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ ؛ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ ؛ لَمْ يَشْكُرْ ٱللهَ ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ ٱللهِ شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ » (2) .

(صبَّار) مبالغ في الصبر علىٰ طاعة ٱلله وعلىٰ البلايا (شكور) مبالغ في الشكر علىٰ النعم والعطايا كأنه قال : لكل مؤمن كامل ؛ إذ الإيمان نصفان : نصفه صبر ، ونصفه شكر (3) .

وقال عبد الرحمـٰن بن زيد بن أسلم : « لينظر العبدُ في نعم ٱلله عليه في بدنه ، وسمعه ، وبصرِه ، ويديه ، ورجليه ، وغير ذلك ، ليس من هـٰذا شيءٌ إلاَّ وفيه نعمةٌ من ٱلله ـ عز وجل ـ ، حقٌّ علىٰ العبد أنْ يعملَ بالنِّعم التي في بدنه لله ـ عز وجل ـ في طاعته ، ونعمة أخرىٰ في الرزق ، حق عليه أنْ يعمل لله ـ عز وجل ـ ، فمن عمل بهـٰذا ؛ كان قد أخذ بحزم الشُّكر ، وأصله ، وفرعه » (4) .

ورأىٰ الحسن رجلاً يتبختر في مشيته ، فقال : للهِ في كُلِّ عُضوٍ منه نعمة ، اللهمَّ لا تجعلنا ممَّن يتقوَّىٰ بنعمك علىٰ معصيتك !

---

(1) مسند أحمد ، ج 34 ، ص 497 .
(2) مسند أحمد ، ج 37 ، ص 403 .
(3) تفسير حقي ـ ج 6 ص 300 .
(4) جامع العلوم والحكم ، ج 27 ، ص 20 .

والشكر المستحبُّ هو أنْ يعملَ العبدُ بعد أداءِ الفرائض ، واجتنابِ المحارم بنوافل الطَّاعات ، وهـٰذه درجةُ السَّابقين المقرَّبين ، وهي التي أرشد إليها النَّبيُّ ﷺ ، وكذلك كان النَّبيُّ ﷺ يجتهد في الصَّلاة ، ويقوم حتَّىٰ تتفطَّر قدماه ، فإذا قيل له : أتفعلُ هـٰذا ؛ وقد غَفَرَ ٱلله لك ما تقدَّم من ذنبك ، وما تأخر ؟ ! فيقول : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ؟ ! » (1) .

والله ما خلقنا ليعذبنا فإنَّ عذابنا لا ينفعه ، ولا يضره ، ولـٰكننا بالشكر له ، وبالإيمان به يشكر ٱلله لنا بمغفرته ، وحسن ثوابه ، والشكر يحتاج إليه العبد ؛ لأنه بالشكر يأمن غضب ٱلله ، وعذابه ، ويزيده من واسع فضله ؛ والله غني عن شكرنا ، ولا يفيده ذلك الشكر ، ولا يزيد في ملكه شيء ، ولا ينقص من ملكه شيء بعدم الشكر ، لـٰكن ٱلله تعالىٰ يقابل الشكر بالشكر ، والثواب الجزيل (2) . يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أيتشفىٰ به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ، أم يستجلب به نفعاً ، أم يستدفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم وهو الغنيّ الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك . وإنما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء ، فإن قمتم بشكره علىٰ نعمته ، وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا ﴾ مثيباً موفياً أجوركم ﴿ عَلِيمًا ﴾ بحق شكركم وإيمانكم . فإن قلت : لم قدم الشكر علىٰ الإيمان ؟ قلت : لأن العاقل ينظر إلىٰ ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه ، وتعريضه للمنافع ، فيشكر شكراً مبهماً ، فإذا انتهىٰ به النظر إلىٰ معرفة المنعم ؛ آمن به ، ثم شكر شكراً مفصلاً (3) . فكان الشكر متقدماً علىٰ الإيمان ، وكأنه أصل التكليف ، ومداره .

---

(1) تفسير حقي ج6 ، ص 300 .

(2) المصدر السابق ، ج 1 ص 167 .

(3) الكشاف ، ج 1 ، ص 482 .

ومن فضل الشكر الرحمة والمغفرة ومنح الذرية وإن انتفت أسبابها ، وذلك كما حدث مع نبي ٱلله زكريا ، عليه الصلاة والسلام . قال تعالىٰ : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ (1) . فقيل : إنه صام عن الكلام إلا الشكر لله ، عزَّ وجل ، وحبس لسانه عن كلام الناس ليخلص في هـٰذه المدَّة لذكر ٱلله ، ولا يشغل لسانه بغيره ، توفراً منه علىٰ قضاء حقِّ تلك النعمة الجسيمة ، وشكرها الذي طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر (2) .

وعن الشكر بين المهاجرين والأنصار وتوجيه النبي ﷺ لهم حتىٰ يكونوا قدوة في الشكر : عن أنس بن مالك ؛ قال : قال المهاجرون : يا رسول ٱلله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليلٍ ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنة ، حتىٰ لقد خشينا أن قد ذهبوا بالأجر كلِّه . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم لهم » . قال أبو بكر : فَلَو كانَ يَستَغني عَنِ الشُّكرِ ماجِدٌ . . . لِعِزَةِ مُلكٍ ، أَو عُلُوِّ مَكانِ ؛ لَما أَمَرَ ٱللهُ العِبادَ بِشُكرِهِ . . . فَقالَ : اشكُروا لي أَيُّها الثَقلانِ . و عن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي ٱلله عنه : أنه قال لجليس له يوماً : اشكر المنعم عليك ، وأنعم علىٰ الشاكر لك ، فإنه لا نفاد للنعم ؛ إذا

(1) آل عمران ، 38ـ41 .
(2) السابق ، ج1 ، ص274 .

شكرت ، ولا بقاء لها ؛ إذا كفرت ، والشكر زيادة في النعم ، وأمانٌ من الغِير » [1] .

هـٰكذا تنقلنا بين الاسم الشكور علىٰ الخالق سبحانه وتعالىٰ ، وعلىٰ المخلوق الذي يفترض فيه التفاني في الشكر ليصل إلىٰ مرتبة الشكورية لينعم ٱلله عليه بالتجلِّي بالاسم الشكور الذي فيه توفية العبد لما قدم من عمل وزيادة تليق برب العالمين وليكون أهلا للخلافة في الأرض .

اللهُمَّ أجعلنا من الحامدين الشاكرين الذين يقولون الحق ، ويعملون عليه ، ويعملون به ، ويجتنبون الباطل ، ويعملون علىٰ إزهاقه ، ويصلحون في الأرض ، ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق ، واستغفر ٱلله العظيم عن أية مخالفة ، أو خطأ ، أو ذنبٍ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

اللهُمَّ لك الحمد والشكر علىٰ ما خلقت وأنعمت وحفظت وهيمنت ورحمت وعفوت وسلَّمت من الشرور والأضرار ومن الحاجة والفاقة ومن الألم والعناء يا خالق الأرض والسمـٰوات العُلَىٰ وما بينهما وما تحت الثرىٰ !

اللهُمَّ لك الشكر علىٰ خلقك وإحيائك وإماتتك وبعثك لنا مسلمين مؤمنين بك واحداً أحداً لا شريك لك سبحانك جل جلالك !

اللهُمَّ لك الشكر علىٰ خلقك للجنة والنار ليكون الفوز للمتقين بالجنة ، وتكون لهم عقبىٰ الدار : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [2] .

---

(1) فضيلة الشكر لله علىٰ نعمته ، ج 1 ص 9 .
(2) الرعد 23ـ25 .

اللهُمَّ يا الشكور إننا نشكرك علىٰ استخلافك لنا في الأرض ونشكرك لخلقك لنا في أحسن تقويم ، ونشكرك علىٰ أمرك لنا بطاعة الوالدين في غير معصيتك ، ونشكرك علىٰ وحدانيتك واحداً أحداً لا شريك لك ، ونشكرك علىٰ كل ما فرضت لنا وفرضت علينا ، إنك أنت الشكور فلا تجعلنا جاحدين نعمك !

اللهُمَّ يا من تفضَّلت علينا بالكثير تفضَّل علينا بنعمة شكرك ؛ لأنه ما من فضلٍ أصابنا إلا منك ، واجعل شكرنا في الضرَّاء والسرَّاء علىٰ السواء ، فلا نطلب شكر سواك ، بل نطلب رضاك عنا !

اللهُمَّ اجعلنا شاكرين لك ولآبائنا كما أمرتنا في كتابك الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] .

---

(1) لقمان 14 .

العَلِيُّ جلّ جلاله

العلـي : « هـو الـذي لا رتبـة فـوق رتبتـه ، وجميـع المـراتـب منحطـة عنه » [1] .

الْعَلِيِّ : « إِنَّهُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ فِيمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ مَعَالِي الْجَلالِ أَحَدٌ ، وَلا مَعَهُ مَنْ يَكُونُ الْعُلُوُّ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، لَـٰكِنَّهُ الْعَلِيُّ بِالإِطْلاقِ » [2] .

حتىٰ نستطيع أن نستجلي بعضاً من ملامح الاسم العلي علينا أن نستكشف اللغة وما فيها حول الاسم من معانٍ لنتعرف علىٰ ثلاث مراتب للاسم هي :

ـ **المـرتبـة الأولـىٰ** : ٱلله بـوصفـه العلـيُّ فـي الأصـل ومـا دونـه العلـيُّ بالإضافة .

ـ **المرتبة الثانية** : ما يخص الخليفة وهو العليُّ بالإضافة . وفي هـٰذه المرتبة يندرج الأنبياء ، ومن سار علىٰ نهجهم الذين تواضعوا لله ، فرفعهم ٱلله ، وألبسهم ثوب العليِّ .

ـ **المرتبة الثالثة** : تخصُّ الأشقياء المتكبرين الذين أرادوا أن يتصفوا بهـٰذا الوصف بالتجبُّر ، والبغي ، والقهر ، والظلم ، فقسمهم ٱلله ، ولعنهم ، وطردهم من رحمته .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 106 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 54 .

الْعَلِيُّ لغَةً : من أسمائه تعالىٰ العليُّ ، فالعليُّ الذي ليس فوقه شيء ، وعلا الخلقَ ، فقهرهم بقدرته ، ويكون بمعنىٰ العالي ؛ الذي لا يعلوه أحدٌ سبحانه فوق كل شيء !

فالعليُّ من حيث المعنىٰ : يتضمَّن الأعلىٰ والعالي فهو يفوقهما ؛ لأنه ليس هناك من صفة تدل علىٰ الرفعة والعلو المتناهي إلا العليُّ .

وٱللهُ ـ عز وجل ـ هو العَليُّ تَعالىٰ عَمَّا يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً ، والعلي هو الذي يُدرَك عقلاً ومعرفة ولا يُرىٰ بالأبصار ، وذلك لتناهيه في العلو ، والرفعة ، ومع أنه لا مثيل له في شيء ، إلا أنَّ صفات علوِّه تستمدُّ ويستخلف بها في الأرض ، ويُورَّث بها في الجنة ، ولذا فمن يستمدُّ صفاته منه لا يدخل النار أبداً .

والعليُّ لغةً : مصدر لكل علوٍّ ، وهو ما يدلُّ علىٰ الرفعة في القول والفعل ، وهو علىٰ كل شيءٍ قدير ، ولذا فهو الفعَّال لما يُريد . فالعليُّ الذي ليس فوقه شيء ، وعلا الخلق فقهرهم بقدرته ، ويكون بمعنىٰ العالي ، والأعلىٰ الذي هو أعلىٰ من كل عالٍ .

والعليُّ بالإضافة : هو المستخلف بعلوِّه في الأرض عن كل نقيصةٍ قولية ، أو فعلية ، وذلك باتباع ما أمر به العلي المطلق ، والانتهاء عما نهىٰ عنه إيماناً تاماً وقصداً واضحاً لا يصاحبه تردد ولا شك . وهو المصلح في الأرض ، الممتنع عن الفساد ، وسفك الدماء فيها بغير حق ، ويجاهد بنفسه في سبيل إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل . ولذلك فمن يعلو في الأرض بغير ذلك ؛ طغىٰ وتكبر ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [1] .

---

(1) الإسراء 4 .

قال الأزهري في تفسيره للصفات الحسان : سبحانه يَقْرُب بعضُها من بعض ، فالعَلِيُّ الشريف من : عَلا يَعْلُو ، وهو بمعنىٰ العالِي ، وهو الذي ليس فوقه شيء ويقال : هو الذي عَلا الخلقَ ، فَقَهَرهم بقدرته [1] .

ويكون العُلىٰ جمع الاسم : الأَعْلىٰ ، وصفةُ ٱلله العُلْيا شهادةُ أَنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، فهـٰذه أَعلىٰ الصفات ، ولا يوصف بها غير ٱلله وحده لا شريك له ، ولم يزل ٱلله عَلِيّاً عالياً متعالياً ، تعالىٰ ٱللهُ عن إِلحاد المُلْحِدِين ، وهو العَلِيُّ العظيم [2] .

والعُلُوُّ : العَظَمة والتَّجبُّر ، قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [3] . ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ﴾ إشارة للجنة ، وفخامتها ، وعظمتها التي سيرثها بالحق الخلفاء في الأرض ، وهم الذين يريدون العلو في الجنة ولا يريدون علوّاً في الأرض ، وذلك لأن العلو في الجنة لا يتحقق إلا بطاعة تامة وتواضع في الأرض ، ولهـٰذا فمن تواضع لله رفعه ، ومن أفسد فيها لا ينال جزاءً ولا شكوراً . قال تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ

---

(1) تاج العروس ، ج 1 ، ص 8508 .
(2) لسان العرب ، ج 15 ، ص 83 .
(3) القصص ، 83 ، 84 .

﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] . ولهٰذا فالعاقبة للمتقين الذين آمنوا ، ولم يشركوا ، وانتهوا ، فتابوا ، وهم الذين استثناهم ٱلله تعالىٰ من العقاب والعذاب فغفر لهم ، ورحمهم بواسع فضله ، وفي مقابل ذلك لا ينال عهدُ ٱلله الظالمين : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] . يفهم من هٰذه الآية الكريمة : أن الظلم هو الاستثناء ، والعدل هو القاعدة ، والحمد لله رب العالمين ! ولذا ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [3] .

وعليه : فالله عليٌّ ، فيغفر ، ويرحم ، ويكفِّر عن السيئات ، ويجازي بالجنة ، فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فهو العادل في ملكه سبحانه جل جلاله ، ولذا فالذين لا يريدون علوّاً في الأرض هم الخلفاء فيها بالصفات الآتية :

1 ـ **الإيمان** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [5] وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [6] .

---

(1) المائدة 32ـ34 .
(2) البقرة 124 .
(3) القصص 84 .
(4) النساء ، 57 .
(5) النساء 124 .
(6) الإسراء 19 .

2 ـ **الإصلاح** : قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحِۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (2) .

3 ـ **العدل** : قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٖ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٖ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ (4) . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ (5) .

4 ـ **الأمر بالمعروف** : قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٞۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (6) ، وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٞ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (7) .

---

(1) البقرة ، 82 .
(2) النساء ، 114ـ116 .
(3) البقرة ، 48 .
(4) الأنعام 70 .
(5) النساء ، 58 .
(6) البقرة ، 178 .
(7) آل عمران 104 .

5 ـ **النهي عن المنكر** . قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [2] وقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [3] .

6 ـ **إحقاق الحق** : قال تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [6] . وقال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [7] .

7 ـ **إزهاق الباطل** . قال تعالىٰ : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [8] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [9] .

---

(1) الأعراف 165 .
(2) آل عمران ، 110 .
(3) الحج ، 41 .
(4) الكهف ، 88 .
(5) البقرة ، 42 .
(6) سبأ ، 49 .
(7) الأنفال ، 7 ، 8 .
(8) الأنبياء ، 18 .
(9) الإسراء ، 81 .

8 ـ **الإقدام على ما يجب في مرضاة ٱلله** : قال تعالىٰ : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [2] .

9 ـ **الانتهاء عما يجب الانتهاء عنه طاعة لله** : قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [4] .

10 ـ الإيفاء بعهد ٱلله : قال تعالىٰ : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [5] وقال تعالىٰ : ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [6] .

11 ـ **الاتقاء** : قال تعالىٰ : ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ

---

(1) النساء ، 85 .
(2) الليل ، 17ـ21 .
(3) المائدة ، 91 ، 92 .
(4) النحل ، 90 .
(5) النحل ، 91 .
(6) الرعد ، 19ـ22 .

لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [2] .

12 ـ **الاهتداء** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [5] .

13 ـ **الإحسان** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [6] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [7] .

---

(1) النحل ، 30 ، 31 .
(2) الرعد 28 .
(3) الأنعام ، 82 ، 83 .
(4) يونس ، 108 .
(5) الإسراء ، 15 .
(6) يونس ، 26 .
(7) الإسراء ، 23 ـ 24 .

وفي مقابل ذلك المتعالون والمفسدون في الأرض هم :

1 ـ **الكفرة الفجرة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) .

2 ـ **سافكو الدماء فيها بغير حق** : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

3 ـ **المفسدون في الأرض** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

---

(1) عبس ، 40 ـ 42 .

(2) النساء ، 151 ـ 152 .

(3) آل عمران ، 21 ـ 22 .

(4) البقرة ، 30 .

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [1] .

4 ـ **العتاة المتكبرون** : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [3] .

5 ـ **الظلمة** : قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [5] .

6 ـ **المسيئون** : قال تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [6] وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [7] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [8] .

7 ـ **العصاة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا

(1) البقرة ، 8ـ16 .
(2) الأعراف ، 165 ، 166 .
(3) النحل ، 29 .
(4) الكهف ، 87 .
(5) الطلاق ، 1 .
(6) البقرة ، 81 .
(7) يونس ، 27 .
(8) الأنعام ، 31

عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (2) .

8 ـ **المغرورون** : قال تعالىٰ : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (5) .

9 ـ **العاجلون** : قال تعالىٰ : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ (7) .

10 ـ **المتفرقون والمختلفون من بعد البينات** : قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكُونُواْ

---

(1) البقرة ، 61 .
(2) آل عمران 112 .
(3) الأنعام 70 .
(4) فاطر 5 .
(5) الحديد ، 14 ، 15 .
(6) الإسراء 18 .
(7) مريم ، 83 ، 84 .

كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (3) .

11 ـ **ناقضو العهد** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ (5) .

12 ـ **ناقضو الأيمان بعد توكيدها** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ (7) .

---

(1) آل عمران 105 .
(2) الشورىٰ 14 .
(3) البقرة ، 113 ، 114 .
(4) البقرة ، 27 .
(5) الرعد ، 25 .
(6) النحل ، 91 .
(7) آل عمران ، 167 .

13 ـ **المنافقون** : قال تعالىٰ : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] جاءت خاتمة هـٰذه الآية الكريمة بقوله عز وجل : ﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وكأن هـٰذه إجابة علىٰ تساؤل ضمني مفاده من هو ٱلله ؟

هو العلي العظيم .

ـ من هو الذي لا إلـٰه إلا هو ؟

هو العلي العظيم .

ـ من هو الحي القيوم ؟

هو العلي العظيم .

ـ من الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ؟

هو العلي العظيم .

ـ من الذي له ما في السمـٰوات وما في الأرض ؟

---

(1) النساء ، 138 ، 139 .

(2) النساء ، 142 ، 143 .

(3) البقرة 255 .

العلي العظيم .

ـ من ذا الذي لا يُشفِع عنده إلا بإذنه ؟

العلي العظيم .

من ذا الذي يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ؟

العلي العظيم .

ـ من ذا الذي لاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ ؟

العلي العظيم .

ـ من ذا الذي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ؟

العلي العظيم .

ـ من ذا الذي لاَ يَؤودُهُ حِفْظُهُمَا ؟

العلي العظيم .

ـ ومن هو العلي العظيم ؟

هو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . ولذا هو هو ، لا إلـٰه إلا هو جل جلاله .

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ ﴾ أي : نعاس ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ؛ لأن السِّنة والنوم ، إنما يعرضان للمخلوق ، الذي يعتريه الضعف ، والعجز ، والانحلال ، ولا يعرضان لذي العظمة ، والكبرياء ، والجلال .

أنه مالك جميع ما في السمـٰوات والأرض ، فكلُّهم عبيد لله مماليك ، لا يخرج أحد منهم عن هـٰذا الطور ، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ فهو المالك لجميع الممالك ، وهو الذي له صفات الملك والتصرف ، والسلطان ، والكبرياء .

ومن تمام ملكه : أنه لا ﴿ يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ ﴾ أحد ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك ، لا يقدمون علىٰ شفاعة حتىٰ يأذن لهم . ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضىٰ ، ولا يرتضي إلا توحيده ، وإتباع رسله ، فمن لم يتصف بهٰذا ، فليس له في الشفاعة نصيب .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق ، من الأمور المستقبلة ، التي لا نهاية لها . ﴿ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها ، وأنه لا تخفىٰ عليه خافية : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ .

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم ٱلله . ﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ منها ، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جدًّا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته ، كما قال أعلم الخلق به ، وهم الرسل والملائكة : ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

ثم أخبر عن عظمته وجلاله ، وأن كرسيه ، وسع السمٰوات والأرض ، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات ، التي جعلها ٱلله في المخلوقات .

ومع ذلك ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي : يثقله حفظهما ، لكمال عظمته ، واقتداره ، وسعة حكمته في أحكامه .

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ بذاته ، علىٰ جميع مخلوقاته ، وهو العلي بعظمة صفاته ، وهو العلي الذي قهر المخلوقات ، ودانت له الموجودات ، وخضعت له الصعاب ، وذلت له الرقاب .

﴿ٱلْعَظِيمُ ﴾ الجامع ، لجميع صفات العظمة والكبرياء والكمال ، والمجد والبهاء ، الذي تحبه القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون : أنَّ عظمة كل شيء ؛ وإن جلت عن الصفة ؛ فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم .

ثم نجد : أن هناك فريقين من الناس :

الأول : الذي سار في طاعة ٱلله ، وهم الأنبياء والرسل ، والصالحون والأولياء الذين تولوا ٱلله ورسله ، وهـٰؤلاء تتحقق فيهم وبهم الخلافة التي أنزل ٱلله آدم وذريته الأرض بسببها . وهـٰذا الفريق يتواضع للعلي العظيم في الدنيا ، فيرفع ٱلله قدرهم في الدنيا ، والآخرة .

الثاني : الذي سار في طريق المعصية والعلو علي الأمر الإلـٰهي والتكبُّر علىٰ الخلق البسطاء بقهرهم وبسط النفوذ الكاذب عليهم وإرهابهم لمنازعة ٱلله في صفة لا تحق إلا لله وهي العلوُّ ، والكِبْر .

لذلك فإَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ تَوَاضَعَ للهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ ٱللهُ دَرَجَةً حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَىٰ ٱللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ ٱللهُ دَرَجَةً حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ » (1) .

فالفريق الأول ؛ فريق الحق . أي : فريق الخلافة ؛ الذي يتواضع لله وفي ٱلله ولله ، ويعلو بالله و لله ، فإن يتولَّ الملك ؛ يعدلْ ، وإن حاز المال ؛ أنفق ، وإن تولىٰ القضاء ؛ أنصف ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويقذف ٱلله بالحق علىٰ الباطل فيدمغه ويزهقه من خلال الخليفة الذي يعلو بالحق للحق ؛ ليقهر الباطل ويمحقه ويزيله .

وهـٰذا ما فعله النبي ﷺ في فتح مكة فلما أعلاه ٱلله ، وأعزه ، وقذف به

---

(1) مسند أحمد ، ج 23 ، ص 344 .

علىٰ جحافل الكبر والشر ؛ أزال رموز الجهل والاستعباد التي لا تنفع ولا تضر فقد جاء في السيرة : عن ابن عمر : « أن رسول ٱلله ﷺ لما دخل مكة وجد بها ثلاثمئة وستين صنماً ، فأشار إلىٰ كل صنم بعصا ، وقال : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » فكان لا يشير إلىٰ صنم إلا ويسقط من غير أن يمسَّه بعصاه » (1) .

لذا فالخليفة منوط به أن يعلي الحق ، ويظهره ، وأن يقهر الباطل ويقبره ، وأن يحطم أصناماً ظهرت في هـٰذا العصر من جهل ، وتخلف ، وتبعية ، وعبودية ، وذلك بنشر العلم والمعرفة فهما حق طبيعي لكلِّ إنسان ، وأن يُحرِّض الآخرين علي تولي المسؤولية بعزة وشرف ، وأن يزرع في نفوسهم ؛ أنهم سادة ، وما استعُبدوا إلا لأنهم رضوا بالذل طوعاً ، وكما أن الملك لله لذا فالإنسان خليفته وعليه أن يضع فوق رأسه تاجاً من العزة والكرامة ، ولا ينحني إلا لله صاحب العزة والعلو والسلطان الذي لا يزول ، ومن يقوم بهـٰذا الدور ؛ فقد أحيا الخلافة للاسم العلي في نفسه ، وفي الآخرين .

وٱلله أعلىٰ وأكبر وأجل وأعظم ، فهو غني عن خلقه حتىٰ بإظهار علوِّه عليهم ، لأنه عليٌّ في ذاته وقد عرف هـٰذا العلو العارفون به المتحقِّقُون : أن جلاله يملأ قلوبهم ، فيظهر أثر ذلك الجلال تواضعاً له في خلقه .

وعليه : فعلىٰ الخليفة أن يسبح باسم ٱلله العلي العظيم الذي يحيطه بالعناية ويحفظه من كل شيء ضارٍّ ، أو مخيف . ولأنه جل جلاله هو العلي العظيم قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ

(1) السيرة النبوية لابن كثير ، ج 3 ، ص 572 .

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

والعلو بالقهر كما سبق أن بينا يكون بالغلبة ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

والعلو بالجبروت وبالتفرد بالملك في الدنيا والآخرة ، ومن ينازعه في ملكه وفي صفاته الذاتية يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ويقسمه ، ولا يبالىٰ به .

والخليفة المتحقق بنور العلي يقهر المتغطرسين المتكبرين ، ويقهر كذلك أذيالهم الداعين بدعوتهم المبشرين بفسادهم وكسادهم ؛ الذين يستعلون بالمال أو السلطة أو الجاه ، ولا يعرفون أن العلي هو الذي علىٰ كل شيء قدير .

والعلي ذو المكانة التي لا تطال ، والقدرة التي لا تغفل ، ولا تبطل ، بيده القوة التي بها يملك كل شيء ، ويقهر ويسيطر علىٰ كل شيء سبحانه لا إلـٰه إلا هو جل جلاله . وله ملك لا ينازعه فيه أحد من خلقه حتىٰ ولو بالمعصية ، كإبليس ، وجنوده ، و أتباعه ، وأعوانه ، ومن سار علىٰ الغي والضلال والكبر والعلو في الأرض بغير الحق ، كفرعون ، وقارون ، وهامان ، ومن قلدهم ، وانتهج نهجهم ، ولم يرضوا أن يكونوا خلفاء لله ،

---

(1) البقرة ، 30 ـ 37 .
(2) آل عمران 160 .

ورضوا أن يكونوا خلفاء لإبليس ، وصدَّق إبليس عليهم ظنَّه ، فأضلهم ، وأوردهم إلىٰ النار وبئس المصير !

والعلي هو العلي عن النظير والأشباه ، صاحب الرفعة العالية والمكانة العالية المستوي علىٰ العرش مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [1] ، بطبيعة الحال بما أن كرسيه وسع السمٰوات والأرض وذلك لعظمة الكرسي ، فما بالك بصاحب الكرسي (خالق الكرسي) ألا يكون بحق هو الملك المتعال وهو العلي العظيم ؟

و(استوىٰ) تعني : سيطر بالتمام والكمال ، ولذا فنرىٰ أن العلو بالقهر والغلبة وليس بالمكان ، تعالىٰ ٱلله علىٰ ذلك علواً كبيراً ، فالعرش ، والكرسي من خلقه ، وهما يحيطان بالكون والله من وراء الكل محيط فهو في كل مكان وزمان بكيفية لا يعلمها إلا هو جل وعلا .

﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء ، وهو علىٰ اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر . و﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، قال ابن الرقاع العاملي :

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ   فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

أي : لا يأخذه نعاس ، ولا نوم ، وهو تأكيد للقيوم ؛ لأنّ من جاز عليه ذلك ؛ استحال أن يكون قيوماً .

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ ﴾ بيان لملكوته وكبريائه . وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام ، كقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ

(1) طه ، 4ـ6 .

ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[1] .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يعلم ما يظهرونه وما لا يظهرونه وما يعلمون به وما لا يعلمون ، وما كان قبلهم وما هم عليه وما سيكون من بعدهم . والضمير لما في السمـٰوات والأرض ؛ لأنّ فيهم العقلاء ، أو لما دل عليه ﴿ مَن ذَا ﴾ من الملائكة والأنبياء ﴿ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ الذي لا يعلمه إلا هو العلي العظيم ﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ إلا بما هو يريد ويعلم وهو العليم الخبير .

(الكرسي) مكان المكانة العلية ، وفي قوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنَّ كرسيه لم يضق عن احتواء واستيعاب السموات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمته الفائقة لكل عظمة .

الثاني : وسع علمه . وسمي العلم كرسياً تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم الكوني .

الثالث : وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك .

والرابع : الكرسي هو المقام العظيم والعرش الرفيع .

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ ولا يثقله ، ولا يشق عليه . ﴿ حِفْظُهُمَا ﴾ حفظ السموات والأرض . ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ الشأن والمكانة ﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا يماثله شيء في الصفات والأفعال .

وعليه ، فإن قلت : كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف ؟ قلت : ما منها جملة إلا وهي واردة علىٰ سبيل البيان لما ترتبت عليه ، والبيان متحد بالمبين ، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول

(1) النبأ 38ـ40 .

العرب : بين العصا ولحائها ، فالأولىٰ بيان لقيامه بتدبير الخلق ، وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه . والثانية لكونه مالكاً لما يدبره . والثالثة لكبرياء شأنه . والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق ، وعلمه بالمرتضىٰ منهم المستوجب للشفاعة ، وغير المرتضىٰ . والخامسة لسعة علمه ، وتعلقه بالمعلومات كلها ، أو لجلاله وعظم قدره [1] .

﴿ٱلْعَلِيُّ ﴾ الغالب الذي لا يغلب ، واسْتَعْلَىٰ علىٰ الناس : غَلَبَهم وقَهَـرَهُـم وعَـلاهُـم قـال تعـالـىٰ : ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ ، والاستعلاء : فوز بقوة المغالبة ، ولأن العلي مطلق القوة ؛ فهو سيجعل خليفته في حالة استعلاء بالإضافة ، ولهـٰذا من يتوكل علىٰ ٱلله فهو حسبه .

وفي حديث أُحدٍ قال أَبو سفيان لمَّا انْهزَم المسلمون ، وظَهر المشركون عليهـم : « اعـل هبـل . فقـال عمـر بـن الخطـاب : ٱلله أعلـىٰ وأجـل ، فقال : أنعمت عينا ، قتل بقتلىٰ بدر ، فقال عمر : لا يستوي القتلىٰ ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، فقال أبو سفيان : لقد خبنا إذاً : ثم انصرفوا راجعين » [2] .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنْ الْمَسْأَلَةِ : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَىٰ وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ وَالسُّفْلَىٰ هِيَ السَّائِلَةُ » [3] . واليد العليا هي اليد النظيفة التي تتصدق وتعمل صالحاً ، فتصلح ، ولا تفسد ، تتضرع لله ولا تتضرع للعباد ، أما اليد السفلىٰ فهي التي تتقدم لأداء الأعمال والأفعال المشينة التي لا تليق بمن يراد له أن يكون خليفة في الأرض ، ولهـٰذا فيد الخليفة هي اليد العليا ، ويد

(1) الكشاف ، ج 1 ، ص 225 .
(2) مصنف عبد الرزاق ، ج 5 ، ص 366 .
(3) موطأ مالك ، ج 6 ، ص 156 .

المفسد وسافك الدماء فيها بغير حق دائماً هي اليد السفلىٰ . وفي هـٰذا الحديث ارتبطت اليد العليا بما تنفق ، وتتصدق ، وتتزكىٰ ، واليد السفلىٰ بالسائلة ، وعليه فالعمل خير ، فعلىٰ الخليفة أن يعمل ويعمل كل الخير ما استطاع إليه سبيلاً ، واليد السفلىٰ بشكل عام هي من تُقدِم علىٰ الأفعال المحرَّمة ، والمنهي عنها ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ (2) . والأبرار : جمع برٍّ ، وهم الذين برُّوا ٱلله بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه .

---

(1) المائدة 90 ـ 95 .

(2) المطففين ، 18 ـ 34 .

﴿ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ الأوحد ؛ لأنه الإلـه الأحد لا إلـه غيره علا خلقه بعلوه ، وقهرهم بعظمته وقوته ، فلا يدانيه ، ولا يساويه في علوه أحد . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ (1) .

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ ، لم يكن له نظير ، ولا شريك ، ولا مثيل ، ولا يقارن بأحد ، فهو واحدٌ أحدٌ ، لا يتعدَّد ، وهو خالق العداد .

ولذا فهو العلي ؛ لأنه الواحد الذي لا ثاني له يشاركه في ملكه ، ولأنه سبحانه قد أبدع الملك بغير مثال سابق دون عون من أحد ، فهو العلي بقدرته وإبداعه ؛ لذا فلا يستطيع أيُّ مدعٍ للربوبية أن ينسب لنفسه أو إلىٰ غيره خلق السموات والأرض وما بينهما ؛ لأن الجميع يعلمون : أنه العلي الأوحد الذي خلق الخلق . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (2) .

ويقول تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٥ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٦ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٢٧ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ (3) .

---

(1) الإخلاص . 1ـ 5 .

(2) العنكبوت ، 61ـ 63 .

(3) لقمان 25ـ 28 .

لهـٰذا فلا عليٌّ بحق إلا ٱلله ؛ لأنه خالق السموات والأرض الرازق الباسط الذي ينزل المطر بقدر وبقدرة ولا يفعل ذلك إلا العليُّ .

ولأنه (الصمد) : فهو العلي المقصود في الحوائج ، والكل يحتاج إليه ، وهو العليُّ لا يحتاج إلىٰ أحد .

و(الصَّمدُ) بمَعْنَىٰ : مَنْ يُصْمَدُ إليهِ إذَا قَصَدَهُ أيْ هُوَ السيدُ المصمودُ إليهِ في الحوائجِ المُسْتغني بذاتِهِ وَكُلُّ ما عداهُ محتاجٌ إليهِ في جميعِ حاجياتِهِ . وقيلَ : الصمدُ الدائمُ الباقِي الذي لَمْ يزلْ ، وَلاَ يزالُ . وقيلَ الذي يفعلُ مَا يشاءُ ، ويَحكمُ مَا يريدُ .

وصمـديتَـهُ المقتضيـةَ لاستغنـائِـهِ الـذاتِـيِّ عَمَّـا سـواهُ ، وافتقـارِ جميـعِ المخلوقاتِ إليهِ في وجودِهَا وبقائِهَا وسائرِ أحوالِهَا (1) .

و ﴿ لَمۡ يَـلِدۡ ﴾ : لأنه لم يكن من المخلوقين فالذي يخلق لا يلد ، الذي يلد هو الذي لا يستطيع أن يخلق ، وهو يُخلق ، ولذا فهو العليُّ بقدرته المستغني بذاته عن الولد ، فهو لم يلد ولم يولد .

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ : الكل يعطش ويجوع ويحتاج ويمرض ويمـوت ، وهـو الحـي الـذي لا يحتـاج ، ولا يجـوع ، ولا يعطـش ، ولا يمرض ، إنه الحي القيوم الذي لا تأخذه غفلة سنة ولا نوم ، ولذا فهو العلي عن الحاجة لأي أحد في الأرض أو السموات ؛ لأنه قد خلق من في الأرض والسموات والكل يعترف له بالعبودية ؛ لأنه علا الجميع ، وقهرهم بعلو قدرته وكمال عظمته .

قال الأزهري وتفسير هـٰذه الصفات سبحانه يَقْرُب بعضُها من بعض فالعَلِيُّ الشريف من عَلا يَعْلُو وهو بمعنىٰ العالِي وهو الذي ليس فوقه شيء ،

---

(1) تفسير أبي السعود ، ج 7 ، ص 68 .

ويقال : هو الذي عَلا الخلقَ ، فقَهَرهم بقدرته .

وصفـةُ ٱلله العُلْيـا شهـادةُ أَنْ لا إلـه إلا ٱلله فهـذه أَعلـىٰ الصفـات ، ولا يوصف بها غير ٱلله وحده لا شريك له ، ولم يزل ٱلله عَلِيّاً عالياً متعالياً تعالىٰ اللهُ عن إِلحاد المُلْحِدِين ، وهو العَليُّ العظيم [1] !

وتقع معاني العلو بغير حق علىٰ المفسدين الظالمين ، ومن تلك المعاني : التكبر والتجبر والقهر والبطش والاستعلاء والظلم ، ويؤيد ذلك ما ورد في كتب اللغة ومنها :

والعُلُوُّ : العظَمة والتَّجَبُّر ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] .

العُلُوُّ : التكبُّر في الأَرض . وقال الحسن : الفَسادُ : المَعاصي ، وقال مسلم : الفَسادُ : أَخذ المال بغير حق ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ جاء في التفسير : أَن معناه : طَغَىٰ في الأَرض ، يقال عَلا فلانٌ في الأرض : إذا اسْتَكْبَرَ وطَغَىٰ . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ معناه : لَتَبْغُنَّ ، ولَتَتَعَظَّمُنَّ . ويقال لكل : مُتَجَبِّر : قد عَلا ، وتَعَظَّمَ [3] .

وكل من قَهَر رجلاً ، أَو عَدُوّاً فإِنه يقال : عَلاه ، واعْتَلاه ، واسْتَعْلاه ، وعَلا فلان فلاناً : إذا قَهَرَه ، والعَليُّ : الرَّفيعُ ، وتَعالَىٰ تَرَفَّع ، واعْتَلىٰ ، واسْتَعْلىٰ : ارْتَفَعَ ، واسْتَعْلَىٰ علىٰ الناس : غَلَبَهم ، وقَهَرَهُم ، وعَلاهُم . قال ٱلله عز وجل : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [4] .

ومما سبق يتبين : أنَّ الاسم العلي من أسماء القهر والغلبة والجبر

---

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 83 .
(2) القصص ، 83 .
(3) تهـذيب اللغة ، ج 1 ، ص 371 .
(4) طه ، 64 .

والجلال أي : من أسماء العظمة والكبرياء التي اختص ٱلله بها نفسه ، ولا ينازعه فيها أحد لا نبيٌّ مرسل ، ولا ملك مقرب لأن هـٰذا الاسم من الأسماء الذاتية التي لا يشارك ٱلله فيها مخلوقٌ أيّاً كان إلا عن طريق العبودية ، والانقياد ، والإذعان ؛ لأن ٱلله هو العلي العظيم الكبير سبحانه جل جلاله !

وقد ورد الاسم العليُّ في القرآن الكريم مقترناً بالاسم (العظيم) والاسم (الكبير) ، كما ورد سبع مرات ستّاً منها معرفة ، ومرة واحدة نكرة .

وورد مع الأنبياء كصفة لمرتبة وصلوا إليها بعطاء ٱلله مثلما جاء عن سيدنا إدريس ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن ٱلله رفعه ﴿ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ وعن سيدنا إسماعيل وهبه ٱلله ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ ؛ وورد مع المفسدين بصيغ مشتقة منه مثلما ورد في قصة إبليس الذي استعلىٰ بجنسه واستكبر علىٰ الأمر الإلـٰهي فكان من المطرودين الملعونين . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (1) .

ومع أعوانه مثل قارون الذي استكبر بالمال الذي وهبه ٱلله له ، فقال في كِبْرٍ : إن هـٰذا المال قد حصل عليه من علم عنده ناسياً ، أو متناسياً : أن ٱلله وهبه العقل الذي يتحصل به علىٰ هـٰذا العلم وإن شاء حرمه منه ، وكان جزاؤه أن خسف ٱلله به وبداره الأرض ، وهنا تمنىٰ الذين رغبوا في العلوِّ الوهمي المبني علىٰ العلم الفاسد ، والمال الزائل يا ليت لنا مثل هـٰذا العلو ، أما الذين

(1) ص ، 71 ـ 83 .

آمنوا فأنذروا هـٰؤلاء المتكبرين : أن الويل لمن سار علىٰ مثل منهج قارون في العلو والغلو ، وأعلموهم بأن ثواب الآخرة للمتواضعين ، وهو خير الثواب لمن أراد الفوز بالمقام الأسمىٰ الأعلىٰ المفاض من العلي الأعلىٰ للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وأن العاقبة الحسنة والنهاية المفرحة للمتقين المتواضعين وهـٰذا جزاء الحسنة التي قدموها بعدم علوهم في الأرض ، وهـٰذا ما صوره القرآن الكريم حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

أما فرعون الذي علا بملكه ، وجحد نعمة الملك التي وهبها ٱلله له ، فحارب النبيَّ موسىٰ ، عليه الصلاة والسلام ، واتهمه بالسحر ، وجمع له السحرة ليستعلي بهم علىٰ الناس ، وعلىٰ نبي ٱلله ، وعلىٰ ٱلله بادعاء : أنه إلـٰه فكانت عاقبة أمره خيبةً ، وخسارةً ، فقسمه ٱلله . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

---

(1) القصص 78 ـ 84 .

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [1] .

إذاً فالعليُّ ٱلله وحده لا شريك له ، ومن سار وفق إرادته هم الأنبياء والصالحون الذين ارتضاهم ٱلله خلفاء في الأرض ، أما من تجبَّر ، وعصىٰ كان من المفسدين الذين ساروا علىٰ نهج إبليس في الاستعلاء بالجنس ، أو نهج قارون الذي استعلىٰ بالمال ، والعلم الذي لم يؤتَ منه إلا قليلاً ، أو نهج فرعون بالاستعلاء بالملك ، فهٰؤلاء ومن شابههم في المعصية والاستكبار والعتو لابد أن تحلَّ عليهم لعنة ٱلله .

ولأن الاستعلاء علىٰ غير حق منهيٌّ عنه ، فقد أرسل ٱلله الرسل ؛ ليحذِّروا وينذروا من هٰذا الذنب والجرم الخطير ؛ لأن الملك والعلو لله العلي في الملك والملكوت ، فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [2] .

والخليفة من عباد ٱلله المخلصين الذين لا يستكبرون بانتماء قبلي ، أو بلون ، أو جنس ، ولا بمنصب زائل ، أو بمال يميل ولا يثبت في اليد ، ولا بعلم يُتَكَبَّرُ به علىٰ الخلق ، وإنما يمتلك كل هٰذه الوسائل ليعلو بها للحق ويبطل بها الباطل ويجعل أهل الباطل من الصاغرين الأذلاء ؛ لأنهم استعلوا

---

(1) طه 57ـ64 .
(2) الأنبياء 25ـ29 .

بما ليس لهم ، وأرادوا أن يلبسوا ثوباً ليس لهم ، بل هو لله العليّ الأعلىٰ المتعالي ذو العلاء ، والكبر ، والعظمة .

والخليفة المتحقق بالا سم العلي يرفض نهج أولئك الفاسدين الذين علواً فساداً بما ليس لهم ، فالمال مال ٱلله ، والملك ملك ٱلله ، والله أعلم بأيِّ صنف من الخلق أفضل ، فالخليفة إن كان عنده المال والملك والعلم فهو يعلو بهٰذه النعم لله ، ولا يعلو بهٰذه الأدوات التي منحها ٱلله له علىٰ الخلق ، وإنما يوظفها جميعا لتحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (1) .

وكان ﷺ كما سبق أن أوضحنا يقول : « يا ٱلله يا رحمٰن » ، فقالوا : ينهانا أن نعبد إلٰهين وهو يدعو إلٰها آخر معه ، فنزل قُلْ لهم : ﴿ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ أي سموه بأيهما أو نادوه ، بأن تقولوا يا ٱلله يا رحمٰن ! ﴿ أَيًّا ﴾ شرطية ﴿ مَّا ﴾ زائدة ، أيَّ هٰذين ﴿ تَدْعُواْ ﴾ فهو حسن ، دلَّ علىٰ هٰذا ﴿ فَلَهُ ﴾ أي : لمسماهما ﴿ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهٰذان منها ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) .

إذاً فالاسم العليُّ لله ـ عز وجل ـ لا ينازعه فيه أحد من خلقه ، ومن نازعه هٰذا الاسم قسمه ٱلله ، ومن أطاع ٱلله وسار علىٰ منهجه وكان مطيعاً له تحققت فيه الخلافة التي أرادها ٱلله لبني آدم ؛ إن هم تواضعوا لله ، ومن هٰؤلاء النبي إدريس ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد رفع ٱلله قدره ، ومكانته ، قال تعالىٰ :

---

(1) الإسراء 110 .

(2) الحشر ، 23 ، 24 .

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [1] .

إدريس ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذي رفعه العلي المطلق مكاناً عليّاً ، والمكان العلي : شرف النبوّة ، والزلفىٰ عند ٱلله ، إنه مكان المكارم الشرفية التي تبوأها إدريس بالتصديق لله تعالىٰ . إذاً المكان العلي هو مكان المقامات العظام ، والمكان العلي لا يمكن أن يكون في دنيا لابد أن يكون في عليا ، وأينما تكون هـٰذه تليق بإدريس ـ عليه الصلاة والسلام ـ سواء في السماء وفي أيِّ مستوىً من مستويات السمـٰوات العلىٰ ، أو في الجنة أينما تكون الجنة .

والخليفة هو الذي يعلو عن الركون إلىٰ الأماكن الدنيا الواطية ، ويبتعد عن الأقوال المفسدة ؛ التي تفرِّق بين الزوج وزوجه ، ويبتعد عن الأعمال التي تُفسد في الأرض ، أو تُسفك الدماء فيها بغير حق ، ولذا فالخليفة دائماً في حالة اجتناب لكلِّ ما هو منهي عنه ، وهو دائماً لا يغفل فإن أخطأ ؛ استغفر ، وكفَّر عن سيئاته ، وتاب إلىٰ ٱلله ربه العلي الذي يتعالىٰ عن النقيصة والولد والصاحبة والظلم . والخليفة بنيته يتوكل علىٰ الحق حتىٰ يحقه ، ويقدم إلىٰ الظلم حتىٰ ينهيه ، ويُخلِّص العباد منه ، وهـٰكذا يُحقُّ الحقَّ ، ويُزهق الباطل وحده لا شريك له ، جل وعلا .

وعن النابغة الجعدي : أنه لما أنشد عند رسول ٱلله ﷺ الشعر بقوله :

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

قال رسول ٱلله ﷺ : « إلىٰ أينَ يا أبا لَيلَىٰ ؟ » قالَ : (إلىٰ الجنةِ) [2] .

والعلوُّ لله في الدنيا والآخرة لمن سار علىٰ النهج الذي ارتضاه بحسن الطاعة ، والتواضع لله بعدم منازعته العلوَّ والكبرياء ، فهما لله وحده ، والعلو

---

(1) مريم ، 56 ، 57 .

(2) الكشاف ، ج 4 ، ص 96 .

بالله ولله لا بالنفس والهوىٰ ، فالله لا يقبل أن ينازعه أيٌّ كان في العلوِّ والكبر .

ويتَّضح مفهوم الاسم العلي من سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب ؛ أي : أصله والكتاب محصور فيها لذلك نجد من نفحات الاسم العلي في الفاتحة منطويا في تفسير ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فلِلَّهِ الجبروت والعزة الكاملة يوم الدين وهٰذا العلو يبرز قهراً لجميع العباد ، أمّا في الدنيا ؛ فيبرز لطفاً للخلق ؛ لأنهم في دار الاختبار ، ويقصم ٱلله به الجبابرة ؛ إن تطلب الأمر ، فهو العليُّ في الدنيا ، والعليُّ في الآخرة ، ولنرىٰ من صور علوِّه يوم الدين ، وما جاء في تفسير قوله تعالىٰ في سورة الفاتحة : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : إنَّ المالك هو الذي يعود الملك إليه ، ويؤخذ منه ، وهو الذي لا يؤخذ من شيء . إن لله المُلْك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه ، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة يملكون من ملكه ، حتىٰ تناسوا قوله تعالىٰ : ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ (1) فكانت الإجابة بقوله تعالىٰ : ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (2) . هٰذه الآية الكريمة استشهاد الخليفة علىٰ الذي انحرف دوره عن الخلافة ، وهي اعتراف بالحقيقة : أنه لا ملك غير ٱلله الملك المتعال .

ولهٰذا فالكفرة والمشركون والذين لم يكفِّروا عن سيئاتهم أيقنوا بلقاء ٱلله يوم الدين : أنهم الصَّغَرة الأذِلَّة ، وأنّ له ـ من دُونهم ، ودون غيرهم ـ المُلك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال في سورة غافر جلَّ ذكره ، وتقدَّست أسماؤه في تنزيله : ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ .

فأخبر تعالىٰ : أنه المنفرد يومئذ بالمُلك دون ملوك الدنيا ، الذين صارُوا

---

(1) غافر 16 .

(2) غافر 16 .

يوم الدِّين منْ مُلكهم إلىٰ ذِلَّةٍ وصَغار ، ومن دُنياهم في المعاد إلىٰ خسارة .

وأما تأويلُ قراءة من قرأ : ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

عن عبد الله بن عباس : ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ، يقول : لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معهُ حكمًا كمِلْكِهم في الدنيا . ثم قال : ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [1] . وقال : ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَـٰنِ﴾ [2] .

ويتوجه ٱلله من خلال المنهج الخاتم للمؤمنين بأن يسارعوا إلىٰ الإنفاق في سبيل تطهير النفس وعتقها من عذاب أليم لا ينفع فيه شفاعة الشفعاء إلا من ارتضىٰ ٱلله ، وعلىٰ رأس الذين رضي ٱلله عنهم الخليفة علىٰ الأصل سيدنا محمد ﷺ والخلفاء باتباع المنهج الذي جاء به الخليفة وهم المؤمنون وكيف لا ؟ وهو ﷺ الذي كلمه ٱلله كفاحاً دون واسطة بملك ، أو غيره وذلك معروف في ليلة المعراج ، وقد أيده ٱلله بخمسة آلاف من الملائكة علىٰ رأسهم جبريل ، واتخذه ٱلله حبيباً ، ومعلوم : أنَّ المقام الحبي أعلىٰ المقامات جميعها ؛ لذا فهو صاحب الشفاعة العظمىٰ والمقام المحمود في وقت يقول الجميع فيه نفسي نفسي ؛ لأن ٱلله يتجلىٰ في هـٰذا المقام بالعلو والكبر والعظمة ، ولا يقبل إلا مِنْ أتْقىٰ العباد ﷺ وذلك احتوته آية الكرسي ، ويظهر جليّاً جبروت ٱلله العلي العظيم الذي يستعلي بذاته علىٰ الخلق ، وتظهر صفات الجلال ، فلا يقف لها أحد إلا من ارتضىٰ من شفيع مقبول ، وهـٰذا القبول لا يتحقق إلا فيمن تحققت فيه شروط الخلافة الكلية وهي متحقِّقة في النبي ﷺ ، أو الخلافة الجزئية التي تحققت في الأنبياء والأولياء والصالحين بقدرٍ متفاوت ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

---

(1) النبأ 38 .

(2) طه ، 108 .

ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

والملك في الدنيا لله ، وفي الآخرة لله ، والذين آمنوا به واتبعوا رسله في الدنيا ، وتواضعوا له ، ولم يتكبَّروا علىٰ خلقه ، ولم ينازعوه في صفات جبروته ، وكانوا علىٰ طريق الخلافة التي نزلوا الأرض بسببها ؛ فلهم الثواب الجزيل ، والفوز بأعلىٰ الدرجات وهي الجنَّة ، أما الذين علوا في الأرض فساداً ، وكذبوا ما أنزله ٱلله علىٰ رسله ، فلهم العذاب المهين الذي يكسر كبرياءهم ، ويذل نفوسهم ؛ لأنهم لم يهجروا المعاصي ، ولم يجاهدوا أنفسهم بإذلالها لله ، وبدفعها للجهاد في سبيله بالكلمة والعمل ، وبالسير في طريق الخلافة .

وما قلناه هنا لا يخالف ما جاء في الآية التي سنذكرها حول معنىٰ الهجرة ، فالهجرة من معانيها : هجرة المعاصي ، وهجرة المظالم ، وفراقها ، والانتقال إلىٰ مراسي الحق والعدل وأفعال الخير والفلاح في الأرض وكل ما يفيد وينفع الناس ، ولذا فمن يهجر الكفر يعيش بالإيمان حتىٰ يستخلف في الأرض ، ويورث من بعدها في الجنة .

الذين هاجروا لله بترك المعصية ، وقتلوا الشر داخل نفوسهم ، وخارج

---

(1) البقرة ، 253ـ256 .

نفوسهم برده ، والتغلب عليه بالمواجهة الفاعلة ، فهـٰؤلاء الخلفاء الحقيقيون ولهم من ٱلله الرضوان الأكبر . قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [1] .

إذاً فالخليفة الحق هو المتواضع لله المستعلي به في مواجهة الباطل وفعل الخيرات ، والخليفة الذي يتقوىٰ بالحق يعلو علىٰ الباطل وأعوانه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ٱلله هو الحق ؛ لأنه راسخ وكامل وعادل . أما ما يدعون من دونه فهو زائل وناقص وظالم ، ولذا فالله الحق الثابت ، الذي لا يزال ولا يزول ، الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده آخر ، كامل الأسماء والصفات ، صادق الوعد ، الذي وعده حق ، ولقاؤه حق ، ودينه حق ، وعبادته هي الحق النافعة الباقية علىٰ الدوام .

﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ من الأصنام والأنداد ، من الحيوانات والجمادات ، ﴿ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الذي يزول ولا يبقىٰ ، يفنىٰ ولا يدوم ، هو باطل في نفسه ، وعبادته باطلة ؛ لأنها متعلقة بمضمحل فانٍ ، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ العليُّ في ذاته ، فهو عالٍ علىٰ جميع المخلوقات وفي قدره ، فهو كامل الصفات ، وفي قهره لجميع المخلوقات ، الكبير في ذاته ، وفي أسمائه ، وفي صفاته ، الذي من عظمته وكبريائه : أن الأرض قبضته يوم القيامة ، والسمـٰوات مطويات بيمينه ، ومن كبريائه : أن كرسيه وسع السمـٰوات والأرض ، ومن عظمته وكبريائه : أن نواصي العباد

---

(1) الحج ، 62_64 .

بيده ، فلا يتصرفون إلا بمشيئته ، ولا يتحركون ، ويسكنون إلا بإرادته . وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو ، لا يعلمها ملك مقرَّب ، ولا نبيٌّ مرسل ، فالعلو صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة ، ولهٰذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار ، كالصَّلاة وغيرها [(1)] .

فالصلاة إلىٰ الصلاة ترفع المكانة عند ٱلله إلىٰ عليين ، هـٰذا في الآخرة أما في الدنيا فبالتجلي بالعلوِّ الإلـٰهي علىٰ مقيمها عملاً وتطبيقاً ، فيرفعه ٱلله علىٰ المتعالين بغير حق . فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ : أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَىٰ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ ؛ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ . وَمَنْ خَرَجَ إِلَىٰ تَسْبِيحِ الضُّحَىٰ لاَ يَنْصِبُهُ إِلاَّ إِيَّاهُ ؛ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ . وَصَلاَةٌ عَلَىٰ أَثَرِ صَلاَةٍ لاَ لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ » [(2)] .

وجاء في الحديث الشريف عَنْ أَبِي أُمَامَةَ : أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « صَلاَةٌ فِي إِثْرِ صَلاَةٍ لاَ لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ » [(3)] .

والخليفة علىٰ صلة بالعلي في صلاته فهو يستمدُّ منه علوه علىٰ المستعلين من أهل الباطل ، فيسجد له ، ولا يسجد لسواه ، و يركع له ، ولا يركع لسواه ، يوحده واحداً أحداً لا إلـٰه إلا هو لا شريك له ، ويؤمن بمحمد رسوله الكريم ، صلوات ٱلله وسلامه عليه ؛ كي لا يضلَّ ، ولا يشقىٰ ، يصوم ، ويصلِّي ، ويزكِّي ، ويجاهد في سبيله كي يحقَّ الحق ، ويزهق الباطل .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ

---

(1) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 543 .
(2) سنن أبي داود ، ج 2 ، ص 164 .
(3) سنن أبي داود ، ج 4 ، ص 48 .

مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1] .

فالخليفة مُحَارَبٌ من فلول الضلال ، وشر ذمة الباطل ؛ ليبعدوه عن ميدان الخلافة ، ولا يتركوا له فرصة في الإصلاح ، ولـٰكن سنة ٱلله ثابتة لا تتغير ، ولا تتحول وهي علوُّ الحق علىٰ الباطل ، والخليفة كما جاء في الآيات السابقة يتقوىٰ بالصلة الإلـٰهية التي تربطه ارتباطاً وثيقاً بالعلي ، وذلك بإقامة الصلاة للصلة الدائمة مع ٱلله ، وقراءة القرآن لاستخراج أحكامه ، واستنباط دقائقه ورقائقه ، والعمل به شريعةً هاديةً للطريق المستقيم . وفي هـٰذا رحمة من ٱلله العلي الكبير .

وقد وصف ٱلله أعوان الباطل والفساد بأنهم مجرمون ، قد أجرموا في حق أنفسهم ، وفي حق الآخرين ، وفي حق ٱلله ؛ حيث إنهم رغبوا في استبدال المظالم بدلاً من الحقائق ، ويزهقون أرواح الأبرياء ظلماً ، فقال ٱلله تعالىٰ . ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [2] . وهـٰكذا سيكون حال الذين يأكلون الحرام ، فهم كمن يأكل في بطنه ناراً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [3] .

وفي سبيل إحقاق الحق علينا أن نتذكر ما طلبه سيدنا سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أعوان بلقيس الفاسدين الذين عبدوا الشمس من دون ٱلله بألا يعلوا وأن يأتوه مسلمين لله بأنه العلي ، ويسلموا له لكونه الخليفة الذي يعلي الحق ويخفض الباطل فقال ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز عن استعلاء الخليفة

---

(1) الإسراء ، 76ـ81 .
(2) الأنفال 8 .
(3) النساء 10 .

بـالعلـي الكبيـر : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (1) .

وهنا العلو بالعلم الذي وهبه ٱلله له لإظهار : أنه لا عليَّ إلا ٱلله ، ولا سجود لأي مخلوق بغرض العبادة مهما ظهر من عظمة هـٰذا المخلوق ؛ لأنه ضئيل أمام العلي الكبير العظيم ، ولذا فالسجود والركوع للعليِّ الذي لا يعلوه أحد ، وللخالق لا للمخلوق ؛ فالسجود لا يكون إلا لله وهو إعلان ، وإقرار لمن يُسْجَدُ له بالعلو دون غيره ، وفي السجود إظهار علو المعبود بحق لهـٰذا يقال في السجود سبحان ٱلله استجابة لأمر العلي المطلق الذي قال : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وهـٰذا التسبيح هو الذي يصلنا بعلاقة مباشرة مع العلي العظيم ، وبها ننسلخ عن الدنيا ، وأطماعها ، ومخاوفها ، وأربابها ، ونتجلَّىٰ إلىٰ وجهه الكريم جل جلاله .

والخلافة في أساسها إقرار من العليِّ العظيم : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

(1) النمل ، 20ـ34 .

إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ثم يليها اختيار بعد هداية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ولذا فمن يكفر بالنبي محمد ﷺ يَضِل ، ويُضِلل غيره ؛ لأنه أخطأ الطريق ، والذي اتخذ ما أنزل علىٰ النبي محمد ﷺ منهجاً هُدِيَ للطريق المستقيم طريق الحق والهداية والرشد . فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ (3) .

فمن علوِّ ٱلله وكبره سبحانه وتعالىٰ : أنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر والبحر والفلك ؛ لنشكره ، ولا نكفره ، ونعلم : أنه الحق وما دونه باطل زائل ولا نتكبر ولا نغتر ولا نستعلي ؛ لأن العلو والكبرياء له وحده لا ينازعه فيهما أحد . قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (4) .

---

(1) البقرة 30 .
(2) الأنعام ، 161 ـ 165 .
(3) محمد 1 ـ 3 .
(4) لقمان 29 ، 30 .

يظهر ٱلله قوته وتفرده بالتصرف والتدبير ، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار ، وإيلاج النهار في الليل ، أي : إدخال أحدهما علىٰ الآخر ، فإذا دخل أحدهما ، ذهب الآخر . وتسخيره للشمس والقمر ، يجريان بتدبير ونظام ، لم يختل منذ خلقهما ، ليقيم بذلك من مصالح العباد ، ومنافعهم ، في دينهم ودنياهم ، ما به يعتبرون وينتفعون . ولهـٰذا كُلٌّ منهما يجْري إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ ، إذا جاء ذلك الأجل ؛ انقطع جريانهما ، وتعطل سلطانهما ، وذلك في يوم القيامة ، حين تكور الشمس ، ويخسف القمر ، وتنتهي دار الدنيا ، وتبتدئ الدار الآخرة .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ من خيرٍ وشرٍّ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك ، وسيجازيكم علىٰ تلك الأعمال ، بالثواب للمطيعين ، والعقاب للعاصين ، وذَلِكَ الذي بيَّن لكم من عظمته وصفاته ، بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ في ذاته وفي صفاته ، ودينه حق ، ورسله حق ، ووعده حق ، ووعيده حق ، وعبادته هي الحق .

﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ في ذاته ، وصفاته ، فلولا إيجاد الله له ، لما وجد ، ولولا إمداده ؛ لَمَا بَقِيَ ، فإذا كان باطلاً كانت عبادته أبطل وأبطل . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ بذاته ، فوق جميع مخلوقاته ، الذي علت صفاته أنْ يقاس بها صفات أحد من الخلق ، وعلا علىٰ الخلق ، فقهرهم : إنه علي ، فلا يطوله بصر ، ولا تمسه أيادي ، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو الْكَبِيرُ الحق الذي له الكبرياء التي يتجاوز بها عن خطايا خلقه ؛ إن آمنوا واستغفروا وكفَّروا عن سيئاتهم ، وإن وحدوا واتقوا ٱلله حق تقاته مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [2] في هـٰذه الآية الكريمة حوار بين مؤمن وكافر ، ومن يكون هـٰذا المؤمن فهو مؤمن (إنس ، أو جن) ومن يكون هـٰذا الكافر فهو كافر (إنس ، أو جن) ولذا فالخليفة هو محق الحق الذي قاله ٱلله تعالىٰ ، وهو المنتهي عما نهىٰ عنه طائعاً في اتباع أوامره وطائعاً في اتباع نواهيه ، ومتطلعاً لما هو أفضل وأجود وخير . أما الملائكة الكرام فهم المؤمنون حقاً فلا يتساءلون إلا بما يؤكد إيمانهم به عليّاً مطلقاً ، ولهـٰذا فهم أول من يجيب علىٰ السؤال السابق : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ ﴾ بقولهم : ﴿ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ وهـٰكذا لا إجابة للخليفة غير قوله الحق ، وهو العلي الكبير ، فالخليفة هو الذي يعلي الحق ، ويبطل الباطل ، ولذا خاطب ٱلله رسوله ، وكلَّ من سار علىٰ نهجه بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [3] .

﴿ قُلِ ﴾ أي : للمشركين إظهاراً لبُطلان ما هُم عليه ، وتَبكيتاً لهم . ﴿ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أي : زعمتموهم آلهةً ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مقامه ،

---

(1) آل عمران ، 102 ـ 108 .
(2) سبأ ، 23 .
(3) سبأ ، 22 ، 23 .

والمعنىٰ : ادعوهم فيما يَفهمكم من جَلْبِ نفعٍ ، أو دفعِ ضُرٍّ لعلَّهم يستجيبون لكُم إنْ صح دعواكم . ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعيُّن الجوابِ ، وأنَّه لا يقبلُ المكابرةَ ، فقال : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [1] من خير ، وشرٍّ ، ونفعٍ وضرٍّ . ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : في أمرٍ ما من الأمور . وذكرُهما للتَّعميمِ عُرفاً ، أو لأنَّ آلهتَهم بعضُها سماويةٌ كالملائكةِ ، والكواكبِ ، وبعضُها أرضية كالأصنامِ ، أو لأنَّ الأسباب القريبة للخيرِ والشرِّ سماويةٌ ، وأرضيةٌ ، والجملة استئنافٌ لبيانِ حالِهم . ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لآلهتِهم فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ، أيِّ شَركةٍ لا خلقاً ، ولا مُلكاً ، ولا تصرُّفاً ، وَمَا لَهُ ، أي : لله تعالىٰ ﴿ مِنْهُم ﴾ من آلهتِهم ﴿ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ يُعينه في تدبير أمرِهما .

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ ﴾ لقوله تعالىٰ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وإنما علَّق النَّفيَ بنفعها لا بوقوعِها تصريحاً بنفي ما هو غرضُهم من وقوعها ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال أي لا تقع الشَّفاعةُ في حال من الأحوالِ إلا كائنةً لمن أذنَ له في الشَّفاعةِ من النبيِّين ، والملائكةِ ، ونحوِهم من المستأهلين لمقام الشَّفاعةِ ، أما من جهةِ أصنامِهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورةَ استحالةِ الإذنِ في الشفاعة لجمادٍ لا يعقلُ ولا ينطق ، وأمَّا من جهةِ مَن يعبدونَهُ من الملائكةِ ؛ فلأنَّ إذنَهم مقصورٌ علىٰ الشَّفاعةِ للمستحقِّين لها ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ومن البيِّن : أنَّ الشَّفاعةَ للكفرةِ بمعزل من الصَّوابِ ، أو لا تنفع الشَّفاعةُ من الشُّفعاءِ المستأهلين لها في حالٍ من الأحوال إلا كائنةً لمن أُذِن له أي : لأجلِه ، وفي شأنِه من المستحقِّين للشَّفَّاعة ، وأمَّا مَن عداهم من غيرِ المستحقِّين لها ؛ فلا تنفعُهم أصلاً وإنْ فُرض وقوعُها وصدورُها عن

---

(1) سبأ ، 22 .

الشُّفعاءِ ؛ إذ لم يؤذَن لهم في شفاعتهم ، بل شفاعة غيرِهم ، فعلىٰ هـٰذا يثبتُ حرمانُهم من شفاعة هـٰؤلاء بعبارة النَّصِّ ، ومن شفاعة الأصنام بدلالته ؛ إذ حرموها من جهةِ القادرين علىٰ شفاعة بعض المحتاجين إليها ، فلأنْ يُحرموها من جهة العَجَزةِ عنها أولىٰ .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قلوب الشُّفعاءِ ، والمشفوعِ لهم من المؤمنين ، وأمَّا الكَفَرةُ ؛ فهم من موقف الاستشفاع بمعزلٍ وعن التَّفزيعِ عن قلوبهم بألفِ منزلٍ . والتفزيع : إزالةُ الفزعِ . ثمَّ ترك ذكر الفزع وأسند الفعل إلىٰ الجارِّ والمجرور . و(حتَّىٰ) غاية لما ينبئ عنه ما قبلها من الإشعار بوقوع الإذنِ لمن أذن له ، فإنَّه مسبوق بالاستئذان المستدعِي للتَّرقبِ ، والانتظارِ للجواب ، كأنَّه سُئل كيف يُؤذن لهم ؟ فقيل : يتربَّصون في موقف الاستئذانِ ، والاستدعاءِ ويتوقَّفون علىٰ وَجَلٍ ، وفَزَعٍ مليّاً ؛ حتَّىٰ إذا أُزيلَ الفزعُ عن قلوبهم ، وظهرتْ لهم تباشيرُ الإجابةِ ﴿قَالُواْ ﴾ أي : المشفوعُ لهم ؛ إذْ هم المتحاجون إلىٰ الإذنِ ، والمهتمُّون بأمره . ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ ﴾ أي في شأنِ الإذنِ ﴿قَالُواْ ﴾ أي : الشُّفعاءُ ؛ لأنَّهم المُباشرون للاستئذان بالشَّفاعةِ . ﴿ٱلْحَقَّۖ ﴾ أي : قال ربُّنا القول الحقَّ ، وهو الإذن في الشفاعةِ للمستحقِّين لها . وقُرِئ (الحقُّ) مرفوعاً أي : ما قاله الحقُّ . ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ من تمام كلام الشُّفعاء قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب العزَّةِ عزَّ وجلَّ وقصور شأنِ كلِّ مَن سواه أي : هو المتفرِّدُ بالعلوِّ والكبرياءِ ليس لأحدٍ من أشراف الخلائقِ أنْ يتكلَّم إلا بإذنه [1] .

قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾ [2] فهـٰذه أنواع التعلقات ، التي يتعلق بها المشركون بأندادهم ، وأوثانهم ، من البشر ،

(1) تفسير أبي السعود ، ج 5 ، ص 371 .
(2) سبأ ، 23 .

والشجر ، وغيرهم ، قطعها الله ، وبيَّن بطلانها ، تبييناً حاسماً لمواد الشرك ، قاطعاً لأصوله ؛ لأن المشرك إنما يدعو ، ويعبد غير الله ؛ لما يرجو منه من النفع ، فهٰذا الرجاء ، هو الذي أوجب له الشرك ، فإذا كان من يدعوه [غير ٱلله] ، لا مالكاً للنفع والضر ، ولا شريكاً للمالك ، ولا عوناً ، وظهيراً للمالك ؛ ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك ، كان هٰذا الدعاء ، وهٰذه العبادة ضلالاً في العقل الغافل ، باطلةً في الشرع .

بل ينعكس علىٰ المشرك مطلوبه ومقصوده ، فإنه يريد منها النفع ، فبيَّن اللّه بطلانه وعدمه ، وبيَّن في آياتٍ أخر ضرره علىٰ عابديه ، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ومأواهم النار . ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ (1) .

ويوم القيامة يذل ٱلله إبليس و من معه من المستعلين الذين كفروا بالله ، واستعلوا بنعمه التي منحها لهم ، ومنهم من ادعىٰ كذباً : أنه إلـٰه ، ومنهم من ادعىٰ : أن المال الذي حازه هو من علم عنده ، وغير ذلك من ألوان العلو والكبر الفاسد . وهٰؤلاء يتمنون أن يخرجوا من النار ، ويؤمنوا بالله ، ويتواضعوا له ، ولا يستعلوا ، فيصور ٱلله ذلك في كتابه الكريم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ (2) .

يخبر تعالىٰ عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين ، وسؤالهم الرجعة ، والخروج من النار ، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم ، فقال : ﴿ إِنَّ

(1) الأحقاف ، 6 .
(2) غافر 10 ـ 12 .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها ، من الكفر بالله ، أو بكتبه ، أو برسله ، أو باليوم الآخر ، حين يدخلون النار ، ويقرون : أنهم مستحقونها ، لما فعلوه من الذنوب والأوزار ، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت ، ويغضبون عليها غاية الغضب ، فينادون عند ذلك ، ويقال لهم : ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ ﴾ إياكم ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ أي : حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلىٰ الإيمان ، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق ، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم ٱلله له ، وخرجتم من رحمته الواسعة ، فمقتكم ، وأبغضكم ، فهٰذا ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : فلم يزل هٰذا المقت مستمراً عليكم ، والسخط من العلي الكريم حَالاً بكم ، حتىٰ آلت بكم الحال إلىٰ ما آلت ، فاليوم حلَّ عليكم غضب ٱلله ، وعقابه في حين نال الخلفاء المؤمنون رضوان ٱلله وثوابه .

فتمنوا الرجوع و ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ يريدون الموتة الأولىٰ ، وما بين النفختين علىٰ ما قيل ، أو العدم المحض قبل إيجادهم ، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ، ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ الحياة الدنيا ، والحياة الأخرىٰ ، ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فتحسروا ، وقالوا ذلك ، فلم يفد ، ولم ينجع ، ووبخوا علىٰ عدم فعل أسباب النجاة ، فقيل لهم : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ ﴾ أي : إذا دعي لتوحيده ، وإخلاص العمل له ، ونهي عن الشرك به ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور .

﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي : هٰذا الذي أنزلكم هٰذا المنزل وبوأكم هٰذا المقيل والمحل : أنكم تكفرون بالإيمان ، وتؤمنون بالكفر ، ترضون بما هو شرٌّ وفسادٌ في الدنيا والآخرة ، وتكرهون ما هو خيرٌ ، وصلاحٌ في الدنيا ، والآخرة .

تؤثرون سبب الشقاوة ، والذل ، والغضب ، وتزهدون بما هو سبب

الفوز ، والفلاح ، والظفر . ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (1) .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر وعلو الملك وعلو الخلق والقدسية ومن علو قدره كمال عدله تعالىٰ ، وأنه يضع الأشياء مواضعها ، ولهٰذا لا يساوي بين المتقين والفجار ، والله هو العلي الذي له الحكم المطلق في الدنيا والآخرة وهو لا يرضىٰ أن يشاركه أحد في صفاته ؛ لأنه ليس كمثله شيء ، ولا حكم إلا لحكمه . فالحُكْمُ للهِ الذي لاَ يحكُم إلا بالحقِّ ، ولاَ يقضِي إلاَّ بَما تقتضيهِ الحكمةُ ؛ الذي ليسَ كمثِلِه شيءٌ في ذاتِه ، ولا في صفاتِه ، ولا في أفعالِه ، يفعلُ ما يشاءُ .

قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (2) .

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أي : العذاب الذي أنتم فيه بسبب : أنه في الدنيا ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ بتوحيده ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ ﴾ يجعل له شريك ﴿ تُؤْمِنُوا ﴾ تصدّقوا ، وتسلموا بالإشراك ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ علىٰ خلقه .

قال تعالىٰ لنبيه محمد : ﴿ حم ۝ عسق ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (3) ، فلَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً إنساً وجناً وملائكةً وشجراً وحجراً وحيواناً ويابسةً وماءً وروحاً ونفساً وشكلاً سبحانه ما أعظم شأنه !

وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ

---

(1) الأعراف ، 146 .

(2) غافر 12 .

(3) الشورىٰ 1 ـ 4 .

ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) . وَهُوَ الْعَلِيُّ : وهو ذو علوٍّ وارتفاع علىٰ كلِّ شيء ، والأشياء كلها دونه ، له القوة ، ولها الضعف ، له العلو ، ولها الدنو ، ولذا فهو نور السمٰوات والأرض ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ (2) .

والعلو علىٰ الخلق وعلىٰ الأمر الإلـٰهي قد بدأ مع الملعون المطرود من رحمة ٱلله ؛ لأنه استكبر ، واستعلىٰ بما يتوهم : أنه أفضل ؛ لذا فقد سأله ٱلله ما سبب استكبارك ؛ هل أنت تتكبر علىٰ الأمر الذي أمرتك به ، أم إنك وضعت نفسك في رتبةٍ أعلىٰ من رتبتك ؟ ! تمادىٰ الملعون في كبره ، فكان من المطرودين من رحمة ٱلله ، وهـٰذا ما يصوره ٱلله لنا بقوله تعالىٰ : ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (3) .

ولم يرد الملعون أن يكون وحده من المطرودين ، بل أراد أن يجيِّش

---

(1) الشورىٰ ، 4 ، 5 .
(2) النور 35 ، 36 .
(3) ص ، 71_83 .

جيوشاً من هـٰؤلاء الفسدة ؛ ليكونوا أعواناً له . ويا لخيبتهم جميعاً !

وأخيراً فالعليُّ هو الذي يتوكَّل الخليفة عليه ؛ حتىٰ يُوفَّق به فيما يُفكِّر فيه ، وفيما يقول ، وفيما يأمل ويعمل ويفعل ويسلك ، إنه ٱلله جل جلاله الذي بيده الملك والأمر والخير كله ، لا إلـٰه إلا هو سبحانه جل جلاله ! به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري إليه ، والحمد لله رب العالمين ، صدق وعده ، ونصر جنده ، وحق الحق وحده ، وزهق الباطل وحده ، أمر بالإيمان ، فالحمد له آمنا ، وأمر بالعمل الصالح ، فأطعنا ؛ حتىٰ ننال رضاه ، لنعمل أكثر وأعظم .

اللهُمَّ إنك العلي الذي يُدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار ، والذي يعلم الغيب ، ولا غيره يعلم الغيب ، فاجعل أبصارنا مدركةً لمعجزاتك ، وشاهدةً عليها !

اللهُمَّ إنك العلي وكل شيء هو دونك ، فاجعل إيماننا يعلو في علاك ، وبالحق أقوالنا تعلو ، وبالصالحات أعمالنا تعلو ، فنعدل ، ولا نظلم ، ونكون من الصادقين والمتصدِّقين والمُحسنين والبارين بوالديهم !

اللهُمَّ إنك العلي في القول والحق والفعل والعظمة ، فاجعلنا في عليين مع الأبرار في النعيم الذين هم عَلَىٰ الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ والذين تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ والذين يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ !

اللهُمَّ اجعلنا من المتنافسين في هـٰذا الأمر ، وكل أمر ترضىٰ به عنا !

اللهُمَّ إنك العلي ، فاجعلنا نعلو في الحياة الدنيا بأخذ نصيبنا منها ، وأن لا نسرق ، ولا نزني ، ولا نتكبَّر ، ولا نطغىٰ ، ولا نظلم أحداً ، حتىٰ نكون في الآخرة في عليين في جنة الفردوس ! سبحانك لا إلـٰه إلا أنت العلي جل جلالك !

الكبير جل جلاله

الكبير : هو اسم من أسماء ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وهو يدل علىٰ صفة من صفاته الحسان ؛ فهو الكبير فوق كل كبير ، وهو الأكبر الذي لا يساويه أكبر ، ولا يمكن أن يصل إليه في كِبَره صغير بتضعيف ، ولا كبير بنقصٍ ، أو تجزئة [1] سبحانه وتعالىٰ عن ذلك ، فهو الكبير الذي يكون دونه كل شيء لكمال وجوده ، فوجوده دائمٌ أزلاً وأبداً ، فهو الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء ، وهو ما لا بداية ، له ولا نهاية ، إنه الكبير جل جلاله !

أما غيره من الموجودات فوجودها مقطوع سابقاً ، ولاحقاً ، فلكلٍّ منها بداية معروفة ، ونهاية محتومة مهما طال بها الزمن ، فالإنسان إذا طالت سنون حياته ، يُقال له : كبير وفقا لقاعدة النسبية إذا ما قورن بغيره ؛ أي كبيرٌ في السن طويل في مدة البقاء بالنسبة لمن هو أصغر منه عمراً ، ولا يقال له علىٰ ذلك : عظيم .

فالعظمة من معاني الكبير ، ولـٰكنها لا تكون إلا لله تعالىٰ وحده . فقد جاء في لسان العرب « الكبير في صفة ٱلله تعالىٰ العظيم الجليل . وقال ابن الأثير : الكبير يعني : العظيم ذو الكبرياء ، والمتعالي عن صفات الخلق [2] .

(1) الفروق اللغوية ، ج1 ، ص 289 .
(2) لسان العرب ج5 ، ص 125 .

والكبرياء يعني : العظمة وهي عبارة عن كمال الذات ، وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا ٱلله تعالىٰ ، والكبير ، والكبرياء من الكبر ، وهو العظمة ، ويقال : كَبُرَ ، يكبُر ؛ أي : عَظُم ، فهو عظيم [1] .

هـٰذا هو ٱلله العظيم الكبير الذي يدلُّ كل شيء في هـٰذا الكون مما تدرك كنهه البصائر وتحيط به الأبصار علىٰ عظمته ، وقدرته ، وسلطانه ، فناهيك عما لا يمكن لعقولنا أن تستوعبه ، ولا لأبصارنا أن تقع عليه من مخلوقات ، أو مجراتّ ، أو أكوان سبحانه الكبير المتعال !

والخالق العظيم الكبير المتعال هو الذي خلق الإنسان علىٰ هـٰذه الأرض ، وميّزه عن كل المخلوقات ؛ بأن أحسن خَلقَه وفي هـٰذا الأمر كِبَرٌ أي : علوٌّ ممجَّدٌ ومميز بأحسن الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [2] ، وفضَّله المولىٰ عز وجل علىٰ سائرها بأن زوده بالعقل ؛ ليدرك به الصواب والخطأ ، ويكون بذلك أعظم المخلوقات علىٰ الإطلاق ، فهو أفضل من الملائكة إذا تغلب بعقله علىٰ شهوته وترك المعاصي والتزم بالطاعات ، والقربات التي أمر بها ٱلله ، عز وجل ، فينال بذلك الدرجة التي يقول فيها رب العزة في الحديث القدسي ، عن أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ إن ٱلله قال : « من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ مما افترضتُ عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني ؛ لأعطينه ، ولئن استعاذني ؛ لأعيذنه ، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساء ته » [3] فيا أيها الإنسان ! يا من خلقك ٱلله

---

(1) المحيط في اللغة ، ج2 ، ص 48 .

(2) التين ، 4 .

(3) صحيح البخاري ، ج20 ، ص 158 .

تعالىٰ ، واستخلفك في الأرض ، وسخَّر لك المخلوقات لخدمتك عليك أن تكون عند حسن ظن خالقك فيك بأن تستمد صفاتك من صفاته ، فتكبر عن الرذيلة ، وتكبر عما يصغِّرك في القول والفعل حتىٰ توصف بالكِبَر الذي يجعلك مستخلفاً في الأرض ، كما يُراد لك أن تكون مميزا بما ميزك ٱلله به عن بقية المخلوقات ، وأن تعظم بعظمته ، وتكبر بكبره ، وتستحق بذلك خلافة ٱلله العظيم ، فخلافته لا تكون لأي إنسان مخلوق ، فقط لمجرد : أنه إنسان ، ولٰكن خلافته تكون لمن يستحق الخلافة بجدارة ، باتصافه بصفات ٱلله ، وطاعته له عز وجل في كل أمور الحياة .

وقد ورد اسم الكبير مقترناً باسمه المتعال في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (1) ، فيخبر ٱلله تعالىٰ في هٰذه الآيات عن تمام علمه ، وعظيم إحاطته بالأشياء الظاهرة منها والباطنة ، فهو لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء ؛ فهو يعلم ما تحمله الحوامل من إناث المخلوقات جميعاً بل أكثر من ذلك : أنه يعلم ما سيكون في هٰذه الرحم من ذكر أو أنثىٰ قبل حمله ، ويعلم بشقائه وسعادته قبل أن يكون سبحانه وتعالىٰ الملك المتعال ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ (2) ، ويعلم كذلك أطوار الخلق لما تحمله الأرحام من الأجنة طوراً من بعد طور ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (3) ، وفي حديث ابن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : إن رسول ٱلله ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا ٱلله :

---

(1) الرعد ، 8 ، 9 .

(2) لقمان ، 34 .

(3) المؤمنون ، 13 ـ 14 .

1 ـ لا يعلم ما في غدٍ إلا ٱلله .

2 ـ ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا ٱلله .

3 ـ ولا يعلم متىٰ يأتي المطر أحدٌ إلا ٱلله .

4 ـ ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت .

5 ـ ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا ٱلله » [1] .

فالله سبحانه وتعالىٰ كبيرٌ في علمه وقدرته وهـٰذا ما أستشفه من اقتران اسم الكبير مع المتعال في قوله تعالىٰ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَـالِ ﴾ علىٰ ما وَضَحَتْهُ الآية السابقة لها ، فهو كبيرٌ عن كل مقارن ، وهو كبير ، في كل حين ، وهو كبير فلا تراه الأبصار ؛ وإن أدركته العقول وآمنت به ، فكل شيء دونه لا يقارن به في شيءٍ سبحانه لا إلـٰه إلا هو ، ولا يتوارىٰ عن علمه شيء ، وهو أيضاً المتعالي ، والمستعلي علىٰ كل شيء بقدرته عليه وعلمه به .

وعلىٰ من استخلفه ٱلله في أرضه أن يتَّصف بصفات الخالق عز وجل ، ومن هـٰذه الصفات العلم امتثالاً لأول أمرٍ من رب السماء نزل به الروح الأمين علىٰ قلب نبيه الكريم ﷺ وهو : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [2] والقراءة هي أول الطريق للعلم ، والمستخلف في الأرض هو الذي لا يقرأ إلا باسم من استخلفه في الأرض التي يُراد له أن يكون قارئاً ومصلحاً ، وغير سافك دماء فيها . فأقرأ جاءت أمر ، وأمر العلي لابدَّ له أن يُنفَّذ ، فكان الأمر كذلك مع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، الذي قرأ بالأمر الذي يتضمن تحقيق الفعل بالأمر (كن) وكذلك أقسم ٱلله سبحانه وتعالىٰ بالقلم والكتابة وهي من أدوات تحصيل العلم في قوله تعالىٰ : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [3] وفي هـٰذا تعظيم

---

(1) صحيح البخاري ، ج 4 ، ص 151 .

(2) العلق ، 1 .

(3) القلم ، 1 .

لأدوات العلم وبالتالي تعظيم للعلم ضمناً فالقسم دائماً لا يكون إلا لمعظم .

فعلىٰ ذلك لا بدَّ أن يحرص الإنسان الذي يريد أن يكون خليفةً لخالقه علىٰ تحصيل العلم في جميع المجالات النافعة ، فبالعلم وعن طريقه وبإعمال العقل فيما حولنا يصل الإنسان إلىٰ حقيقة الخالق المتفرد لهـٰذا الكون ، وبذلك يصل إلىٰ درجات الخشية من الخالق المؤدية إلىٰ التزام طاعته ، والعمل علىٰ إرضائه ، والطمع في ثوابه ، والخوف من عقابه ، ولذلك سيعلم علم اليقين الذي أظهره ٱلله تعالىٰ لسيد الخلق محمد رسول ٱلله ﷺ ، ولهـٰذا فالعلماء هم أكثر الناس خشيةً لله ، وذلك بما ينكشف لهم من دلائل ، وحقائق خفيت علىٰ غيرهم من عامة الناس ، وفي ذلك يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [1] . الخشية : مخافة وتقوىٰ ، مخافة من الزلل ، وتقوىٰ إيمانية بكشف العلل المسببة في إظهار الآيات التي يتمكَّن العلماء من معرفتها ، ولذلك كلما أكتشف العالم آيةً من آيات ٱلله في خلقه ؛ ازداد إيماناً وهـٰذه هي خشية العلماء . وعليه العلم لا يزيد المتقين إلا تقوىٰ وإيمانا والعلماء هم الذين يخشون ٱلله جل جلاله مما يجعلهم من المستخلفين فيها بتقواهم إياه عز وجل . قال الربيع ابن أنس : (من لم يخش ٱلله تعالىٰ ؛ فليس بعالم) . وقال مجاهد : (إنما العالم من خشي ٱلله عز وجل) . وعن ابن مسعود قال : (كفىٰ بخشية ٱلله تعالىٰ علماً ، وبالاغترار جهلاً) [2] . ونحن نقول : هـٰؤلاء هم العلماء ، هم الخلفاء في الأرض بالتقوىٰ وبالمعرفة الصائبة ، وبالخشية ، والمخافة والأمل الذي لا يراوده قنوط أو يأس وذلك بوقوفهم علىٰ الحقيقة بقين .

والفرقُ كبير بين العالم والجاهل في الحياة الدنيا بين العباد ، فالعالم له

---

(1) فاطر ، 28 .

(2) تفسير القرطبي ، الجزء الرابع ، ص 343 .

مكانة مرموقة ومحترمة علىٰ خلاف مكانة الجاهل ، وكذلك عند ٱلله عز وجل ؛ حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1) أي : لا يمكن أن يستوي الذين يعلمون ما عند ٱلله من الثواب والعقاب والذين لا يعلمون ذلك (2) ، فالذين لا يعلمون هم الذين يجهلون أمر الحقيقة ، ومكمنها ، والعلم لابد أن يحصل عن طريق إعمال العقل الذي يدعونا ٱلله تعالىٰ في كثير من الآيات إلىٰ استخدامه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (3) ، وقد وصف ٱلله سبحانه وتعالىٰ من لا يُعْمِلُون عقولهم فيما حولهم من الآيات بأنهم شر الدواب ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (4) فمن أعمل عقله ، واستعمله في طريق العلم والهداية يكن خير الخلق ، وهو الخليفة ، أما الجاهل الذي لا يُعمل عقله في الآيات التي سخرها ٱلله من حوله لهدايته فيكون كما وصف ٱلله شر الخلق والخليقة .

وقد ورد كذلك اسم الكبير مقترناً باسم العلي عز وجل في قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (5) وفي هـٰذه الآية والتي قبلها دليل علىٰ أن ٱلله عز وجل عظيم وكبير في قدرته ، فهو الذي بقدرته يولج الليل في النهار ، ويولج

(1) الزمر ، 9 .
(2) تفسير الخازن ، ج 5 ، ص 307 .
(3) البقرة ، 164 .
(4) الأنفال ، 22 .
(5) الحج ، 62 .

النهار في الليل ، وهو الذي يُدْخِل ما ينقص من ساعات الليل في النهار ، وما ينقص من ساعات النهار في الليل ، ذلك بأنه الحق . وهـٰذا أمرٌ عظيم لا يقدر عليه أحد غير ٱلله القادر كبير القدرة ، وهو بذلك الإلـٰه الحق المستحق للعبادة وحده والمتفرد بالألوهية ، حيث لا تصلح الألوهية ؛ إلا لمن كملت قدرته ، أما من عجز عن فعل هـٰذا فإن قدرته يكون فيها نقص ، فلا يستحق العبادة فكل ما يعبده الجهلة من دون ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يمكن أن يكونوا خالقين ، بل هم مخلوقون بدليل قصورهم في قدرتهم علىٰ فعل الكثير من الأشياء التي لا يقدر عليها غير ٱلله العلي الكبير . الكبر علواً ورفعة بالنسبة للخالق ، وبالنسبة للمخلوق درجة إيمانية عالية بالله وحده . والعلي ذو العلو علىٰ كل شيء ، فهو فوق كل شيء ، وكل شيء دونه ، وفي هـٰذا الأمر الكبير يعني العظيم الذي كل شيء دونه متصاغر له ، ولا شيء أعظم منه [1] .

والخليفة الذي استخلفه ٱلله لابد أن يكون أيضاً قادراً بالقوة التي عليها خُلق في أحسن تقويم ، فيستمد قدرته من قدرة الخالق عز وجل ، أي أن يكون قادراً علىٰ ترويض نفسه أولاً ، وكبح جماحها ؛ فيروض نفسه علىٰ الطاعات والعبادات التي أوجبها ٱلله تعالىٰ ، ويكبح جماح نفسه عن فعل المعاصي التي ينهىٰ عنها المولىٰ عز وجل وتتسبب في إغضابه سبحانه وتعالىٰ ، وتُعَرِّض مرتكبها إلىٰ عقابه وعذابه .

ثم يكون قادراً علىٰ إفادة الإسلام والمسلمين ، وكذلك علىٰ إعلاء كلمة ٱلله والدفاع عن الإسلام وعن نبيه الكريم ﷺ ضد الهجمات الحاقدة التي تسعىٰ للنيل من الإسلام . والقدرة علىٰ ذلك تتمثل في :

1 ـ القدرة العقائدية :

بأن تكون عقيدتنا في ربنا وديننا ونبينا قويةً راسخةً لا تتزعزع ، وأن نسهم في تقوية هـٰذه المعتقدات في نفوس شبابنا بكل قوة وإصرار وذلك بإظهارهم

---

(1) تفسير الطبري ، ج18 ، ص 676 .

علىٰ كل حقيقة وبكل شفافية حتىٰ يدخل الإيمان في قلوبهم بأن ٱلله حق واحد أحد ، وأن العدل بين الناس حق فيعملوا به ويعملوا عليه ، وأن العذاب حق فيجتنبوا كل قول أو فعل يؤدي إليه ، وأن النار حق بها يُزهق الباطل ، وأن الجنة حق بها يُنصر الحق ، وأن البعث حق من بعده الحياة السرمدية ، وأن الدنيا حق فانية فلا يجعلونها في قلوبهم ولا ينسون نصيبهم منها ، وإن الرسول حق فيتبعون رسالته الخاتمة ، ويصلُّون عليه كما صلىٰ ٱلله وملائكته عليه وعلىٰ سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً .

2 ـ القدرة العلمية والعقلية :

وهي أن يكون الخليفة ذو قدرة علمية وعقلية تمكنه من الرد علىٰ الافتراءات والأكاذيب الباطلة والموجهة ضد الإسلام والمسلمين بالحجج والبراهين والأدلة العقلية والعلمية التي تكون في الوقت نفسه رداً علىٰ الأكاذيب ، وأدلة إقناع للمترددين ، والمشككين في أمر هـٰذا الدين ، وبذلك يعطي الصورة الحسنة للمسلم الرباني الحق ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز مخاطباً سيدنا محمد ﷺ والخطاب بالتالي مُوَّجهاً لنا نحن المسلمين عموماً وللخلفاء خصوصاً : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [1] . الحكمة هي مكمن الحقيقة التي لا تتلون ، ولا تتبدل ، وهي التي تُملأ باللين كأسلوب معاملة بين الناس ، ولهـٰذا كانت المجادلة بالتي هي أحسن أسلوب متبع في سنة رسول ٱلله ﷺ الذي استخلفه ٱلله تعالىٰ باتباع ذلك ، والحُسن جمال ذوقي يفوح بطيب المعاملة الطيبة .

3 ـ القدرة البدنية :

فليحرص كل من يريد أن يكون خليفةً لله في أرضه علىٰ أن يكون قادراً

(1) النحل ، 125 .

بقوته الجسدية أن يتحمل مسؤولياته المنوطة به من أجل إعلاء كلمة ٱلله ، عز وجل ، وإن لزم الأمر بالمقارعة ، والقتال اللذين يتطلبان قوة بدنية في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل دون ظلم ، وقد قال رسول ٱلله ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ ٱلله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ »[(1)] . وعليه ، لا قوة لمؤمن إلا بإيمانه وعلمه الذي يمكنه من كشف الحقيقة ، وتجليها للآخرين ، ولذا فلابدَّ أن يعمل علىٰ أن يكون مأكله وملبسه ومشربه حلالاً طيباً مثلما يكون قوله ، وفعله حقاً صادقاً ، فيمده بذلك ٱلله تعالىٰ بالقوة البدنية اللازمة له ، ليسخرها في خدمة الدين والعباد المراد لهم الاستخلاف في الأرض لتكون طاهرة من كل رذيلة في هـٰذه الدنيا الفانية ، ويكون فيها مصلحون غير سافكي دماء بغير حق .

وقد أطلق ٱلله العليُّ ـ جل وعلا ـ وصف الكبير علىٰ أشياء كثيرة معنوية تتعلق بالإنسان ، من تلك الأشياء قوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[(2)] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[(3)] ، وهـٰذا الوصف لهـٰذه الأشياء يوجب علىٰ من يحصل علىٰ هـٰذه الأشياء الموصوفة بالعظمة لابدَّ أن يكون هو عظيماً أيضاً ، فلا يمكن أن يتحصل علىٰ هـٰذا الفضل أو الفوز مقصِّرٌ في حق ٱلله سبحانه وتعالىٰ بارتكاب بعض النواهي ، وترك بعض الأوامر ، وذلك لأنهم لم يصلوا درجةً من العظمة والكِبَر التي تؤهلهم لينالوا هـٰذا الفضل الكبير والفوز الكبير ، والآيات السابقة الذكر توضح ذلك تمام التوضيح فيقول فيها جل مِن قائل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[(4)] فلم يكن ذلك الفوز العظيم حقاً لمن

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 142 .
(2) فاطر ، 32 .
(3) البروج ، 11 .
(4) البروج ، 11 .

آمن فقط بل قرن تعالىٰ الإيمان بالعمل ، حيث إن العمل هو الترجمة الفعلية للإيمان الحقيقي ، وهو المقياس الدقيق الذي يحدد درجة الإيمان في قلب كل عبد ، فالعبد المؤمن تمام الإيمان يطيع ٱلله في كل الأوامر التي أمر ٱلله تعالىٰ بها ، ويسعىٰ دائماً إلىٰ التقرب والتودُّد إليه بفعل الطاعات والقربات ، ويستحيل أن يعصيه أو أن يتجرَّأ حتىٰ علىٰ مخالفة أوامره ، فيستحق بذلك كله أن يكون الخليفة لله ـ عز وجل ـ الذي قصده تعالىٰ في قوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1] . والخليفة هو الطائع ، أما من لم يكن كذلك فليس له حق الخلافة في شيءٍ .

وعليه فالمؤمن الذي لا يقرن قوله بالإيمان بأعمال وطاعات تترجم ذلك الإيمان علىٰ أرض الواقع ، فإن إيمانه ناقص غير كامل ، فلا يتأهل أبداً لأن يكون خليفة للإله ؛ لأنه بفعله هـٰذا قد دخل دائرة الكذب ؛ حيث إنه يَدَّعي حبه لله تعالىٰ وإيمانه به وهو في نفس الوقت يعصيه ويغضبه ، وهـٰذا فعلٌ مستنكرٌ ومستقبحٌ لا يمكن أن يكون صاحبه من الخلفاء الذين قصدهم ٱلله تعالىٰ .

وقد قال الشاعر مستنكراً ذلك الفعل علىٰ فاعله :

تعصي الإلـٰه وأنت تظهر حبه ... هـٰذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إن المحبَّ لمن يحبُّ مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمةٍ منه ... وأنت لشكر ذاك مُضِيْعُ [2]

اللهُمَّ اجعلنا ممن يخلفونك في الأرض ، ويستحقون بذلك رضاك ، ورحمتك ، ومغفرتك ! وقد قال ٱلله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

---

(1) البقرة ، 30 .

(2) تفسير الآلوسي ، ج2 ، ص 491 .

سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ (1) ، وفي هـٰذه الآية معنىٰ واضح علىٰ أن الخلافة لا تكون لكل إنسان ، ولـٰكنها لمن اصطفاهم ٱلله من العباد ؛ ليكونوا هم الخلفاء والورثة الذين يرثون الكتاب الذي أورثه لعباده الذين اصطفاهم ، وأنَّ المصطفين من عباد أمة محمد ﷺ وأنَّ الظالم لنفسه هم أهل الإجرام من أمةِ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهنا أقول : إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ قد خلق الأمم واصطفىٰ منهم الأنبياء ـ صلوات ٱلله وسلامه عليهم أجمعين ـ وحمَّلهم بذلك أمانةً وهي أن يكونوا خلفاء له في الأرض : يقولون بكلامه ، ويأتمرون بأوامره ، ويحكمون بحكمه ، ويبلغون شرائعه للناس كافة علىٰ أتم وجه دون تغيير ، أو تحريف ، أو تقصير ، أو إهمال ، وكلُّ هـٰذه الصفات تستحيل في حق أنبيائه ـ صلوات ٱلله عليهم ـ فهم مصطفون علىٰ العباد جميعاً ، والذي اصطفاهم هو الخالق العالم بنفوس خلقه ، فلن يختار ٱلله تعالىٰ لتحمل هـٰذه الأمانة من في نفسه مرضٌ ، أو نقص ، وقد اصطفىٰ ٱلله من بين هـٰؤلاء الأنبياء جميعاً نبينا محمد بن عبد ٱلله ﷺ ليكون هو خاتم الأنبياء المرسلين من ٱلله عز وجل إلىٰ عباده ، فيتحمل بذلك الأمانة الكبرىٰ وهي إحقاقُ الحق وإنفاذ شرائع ٱلله والدعوة إلىٰ دين ٱلله الخاتم وهو دين الإسلام الحنيف الذي لا يُقْبَل من أحدٍ عند ٱلله من دينٍ غيره وكذلك اصطفىٰ من بين الأمم أمة محمدٍ ﷺ لتكون أفضل الأمم ولتكون شاهدة علىٰ الأمم السابقة ، قال تعالىٰ في محكم آياته : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (2) ، وقد وضَّح ٱلله سبحانه وتعالىٰ أحوال هـٰذه الأمة التي اصطفاها من بين الأمم ، علىٰ أن هـٰذه الأمة ليست جميعها مصطفاة ومختارة لتحمل أمانة الخلافة لله ، وليرثوا بذلك إرث الأنبياء ، فبالرغم من أن ٱلله تعالىٰ قد اصطفىٰ هـٰذه الأمة إلا أنه اصطفىٰ منها

---

(1) فاطر ، 32 .
(2) البقرة ، 143 .

أيضاً من يكون أهلاً ليحمل هـٰذه الأمانة ، فأخبرنا ٱلله تعالىٰ : أنَّ هـٰذه الأمة تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام ، هي :

الظالم لنفسه : وهو المُفَرِّطُ في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات .

المقتصد : التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات .

وهـٰؤلاء لم يصلوا بعملهم وطاعتهم إلىٰ درجة : أنهم يستحقون أن يكونوا خلفاء لله في الأرض . أما النوع الثالث هم :

السابقون بالخيرات : وهم الفاعلون للواجبات ، والمستحبات ، والتاركون للمحرمات ، والمكروهات ، وبعض المباحات [1] . إنهم الممارسون لحقوقهم هي كما هي ، والمؤدون لواجباته هي كما هي ، والمتحمِّلون لمسؤولياته هي كما هي .

وهـٰذا النوع هو الذي يستحق خلافة ٱلله في أرضه ؛ لأنه تقرب إلىٰ ٱلله بأداء الفرائض ، واتباع الأوامر ، وترك النواهي ، وزاد في التقرب إلىٰ ٱلله بفعل النوافل والمستحبات ؛ حتىٰ بلغ الدرجة التي يكون فيها ٱلله عز وجل سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ومن يتوصل لهـٰذه الدرجة من المحبة بينه وبين ٱلله تعالىٰ يكون خليفةً له في الأرض التي باركها ٱلله بالخليفة ، الذي يطبق شرعه ، ويحكم بحكمه ، ويقول بقوله ، فالله قد أورثهم الكتاب ؛ لأنهم صفوة العباد ، ولأنهم متصفون بصفات ٱلله عز وجل من علمٍ وقوةٍ وحكمةٍ ورحمة وحزم وغيرها من صفاته التي لا يمكن أن نحيطها حصراً .

---

(1) تفسير ابن كثير ، ج 6 ، ص 546 ، سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 296 .

وقد قال رسول ٱلله ﷺ : « إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ، ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به ؛ أخذ بحظٍ وافر »[1] .

اللهُمَّ اجعلنا ممن يتعلمون العلم خالصاً لوجهك الكريم لا نبغي به غير رضاك ورحمتك واجعله اللهُمَّ حُجَّة لنا لا علينا إنك أنت مولانا فنعم المولىٰ ونعم الوكيل !

والكِبَر والاستكبار يكون علىٰ معنيين متناقضين تماماً وهما :

أولاً : الاستكبار بفعل الطاعات فيشعر من يقوم بها أنه صار عظيماً وكبيراً بمداومته علىٰ فعل ما يرضي ٱلله عز وجل . وفي هـٰذا المعنىٰ جاء قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[2] ، وهـٰذا أمرٌ من ٱلله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يعلن بأن مقصده في كل عباداته وطاعاته وأعماله وحاله من إخلاص وإيمان عند مماته ومدة حياته إنما هو لله عز وجل ، وإرادة وجهه الكريم وطلباً لرضاه .

وقول الرسول الكريم ﷺ لذلك الأمر يحوي نوعاً من العظمة فهو يقوله مفتخراً بأنه عبد لله متعالياً بذلك متعاظماً به ، ويلزمنا نحن المؤمنين أن نتأسىٰ بنبينا الكريم في ذلك ، فيجب أن نفخر بأننا نطيع ٱلله عز وجل ونعبده حق عبادته وأن نشعر بالسعادة وتوفيق ٱلله لنا[3] ، فالخليفة الذي يستحق خلافة ٱلله العظيم لابد أن يكون عظيماً ، وكبيراً ، وعلياً ، وعظمتنا هـٰذه نابعةٌ

(1) صحيح البخاري ، ج 1 ، ص 119 .
(2) الأنعام ، 161ـ163 .
(3) تفسير الثعالبي ، ج 2 ، ص 15 .

من عبادتنا لمن هو أعظم ولمن هو أكبر وأعلم ، فيستكبر الخليفة ، ويعلو بفعله للطاعات عن الوقوع أو عن ما يؤدي إلىٰ الوقوع في المعاصي ، فيكثر من الاستغفار ؛ لينجيه ٱلله من كل ما يؤدي إلىٰ عصيانه عز وجل وإغضابه والعياذ بالله ، والذي لا يستكبر عن الطاعات يكون ممن أخبر عنهم ٱلله عز وجل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [1] .

ثانياً : الاستكبار عن فعل الطاعات ، ويكون بالامتناع عن قبول الحق معاندةً وتكبراً دون أي حجَّة ، أو دليل ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالىٰ في محكم آياته : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [2] فيبين ٱلله تعالىٰ : أن المشركين الذين وصفهم ٱلله تعالىٰ كانوا إذا قيل لهم قولوا ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي يتعظمون عن قول ذلك ، ويتكبرون عن عبادة ٱلله الواحد الأحد ، ويصرُّون علىٰ عبادة غيره من الأوثان ، والأصنام التي لا تنفع ، ولا تضر ، فيصغرون بكفرهم ، وشركهم ، ولا يستكبرون [3] ، والذين يستكبرون من العباد عن طاعة ٱلله عز وجل لا يمكن أن يكونوا خلفاء الأرض في أرضه ؛ لأنهم ضعاف الإيمان ، ولا يتصفون بصفات الخالق عز وجل ، فالمستكبر عن فعل الطاعات يدرك أن ما استكبر عنه هو الحق ، ولـٰكنه يرفض فعل هـٰذه الطاعات معاندةً بدون مبرر مقنع ولا دليلٍ دامغ ، بل إنهم أنفسهم يقولون عكس أفعالهم .

فالمشركون الذين دُعوا إلىٰ كلمة التوحيد ، واستكبروا عنها ، وهم يعلمون فعلاً بأن ٱلله هو الإلـٰه الواحد بدليل قولهم الذي أخبرنا به ٱلله عز وجل

(1) النحل ، 49 .
(2) الصافات ، 35 .
(3) تفسير الطبري ، ج 21 ، ص 33 .

في قوله : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [1] ففي قولهم هٰذا اعتراف ضمني بوجود الخالق الواحد وهو ٱلله المستحق للعبادة ، ولٰكنهم يعبدون هٰذه الأوثان ؛ ليكونوا شفعاءهم عند ٱلله ويقربوهم إلىٰ ٱلله يوم القيامة [2] ، وهٰذا في حد ذاته اعتراف بان ٱلله هو المستحق للعبادة دون غيره ممن يعبدون ، ولٰكنهم استكبروا عن الاعتراف بذلك لأنهم خافوا ضياع ما لهم من جاه ومكانة ، وهٰذا الاستكبار والاستعلاء عن الاعتراف بالحقيقة لا يُنْقِص من شأنها بل هو في الواقع إنقاص من شأن المستكبر عليها ، وسيحكم ٱلله تعالىٰ بينهم يوم القيامة بأن يدخلهم جميعاً إلىٰ جهنم بكفرهم واستكبارهم ، وهٰؤلاء المستكبرون عن الحق رغم كل ما أمامهم من آيات ودلالات قد توعدهم ٱلله عز وجل بأن يصرفهم عن آياته ، وأن يمنعهم من فهم الحجج والبراهين نتيجة استكبارهم عن الاعتراف بالحق والانقياد له [3] في قوله تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [4] .

والمستكبرون عن الحق والاعتراف به من المؤكد : أنَّ أفعالهم تكون أفعال نقائص ، لا ترضي ٱلله ، ولا من استخلفهم في الأرض ، فبالتالي لا يمكن أن يكونوا ممن يستخلفهم ٱلله تعالىٰ ؛ لأن أقوالهم كذب ، وأفعالهم إفساد ، فالمفسدون في الأرض هم الذين يستكبرون عن فعل الطاعات ، والمصلحون فيها هم الذين يستكبرون بفعلهم الطاعات ، وهٰذه من صفات

(1) الزمر ، 3 .
(2) تفسير الطبري ، ج 1 ، ص 252 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 474 .
(4) الأعراف ، 146 .

الخلفاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والمقيمين لحدود ٱلله ، والمطبقين لشريعته في الأرض عدلاً ، ومحبةً ، ومساواة .

واسم ٱلله الكبير بمعنىٰ العظيم متداخلٌ مع كل أسماء ٱلله الحسنىٰ ، فإن ٱلله عز وجل كبيرٌ في كرمه ، وكبيرٌ في قدرته ، وكبيرٌ في انتقامه ، وكبيرٌ في رحمته وحلمه ، وهٰكذا يكون الخليفة كبيراً بقوله الحق ، وعمله علىٰ إحقاقه ، وفعله للخيرات ، والإكثار منها ، وعادلاً بالحق إذا حكم بين الناس ، وآمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر في كل حين ، ويخشىٰ ٱلله في كل كبيرة وصغيرة ويتقي ٱلله ربه فيما يمارسه من حقوق ، وما يؤديه من واجبات ، وما يحمله من مسؤوليات .

وهٰذا من خصائص أسماء ٱلله سبحانه وتعالىٰ فهي جميعاً تتداخل مع بعضها فتعطي معانٍ كثيرةً لمسمىً واحد ، وموصوف واحد هو ٱلله عز وجل ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو المقصود بكل هٰذه الأسماء والمعاني المدلول عليها من هٰذا التداخل ، ولذا فهو الكبير المتعال جل جلاله .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ الكبير في لطفه بعباده : المؤمن منهم ، والعاصي ، لا يعاقبهم بأعمالهم بحرمانهم من النعم التي أنعم بها عليهم ، قال تعالىٰ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) ، فهو الكبير في لطفه بإنزال الماء ، واستخراج النبات من الأرض الذي يعينهم علىٰ استمرار العيش ، وأيضاً هو الكبير في خبرته بالمقادير اللازمة والضرورية من الماء وغيره لحصول ذلك ، فلا تزداد كميته فيصبح مفسداً ، وإنه الكبير بما يملكه من أمر ، وإذا أراد شيئاً يقول له : كن ، فيكون ، لا إلٰه إلا هو سبحانه وتعالىٰ عن كل صغيرة !

---

(1) الحج ، 63 .

وهو الكبير في رحمته ورفقه ورأفته بالعباد فمظاهر رحمته كثيرة جداً ، فمن أعظم معاني رحمته ـ عز وجل ـ بنا هو إرسال الرسل إلينا ، وإبلاغنا بأوامره لإخراجنا من ظلمات الجهل والكفر إلىٰ النور الذي به اهتدينا إلىٰ السبيل الحق ، فالجهل يؤدي إلي الوقوع في عذاب جهنم ، والعلم يؤدي إلىٰ نور الإيمان والطاعة والفوز بالنعيم الدائم في الجنة ، إنه باب رحمته الذي لا يُصد في وجه من يؤمن به واحداً أحداً لا شريك له .

وكذلك يقول ٱلله تعالىٰ في كتابه الحكيم : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] ، فمن باب رحمته بالناس سخَّر لهم ما في الأرض من الدواب والبهائم والنباتات ، وما في باطنها من ماء وخيرات ومعادن ، ليتصرفوا فيه كيفما أرادوا ، وكذلك سخَّر لهم الفلك تجري في البحر بأمره ؛ أي : بقدرته ، فهو الذي يمسكها في البحر ، وهو الذي ذلَّلها لهم ؛ ليستفيدوا منها في التنقل ، والتجارة ، وغيرها [2] .

ومن باب رحمته أيضاً : أنه علمنا العلوم الكثيرة التي نستفيد منها في تسيير أمور حياتنا ، وأيضاً من عظيم رحمته بنا : أنه هو يمسك السماء فوقنا بقدرته حتىٰ لا تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه . فلو لم يكن الكبير المتعال ؛ لدمر الأرض بما تعمل أيدي المفسدين فيها ، ولو لم يكن الكبير ؛ لقدَّم العقاب مع الذنب ، ولو لم يكن الكبير ؛ لكلَّفنا بما ليس في وسعنا ، ولا طاقة لنا به ، ولو لم يكن الكبير ؛ لما جعل باب الرحمة مفتوحاً لمن يتوب ، ويستغفر عن كل خطيئة أو ذنب يُرتكب ، ولو لم يكن الكبير ؛ لما كان مهيمناً علىٰ كل كبيرة وصغيرة ، ولأنه الكبير كانت له الأسماء والصفات والأفعال الحسنىٰ . إنه

(1) الحج ، 65 .
(2) تفسير الطبري ، ج 18 ، ص 678 .

الكبير الذي به آمنا ونمد أيادينا إليه كل يوم تضرعاً حتىٰ ننال الرحمة منه فوزاً برضاه ، سبحانه ما أعظم شأنه ؛ إنه ربي جل جلاله !

وهو الكبير في جوده وكرمه للعباد ، المحسن منهم والمسيء ، فكرمه كبيرٌ لا حدَّ له ، ولا يمكن حصره ، ولا يقاس ، ولا ترفعه الموازين ، فمن كرمه مع المحسنين : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يجزيهم عن الحسنة بعشرة أمثالها ، ومن باب كرمه مع المسيئين : أنه لا يجازيهم عن سيئاتهم إلا بمثلها كما في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) ، ومن باب كرمه أيضاً : أنه غفور عفو حليم ، وباب توبته دائماً مفتوح لمن ندم علىٰ أفعاله وتاب إليه ، فالله سبحانه وتعالىٰ بكرمه يبدل سيئات المسيئين إلىٰ حسنات ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) . فالمسيئون الذين يفعلون كل هـٰذه الآثام من إشراك ، وقتل ، وزنىٰ ، فإن ٱلله سيعاقبهم علىٰ هـٰذه الأفعال عقاباً شديداً ، واستثنىٰ منهم التائب إلىٰ ٱلله ، النادم علىٰ تلك الأفعال ، فإن هـٰذا يبدل ٱلله سيئاته حسنات ، ويقبل منه توبته شريطة أن يكون صادقاً في توبته ، عازماً علىٰ عدم الرجوع لتلك الأفعال (3) .

وهو الكبير في قدرته ، فليس لقدرته حدود وهو القادر علىٰ كل شيء ، وكل شيء يدل علىٰ قدرته دلالةً تامة سواء أكان ذلك في خلق السمـٰوات

(1) الأنعام ، 160 .

(2) الفرقان ، 68ـ70 .

(3) تفسير الطبري ، ج 19 ، ص 303 .

والأرض وما حولنا من مخلوقات ، أو كان في خلقنا نحن أنفسنا ، فقال تعالىٰ في كتابه الكريم دالاً علىٰ عظيم قدرته في أكثر من آية ، ففي قوله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [3] ومن أعظم الآيات الدالة علىٰ أنه الكبير المتعال إنزاله للقرآن الكريم الذي تحدىٰ ٱلله به الثقلين جميعاً ، والعرب خاصة علىٰ أن يأتوا بسورةٍ مثله مع أنها من نفس الأحرف التي تتكون منها لغتهم ، فقال تعالىٰ متحدياً لهم ، ومظهراً لعظيم قدرته وكبير شأنه ، وكاشفاً عن عجز المخلوقين مقارنةً مع قدرته : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [4] .

وأيضاً فإن ٱلله عز وجل كبيرٌ في عقابه وثوابه ، فقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [5] ، وقال كذلك : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [6] .

---

(1) النور ، 45 .
(2) العنكبوت ، 19 ، 20 .
(3) الشورىٰ ، 29 .
(4) البقرة ، 23ـ24 .
(5) فاطر ، 7 .
(6) آل عمران ، 3 ـ 4 .

وعليه فإن الكبير جل جلاله هو العظيم في كل شيء والمهيمن علىٰ كل شيء والقادر علىٰ كل شيء سبحانه لا إلـٰه إلا هو الكبير المتعال ، عظمته عظمة مطلقة وهو الذي كَبِرَ وعلا في ذاته ، قال تعالىٰ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [1] ، ورُوي عن عبد ٱلله بن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أنه قال : « ما السمـٰوات السبع ، والأرضون السبع في يد ٱلله إلا كخردلة في يد أحدكم » [2] .

وهو الكبير في أوصافه فلا سميَّ له ، ولا مثيل ولا شبيه ولا نظير ، قال تعـالىٰ : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [3] ، وهو الكبير في أفعاله ، فعظمة الخلق تشهد بكماله وجلاله وعظمته ، قال تعالىٰ : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [4] ، وهو سبحانه المتصف بالكبرياء ، ومن نازعه في ذلك ؛ قسمه ، وعذّبه . روىٰ مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « العِزُّ إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته » [5] ، فهو سبحانه الكبير الموصوف بالجلال ، وعظَم الشأن ، وهو المنفرد بذاته ، وصفاته ، وأفعاله عن كل ما سواه ، فله جميع أنواع العلو .

ونحـن نعلـم : أن ٱلله قـد خلـق السمـٰـوات وخلـق الأرض وما بينهما وسخرهما للإنسان المخلوق الذي شرّفه ٱلله وكرمه علىٰ سائر المخلوقات ، واختاره لأن يكون خليفةً له في الأرض ، ولـٰكن هـٰذه الخلافة

(1) البقرة ، 255 .
(2) تفسير الطبري ، ج21 ، ص 324 .
(3) مريم ، 65 .
(4) غافر ، 57 .
(5) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 56 .

لم تكن لعموم الناس الصالح منهم والطالح ، ولـٰكن قصرها ٱلله تعالىٰ علىٰ عبادٍ مخصوصين ، وهم العباد الذين يتصفون بصفاته ، ويستمدون أفعالهم من أفعاله ، فيعملون كل ما هو نافع وصالح ، ويتركون كل ما هو ضار ومشين ، وقد وضَّح ٱلله سبحانه وتعالىٰ من هم العباد الذين يرثون الأرض ليكونوا فيها خلفاء بقوله تعالىٰ وهو الحق : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (1) ، وقد اخْتُلِف في معنىٰ الأرض التي في هـٰذه الآية ، فمنهم من قال : إنها الجنة ، وقال آخرون : هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتىٰ يكون البعث . وقال آخرون هي الأرض يورثها ٱلله المؤمنين في الدنيا (2) .

وهـٰذا عندي أرجح ؛ لأن الجنة لا تكون إلا للمؤمنين ضمناً إلا من رحم ٱلله عز وجل من غير المؤمنين ، وذلك شأنه عز وجل ، أما الأرض فهي للناس جميعاً يعيشون عليها ، المؤمن والكافر علىٰ السواء ، يستمتعون بما فيها من خيرات ونعيم كلٌ حسب ما كتب ٱلله تعالىٰ له من الرزق فيها ، أما الوراثة هنا فتكون بمعنىٰ الخلافة ، فالوريث هو خليفة الموروث في ماله ، وفي الحديث الشريف : « إن العلماء هم ورثة الأنبياء » أي : خلفاؤهم في استمرار تبليغ ما جاؤوا به من الشرائع من عند ٱلله عز وجل .

وبالتالي فإن وراثة الأرض تكون بمعنىٰ الخلافة لله عز وجل في هـٰذه الأرض ، ولا تكون هـٰذه الخلافة بالتأكيد إلا للعباد الصالحين ، وخص الصالحين ، ولم يقل يرثها عبادي فقط ؛ لأن العبودية هي أمر محتوم في حق الصالح وغيره ، فكلنا عبيد لله الخالق القهَّار ، فمن اعترف بتلك العبودية ، وافتخر بأنه عبدٌ لله عظُم شأنه ، وكان صالحاً بأعماله مستحقّاً لخلافة ٱلله في

(1) الأنبياء ، 105 .
(2) تفسير الطبري ، ج18 ، ص 550 .

الأرض . أي من رضي بعبوديته لله ؛ آمن به رباً وكفر بغيره ، ولهـٰذا فهو الحر الذي لا يركع ولا يسجد لغير ٱلله تعالىٰ ، فعبودية ٱلله عز وجل دليل علىٰ ممارسة العباد للحرية بكل إرادة .

وأما من أنكر العبودية لله ، وعبد آلهةً غير ٱلله ؛ ذلَّ شأنه وكان لا يستحق أن يكون خليفةً لله الكبير العظيم في أرضه .

وعليه فلابد أن يكون الخليفة الذي أورثه ٱلله الأرض متصفاً بجميع صفات ٱلله عز وجل ، فيكون كبيراً في إيمانه ، كبيراً في عفوه وصفحه وحلمه عن الآخرين ممن يخطئون في حقه من الناس فيعطيهم الفرصة لتصحيح أخطائهم معه ، وكبيراً في علمه ، وفي تفهُّمه ، وكبيراً في إيمانه ، وكبيراً في تصرفاته ، وكبيراً في إقدامه علىٰ ما يجبُّ ، وابتعاده عمَّا يجب . وكبيراً في عصيانه للفساد والمفسدين في الأرض ، وكبيراً في إصلاحه فيها .

وكذلك يكون كبيراً في انتقامه وقدرته وعقابه عندما يلزم ذلك في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وعندما يوجب الأمر عقاباً لابد أن يكون عقابه كبيراً ، وخاصة إذا كان الخطأ في حق ٱلله عز وجل ، أو في حق نبيه محمد ﷺ أو أي نبي من أنبيائه الكرام ـ صلوات ٱلله وسلامه عليهم ـ فلابد أن يكون للخليفة درعاً قوياً بقدرته للتصدي للأعداء ، ورد كيدهم إلىٰ نحورهم ، كما عليه أن يكون في حجته في الرد علىٰ هـٰؤلاء المتنطعين والمتشدقين علىٰ من هو أعظم من وطأت قدمه الأرض فهم لا يرتقون حتىٰ إلىٰ مستوىٰ التراب الذي وطأه نعل الرسول ﷺ وقد وقف هـٰذا الموقف في زمن الرسول الكريم شاعر الرسول حسان بن ثابت عندما ردَّ علىٰ أبي سفيان بن الحارث عندما هجا رسول ٱلله ﷺ قائلاً :

ألا أبلــــغ أبـــا سفيـــان عنـــي ... مغلغلـــةً فقـــد بـــرح الخفـــاء

هجـــوتَ محمـــداً فـــأجبـــت عنـــه ... وعنـــد ٱلله فـــي ذاك الجـــزاء

فـــإن أبـــي ووالـــده وعـــرضـــي ... لعـــرض محمـــدٍ منكـــم وقـــاء

أتشتمـــــه ولســـــت لـــــه بكـــــفءٍ فشـــرُّكمــا لخيــركمــا الفــداء
لســـانــي صـــارمٌ لا عيـــبَ فيـــه وبحـــري لا تكـــدِّره الـــدِّلاء [1]

وعليه : فالخليفة لا بدَّ أن يكون مطيعاً لمن استخلفه ، فينفذ ما أمر بتنفيذه فيما اسْتُخْلِفَ فيه علىٰ الحق ، وقد جاء بهـٰذا المعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ، وفي هـٰذه الآية أمرٌ بالإيمان والإنفاق من مال ٱلله الذي استخلفنا فيه بأن نُخْرِج حق ٱلله فيه وهي الزكاة ، وأن نعطي الفقراء والمساكين الصدقات والهبات وغيرها من طرق الإنفاق المشروعة ، فإن فعلنا ذلك ؛ نكون قد أطعنا ٱلله تعالىٰ ، ووجب لنا علىٰ تلك الطاعة الأجر الكبير الذي وعد ٱلله تعالىٰ به كل من يطيعه فيما أمر ، ونهىٰ .

والطاعة لها ثلاثة أسباب ، هي :

1 ـ الخوف :

وهو الخوف من قدرة ٱلله عز وجل ، والخوف من عقابه الأليم الذي توعد به العصاة والمخالفين لأوامره ، والمنتهكين لحرماته ونواهيه ، وعلامة الخوف تظهر علىٰ العبد في تصرفاته ، وذلك بأن يترك جميع المحرمات ، وأن ينأىٰ بنفسه عن ما يؤدي إليها ، وأن يسعىٰ دائماً إلىٰ مرضاة ٱلله تعالىٰ خوفاً منه وطمعاً في نعيمه . والخوف هنا ليس نتاج جبن ، بل نتاج قوة الإيمان المطلق بالكبير المطلق جل جلاله .

2 ـ الرجاء :

وهو لا فضل إلا من صاحب الفضل المطلق عز وجل ، ولا طمع إلا فيما عنده سبحانه وتعالىٰ من نعيم لا ينفد ، وراحة لا تنتهي ، وجنة عرضها

(1) سيرة ابن هشام ، ج4 ، ص 64ـ66 .

السمٰوات والأرض ، وعزة في الدنيا والآخرة ، وهٰذا كله يتطلب حصول الطاعة للخالق الرحمٰن الرحيم ، وعلامة الرجاء هي كثرة العبادة بأداء الفرائض علىٰ تمامها والإكثار من فعل النوافل والقربات التي تقرب من ٱلله عز وجل وينال بها رضاه سبحانه وتعالىٰ . فالرجاء نطلبه من ٱلله وحده ، وهو نتاج الثقة الإيمانية به رباً بيده المُلك وبيده الرحمة وهو مجيب الدعاء لمن يدعوه بقلب سليم . اللهم أرحمنا ، وامنحنا في الدارين إيماناً وافياً ، وعلماً نافعاً ، وملكاً واسعاً ، واحفظنا من كل سوء ! بك آمنا ، وعليك توكلنا ، وأولينا أمرنا إليك سبحانك إنك الكبير المتعال مجيب الدعاء ! وسبحان ٱلله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلا ٱلله ، والله أكبر .

3 ـ المحبة :

وهي أن يكون ٱلله عز وجل ، ودينه ، وأنبياؤه أحبَّ للعبد الخليفة من ماله وزوجه وولده ووالديه اللذين لا يعصيهما في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، فهو الذي يسترخص في سبيل ٱلله وإعلاء كلمته والدفاع عن أنبيائه ـ صلوات ٱلله وسلامه عليهم ـ كل نفيسٍ وغالٍ ، فيستحق بذلك رضا ٱلله تعالىٰ ، وشفاعة سيدنا محمد بن عبد ٱلله ﷺ . فالمحبة قيمة لا تتحقق إلا في ظل صدقٍ وصفاء يجعل العشق روح بين الخالق والمخلوق .

وعلامة المحبة هي الاشتياق الذي يمدُّ العاشقين بالطاقة الفاعلة لكل خير في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، مما يجعل المحبَّ في ٱلله يحرص دائماً علىٰ أن يكون مصلحاً في الأرض وغير مفسد فيها ، وهو المكثر من العبادات وأعمال الطاعات وأفعال الخير ، فلا يترك صلاته إلا وهو في شوق لصلاته القادمة ليكون دائماً علىٰ اتصال بالله عز وجل ، فيكون بذلك ممن يظلهم ٱلله في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله ، وفي ذلك يقول رسول ٱلله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي ٱلله عنه :

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ ٱللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ إِمَامٌ

عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ ٱللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي ٱللهِ اجْتَمَعَا عَلَىٰ ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عليه ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ ! وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا ؛ حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » [1] .

وللمعصية ثلاث علامات هي :

1 ـ التَّـكبُّر :

أي : الاستكبار عن الطاعة وعدم الاعتراف بالحق بدون حجة ولا دليل ، إلا لمعاندة وجحود ، وإنكار للنعم ، وقد ظهرت هـٰذه العلامة علىٰ إبليس ـ لعنه ٱلله ـ وذلك عندما أمر ٱلله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم فأبىٰ ، واستكبر علىٰ أن يطيع الأمر الإلـٰهي ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2] . وقال أيضاً : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [3] . التكبر اصطناعي وهو الذي يحدث في غير محله ، أي : أنه الذي يحدث من الصغير (صغير الشأن) ، ولهـٰذا فالمؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يتكبر علىٰ أحد ، بل هو الذي يكبر بإيمانه قولاً صادقاً ، وفعلاً صادقاً ، وقدوةً حسنةً في المهارة والمسلك ، يُرضي ٱلله ، ويُرضي نفسه ، ويُرضي العباد .

2 ـ الحرص :

وهو الحرص علىٰ الحياة الدنيا ، والسعي وراء المال والجاه والخلود ،

---

(1) موطأ مالك ، ج 6 ، ص 22 .
(2) البقرة ، 34 .
(3) ص ، 75 ـ 76 .

وكل ما تهواه النفس البشرية ، وقد ظهرت هـٰذه العلامة علىٰ آدم ﷺ عندما أسكنه ٱلله وزوجه الجنة وأمره ألا يقرب الشجرة التي نهاه عن عنها ، فوسوس إليه الشيطان ، فدفعه حرصه ، وطمعه علىٰ أن يخالف أمر ٱلله ، فأكل منها ، وكانت النتيجة أن بدت لهما سوءاتهما لبعض ، كما أخبر بذلك ٱلله سبحانه وتعالىٰ في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (1) . مع أن ما حدث كان معصية ، إلا أن ما حدث كان آية لتستمد منها العظة ، وتؤخذ العبر منها في الحياة ؛ ليتقي الإنسان ربه .

3 ـ الحسد :

وهو الغلُّ في نفوس البشر وتمني ما عند الآخرين ، وزوال ما وهبهم ٱلله من نِعَم ، وقد ظهر ذلك علىٰ قابيل ابن آدم حين قدَّم هو وأخوه قرباناً فَتُقُبِّلَ من أخيه ولم يُتَقَبَّل منه ، وفي ذلك يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (2) .

ولهـٰذا فلابد أن يكون الخليفة لله متصفاً بصفاته ، ملتزماً بأوامره ، مبتعداً عن نواهيه ، مطيعاً له ، شديد الخوف منه ، دائم الرجاء فيه ، كثير الشوق والمحبة له ، وأن يعمل علىٰ تطهير نفسه من التكبر علىٰ ٱلله تعالىٰ وعلىٰ العباد ، فيكون متواضعاً حليماً حكيماً ، وألا تكون الدنيا أكبر همه ،

---

(1) طه ، 116ـ121 .

(2) المائدة ، 27 .

فلا يحرص إلا علىٰ رضا ٱلله بالأقوال والأفعال ، وأن يملأ قلبه بالقناعة والرضا بما خصه ٱلله عز وجل ، فيكون كبيراً عن الصغائر ، متعالياً بنفسه عما يشينها من الأفعال ، والأقوال .

فالعظمة ، وعلو الشأن ، والرفعة ، والكبرياء هو ما تضمنه اسمه الكبير المتعال وما في معناها ، واستلزمته جميع صفات كماله ونعوت جلاله ، فهو كما وصف نفسه بقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (1) فتعالىٰ في أحديته أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً له ، أو ظهيراً ، أو شفيعاً عنده بدون إذنه أو عليه يجير ، وتعالىٰ في عظمته وكبريائه وملكوته وجبروته عن أن يكون له منازع ، أو مغالب ، أو ولي من الذل ، أو نصير ، وتعالىٰ في صمديته عن الصاحبة والولد والوالد والكفؤ والنظير ، وتعالىٰ في كمال حياته وقيوميته وقدرته عن الموت والسِّنَة والنوم والتعب والإعياء ، وتعالىٰ في كمال علمه عن الغفلة والنسيان وعن عزوب مثقال ذرة عن علمه في الأرض أو في السماء ، وتعالىٰ في كمال حكمته وحمده عن خلق شيءٍ عبثاً وعن ترك الخلق سدىٰ بلا أمر ، ولا نهي ، ولا بعث ، ولا جزاء ، وتعالىٰ في كمال عدله عن أن يظلم أحداً مثقال ذرة ، أو أن يهضمه شيئاً من حسناته ، وتعالىٰ في كمال غناه عن أن يُطعم أو يُرزق أو يفتقر إلىٰ غيره في شيء ، وتعالىٰ في جميع ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله عن التعطيل والتمثيل ، وسبحانه تنزه وتقدس عن كل ما ينافي إلـٰهيته وربوبيته وأسماءه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) فَلِلَّه الصفات الحسان ، وهو العجيب الشأن فىٰ القدرة الكاملة والحكمة التامة في السموات والأرض ،

---

(1) الشورىٰ 11 .

(2) الروم 27 .

وهو الغالب علىٰ أمره ، الحكيم فىٰ فعله وتقديره ، الكبير في ملكه ، والكبير في قدرته ، والكبير في أفعاله وصفاته ، خارج الحيِّز والزمان والمكان ؛ لأنه سبحانه خالق الخلق ومالك الملك ، فمن هنا نقول : أنه يستحيل علىٰ ٱلله تعالىٰ المشابهة والتمثيل والتقدير ، كما يذهب بعض الجاهلين بقولهم إذا كان سبحانه أكبر من الحيِّز فأين هو ؟ وللإجابة عن صفة ٱلله تعالىٰ الكبير المتعال لا من حيث الحجم ، ولا من حيث المادة ، ولا من حيث العرض ، ولا الجوهر ، وإنما : « إن قلت ، أين هو ؟ فقد سبق المكان وجوده ، فمن أين الأين ، لم يفتقر وجوده إلىٰ أين . هو بعد خلق المكان ، غني بنفسه كما كان قبل خلق المكان ، وكيف يحلُّ فيما منه بدأ . أو يعود إليه ما أنشأ . وإن قلت : ما هو ؟ فلا ماهية له . (ما) موضوعة للسؤال عن الجنس ، فالجنس مخصوص بمعنىٰ داخل تحت الماهية . وإن قلت : كم هو ؟ فهو واحد في ذاته . متفرد بصفاته . وإن قلت : متىٰ كان ؟ فقد سبق الوقت كونه . وإن قلت : كيف هو ؟ فمن كيَّف الكيفية لا يقال له كيف . ومن جازت عليه الكيفية ؛ جاز عليه التغيير » [1] .

وأما الكبير بالإضافة وهو خليفة ٱلله في الأرض فيجوز عليه الحيِّز ، والزمان ، والمكان ، والمادة ، والعرض ، والجوهر ، إلا أنه كبير من حيث الصفات المادية والمعنوية وما تمتع به من القيم الأخلاقية الفاضلة النبيلة ، وما يندرج تحت ذلك من الإيمان والتقوىٰ والعلم ، فكان الخليفة كبيراً بما اتصف به من الصفات النسبية للكبير المطلق ، فهو الداعي إلىٰ الخير ومكارم الأخلاق ، ويهدي إلىٰ صراط ٱلله المستقيم الذي أمره به الكبير جل جلاله ، فيطيع من شاء ٱلله له الهدىٰ ، ويعصي من كُتب عليه الشقاء ، فيكون الخليفة شاهداً عليهم وعلىٰ أعمالهم وأفعالهم ، فقد قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ

(1) سراج الملوك ، ج 1 ، ص 191 .

أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [1] فالله سبحانه وتعالىٰ جعل الأنبياء والخلفاء والأولياء شهداء علىٰ الناس ، ثم أيدهم بشهادته علىٰ أفعال الخلق وأعمالهم ، حيث إن ٱلله أكبر شهادة من الجميع ، فشهادته أكبر من شهادة الخلق ؛ لأن شهادة الخلق وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلها ، والحق سبحانه هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء ، لذلك أمر الخليفة أن يتولىٰ الجواب بنفسه للإيذان بتعينه ، وعدم قدرتهم علىٰ أن يجيبوا بغيره ، لأن ٱلله أعظم شاهد بينه وبينهم علىٰ صدق ما جاءهم به ، فهو الكبير جل جلاله بالقوة والقهر والغلبة والعلم ، وهو يدبِّر الأمور ويصرِّفها كيف يشاء ، حيث يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ، ويثقل ، ويغمُّ ، ويحزن ، ويفقر ، ويميت ، ويذل خلقه ، فلا يستطيع أحد من خلقه ردَّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره ، وتقديره ، وعلوِّه ، وكبريائه .

وأما الذين يصفونه بالعلوِّ ، والسفول من الذين وقفوا علىٰ أحاديث النزول ، والآيات التي تصف الذات الإلـٰهية بالمجيء ، وما إلىٰ ذلك ، فهم إما أساؤوا تفسير تلك الآيات ، والأحاديث ، وإما تعمَّدوا ذلك طعناً في الدين . فمن أحاديث النزول قوله ﷺ : « إذا كان يوم عرفة إن ٱلله ينزل إلىٰ السماء فيباهي بهم الملائكة ، فيقول : انظروا إلىٰ عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين من كل فجٍّ عميق ، أشهدكم : أني قد غفرت لهم ، فتقول له الملائكة : أي رب ! فيهم فلان يزهو ، وفلان ، وفلان . قال : يقول ٱلله : قد غفرت لهم ، فما من يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة » [2] فالذين يقولون : هو فوق العرش وهو أيضاً في كل مكان ، والذين

---

(1) الأنعام 19 .

(2) صحيح ابن خزيمة ، ج 10 ، ص 227 .

يقولون : إذا نزل كل ليلة فإنه يخلو منه العرش ، أو غيره من المخلوقات أكبر منه ، ويقولون : لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر من المخلوق ، وأنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق فهـٰؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء ، بل ولا هو علىٰ قولهم : الكبير المتعال ، ولا هو العلي العظيم .

وللرد علىٰ هـٰؤلاء نقول : إن ٱلله تعالىٰ كبير لا بمعنىٰ الحجم والمكان ، ولا تنسحب عليه صفات المخلوقين ، ولا يمكن أن يستوي الخالق والمخلوق في صفة من الصفات وإن كانت بعض الصفات مشتركة بين الخالق والمخلوق ، إلا أن هـٰذه الصفات تفصل بينها الإضافة النسبية والمطلقة الكلية ، وعلىٰ هـٰذا فمسألة النزول لا كما يتصورها هـٰؤلاء وأمثالهم ، وإنما هي في حق ٱلله تعالىٰ الكبير المتعال ، كالسمع والبصر وبقية الصفات حيث يسمع بغير صوت وآذان ، كما يتكلم بغير حرف ، ويبصر بغير جارحة ، وعلىٰ هـٰذا فإنه ينزل ، ولا يخلو منه العرش ، ومن قال بغير هـٰذا فقد ظهر منه فساد القول شرعاً وعقلاً ، وإذا قيل : إن أحاديث النزول لا تحتمل التأويل والتفسير ، فهـٰذا صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهـٰؤلاء ونحوهم ، من أنه سبحانه وتعالىٰ ينزل إلىٰ أسفل فلا يسعه المكان ، وإذا وسعه المكان صار تحت العرش ، وإذا كان ذلك كذلك ، فليس هو كما وصف نفسه بأنه كبير متعال ، ولـٰكن القول الفصل ما جاء في آية الكرسي حيث قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (1) ففي هـٰذه الآية كما أن كرسيه وسع السموات والأرض ، كذلك اسم العلم علىٰ الذات الإلـٰهية وهو لفظ الجلالة (الله) وسع أسماءه الحسنىٰ كلها ، فالله هو الذي يستحق أن يُعبد دون

(1) البقرة 255 .

سواه ، وهو الباقي القائم علىٰ شؤون خلقه دائماً ، الذي لا يغفل أبداً ، فلا يصيبه فتور ولا نوم ولا ما يشبه ذلك لأنه لا يتصف بالنقص في شيء ، وهو المختص بملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك أحد ، وبهٰذا لا يستطيع أي مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن ٱلله ، وهو سبحانه وتعالىٰ محيط بكل شيء ، عالم بما كان وما سيكون ، ولا يستطيع أحد أن يدرك شيئاً من علم ٱلله إلا ما أراد أن يُعلم به من يرتضيه من خلقه . وسلطانه الواسع الذي يشمل السموات والأرض أكبر من أن يوصف ، فكيف بذاته توصف ، فلا يصعب عليه تدبير ذلك ؛ لأنه المتعالي عن النقص والعجز ، العظيم بجلاله وسلطانه .

وهٰذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال علىٰ الذات الجامعة للصفات الإلٰهية كلها حتىٰ لا يشذ منها شيء ، وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا علىٰ آحاد المعاني من علم ، أو قدرة ، أو فعل ، وغيره ، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد علىٰ غيره لا حقيقة ولا مجازاً ، وسائر الأسماء قد يسمىٰ بها غيره ، كالقادر والعليم والرحيم ، وغيرها . فالله سبحانه وتعالىٰ أكبر من أن يصفه الواصفون أو يحده أحد باجتهاد نزول أو صعود ، لأن ذلك يقتضي نوع من المجانسة والمشاكلة ، وهو مقدس عن مجانسة ما سواه ، فلهٰذا السبب كل كلام اشتمل علىٰ نعوت جلاله وصفات كبريائه ؛ كان ذلك الكلام في نهاية الجلال والشرف ، ولما كانت هٰذه الآية كذلك ، كانت بالغة في الشرف إلىٰ أقصىٰ الغايات وأبلغ النهايات بما لا يدع مجالاً لمجتهد في حدٍّ كبرياء ٱلله تعالىٰ وعلوه وعظمته من خلال ما وسع كرسيه السموات والأرض .

فالله سبحانه وتعالىٰ ، عندما ينزل إلىٰ السماء الدنيا أو غيرها مما يشاء ، فهو نزول قدرة وسمع وبصر وضر ونفع وتوبة ومغفرة وما إلىٰ ذلك مما خص به نفسه جلت قدرته ؛ حيث قال رسول ٱلله ﷺ : « إن ٱلله يمهل حتىٰ إذا ذهب ثلث الليل الأول ، نزل ربنا تبارك وتعالىٰ إلىٰ السماء الدنيا فيقول جل وعلا : هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ هل من داع ؟ حتىٰ

ينفجر الصبح »[1] . ولا يكون معنىٰ النزول بالمادة ؛ لأنه تعالىٰ أكبر من المادة ، ولا يغادر مكاناً نزولاً إلىٰ مكان ، لأنه هو خالق المكان وغيره ، فلو كان الأمر علىٰ ما يقولون ، لجاء بالمكان إليه ، ألا ترىٰ الملوك والسلاطين : أنهم لا يتجشمون عبء الرحيل والسفر إلىٰ رعاياهم ، بل يطلبونهم إليهم إلىٰ حاضرة الملك ودار السلطان ، فكيف بخالق الخلق يكلف نفسه الهبوط والصعود لخلق هو خالقهم ، فوالله لا يستقيم هـٰذا الأمر لعاقل ، فإن صح هـٰذا علىٰ قول هـٰؤلاء فلا يبقىٰ حينئذ الكبير ولا العظيم ولا العلي ولا الأعلىٰ بل يكون تارة أعلىٰ ، وتارة أسفل ، تعالىٰ ٱلله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . غير أنَّ الكبير بالإضافة يدخل ويخرج ويصعد وينزل من أجل تنفيذ أوامر الكبير المطلق بما هو مكلف به كونه خليفة الكبير المتعال ، وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ، ومن نزوله إلىٰ الأرض لما خلقها ، ومن نزوله لتكليم موسىٰ ، وغير ذلك كله من باب واحد كقوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[2] إن الإتيان هنا ليس مجيء ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ولـٰكن إتيان أمره بالعذاب الذي كلف به الملائكة ؛ لأن ٱلله تعالىٰ منزه عن المجيء ، والذهاب المستلزمين للحركة والسكون ؛ لأن كل ذلك محدث ، وكل محدث مخلوق ، فيكون كل ما يصح عليه المجيء والذهاب محدثاً مخلوقاً له بأمره وقدرته ومشيئته ، والإلـٰه يستحيل عليه أن يكون كذلك .

ومثل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3] والمعنىٰ هنا : أنه جاء أمر ربك من خلال مظاهر يوم القيامة التي تتبدل فيها الأرض غير الأرض والسمـٰوات، وليس الأمر كما يقول بعض المشبهة ، والمجسمة من أنه

(1) صحيح ابن حبان ، 4 ، 332 .
(2) البقرة 210 .
(3) الفجر 22 .

يأتي ، ويجيء بحيث يخلو منه مكان ، ويشغل آخر ، فيخلو منه ما فوق العرش ، ويصير بعض المخلوقات فوقه ، فإذا أتىٰ وجاء علىٰ ما يقولون ؛ لم يكن علىٰ قولهم العلي الأعلىٰ ، ولا كان هو العلي العظيم . لا سيما إذا قالوا : إنه يحويه بعض المخلوقات ، فتكون أكبر منه سبحانه وتعالىٰ عما يقول هـٰؤلاء وهـٰؤلاء علواً كبيراً !

فالله سبحانه كبير في كل صفة وصف بها نفسه دون تشبيه ولا تمثيل ، لا يحوطه زمان ولا يحويه مكان ، فهو : « الذي لم يزل ولا يزال . وهو الكبير المتعال . خالق الأعيان والآثار . ومكور النهار علىٰ الليل والليل علىٰ النهار ، العالم بالخفيات ، وما تنطوي عليه الأرضون والسمـٰوات ، سواء عنده الجهر والأسرار . ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، خلق الخلق بقدرته ، وأحكمهم بعلمه ، وخصهم بمشيئته ، ودبرهم بحكمته . لم يكن له في خلقهم معين ، ولا في تدبيرهم مشير ولا ظهير ، وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن . ويستظهر من تقدس عن الذل بمن دخل تحت ذيل التكوين . ثم كلفهم معرفته . وجعل علم العالمين بعجزهم عن إدراكه إدراكاً لهم . كما جعل إقرار المقرين بوقوف عقولهم عن الإحاطة بحقيقته إيماناً لهم . لا تلزمه لم . ولا يجاوره أين . ولا تلاصقه حيث . ولا تحله ما . ولا تعدُّه كم . ولا تحصره متىٰ . ولا تحيط به كيف . ولا يناله أين . ولا تظله فوق . ولا تقله تحت . ولا يقابله جزء . ولا تزاحمه عند . ولا يأخذه خلف . ولا يحده أمام . ولا تظهره قبل . ولم تفته بعد . ولم تجمعه كل . ولم توجده كان . ولم تفقده ليس . وصفه لا صفة له . وكونه لا أمد له ، ولا تخالطه الأشكال والصور ، ولا تغيره الآثار والغير ، ولا تجوز عليه الحماسة والمقارنة ، وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة . إن قلت : لم كان ؛ فقد سبق العلل ذاته . ومن كان معلولاً ؛ كان له غيره علة تساويه في الوجود . وهو قبل جميع الأعيان . بل

لا علة لأفعاله . فقدرة ٱلله في الأشياء بلا مزاج . وصنعه للأشياء بلا علاج . وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه » [1] .

وأما مسألة الأذان في قولنا : ٱلله أكبر ، ٱلله أكبر ، فليس من باب المقايسة بشيءٍ آخر ، وإنما تعني : أن ٱلله كبير ؛ لأنه إنما يفاضل بين الشيئين إذا كانا من جنس واحد ، فيقال : هٰذا أكبر من هٰذا : إذا شاكله في بابٍ من الأبواب من الشكل ، والجنس ، واللون ، والمادة ، والعرض ، والجوهر ، مما يدخل في باب المفاضلة لأجل الاختيار ، ذلك : أن الإنسان دائماً يميل إلىٰ الأفضل والأحسن عندما يخير بين الشيئين أو أكثر ، ولما كان ٱلله سبحانه وتعالىٰ ليس كمثله شيء ، فخرج من باب المقايسة والمفاضلة إلىٰ جهة التخصيص والحصر ، فقد اختص ٱلله سبحانه وتعالىٰ بالكبرياء ، فكان ذلك حصراً عليه جل جلاله ، غير أن التفاضل هٰذا ينسحب علىٰ المخلوقات العاقلة وغير العاقلة ، فأما غير العاقلة فنفاضل بينها للامتلاك ، كالبيت والأرض وما في هٰذه الدنيا من متاع من أجل الزينة والتفاخر وما إلىٰ ذلك كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [2] وأما المخلوقات العاقلة فالتفاضل فيما بينها يكون لسبب آخر ، حيث إن الأولىٰ نفاضل بينها للامتلاك ، بينما نفاضل بين البشر للإتباع ، وعادة : فإن العاقل يتبع الكبير في كل شيء لأنه يحمل سمات الكبير النسبي ، والذي يحمل هٰذه السمات ؛ فهو خليفة ٱلله في الأرض ، فكيف يكون الخليفة كبيراً ؟

ربما يكون السن في بعض الحالات مقياسا للكبير بالإضافة إذا توفرت بقية الشروط التي تجعله كذلك ، ذلك أنَّ السن والتقدم في العمر يحمل الخبرة

---

(1) سراج الملوك ، ج 1 ، ص 22 .
(2) الحديد 20 .

والتجربة في أمور كثيرة ، ولـٰكن يضاف إلىٰ ذلك أن يكون كبيراً في حلمه وعلمه وسعة صدره ، وكبيراً في الإيمان والتقوىٰ ، وكبيراً في العطف والرحمة ، وكبيراً في الشِّدة والقوة من أجل أن يأخذ علىٰ أيدي الذين يسعون في الأرض فساداً ولا تأخذه في ٱلله لومة لائم ، فقد أمر ٱلله تعالىٰ الخليفة بـأوامـر ، ونهـاه عـن منـاهٍ مـن أجـل صـلاح البـلاد والعبـاد ؛ حيـث قـال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [1] فالخليفة يكون كبيراً عندما يمتثل لأوامر ٱلله تعالىٰ بأداء الأمانة التي كلف بها ، وهي توجيه الناس إلىٰ الحق والخير والصلاح والتقوىٰ ، وهـٰذه أمانة الخليفة ، وهي واجبة عليه لجميع المسلمين وغيرهم ، حيث يؤدي الأمانة لجميع المسلمين كونه مرشدهم إلىٰ الحق ، ويوضح لهم ما غاب عنهم ، أو ما لم يعلموه ؛ لأنه هو من أهل الذكر ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ، فالإجابة علىٰ أسئلتهم هو من باب تأدية الأمانة فيما يصلح شأنهم ، ويعلمهم ، ويفقههم وما إلىٰ ذلك من أحوال الدين والدنيا . وأما غير المسلمين ؛ فإنه يؤدي أمانته بأن يبلغهم بما يستطيعون به أن يصلوا إلىٰ الإيمان ، ومن هنا نعلم : أن الخليفة كبير في أمانته ، وأما الأمانة بالمفهوم الآخر لغير الخليفة ، هي إعادة ما كان شخص اتمنك علىٰ حاجته وقت طلبها ، وهو عبارة عما وجب لغيرك عليك من حق فأديت ذلك الحق إليه . وأما الحكم بالحق فهو عبارة عما وجب للإنسان علىٰ غيره من حق ، فيأمر الخليفة من وجب عليه ذلك الحق بان يدفع إلىٰ من له ذلك الحق .

ولما كان الترتيب الصحيح أن يبذل الخليفة نفسه في جلب المنافع ودفع المضار ، ثم يشتغل بحال غيره ، فالله تعالىٰ ذكر الأمر بالأمانة أولاً ثم بعده ذكر

---

(1) النساء 58 .

الأمر بالحكم ، ويدخل فيه جميع أنواع الأمانات . ومعاملة الخليفة إما أن تكون مع ربه أو مع سائر العباد أو مع نفسه ولا بد من رعاية الأمانة في جميع هـٰذه الأقسام الثلاثة ، أما رعاية الأمانة مع ٱلله ؛ فهي فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، وهـٰذا ما لا يقدر عليه إلا ذو حظٍّ عظيم . والأمانة فىٰ كل شيء لازمة في الوضوء ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، وغير ذلك من الجوارح والمدارك ، فمثلاً إن أمانة اللسان ألا يستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والكفر والبدعة والفحش وغيرها . وأمانة العينين ألا يستعملهما في النظر إلىٰ الحرام ، وأمانة السمع ألا يستعمله في سماع الملاهي ، والمناهي ، واستماع الفحش ، والأكاذيب ، وغيرها ، وكذا القول في جميع الأعضاء .

أما الذي لا ينصاع إلىٰ ما أمر به الكبير المطلق ويسعىٰ في الأرض فساداً ، ويعمد إلىٰ الأذىٰ والإضرار بمصالح الناس ؛ فهـٰذا من باب التكبر علىٰ خلق ٱلله الذي توعده ٱلله تعالىٰ عليه بأشد العذاب ؛ لأنهم ظلموا الآخرين ، وظلموا أنفسهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [1] فهـٰؤلاء ظلموا الآخرين بما كانوا يفعلون من سوء الأعمال في الاعتداء علىٰ الناس ، وهضم حقوقهم ، وأما ظلمهم لأنفسهم ؛ فقد أودوا بها إلىٰ التهلكة بما كانوا يصنعون ويقترفون من ذنوب ، والذين يكون هـٰذا دأبهم وسعيهم ولا يمتثلون لأوامر الكبير المتعال فقد شطوا شططاً كبيراً في أنواع التكبر المختلفة ، وأولها التكبر علىٰ ٱلله تعالىٰ بعدم الامتثال لما أمر به من الطاعات ، وعدم الابتعاد عما نهىٰ عنه ، وهو أقبح أنواع الكبر وأخبثها ، ومردُّ ذلك إلىٰ الجهل الذي سيطر علىٰ صاحبه بحيث يزين له سوء عمله . ثم التكبر علىٰ الكبير بالإضافة الذي كان

(1) النحل 28 ـ 29 .

يرشدهم ويسدي إليهم النصح من أجل إصلاحهم وصلاحهم ، وكونهم تعززوا بأنفسهم ، وترفعوا عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس . وهٰذا التكبر أيضا كالتكبر علىٰ ٱلله تعالىٰ ، وبذلك استحقوا العذاب . والنوع الآخر التكبر علىٰ العباد ، وهو بأنهم يستعظمون أنفسهم ، ويحتقرون غيرهم ، فيأبون الانقياد للحق ، مما يدعوهم إلىٰ الترفع عليهم ، فيزدرون الآخرين ويستصغرونهم ويستنكفون عن مساواتهم ، وهو أيضا قبيح وصاحبه جاهل كبير يستحق سخطاً عظيماً من الكبير المتعال إذا لم يتوبوا . فالكبر ينقسم إلىٰ تكبُّر ، واستكبار ؛ حيث إنَّ : « الكبر هو الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه . والاستكبار علىٰ وجهين : أحدهما : أن يتحرىٰ الإنسان ، ويطلب أن يصير كبيراً ، وذلك متىٰ كان علىٰ ما يحب ، وفي المكان الذي يحب ، وفي الوقت الذي يحب ، وهو محمود . والثاني : أن يتشبع ، فيظهر من نفسه ما ليس له . وهو مذموم ، والتكبر علىٰ وجهين أيضاً ، الأول أن تكون الأفعال الحسنة كثيرةً في الحقيقة ، وزائدةً علىٰ محاسن غيره ، وعلىٰ هٰذا وُصف ٱلله تعالىٰ بالمتكبر . والثاني أن يكون متكلفاً لذلك ، متشبعاً ، وذلك في وصف عامة الناس . والتكبر علىٰ الوجه الأول محمود ، وعلىٰ الثاني مذموم » (1) .

ولذلك فإن ٱلله تعالىٰ نهىٰ عن الكبر ، واختص نفسه بهٰذه الصفة ؛ لأنه حكم عدل لا يظلم أحداً ، وخالق بارئ مصور ، فكان حقيقاً له أن يكون كبيراً جل شأنه وعظُمت قدرته ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، فالذي يخلق فيهدي ، والذي يحكم فيعدل ، والذي يرزق فيغني ؛ لهو جدير بأن يكون كبيراً ، ومن هنا نهىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ خلقه عن الكبر ؛ لأنهم لا يملكون مقومات الكبير إلا ما يتصف به الخليفة كونه كبيراً بالإضافة من قوة في غير ضعف ، وشدَّة من غير عنف لذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(1) تفسير الآلوسي ، ج 10 ، 144 .

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (1) حيث نهىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يقطب الإنسان وجهه في وجه أخيه الإنسان ، أو أن يميل بخده ؛ أي : يعرض عن الآخرين تكبراً ، ولا يمشي في الأرض معجباً بنفسه ، فإنه لن يستطيع أن يخرق الأرض ، ولا يبلغ الجبال طولا ، فهـٰذه آيات ٱلله التي خلقها شاهدة علىٰ ضعف الإنسان ، وضآلته فعلىٰ أيِّ شيءٍ يتكبر وهـٰذه المخلوقات التي لا تعقل هي أعظم منه في كل شيء . ولـٰكن من استخلفه ٱلله في أرضه يكون كبيراً في إقباله علىٰ الناس بجملة وجهه ، لا بطرف عينه ، عند اللقاء والتحية والسلام ، وذلك تواضعاً لهم ؛ لأنه يعلم أن من تواضع رفعه ٱلله ، فلا يعطي شقَّ وجهه ، وصفحيه كما يفعل المتكبرون احتقاراً للناس ، وخاصة إذا كانوا من الفقراء .

غير أن الخليفة يكون عنده الفقير والغني والكبير والصغير والذكر والأنثىٰ في المعاملة علىٰ قدم المساواة بينهم فيما عليه عامة الناس ، فمن خرج عن الأعراف المعهودة ، والقيم المتماثلة ، والأخلاق العامة التي تواطأ عليها المجتمع ؛ فإن واجب الخليفة أن يقوِّم هـٰذا الذي خالف الناس بهديه وإرشاده ، وإعادته إلىٰ جادة الصواب حتىٰ لا يصبح من المتكبرين ؛ لأن الخليفة يكون نصب عينيه ما قاله تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (2) فهـٰذه أخلاق الخليفة ذلك : أنه من عباد الرحمـٰن ، فهم الذين يتواضعون فىٰ الدنيا ، إذا مَشوْا علىٰ الأرض ؛ مشوا فىٰ سكينة ووقار ، وكذلك فىٰ سائر أعمالهم ، وإذا سابَّهم السفهاء ؛ تركوهم وشأنهم ، وذلك

(1) لقمان 18 .

(2) الفرقان 63 ـ 67 .

لسعة حلمهم وعظيم هيبتهم ، وترفعهم عن الرذائل ، وتعلقهم بالفضائل ، وذلـك مـن رجـاحـة العقـل ، وحسـن التـدبيـر والتصـرف ، فمـن هـٰـذا القبيـل : أنـه : « شتـم رجـل رجـلاً ، فسكـت عنـه ، فقيـل لـه : لمـاذا ؟ فقـال : أرأيـت إن نبحـك كلـب ؛ أتنبحـه ؟ وإن رمحـك حمـار ؛ أترمحه ؟ »[1] .

أما عباد الدنيا والشيطان والنفس والهوىٰ ؛ فإنهم وإن كانوا عباداً بالإيجاد حيث أوجدهم الخالق ، لـٰكنهم ليسوا بأهل لإضافة التشريف والتفضيل من حيث عدم اتصافهم بالصفات التي هي آثار رحمته تعالىٰ الخاصة المفضلة علىٰ خواص العباد ، فهـٰؤلاء المتكبرون هم أهون خلق ٱلله علىٰ ٱلله ؛ لأنه هو الكبير المتعال ، فمن تكبر قصمه ٱلله ، ومن تواضع لله رفعه درجات .

نسأل ٱلله تعالىٰ الكبير المتعال ؛ الذي ثبَّت الأرض بأوتاد الجبال ، وروَّىٰ نباتها من السحاب الثقال أن يرزقنا التواضع لكبريائه ، ويرفعنا به إلىٰ الدرجات العلىٰ ! اللهُمَّ اجعلنا من المتقين الوارثين الجنة ، ولا تحرمنا رفدك ورحمتك يا عظيم المنة !

اللهُمَّ أنت الكبير ، ذو الفضل الجزيل ، والعز الجليل ، نسألك الأمن والأمان !

اللهُمَّ يا كبير ، يا واسع الرحمة والمغفرة نسألك أن تتغمدنا برحمتك في الدنيا والآخرة ، وأن ترحم ضعفنا بقوتك ، وتجبر كسرنا بكبريائك ، وتشد أزرنا باعتصامنا بك ، وترحم ذلنا بعزتك ، وتهدينا سبلنا برشدك ، وتسدل علينا ثوب الستر في الدنيا والآخرة ، ولا تكلنا لأنفسنا فنشقىٰ ، ولا إلىٰ الناس فنضل !

---

(1) ربيع الأبرار ، ج 1 ، ص 146 .

اللهُمَّ اجعل توكلنا عليك ، فأنت الكبير الذي لا تدركه البصائر ، ولا تحيط بكنهه الأبصار ، تباركت ربنا وتعاليت ، لا ملجأ منك إلا إليك ، لك الحمد حتىٰ ترضىٰ ، ولك الكبرياء في الآخرة والأولىٰ ، فاغفر لنا ما نعلم ، وتجاوز لنا عمّا لا نعلم ، إنك سميع مجيب !

اللهُمَّ إنك الكبير الذي يَكنُّ في الصدور ، وتطمئن به الأنفس ، ويعلو في المآذن فيربط علاقة بين الأرض والسماء نشهدك ، ونوحدك ، ولا نشرك بك شيئاً ، اللهُمَّ إنك خلقت كل شيء فيه إعجاز كبير وأنت الأكبر ، فلا تجعلنا نسجد ، أو نركع لكبير سواك ، ونشهد : أنك الأول الكبير الذي ليس قبله شيء وكل شيء منه أصغر ، وإنك الآخر الأكبر الذي ليس بعده شيء أكبر ، وأنك الكبير الذي لا بداية له ولا نهاية ، سبحانك جلَّ جلالك !

اللهُمَّ إن عقابك كبير ، وحسابك عسير ، ورحمتك ومغفرتك تيسير ، فنحمدك علىٰ شدة عقابك للكافرين ، والمشركين ، والفاسقين ، ونحمدك علىٰ واسع رحمتك ، ومغفرتك للمهتدين ، إنك أنت الرحمـٰن ، سبحانك جل جلالك !

الحفيظ جلّ جلاله

الحفيظُ : « الحافِظُ لمن يشاءُ من الشَّرِ والأذىٰ والهَلَكَةِ والبلاء . واسم ٱلله الحفيظ يدل علىٰ ذات ٱلله . وصفة الحفظ من صفات الفعل بدلالة المطابقة وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمُّن وعلىٰ صفة الحفظ وحدها بدلالة التضمُّن » (1) .

الحفيظ : من أسمائه الحسنىٰ ، وهو جل جلاله لا يَعْزُب عن حفظه الأَشْياء كلُّها مِثقالَ ذرّة في السموات والأرض ، وقد حفِظ علىٰ خلقه وعباده ما يعملون من خير أَو شرّ ، وقد حفِظ السمواتِ والأرضَ بقدرته ، ولا يؤُوده حفظهما ، وهو العليُّ العظيم . وفي التنزيل العزيز : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (2) . أَي : القرآنُ المجيد في لوح محفوظ من عند ٱلله تعالىٰ ، قال عزّ وجلّ : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (3) وقرئ : (خير حِفْظاً) نصب علىٰ التمييز ومن قرأَ (حافظاً) جاز أَن يكون حالاً ، وجاز أن يكون تمييزاً . وقال ابن سيده : الحِفْظ نقيض النِّسْيان ، وهو التعاهُد ، وقلَّة الغفلة . وإنه لحافظُ العين ؛ أَي : لا يغلِبه النوم . وقال الأَزهري : رجل حافِظ ، وقوم حُفّاظٌ ، وهم الذين رُزِقوا حِفْظَ ما سَمِعوا ،

---

(1) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 19 ، ص 13 .

(2) البروج 21 ، 22 .

(3) يوسف 64 .

وقلما يَنْسَوْنَ شيئاً يَعُونَه . وقال غيره : الحافِظُ ، والحَفِيظُ الموكَّل بالشيء يَحْفَظه [1] . يقال : فلان حَفِيظُنا عليكم ، وحافِظُنا . والحَفَظة : من الملائكة الذين يُحْصُونَ الأعمال ، ويكتبونها علىٰ بني آدم ، وهم الحافظون . وفي التنزيل : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [2] ولم يأْت في القرآن مكسَّراً . و حَفِظَ المالَ ، والسِّرَّ حِفْظاً : رَعاه . وقوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [3] قال الزجّاج : حَفِظه اللهُ من الوُقوع علىٰ الأرض إلاَّ بإذْنه وقيل : مَحْفوظاً بالكواكب ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [4] . والاحْتِفاظُ : خصوص الحِفْظ . يقال : احْتَفَظْتُ بالشيء لنفسي ، وذلك بأسباب الخصوصية . ويقال : استحفظْت فلاناً مالاً : إذا سَأَلتَه أَن يَحْفَظه لك . و استحفظته سِرَّاً واستحفظه إياه : اسْترعاه [5] . وفي التنزيل في أَهل الكتاب : ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [6] أَي : استُودِعوه وائتمنوا عليه . واحتفظ الشيءَ لنفسه : خَصَّها به . والتحفُّظ : قلَّة الغَفْلة في الأُمور ، والكلام ، والتيقُّظ من السَّقْطة ، كأَنه علىٰ حَذر من السُّقوط ، والمُحافَظة : المُواظَبة علىٰ الأمر . ويقال : حافَظ علىٰ الأمر ، والعَملَ ، وثابَرَ عليه ، وحارَصَ وبارَك : إذا داوَم عليه . وحَفِظْت الشيءَ حِفْظاً : أَي حَرَسْته و حَفِظتُه أَيضاً بمعنىٰ استظهرته . و المحافظة : المُراقبة . ويقال : إنه لذو حِفاظٍ ، وذو مُحافظة : إذا كانت له أَنفةٌ . والحَفِيظ : المُحافِظ . ويقال : احْتفِظْ بهٰذا الشيء . أي : احْفظْه .

(1) لسان العرب المحيط ، ج 7 ، ص 440 .
(2) الانفطار 10 .
(3) الأنبياء 32 .
(4) الصافات 6 ـ 7 .
(5) تاج العروس ، ج 1 ، ص 5054ـ 5055 .
(6) المائدة 44 .

والتحفُّــظ : التيقُّــظ . واستحفظتــه : ســألتــه أن يَحْفَظَــه . والمُحــافظــة والحِفــاظ : الــذَّبُّ عــن المَحــارِم والمَنْــعُ لهــا عنــد الحُــروب . والاسم : الحَفِيظة . والحِفاظ : المُحافظة علىٰ العَهْد ، والمُحاماةُ علىٰ الحُرَم ، ومنعُها من العدوّ . يقال : ذُو حفِيظة . وأَهل الحِفاظ هم المُحامون علىٰ عَوْراتهم ، الذَّابُّون عنها . وقيل : المُحافظة الوَفاء بالعَقْد ، والتمسُّكُ بالودّ [1] .

والحفظ مستمد من الحفيظ جلَّ جلاله . والحفظ علىٰ وجهين :

الوجه الأول : إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها ، ويضاده الإعدام ، والله تعالىٰ هو الحافظ للسموات والأرض ، والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها ، والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات ، والنبات ، وغيرهما .

الوجه الثاني : أن الحفظ صيانة المتعاديات ، والمتضادات بعضها عن بعض وأعني بهـٰذا التعادي ما بين الماء ، والنار ، فإنهما يتعاديان بطباعهما فإما أن يطفئ الماء النار وإما أن تحيل النار الماء إن غلبت الماء بخاراً ، ثم هــواءً . والتضــاد والتعــادي ظــاهــر بيــن الحــرارة والبــرودة ؛ إذ تقهــر إحداهما الأخرىٰ وكذلك بين الرطوبة واليبوسة وسائر الأجسام الأرضية مركبة من هـٰذه الأصول المتعادية ؛ إذ لا بد للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت ؛ لبطلت حياته ، ولا بد له من رطوبة تكون غذاء لبدنه كالدم وما يجري مجراه ، ولا بد من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه خصوصاً ما صلب منها كالعظام ، ولا بد من برودة تكسر سورة الحرارة حتىٰ تعتدل ولا تحرق ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة ، وهـٰذه متعاديات متنازعات .

وقد جمع ٱلله عز و جل بين هـٰذه المتضادات المتنازعة في إهاب

(1) مختار الصحاح ، ج 1 ، ص ، 61 .

الإنسان ، وبدن الحيوانات ، والنبات ، وسائر المركبات ، ولولا حفظه تعالىٰ إياها لتنافرت ، وتباعدت ، وبطل امتزاجها ، واضمحل تركيبها ، وبطل المعنىٰ الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب والمزاج ، وحفظ ٱلله تعالىٰ إياها بتعديل قواها مرة ، وبإمداد المغلوب منها مرة أخرىٰ .

أما التعديل ؛ فهو أن يكون مبلغ قوة البارد مثل مبلغ قوة الحار فإذا اجتمعا لم يغلب أحدهما الآخر بل يتدافعان ؛ إذ ليس أحدهما بأن يُغلب ، أولىٰ من أن يَغلب فيتقاومان ، ويبقىٰ قوام المركب بتقاومهما ، وتعادلهما .

ومن جهة أخرىٰ : إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته ؛ حتىٰ يقاوم الغالب . ومثاله : أنَّ الحرارة تفني الرطوبة ، وتجففها لا محالة ، فإذا غلبت ضعفت البرودة ، والرطوبة ، وغلبت الحرارة ، واليبوسة ، ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب ، وهو الماء . ومعنىٰ العطش هو الحاجة إلىٰ البارد الرطب ، فخلق ٱلله تعالىٰ البارد الرطب مدداً للبرودة والرطوبة إذا غلبتا ، وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة ؛ حتىٰ إذا غلب شيءٌ عورض بضده ، فانقهر ، وهـٰذا هو الإمداد . وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية ، وخلق الآلات المصلحة لها ، وخلق المعرفة الهادية إلىٰ استعمالها ، وكل ذلك لحفظ ٱلله عز و جل أبدان الحيوانات والمركبات من المتضادات ، وهـٰذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخل [1] .

وعليه : الحفيظ هو ٱلله الذي بيده مقاليد القوة المطلقة ، وهو الذي بيده الأمر والنهي ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، أي : لو لم يكن مالك القدرة ؛ ما كان حفيظا ، وهـٰكذا لو لم يكن رحمـٰناً رحيماً ؛ ما كان حفيظاً ، ولو لم تكن له الصفات الحسان ما كان حفيظاً ، ولأن له كل ذلك ؛ فهو ٱلله جل جلاله .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 110ـ112 .

وأسم الحفيظ يتضمن في مدلوله الاستمرارية ، (استمرارية الحفظ) ولذلك فالحفيظ أسم ٱلله تعالىٰ يتجاوز معناه القيمي والتفضيلي ما يدل عليه اسم (الحافظ) الذي لم يكن اسم من أسماء الجلالة . فالحافظ يمكن أن يكون مادةً توضع فيه الأشياء مؤقتاً ، والحفيظ لا يمكن أن يكون كذلك ، فهو الباقي ولله الحمد .

وترتبط صفات الحفيظ بجميع الصفات الربانية الأخرىٰ ، فهو الحفيظ الرحمـٰن الرحيم ، وهو الحفيظ الودود الغفور ، وهو الحفيظ القادر ، وهو المانع والوكيل والرقيب والمقيت .

الحفيظ المانع :

فمن فهم معنىٰ الحفيظ فهم معنىٰ المانع ، والمنع إضافة إلىٰ السبب المهلك ، والحفظ إضافة إلىٰ المحروس عن الهلاك ، وهو مقصود المنع ، وغايته ؛ إذ المنع يراد للحفظ ، والحفظ لا يراد للمنع ، فكل حافظ مانع ، وليس كل مانع حافظاً إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع أسباب الهلاك والنقص حتىٰ يحصل الحفظ من ضرورته [1] .

والعبد المؤمن الذي يُراد له أن يكون خليفة لله في الأرض هو الذي يستمد صفاته من صفات خالقه عز وجل ، فيمنع الظلم عن المظلوم ، ويحفظ الدِّين والشرف والكرامة ولا يخشىٰ أحداً في ذلك إلا ٱلله تعالىٰ . فالحفيظ المطلق هو الذي يمنع الجوع عن الجائعين ، والظمأ عن الظمآنين ويفرِّج كرب المهمومين كيفما يشاء متىٰ ما يشاء سبحانه بيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير !

الحفيظ الوكيل :

الوكيل في اللغة بمعنىٰ الكافي ؛ لأنه يكفي موكله أمر ما وكله فيه ،

(1) المقصد الأسنىٰ ج ، 1 ص ، 145 .

وهـٰذا معنىٰ قولهم : حسبنا ٱلله ونعم الوكيل ، وقد يكون الوكيل أيضاً بمعنىٰ الحفيظ [(1)] ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [(2)] أي : حفيظ . وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [(3)] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ وهو دليل علىٰ انه تعالىٰ لا يريد إيمان الكافر ، لـٰكن لا بمعنىٰ : أنه تعالىٰ يمنعه عنه مع توجهه إليه بل بمعنىٰ : أنه تعالىٰ لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئي نحو الإيمان ، وإصراره علىٰ الكفر . ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً مهيمناً من قبلنا ، تحفظ عليهم أعمالهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم ، وتدبر مصالحهم . قيل : وإنما جمع بين حفيظ ووكيل لاختلاف معناهما . فإن الحفيظ هو الذي يصون ما يحفظه عما يضره ليبقىٰ سليماً نقياً . والوكيل بالشيء هو الذي يجلب الخير إليه ، وبذلك فالخليفة موكل إليه أمر السعي بالخير لأجل جلب الخير للعباد فيكون رحيماً كريماً وحافظاً لكلِّ ما لهم ، وما عليهم ، فبذلك يكون قد صان وحفظ مستخلفيه من كل ما يؤثر علىٰ سير عبادتهم وعقيدتهم [(4)] ، ولذلك فالخليفة هو حافظ للسر الإلـٰهي في صدره إيماناً تاماً ، وعملاً مخلصاً ، وطاعة وافية له وحده لا شريك له .

الحفيظ الرقيب :

الرقيب هو ٱلله صاحب الفطنة المطلقة التي بها يتم الحفظ من كل شر وسوء ، وهو العليم الذي لا يسهو ولا ينسىٰ ما يحفظ ، فهو الذي لا تأتيه السِّنة ، ولا النوم ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو ! وقيل : من لا يشغله شيء عن شيء . فمرجعه صفة سلبية . وقيل : يبقي صور الأشياء . فصفة فعلية من

(1) الفرق بين الفرق ، ج 1 ص ، 146

(2) الأنعام 66 .

(3) الأنعام ، 107 .

(4) تفسير حقي ، ج 4 ، ص 13 .

الحفظ الذي يضاد التضييع . والرقيب كالحفيظ . وقيل : هو أخص من الحفيظ ؛ لأن الرقيب هو الذي يراعي الشيء بحيث لا يغفل عنه أصلاً ، ويلاحظه ملاحظة دائمة لازمة لزوماً لو عرفه الممنوع عن ذلك الشيء ؛ لما أقدم عليه ، فكأنه يرجع إلىٰ العلم والحفظ ولـٰكن باعتبار اللزوم وبالإضافة إلىٰ ممنوع عنه محروس عن التناول .

وعليه فالعبد المستخلف في الأرض هو الرقيب عليها من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق ، نعم : إن رعاية الأرض وحفظ وجودها بيد ٱلله الحفيظ العظيم ، ولـٰكن حفظها من الفساد والهلاك الذي يفسد الحرث والزرع ، فأمره بيد الناس الذين يراد لهم العيش عليها ومنها ، فإفساد الأرض نتائجه تلاحق الإنسان الذي خلقه ٱلله ليعيش عليها ويرثها مستخلفاً فيها ، فالتلوث البيئي ؛ الذي يؤثر علىٰ الأرض ومن فيها ، ويؤثر علىٰ الغلاف الجوي هو بيد الإنسان ، واستغلال الأرض في زرع مالا يرضي ٱلله فسادٌ فيها ، وإقامة المصانع التي تنتج ما حرَّم ٱلله من شرب هو فساد بيد الناس في غير طاعة ٱلله ؛ اللهُمَّ أحفظنا ، وأبناءنا من كل معصية ، ومن كل سوء ، وشر ، واجعلنا من المصلحين .

الحفيظ المقيت :

قال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [1] . وفيه المقيت مشتق من القوت ، يقال : قُتُّ الرجل : إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته ، واسم ذلك الشيء هو القوت ، وهو الذي لا فضل له علىٰ قدر الحفظ ، فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء علىٰ قدر الحاجة ، ثم قال القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وأي المعنيين كان ؛ فالتأويل صحيح ، وهو أنه تعالىٰ قادر علىٰ إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلىٰ الشافع مثل ما يوصله إلىٰ المشفوع فيه ، إن خيراً ؛

(1) النساء 85 .

فخير ، وإن شراً ؛ فشر ، ولا ينتقص بسبب ما يصل إلىٰ الشافع شيء من جزاء المشفوع ، وعلىٰ الوجه الثاني : أنه تعالىٰ حافظ الأشياء شاهد عليها لا يخفىٰ عليه شيء من أحوالنا ، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو في باطل حفيظ عليه ، فيجازىٰ كلاً بما علم منه [(1)] .

والإقاتة لا تأتي إلا بعد شدة ، فالذي يعطش ، أو يجوع جدّاً ، هو في حاجة لما يفرج عليه كربه ، ولهٰذا فهو في حاجة للإقاتة التي تجعله يعود ثانية إلىٰ قيد الحياة الذي يمكنه من الإشباع لما هو ضروري بعد أن تعرض إلىٰ ما يؤدي به إلىٰ الهلاك . وعليه عند الشدة القصوىٰ لا مُفرج للكرب العظيم إلا العظيم المطلق ، ولا حفيظ من شر عظيم إلا حفيظ عظيم بالمطلق جل جلاله ! ومع ذلك فالإنسان في الدار الدنيا في حاجة لأخيه الإنسان ، ولهٰذا أوجب ٱلله تعالىٰ التعاون علىٰ البر والتقوىٰ في طاعة ٱلله بما يؤدي إلىٰ الإصلاح ويزيل الفساد من علىٰ وجه الأرض .

ولهٰذا تشكلت لجان للإغاثة علىٰ مستوىٰ الدول ، وعلىٰ المستوىٰ العالمي لتمد يد العون لمن يتعرضون للكوارث الطبيعية من زلازل ، وفيضانات وغيرها ، ومما يتعرضون له من حروب علىٰ أيدي المفسدين ، وسافكي الدماء في الأرض بغير حق . ولذا يفرز ٱلله الحق من الباطل ، حتىٰ يُفرز المصلح من المفسد ، والله مقيت حفيظ سبحانه رب العالمين ، له الملك ، وله الحمد والطاعة .

الحفيظ المهيمن :

المهيمن معناه : أنه القائم علىٰ خلقه بأعمالهم ، وأرزاقهم ، وآجالهم . وقيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه . وكل مشرف علىٰ كنه الأمر مستولٍ عليه حافظٌ له ، فهو مهيمن عليه . والإشراف يرجع إلىٰ العلم ، والاستيلاء إلىٰ

---

(1) تفسير الرازي ، ج 5 ، ص 311 .

كمال القدرة ، والحفظ إلىٰ الفعل ، فالجامع بين هـٰذه المعاني اسمه المهيمن ، ولن يجتمع ذلك علىٰ الإطلاق والكمال إلا لله عز وجل [1] . ولذلك فالحفيظ هو الفعَّال لما يُريد ، وهو المهيمن علىٰ كل ما يُريد ، وهو مالك الملك وبيده الأمر ، وهو كما يعلم الغيب يُجيب الدعاء ، والمؤمنون به يؤمنون بأنه لن يصيبهم شيءٌ لم يُكتب لهم ، ولهـٰذا هم المحفوظون من كل سوء ، وهم المستخلفون علىٰ الطاعة والحفظ .

الحفيظ الأواب :

قال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [2] . الأواب : هو الراجع إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، والفرق بين الأوب والرجوع : أن الأوب ضرب من الرجوع وذلك أنه لا يقال إلا لمن له إرادة . والرجوع يقال فيه وفي غيره : آب أوباً ، وإياباً ، ومآباً . والمآب مصدر منه ، واسم الزمان والمكان . و﴿ حَفِيظٍ ﴾ حافظ لتوبته من النقض ، ولعهده من الرفض . وفي التأويلات النجمية ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ هو في الحقيقة موعود للمتقين الموصوفين بقوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ وهو الراجع إلىٰ ٱلله في جميع أحواله لا إلىٰ ما سواه حافظاً لأنفاسه مع ٱلله لا يصرفها إلا في طلب ٱلله . وقيل : هو الراجع إلىٰ ٱلله تعالىٰ بقلبه من الوسوسة إلىٰ السكون إلىٰ ٱلله ، والحفيظ : هو المحافظ علىٰ الطاعات والأوامر كما هو حال المستخلفين في الأرض ، فهم لا يقومون إلا بما يرضي ٱلله تعالىٰ تجاه مستخلفيهم فهم ظله في أرضه ، فهم يقومون بواجباتهم المكلفين بها ، والمحافظة عليها ليشملهم اسمه الحفيظ الذي يسيرون بنهجه علىٰ الأرض ، وينفذون أوامره تجاه خلقه ، بتوجيههم إلىٰ ما يرضي ٱلله سبحانه ، وهـٰذا أمر ليس سهلاً ، وإلا استطاع أن يقوم به أيٌّ

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج ، 1 ص ، 72 .
(2) ق ، 32 .

كان ، ولا داعي للاختيار الرباني لهم ، وذلك لما يتبع هٰذا الاختيار ، وهٰذا التكليف من أعباء لا يستطيع حملها إلا من كان أهلاً لذلك ، ونسأل ٱلله العون والحفظ آمين ! وقيل : الأواب : الراجع بقلبه إلىٰ ربه ، والحفيظ : الحافظ قلبه في رجوعه إليه ألا يرجع منه إلىٰ أحد سواه . وقيل : هو المحافظ لأوقاته ، وخطراته ، أي : الخطرات القلبية ، والإلهامات [(1)] .

ومن وجوه حفظه :

أولاً : إدامة وجود الموجودات ، وإبقاؤها : ويضاده الإعدام ، والله تعالىٰ هو الحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها ، والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات ، والنبات وغيرهما . ومع أن الحفظ دوام مطلق بيد الحفيظ المطلق ، والحفظ المؤقت بيد الحفيظ المؤقت ، إلا أن الخليفة المؤمن له بقاء مؤقت مع حفظ دائم ، أي : ببقائه علىٰ قيد الحياة المؤقتة يظل حفظه دائماً ، فهو لا يخون أمانةً ، ولا عهداً يتخذه أمام الحفيظ المطلق مادام علىٰ قيد الحياة ، ولهٰذا سيظل الحفظ دائماً من بعد موته أو استشهاده في سبيل ٱلله تعالىٰ في سجلٍّ بيد الحفيظ الدائم .

ثانياً : حفظ المتعاديات ، والمتضادات : وأعني بهٰذا التعادي ما بين الماء والنار ، فإنهما يتعاديان بطباعهما ، فإما أن يطفئ الماء النار ، وإما أن تحيل النار الماء إن غلبت الماء بخاراً ، ثم هواءً . والتضاد ، والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة ؛ إذ تقهر إحداهما الأخرىٰ ، وكذلك بين الرطوبة واليبوسة . وسائر الأجسام الأرضية مركبةٌ من هٰذه الأصول المتعادية ؛ إذ لا بدَّ للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته ، ولا بد له من رطوبة تكون غذاءً لبدنه ، ولا بدَّ من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه خصوصاً ما صلب منها كالعظام ، ولا بد من برودة تكسر سورة الحرارة حتىٰ تعتدل ،

---

(1) تفسير حقي ، ج 14 ، ص 145 .

ولا تحرق ، ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة وهـٰذه متعاديات متنازعات . وقد جمع ٱلله ـ عز وجل ـ بين هـٰذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان ، وبدن الحيوانات ، والنبات ، وسائر المركبات ولولا حفظه تعالىٰ إياها ؛ لتنافرت ، وتباعدت ، وبطل امتزاجها ، واضمحل تركيبها ،وبطل المعنىٰ الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب .

والمزاج وحفظ ٱلله تعالىٰ إياها بتعديل قواها مرة ، وبإمداد المغلوب منها مرة أخرىٰ . أما التعديل فهو أن يكون مبلغ قوة البارد مثل مبلغ قوة الحار ، فإذا اجتمعا ؛ لم يغلب أحدهما الآخر ، بل يتدافعان ؛ إذ ليس أحدهما بأن يُغلب أولىٰ من أن يَغلب ، فيتقاومان ، ويبقىٰ قوام المركب بتقاومهما ، وتعادلهما ، وهو الذي يعبر عنه باعتدال المزاج . والثاني إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته حتىٰ يقاوم الغالب ، ومثاله أن الحرارة تفني الرطوبة وتجففها لا محالة فإذا غلبت ضعفت البرودة والرطوبة ، وغلبت الحرارة واليبوسة ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب . وهو الماء . ومعنىٰ العطش هو الحاجة إلىٰ البارد الرطب فخلق ٱلله تعالىٰ البارد الرطب مدداً للبرودة والرطوبة إذا غلبتا ، وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة حتىٰ إذا غلب شيء عورض بضده فانقهر ، وهـٰذا هو الإمداد ، وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية ، وخلق الآلات المصلحة لها ، وخلق المعرفة الهادية إلىٰ استعمالها ، وكل ذلك لحفظ ٱلله عز وجل أبدان الحيوانات ، والمركبات من المتضادات ، وهـٰذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخل [1] .

ثالثاً : الحفظ من الهلاك بأسباب خارجة : كسباع ضارية ، وأعداء متنازعة ، فحفظه من ذلك بما خلق له من الجواسيس المنذرة بقرب العدو ، وهي طلائعه كالعين ، والأذن ، وغيرهما ، ثم خلق له اليد الباطشة ،

(1) المقصد الأسنىٰ ج ، 1 ص ، 110ـ113 .

والأسلحة الدافعة : كالدرع والترس ، والقاضية كالسيف والسكين ، ثم ربما يعجز مع ذلك عن الدفع فأمده بآلة الهرب وهي الرجل للحيوان الماشي ، والجناح للطائر . وكذلك شمل حفظه جلت قدرته كل ذرة في ملكوت السموات والأرض حتىٰ الحشيش الذي ينبت في الأرض يحفظ لبابه بالقشر الصلب ، وطراوته بالرطوبة ، وما لا يحفظ بمجرد القشر يحفظه بالشوك النابت منه ليندفع به بعض الحيوانات المتلفة له ، فالشوك سلاح النبات ، كالقرون ، والمخالب والأنياب للحيوانات ، بل كل قطرة من ماء معها ملك حافظ يحفظها عن الهواء المضاد لها ، فإن الماء إذا جعل في إناء وترك مدة استحال هواءً ، وسلب الهواء المضاد له صفة المائية عنه ، ولو غمست الإصبع في ماء ورفعتها ونكستها تدلت منها قطرة ماء تبقىٰ منكسة لا تنفصل مع أن من شأنها الهويُّ إلىٰ أسفل ، ولـٰكنها لو انفصلت وهي صغيرة استولىٰ الهواء عليها وأحالها ، ولا تزال تمكث متدلية حتىٰ يجتمع إليها بقية البلل ، فتكبر القطرة فتستجري علىٰ خرق الهواء بسرعة ولا يستولي الهواء علىٰ إحالتها وليس ذلك حفظاً منها لنفسها عن معرفة بضعفها وقوة ضدها وحاجة استمدادها من بقية البلل ، وإنما ذلك حفظ من ملك موكل بها بواسطة معنىً متمكن من ذاتها ، وقد ورد في الخبر : أنه لا تنزل قطرة من المطر إلا ومعها ملك يحفظها إلىٰ أن تصل إلىٰ مستقرها من الأرض . وذلك حق والمشاهدة الباطنة لأرباب البصائر قد دلت عليه ، وأرشدت إليه ، فآمنوا بالخبر لا عن تقليد بل عن بصيرة .

والكلام أيضاً في شرح حفظ ٱلله تعالىٰ السمـٰوات والأرض وما بينهما طويل كما في سائر الأفعال ، وبه يعرف هـٰذا الاسم لا بمعرفة الاشتقاق في اللغة ، وتوهم معنىٰ الحفظ علىٰ الإجمال .

والحفيظ من العباد من يحفظ جوارحه ، وقلبه ، ويحفظ دينه عن سطوة الغضب ، وخلابة الشهوة ، وخداع النفس ، وغرور الشيطان ، فإنه علىٰ شفا جرف هار وقد اكتنفته هـٰذه المهلكات المفضية إلىٰ البوار . وعلىٰ الخليفة أن

يحذر مستخلفيه من كل ما يوقعهم في ذلك ، فيوفِّر لهم موجبات الحفظ بما حباه ٱلله من نعم لا تكون عند غيره من الناس ، وبما أوهبه ٱلله من موجبات الحفظ ، فيرشد العباد إلىٰ كل ما هو نافع كما أمره تعالىٰ [1] .

والحفيظ جل جلاله هو الحافظ لكل ما خلق ، ويستوجب الحفظ ، وهو المهلك لمن يستوجب الهلاك ، وفي كلتا الحالتين آية ، حتىٰ يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر ، ولا يُغيِّر سنة ٱلله في خلقه أحدٌ . ولهٰذا فالخلفاء هم المؤمنون حقاً ؛ الذين حباهم ٱلله بالهداية ، وأرشد عقولهم إلىٰ نور الإسلام ، أما أولئك الكفرة الفجرة ، والمشركون ؛ فهم بشقاوتهم ضالون ، والمؤمنون علىٰ إيمانهم باقون .

فعلامة الشقاوة علىٰ سبيل المثال : جمود العين ، وقساوة القلب ، وحب الدنيا ، وطول الأمل . وعلامة السعادة حب الصالحين ، والدنو منهم ، وتلاوة القرآن ، وسهر الليل ، ومجالسة العلماء ، ورقة القلب . وعن إبراهيم المهلب السائح رَحِمَهُ ٱللهُ قال : بينما أنا أطوف إذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة ؛ وهي تقول : بحبك لي ألا رددت عليَّ قلبي ! فقلت : يا جارية من أين تعلمين : أنه يحبك ؟ قالت : بالعناية القديمة : جيَّش في طلبي الجيوش ، وأنفق الأموال حتىٰ أخرجني من بلاد الشرك ، وأدخلني في بلاد التوحيد ، وعرفني نفسي بعد جهلي إياها ، فهل هٰذا يا إبراهيم إلا لعنايةٍ ، أو محبة ؟ !

والواجب علىٰ الخليفة أن يسارع بالعباد إلىٰ الأعمال الصالحة ، فإنها من علامات السعادة والحفظ ، والتأخير وطول الأمل من علامات الشقاوة والترك . حكي : أن بعض العبَّاد كان يسأل ٱلله تعالىٰ أن يريه إبليس . فقيل له : اسأل ٱلله العافية . فأبىٰ إلا ذلك ، فأظهره ٱلله تعالىٰ له ، فلما رآه العبَّاد ؛ قصده بالضرب ، فقال له إبليس : لو إنك تعيش مئة سنة ؛ لأهلكتك ،

---

(1) المقصد الأسنىٰ ج ، 1 ص ، 110 ـ 113 .

ولعاقبتك ! فاغتر بقوله ، فقال في نفسه : إن عمري بعيد ، فأفعل ما أريد ، ثم أتوب . فوقع في الفسق ، وترك العبادة ، وهلك . وهـٰذه الحكاية تحذرك طول الأمل بترك الحفظ للجوارح من الغرور ؛ فإنه آفة عظيمة وتأمر باتباع نصائح وتوجيهات الخليفة وأصحاب الحق في الأمة . الخليفة هو الولي الوارث ، لـٰكن الوصول إلىٰ هـٰذه المقامات إنما يكون بهداية ٱلله ومشيئته ، فليس في وسع الخليفة أن يوصل كل من أراد إلىٰ ما أراده فيبقي من يبقي في الاثنينية ويصل من يصل إلىٰ عالم الوحدة والسبب الموصل هو التوحيد ، فكما أن الكافر لا يكون مؤمناً إلا بكلمة التوحيد ، فكذا المؤمن لا يكون مخلصاً إلا بتكرارها ؛ لان الشرك مطلقاً جلياً كان ، أو خفياً لا يزول إلا بالتوحيد مطلقاً [1] .

من مظاهر حفظه جل جلاله :

حفظ السماء :

قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [2] . سمىٰ السماء سقفاً ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت . وفي (المحفوظ) قولان :

الأول : إنَّه محفوظٌ من الوقوع والسقوط اللذين يجري مثلهما علىٰ سائر السقوف كقوله تعالىٰ : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [4] ، وقال

(1) تفسير حقي ، ج 4 ، ص 13 .
(2) الأنبياء 32 .
(3) الحج 65 .
(4) الروم 25 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) .

الثاني : هو محفوظٌ من الشياطين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ (3) . ثم ههنا قولان :

أحدهما : إنه محفوظ بالملائكة من الشياطين .

والثاني : إنه محفوظ بالنجوم من الشياطين ، والقول الأول أقوىٰ ؛ لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هـٰذه النعمة عظماً ؛ لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه علىٰ المكلفين بخلاف القول الثاني ؛ لأنه لا يخاف علىٰ السماء من استراق سمع الجن (4) .

قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5) . أو هل رأيت ـ أيها الرسول ـ مثل الذي مرَّ علىٰ قرية قد تهدَّمت دورها ، وخَوَتْ علىٰ عروشها ، فقال : كيف يحيي ٱلله هـٰذه القرية بعد موتها ؟ فأماته ٱلله مئة عام ، ثم ردَّ إليه روحه ، وقال له : كم قدر الزمان الذي لبثت ميتاً ؟ قال : بقيت يوماً أو بعض يوم ، فأخبره بأنه بقي ميتاً مئة عام ، وأمره أن ينظر إلىٰ طعامه

---

(1) فاطر 41 .
(2) البقرة ، 259 .
(3) الحجر 17 .
(4) تفسير الرازي ، ج 11 ، ص 15 .
(5) البقرة 259 .

وشرابه ، وكيف حفظهما ٱلله من التغيُّر هـٰذه المدة الطويلة ، وأمره أن ينظر إلىٰ حماره كيف أحياه ٱلله بعد أن كان عظاماً متفرقة ؟ وقال له : ولنجعلك آية للناس ، أي : دلالة ظاهرة علىٰ قدرة ٱلله علىٰ البعث بعد الموت ، وأمره أن ينظر إلىٰ العظام كيف يرفع ٱلله بعضها علىٰ بعض ، ويصل بعضها ببعض ، ثم يكسوها بعد الالتئام لحماً ، ثم يعيد فيها الحياة ؟ فلما اتضح له ذلك عِياناً اعترف بعظمة ٱلله ، وأنه علىٰ كل شيء قدير ، وصار آية للناس [1] . سبحانه الذي حفظ كل شيء آية وحجة راسخة واستشهاداً بينا وقدرة لا تفوقها قدرة !

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [2] . ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ المرج : الخلط ، والفرات كل ماء عذب ، والبحر امتداد الماء المالح في رقعة جغرافية ، والأجاج : أشد الملوحة ، والبرزخ الحاجز بين الشيئين ، قيل : أرسلهما ، وقيل : حفظهما . ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ وهو البليغ العذوبة حتىٰ يضرب إلىٰ الحلاوة . ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ الأجاج : نقيض العذوبة الحلوة ، ومرجهما : خلاهما متحادين متلاصقين ، وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما من التمازج . وهـٰذا من عظيم اقتداره ، وحفظه . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ وبحفظه لهما جعل بينهما حائلاً من قدرته كقوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : منعاً وستراً لا يفسد المالح العذب ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ أي : النطفة ، ومنها خلق بني آدم ﴿ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ النسب : تكوين علائقي بين الناس ، والصهر ما يحل نكاحه بقصره محفوظاً علىٰ محدد لا يشترك معه أحد فيه . عن علي ـ رضي ٱلله عنه ـ وعن ابن سيرين : نزلت نسباً وصهراً في النبيِّ .

---

(1) التفسير الميسر ، ج 1 ، ص 272 .
(2) الفرقان 53 .

وعليٌّ بن أبي طالب هو ابن عمه وزوج ابنته منه . وقيل : النسب سبعة ، والصهر خمسة . والله أعلم [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ [2] . الحفيظ هو الذي خلق الحركة التي بها تمتد الأجسام ، وتنكمش ، وهو الذي خلق كل شيء بحفظه ، ودبرَّ أمره تدبيراً دون أن يحدث الخلل ، فالليل بحفظه يتعاقب مع النهار ، والشمس والقمر بحفظه كلٌّ في فلك يسبحون . وفيه : أنه إذا ثبت هـٰذا ؛ فنقول لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة ، فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه ، وكان الذي يقرب منه متشابه الأحوال ، وكانت القوة هناك لكيفية واحدة ، فإن كانت حارة ؛ أفنت الرطوبات ، فأحالتها كلها إلىٰ النارية ، وبالجملة فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب علىٰ كيفية وخط ما لا يحاذيه علىٰ كيفية أخرىٰ ، وخط المتوسط بينهما علىٰ كيفية أخرىٰ ، فيكون في موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة ، وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق ، وفي موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية ، وكان الكوكب يتحرك بطيئاً ؛ لكان الميل قليل المنفعة ، والتأثير شديد الإفراط ، وكان يعرض قريباً مما لو لم يكن ميل ، ولو كانت الكواكب أسرع حركةً من هـٰذه ؛ لما كملت المنافع ، وما تمت سبحانه الحفيظ الذي خلق كلَّ شيء بميزان ، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ، ثم ينتقل إلىٰ جهة أخرىٰ بمقدار الحاجة ، ويبقىٰ في كل جهة برهة ؛ تم بذلك تأثيره بحيث يبقىٰ مصوناً عن طرفي الإفراط والتفريط . وبالجملة ، فالعقول لا تقف إلا علىٰ القليل من أسرار المخلوقات ، فسبحان

---

(1) تفسير الأعقم ، ج 1 ، ص 471 .
(2) الأنبياء 33 .

الخالق المدبر بالحكمة البالغة ، والقدرة الغير المتناهية في حفظه [1] .

ومن حفظه قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ [2] . لمَّا تقدم في آخر البروج : أن القرآن في لوح محفوظ ؛ لأن منزله محيط له بالجنود من المعاندين ، وبكل شيء ؛ أخبر أنَّ من إحاطته حفظ كل فرد من جميع الخلائق المخالفين ، والموافقين ، والمؤالفين ، ليجازىٰ علىٰ أعماله يوم إحقاق الحقائق وقطع العلائق ، فقال مقسماً علىٰ ذلك لإنكارهم له : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ﴾ أي ذات الأنجم الموضوعة لحفظها من المردة لأجل حفظ القرآن المجيد الحافظ لطريق الحق ، قال الملوي : المراد بها هنا ذات الأفلاك الدائرة والسموات العلىٰ بما جعل فيها من ليل ونهار ودورتهما ثلاثمئة وستين درجة لا تتغير أبداً في هٰذه الدار بنقص ولا زيادة بنصف درجة ولا دقيقة ولا ثانية ولا ما دون ذلك ، بل كلما زاد أحدهما شيئاً نقص من الآخر بحسابه عرف ذلك من العقل والنقل والتجربة فعرف : أنه يحفظه حفيظ حي لا يموت ، قيوم لا يغفل ولا ينام . ولما أقسم بالسماء لما لها من الشرف والمجد تنبيهاً علىٰ ما فيها من بدائع الصنع الدالة علىٰ القدرة الباهرة . أقسم بأعجب ما فيها وهو جنس النجوم ثم بأغربه وهو المعد للحراسة تنبيهاً علىٰ ما في ذلك من غرائب القدرة فقال : ﴿ وَٱلطَّارِقِ ﴾ أي : جنس الكواكب الذي يبدو ليلاً ، ويخفىٰ نهاراً ، ويطرق مسترقي السمع ، فيبدد شملهم ، ويهلك من أراد ٱلله منهم لأجل هداية الناس بالقرآن في الطرق المعنوية ، وظهوره ، وإشراقه في السماء لهدايتهم في الطرق الحسية ، وهو في الأصل لسالك الطريق ، واختص عرفاً بالآتي ليلاً ؛ لأنه يجد الأبواب مغلقة فيحتاج إلىٰ طرقها ، ثم استعمل للبادي فيه كالنجم .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 11 ، ص 15 .
(2) الطارق ، 1ـ4 .

ولما كان الطارق يطلق علىٰ غير النجم ؛ أبهمه أولاً ، ثم عظم المقسم به بقوله : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ أي : عرفك يا أشرف خلقنا عليه الصلاة والسلام وإن حاولت معرفة ذلك ، وبالغت في الفحص عنه ﴿مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ ثم زاده تهويلاً بتفسيره بعد إبهامه مرة أخرىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ أي : المتوهج العالي المضيء ، كأنه يثقب الظلام بنوره ، فينفذ فيه ، أو يثقب بضوئه الأفلاك ، فتشف عنه ، أو يثقب الشيطان بناره إذا استرق السمع .

ولما ذكر الذي دل به علىٰ حفظ القرآن عن التلبيس وعلىٰ حفظ الإنسان ، ذكر جوابه في حفظ النفوس التي جعل فيها قابلية لحفظ القرآن في الصدور ، ودل علىٰ حفظ ما خلق لأجلها من هـٰذه الأشياء المقسم بها علىٰ حفظ الإنسان ؛ لأنها إذا كانت محفوظة عن أدنىٰ زيغ ؛ وهي مخلوقة لتدبير مصالحه ؛ فما الظن به ؟ ! فقال مؤكداً غاية التأكيد لما للكفرة من إنكار ذلك ، والطعن فيه : (إن) بالتخفيف من الثقيلة في قراءة الجمهور ؛ أي : إن الشأن ﴿كُلُّ نَفۡسٍ ﴾ أي : من الأنفس مطلقاً لا سيما نفوس الناس ﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا ﴾ أي : بخصوصها لا مشارك لها في ذاتها ﴿حَافِظٌ ﴾ أي : رقيب عتيد لا يفارقها ، والمراد به الجنس من الملائكة ، فبعضهم لحفظها من الآفات ، وبعضهم لحفظها من الوساوس ، وبعضهم لحفظ أعمالها ، وإحصائها بالكتابة ، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق ، وأجل ، وشقاوة ، أو سعادة ، ومشي ، ونكاح ، وسفر ، وإقامة ، فلا يتعدىٰ شيئاً من ذلك نحن قسمنا ، نحن قدرنا ، فإن قلت : إن الحافظ الملائكة ؛ صدقت ، وإن قلت : إنه ٱلله ؛ صدقت ؛ لأنه الآمر لهم والمقدر علىٰ الحفظ ، والحافظ لهم من الوهن والزيغ ، فهو الحافظ الحقيقي ، والتقدير : ما كل نفس موجودة إلا نفس كائناً ، أو كائن عليها حافظ [1] .

---

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 9 ، ص 390 .

وقد جاء ذكر ٱلله للحفظة الموكلين ببني آدم الذين يحفظونهم ، ويكتبون أعمالهم في مواضع من كتابه . قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (3) . ويخبرنا القرآن : أن الملائكة موكلون بحفظ البشر وحمايتهم ، وهم مكلفون بإحصاء أعمالهم وتسجيلها : قال تعالىٰ ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ (4) ، الكل هم محفوظون بما حفظ فيهم من سر وجهر ، قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (6) . فالملائكة حفظة للبشر ، يحصون عليهم أعمالهم ، ويقدمون كتب أعمالهم إلىٰ رب العالمين ، ومنهم موكل بقبض أرواح البشر ، وهم كذلك يستغفرون للذين آمنوا ، ويحضرون مجالس الرحمة والذكر والتلاوة ، وهنالك ملكان حافظان يلازمان الإنسان حيث حلَّ ، وأينما سار ، لا يفارقانه أبداً إلا في بعض المواطن كالخلاء مثلاً .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

---

(1) الأنعام ، 60 - 61 .
(2) الانفطار ، 9ـ12 .
(3) ق 16 - 17 .
(4) الرعد ، 10 .
(5) الرعد ، 11 .
(6) ق ، 18 .

قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [1] . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ ولم يقل : من فوقهم ؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم . وعن ابن عباس : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ قال : موحدين . وقول إبليس هٰذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هٰذا الواقع ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [2] . ولهٰذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان علىٰ الإنسان من جهاته كلها ، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : عن ابن عباس قال : كان رسول ٱلله ﷺ يقول : « اللهُمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ! اللهُمَّ استر عَوْرَتي ، وآمن رَوْعَتِي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك ، اللهُمَّ أن أُغْتَال مِنْ تَحْتِيَّ ! » [3] . وعلىٰ المكلف الاستعاذة من شياطين الإنس والجن بما أمر ربُّ العالمين ؛ ليحفظ نفسه وأهله من أشرارهم ومكائدهم ، فإنه تعالىٰ ما استجار به أحد وخاب ظنه . وعلىٰ الخليفة أن يكون متيقظاً ، ومنتبهاً لهٰذه الفائدة العظيمة ؛ ليحمي بها نفسه ، ومن استخلف عليهم من عباد ٱلله من كيد الشياطين والمردة ، فينجو بهم إلىٰ ربهم دون وقوعهم في كيد أعدائهم من الإنس والجن ، ونسأل ٱلله السلامة والعافية آمين !

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم

---

(1) الأعراف 13 ـ 17 .
(2) سبأ ، 20 ، 21 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 395 .

بِوَكِيلٍ ﴾ [1] . يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ﴾ يا محمد من مشركي قومك ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ آلهة يتولونها ويعبدونها﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يحصي عليهم أفعالهم ، ويحفظ أعمالهم ، ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم . ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾ ، يقول : ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم ، إنما أنت منذر ، فبلغهم ما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . [2] ولما كان التقدير : فالذين تولوه ، وماتوا في ولايته فهو يغفر ذنوبهم بمعنىٰ : أنه يزيلها عيناً وأثراً ، عطف عليه قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ﴾ أي : عالجوا فطرهم الأولىٰ ، وعقولهم حتىٰ أخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي من أدنىٰ رتبة من رتبته ﴿ أَوۡلِيَآءَ ﴾ يعبدونهم كالأصنام ، وكلُّ من اتبع هواه في شيء من الأشياء ، فقد اتخذ الشيطان الآمر له بذلك ولياً من دون ٱلله بمخالفة أمره . ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة ؛ اشتد التشوف إلىٰ جزائهم عليه ، فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم إشارة إلىٰ وضوح ضلالهم ، وعظم تهديدهم ؛ لئلا يتوهم : أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور عادلاً إلىٰ التعبير بالجلالة تعظيماً لما في الشرك من الظلم ، وتغليظاً لما يستحق فاعله من الزجر . ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال . ﴿ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي : رقيب وراع وشهيد علىٰ أعمالهم ، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم ، فهو إن شاء أبقاهم علىٰ كفرهم ، وجازاهم عليه بما أعده للكافرين ، وإن شاء تاب عليهم ، ومحا ذلك كلية ، فلم يعاقبهم ، ولم يعاتبهم ، وإن شاء محاه عيناً ، وأبقىٰ الأثر ، حتىٰ يعاتبهم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : حتىٰ يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم ، فتحفظها ، وتقسرهم علىٰ تركها . ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل مما يقوم فيه مقام الموكل ، سواء قالوا : ﴿ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ أو قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ

---

(1) الشورىٰ ، 6 .

(2) تفسير الطبري ، ج 21 ، ص 502 .

أَكِنَّةٍ ﴾ أو غير ذلك . ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرىٰ لأنها المقصود بالذات ، وكانت البشرىٰ مقتضية تلويحاً ورمزاً بالأحرف المقطعة لاجتماع الخلفاء وغلبتهم علىٰ سائر الأديان ، وأن دينهم يعم سائر الأمم ، ويحيط بجميع الخلق ، ولا يريد أحد بأهله سوءاً إلا كان له فيه رفعة ، وكانت رمزاً لأن المقام للإنذار ، وكان المراد بها التكرار ؛ حتىٰ لا تزال لذاتها في أذن المبشر ، وحلاوتها في قلبه ؛ ذكرها بلفظ المضارع الدال علىٰ التجدد والتكرار والحدوث والاستمرار ، وكان المتعنت ربما حمله له علىٰ الوعد بالإيحاء في المستقبل ، وكان العاقل يكفيه في النذرىٰ مرة واحدة ، فقال معبراً بالماضي الدال علىٰ الإمضاء ، والقطع والقضاء الحتم في كلٍّ من الإيحاء وفائدته ؛ التي هي الإنذار (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ رقيب علىٰ أحوالهم وأعمالهم ، مطلع ليس بغافل ، فيجازيهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده . وقيل : معناه محفوظ لا يضيع كقوله : ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ . ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم ﴾ بموكول إليه أمرهم ؛ حتىٰ تسأل عنهم ، وتؤخذ بهم ، وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام . وفيه إشارة إلىٰ أن كلَّ خليفة عمل بمتابعة هواه ، وترك لله حدًّا ، أو نقض له عهداً ؛ فهو متخذ الشياطين أولياء ؛ لأنه يعمل بأوامرهم ، وأفعاله موافقة لطباعهم ، والله حفيظ عليهم بأعمال سرهم وعلانيتهم ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء عفا عنهم . ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ ﴾ لتمنعهم عن معاملاتهم ، فعلىٰ الخليفة أن لا يتخذ من دون ٱلله أولياء بل يتفرد بمحبة ٱلله ، وولايته ، كما قال تعالىٰ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ ﴾ حتىٰ يتولاه في جميع أموره ، ولا يحوجه إلىٰ أحدٍ سواه (2) .

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 7 ، ص 386 .
(2) تفسير حقي ، ج 13 ، ص 50 .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ (1) . ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ تدل علىٰ حفظه ورعايته وصونه لما خلق ، ولا ولي علىٰ ما خلق إلا هو ، والخليفة من بعده هو مسؤول علىٰ رعاية الحق وحفظه في ضوء ما يقول ويفعل ، وأما قوله : ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ : أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم ؛ لأن رسول ٱلله ﷺ كان أفسح الناس صدراً ، والمعنىٰ : ضائق صدرك لأجل أن يقولوا : ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ﴾ . فإن قيل : الكنز كيف ينزل ؟ قلنا : المراد ما يكنز وجرت العادة علىٰ أنه يسمىٰ المال الكثير بهٰذا الاسم ، فكأن القوم قالوا : إن كنت صادقاً في أنك رسول الإلٰه الذي تصفه بالقدرة علىٰ كل شيء ، وأنك عزيز عنده ؛ فهلا أنزل عليك ما تستغني به ، وتغني أحبابك من الكد والعناء ، وتستعين به علىٰ مهماتك ، وتعين أنصارك ، وإن كنت صادقاً ؛ فهلا أنزل ٱلله معك ملكاً يشهد لك علىٰ صدق قولك ، ويعينك علىٰ تحصيل مقصودك ، فتزول الشبهة في أمرك ، فلما لم يفعل إلٰهك ذلك ؛ فأنت غير صادق ! فبين تعالىٰ : أنه رسول منذر بالعقاب ، ومبشر بالثواب ، ولا قدرة له علىٰ إيجاد هٰذه الأشياء . والذي أرسله هو القادر علىٰ ذلك ، فإن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، ولا اعتراض لأحد عليه في فعله ، وفي حكمه . ولذا فإن الوكيل هو الذي يتولىٰ الأمر وهو الحفيظ ؛ أي : يحفظ عليهم أعمالهم ، ليجازيهم بها . ونظير هٰذه الآية ، قوله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا ﴾ (2) . وللخليفة أن يكون واسع الصدر رحبه ؛ لأنه يلتقي مع كل معاندٍ ، ومطيع لربه ، فينصح مستخلفيه

---

(1) هود ، 12 .

(2) الفرقان ، 10 .

ما أستطاع إلىٰ ذلك سبيلاً ، ودون أن يعبأ إلىٰ أقوال المخالفين له . والله المستعان ، وهو ولي التوفيق [1] !

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [2] . ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ وهي الكبرىٰ التي استدعته إلىٰ أبيها ، وهي التي زوجها موسىٰ . ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ ﴾ أي : اتخذ موسىٰ أجيراً لرعي الغنم والقيام بأمرها . ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ اللام للجنس ، لا للعهد فيكون موسىٰ مندرجاً تحته . روي : أنَّ شعيباً قال لها : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له ما شاهدت منه من إقلاع الحجر عن رأس البئر ، ونزع الدلو الكبير وأنه خفض رأسه عند الدعوة ، ولم ينظر إلىٰ وجهها تورعاً حتىٰ بلَّغته رسالته ، وأنه أمرها بالمشي خلفه ، فخصت هاتين الخصلتين بالذكر ؛ لأنها كانت تحتاج إليهما من ذلك الوقت ، أما القوة ؛ فلسقي الماء ، وأما الأمانة فلحفظ البصر ، وصيانة النفس عنها ، كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ لأن الحفظ والعلم كان محتاجاً إليهما ، أما الحفظ فلأجل ما في خزانة الملك ، وأما العلم فلمعرفة ضبط الدخل ، والخرج [3] . وعليه فإن القوي الأمين هو : الذي يستطيع الحفظ ، أي : بدون قوة ، وأمانة لا يمكن أن يكون للحفظ دلالة ومعنىٰ ، ولهٰذا الخليفة القوي بإيمانه هو المستخلف في الأرض ليحفظها من المفسدين ، والمخربين ، وسافكي الدماء فيها بغير حق . ولذلك لا يتم الحفظ إلا بإيمان ، وقوة ، الإيمان بالله وهو صاحب الحق الذي به الخليفة يحكم بين الناس ، والقوة هي إحقاق الحق ، ولو كره الكافرون ، والمجرمون ، والمفسدون . ولذا فإن القصاص حق لا يُحق إلا بقوة . قال تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا

(1) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 376 .
(2) القصص 26 .
(3) تفسير حقي ، ج 10 ، ص 139 .

عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) . القصاص لا يتمُّ إلا بقوة قول ، وقوة فعل ، وكلاهما لا يتما إلا بقوة الخليفة المؤمن بما أنزل ٱلله ، فالإيمان هو الذي يجعل الخليفة قوة في حالتين :

الحالة الأولىٰ : حالة القصاص دون رأفة .

الحالة الثانية : حالة العفو دون ندم .

وبناء علىٰ حالتي القوة السابقتين ؛ فإن الخليفة لا يكون ظالماً ، وذلك لحكمه بما أنزل ٱلله تعالىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (2) . تعليل لما قبله ، وإيذان بأن كفار قومه عليه الصلاة والسلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضميره عليه الصلاة والسلام و(المرصاد) المكان الذي يترقب فيه الراصدون . أي : إنه لفي المكان الذي تترقب فيه السابلة ، وهٰذا تمثيل لإرصاده تعالىٰ بالعصاة ، وأنهم لا يفوتونه . شبه حاله تعالىٰ في كونه حفيظاً لأعمال العباد مجازياً عليها علىٰ النقير ، والقطمير ولا محيد للعباد عن ألا يكون مصيرهم إلا ٱلله بحال من قعد علىٰ طريق السابلة يترصدهم ليظفر بالجاني ، ولا مخلص لهم من العبور إلىٰ ذلك الطريق . فمن كان خليفة لله ؛ فقد فاز ، ومن لم يكن كذلك ؛ فليس له بدٌّ من النار ؛ إن لم يرحمه ٱلله بفعل جليل . قال الكاشفىٰ : إن مساءلة ربك علىٰ الصراط في سبعة مواضع « فيسأل في أولها عن الإيمان ، فإن سلم من النفاق والرياء ؛ وإلا تردىٰ في النار ، وفي الثاني عن الصلاة ، فإن أتم

---

(1) المائدة ، 45 .

(2) الفجر ، 14 .

ركوعها ، وسجودها ، وأقامها في مواقيتها ؛ نجا ، وإلا تردىٰ في النار . وفي الثالث عن الزكاة . وفي الرابع عن صوم شهر رمضان ، وفي الخامس عن الحج والعمرة ، وفي السادس عن الوضوء ، والغسل من الجنابة ، وفي السابع عن بر الوالدين ، وصلة الرحم ، فإن خرج منها قيل له : انطلق إلىٰ الجنة وإلا وقع في النار »[(1)] . كذا علىٰ الخليفة أن يكون بالمرصاد لمن يخالف أوامره تعالىٰ ، فيأمر بالخير ، ويسعىٰ به في الناس . وكذلك عليه أن يردع أهل الشر باللين تارة ، والقوة تارة أخرىٰ ؛ حتىٰ يستطيع أن يبلغ ما أمر به من ربه إلىٰ عباده ليكون قد أدىٰ رسالته علىٰ أكمل وجه ، ويسلم من عقابه تعالىٰ ولا يسلبه الأمانة التي أنيطت به .

حَفِيظٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ جل جلاله :

قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾[(2)] . قوله سبحانه : ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ﴾ ، لا تضرونه بهلاككم شيئاً ؛ أي : لا ينتقص ملكه ، ولا يختل أمره . ولا تضرونه بتوليكم شيئاً من الضرر لاستحالة ذلك عليه سبحانه . ولما استوفىٰ تشييده أمره وهدم قولهم ؛ أخذ يحذرهم ، فقال مبيناً : أن العدول عما جاء به لا يكون إلا بمعالجة الطبع السليم : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ ولو أدنىٰ تولية بما يشير إليه حذف التاء ، فعليكم اللوم دوني ، لأني فعلت ما عليَّ ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ ﴾ أي : أبلغتكم كل شيء أرسلت به ولم أخفِ عنكم شيئاً كاملاً لم أدع منه شيئاً رجاء إقبالكم ، ولا خوفاً من إعراضكم ، فأبيتم إلا التكذيب لي ، والاستكبار عما جئت به ، فالذي أرسلني ينتقم منكم ، فيهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى ﴾ أي : يوجد المحسن إليّ بإقامتي فيما يرضيه .

---

(1) تفسير حقي ، ج 17 ، ص 238 .
(2) هود ، 57 .

وهنا يكون الاستخلاف حق . ﴿ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ يخلفونكم في دياركم وأموالكم ، فتكونون أعداءه ، ويكون المستخلفون متعرضين لأن يكونوا أولياء مع كونهم ذوي بأس وقوة فيختص الضرر بكم وهم (الخلفاء) من كل سوء محفوظون ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ ﴾ أي : إن المحفوظ لا يضره أحد ، وذلك بأسباب الحفظ . ثم علل وعيده لهم بقوله مؤكداً لأن العاصي فاعل بعصيانه فعل من يظن : أن ٱلله غافل عنه : ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ أي : المحسن إليّ المدبر لمصالحي . ولما كان الأهم في هـٰذا السياق بيان استعلائه وقدرته ، قدم قوله : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ صغيراً أو كبيراً . جليلاً أو حقيراً : ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أي : رقيب محيط بالأشياء علماً ، فلا يخفىٰ عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مؤاخذتكم ، وحفظ ربي صيانة من كل أذىً ، أو شر ، أو ألم ، أو مرض ، أو فقر ، والحمد لله ! فالحفظ كناية عن المجازاة ، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنىٰ الحافظ الحاكم المستولي أي : حافظ مستولٍ علىٰ كل شيءٍ ، ومهيمنٌ عليه ، ومَنْ شأنه ذلك ؛ كيف يضره شيء [1] ؟!

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

الأول : حفيظ لأعمال العباد ؛ حتىٰ يجازيهم عليها .

الثاني : حفيظ من الشَّر ، والمكر .

الثالث : حفيظ علىٰ كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ، ويهلكه إذا شاء [2] . وقوله تعالىٰ : ﴿ حَفِيظٌ ﴾ الحفظ بقاء الشيء هو كما هو ، ولهـٰذا فإن الحفيظ المطلق هو الذي يحفظ أعمالنا ، ويجازينا عليها ثواباً أو عقاباً ، فهو العالم بكل شيء والقادر علىٰ كل شيء ، وبالغ الحفظ له ، فيعلم ما يعمل محفوظه ، فيجازيه بما يستحق من نعمه ، ونقمه ، فهو تعليل لاستخلاف

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 8 ، ص 282 .

(2) تفسير الرازي ، ج 8 ، ص 428 .

غيرهم ، وتنزهه عن لحوق ضرر ؛ لأن الحفظ : الحراسة ، ويلزمها العلم ، والقدرة ، فمن القدرة حافظ العين ، أي لا يغلبه نوم ، والحفيظة ـ للحمية والغضب ، ومنهما معاً المحافظة ـ للمواظبة علىٰ الشيء ، والتولِّي عن الشيء : الذهاب إلىٰ غير جهته إعراضاً عنه ؛ والإبلاغ : إلحاق الشيء نهايته [1] . والاستخلاف علىٰ المستوىٰ الإنساني : جعل الثاني بدلاً من الأول يقوم مقامه . أما الاستخلاف المطلق ؛ فلا خليفة له في شيء ، والله الحفيظ من كل شيء في الأرض وفي السماء وفيما نعلم وما لا نعلم ، سبحانه وحده علاَّم الغيوب ، له الأمر وهو الحفيظ بالقوة !

أولاً : بأن ربوبيته عامة لكل واحد ومن يرب يدبر أمر المربوب ، ويحفظه فلا يحتاج حفظ الغير .

وثانياً : بأن كل ذي نفس تحت قهره أسير عن الفعل ، والتأثير في غيره فلا حاجة إلىٰ الاحتراز منه .

وثالثاً : بأنه علىٰ طريق العدل في عالم الكثرة الذي هو ظل وحدته فلا يسلط أحداً علىٰ أحد إلا عن استحقاق ، لذلك بسبب ذنب ، وجرم ، ولا يعاقب أحداً من غير زلة ، ولو صغيرةً ، نعم قد يكون لتزكية ، ورفع درجة فالمستفاد في ضمن ذلك كله نفىٰ القدرة عنهم ، وعن آلهتهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! والله تعالىٰ لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وما يرىٰ في صورة الظلم ؛ فمن خفاء سره ، وحكمته . والعارف ينظر إلىٰ الأسرار الإلهية ، ويحمل الوقائع علىٰ الحكم في الدنيا ، وأمثال ذلك من عدل ٱلله تعالىٰ ، فليكن العباد علىٰ العدالة وخصوصاً الحكام والسلاطين والمستخلفين في الأرض ، فإن العدل ينفع في الدنيا والآخرة . ورب سائل يقول : أي شيء أفضل للملوك الشجاعة ، أم العدل ؟ فالجواب يقال : إذا عدل السلطان ؛ لم

---

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 4 ، ص 169 .

يحتج إلىٰ الشجاعة ، فإذا الخليفة آمن بالملك الديان ، وخشي من عذابه كل آن ؛ فقد عدل ، واحترز عن الظلم ، والطغيان ، وفاز بالدرجات في أعلىٰ الجنان ، وإلا ؛ فقد عرض نفسه لعذاب النيران ، ولعذاب الدنيا أيضاً علىٰ أشد ما كان [1] .

طلب الخلافة للحفظ :

قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] . يقول تعالىٰ إخبارًا عن الملك حين تحققت براءة يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، ونزاهة عرْضه مما نسب إليه ؛ قال : ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ ﴾ أي : أجعله من خاصّتي ، وأهل مشورتي [3] . قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ وشاهد الملك فيه ما شاهد من جلال النبوة ، وجميل الوزارة ، وخلال السيادة ، وعلامات الخلافة ، ومخايل السعادة ﴿ قَالَ ﴾ مؤكداً تمكيناً لقوله دفعاً لمن يظن أنه بعد السجن وما قاربه لا يرفعه هـٰذه الرفعة : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ ﴾ وعبر بما هو لشدَّة الغرابة تمكيناً للكلام أيضاً ، فقال : ﴿ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ أي : شديد المكنة ، من المكانة العالية والحفظ السليم ، وهي حالة يتمكن بها صاحبها من مراده ﴿ أَمِينٌ ﴾ من الأمانة ، وهي حال يؤمن معها نقض العهد ﴿ ٱجْعَلْنِى ﴾ قيماً ﴿ عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أي أرض مصر التي هي لكثرة خيرها كأنها الأرض . ثم علله بما هو مقصود الملوك الذي لا يكادون يقفون عليه ، فقال : ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ ﴾ أي : قادر علىٰ ضبط ما أَلِيْ أمين فيه ، وحفظ الأمانة لا خيانة لها ولا فيها ، و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالغ العلم بوجوه صلاحه ، واستنمائه ، فأخبر بما جمع ٱلله له من

---

(1) تفسير حقي ، ج 5 ، ص 448 .
(2) يوسف ، 54 ـ 55 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 4 ، ص 395 .

أداتي الحفظ والفهم ، مع ما يلزم الحفظ من القوة والأمانة لنجاة العباد مما يستقبلهم من السوء ، فيكون ذلك سبباً لردهم عن الدين الباطل إلىٰ الدين الحق . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) . ولما سأل ما تقدم ، قال معلماً بأنه أجيب بتسخير ٱلله له : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا ﴾ أي : ومثل ما مكنا ليوسف في قلب الملك من المودة والاعتقاد الصالح وفي قلوب جميع الناس ، ومثل ما سأل من التمكين بما لنا من العظمة . ﴿ لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : مطلقاً لا سيما أرض مصر بتولية ملكها إياه عليها . ﴿ يَتَبَوَّأُ ﴾ أي : يتخذ منزلاً يرجع إليه ليتابع ويراقب الخطة التي وضعت للأقاليم ، ﴿ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ بإنجاح جميع مقاصده ، لدخولها كلها تحت سلطانه . وفيه إشارة إلىٰ نصرة ٱلله لخلفائه في أرضه ، وأنه يمكّن لهم في الأرض من السلطان ، والقوة ، والمنعة ؛ حتىٰ وإن كان في قوم ظلمةٍ كافرين (2) .

لقائل أن يقول : لِمَ طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمـٰن بن سمرة : (لا تسأل الإمارة) ؟

وأيضاً فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر ؟

وأيضاً لِمَ لم يصبر مدة ؟

ولِمَ أظهر الرغبة في طلب الإمارة في الحالة ؟

وأيضاً لم طلب أمر الخزائن في أول الأمر ، مع أن هـٰذا يورث نوع تهمة ؟

---

(1) يوسف ، 21 .
(2) نظم الدرر للبقاعي ، ج 4 ، ص 267 ، وتفسير الألوسي ، ج 9 ، ص 53 .

وأيضاً كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مع أنه تعالىٰ يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (1) .

وأيضاً فما الفائدة في قوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾؟

وأيضاً لم ترك الاستثناء في هـٰذا ، فإن الأحسن أن يقول : إني حفيظ عليم إن شاء ٱلله بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ (2) ؟

فهـٰذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها فنقول : الأصل في جواب هـٰذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه ؛ لأنه خليفتهم ، فجاز له أن يتوصل إليه بأيِّ طريق كان ؛ لأنه مستخلف فيهم ، إنما قلنا : إن ذلك التصرف كان واجباً عليه لوجوه :

الأول : أنه كان رسولاً حقاً من ٱلله تعالىٰ إلىٰ الخلق ، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان لاستخلافه فيهم .

والثاني : وهو أنه عليه الصلاة والسلام علم بالوحي في الرؤيا التي رآها الملك : أن الناس يصيبهم القحط ، فخاف عليهم القحط ، والتلف ، فأحبَّ أن تكون يداه علىٰ الخزانة ؛ ليعينهم وقت الحاجة شفقةً علىٰ عباد ٱلله وهي من أخلاق الخلفاء وكانت خدمته معجزةً لفراعنة مصر .

والثالث : أنَّ السعي في إيصال النفع إلىٰ المستخلفين ، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول . وإذا ثبت هـٰذا ؛ فنقول : إنه عليه الصلاة والسلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق في المكان الذي بُعث فيه من هـٰذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهـٰذا الطريق ، وما لا يتم الواجب

---

(1) النجم 32 .

(2) الكهف 23 ، 24 .

إلا به ، فهو واجب ، فكان هـٰذا الطريق واجباً عليه . وأقول هـٰذا من العجائب لأنه لما تأبىٰ عن الخروج من السجن سهل ٱلله عليه ذلك علىٰ أحسن الوجوه ولمَّا تسارع في ذكر الالتماس ؛ أخَّر ٱلله تعالىٰ ذلك المطلوب عنه . وهـٰذا يدلُّ علىٰ أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلىٰ ٱلله تعالىٰ أولىٰ . وأقول : لعل السبب فيه : أنه لو ذكر هـٰذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك : أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له علىٰ ضبط هـٰذه المصلحة كما ينبغي ، فلأجل هـٰذا المعنىٰ ترك الاستثناء ، وأما قوله : لم مدح نفسه فجوابه لا نسلم : أنه مدح نفسه لـٰكنه بيَّن كونه كان عالماً بأنه يفي بهـٰذا الأمر ، ثم نقول هب : أنه موصوفٌ بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هـٰذا المطلوب ، وبين البابين فرق ، وكأنه قد غلب علىٰ ظنه : أنه يحتاج إلىٰ ذكر هـٰذا الوصف ؛ لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين ؛ لـٰكنه ما مدح نفسه ، إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلىٰ غير ما يحل ، فأما علىٰ غير هـٰذا الوجه فلا نسلم أنه محرم ، فقوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [1] . المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالىٰ بعد هـٰذه الآية : ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه علىٰ الصدق والحق المبين ؛ فهـٰذا الأمر لا يدخل دائرة الممنوع . وقوله : ما الفائدة في وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم ؟ قلنا : إنه جارٍ مجرىٰ أن يقول : حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال ، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها ، ويقال : حفيظ بجميع مصالح الناس ، عليم بجهات حاجاتهم . أو يقال : حفيظ لوجوه أياديك ، وكرمك ، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع . وهـٰذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده [2] . قال العلماء : سؤال تولية الأوقاف مكروه كسؤال تولية الإمارة

---

(1) النجم 32 .

(2) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 63ـ64 .

والقضاء ؛ وذلك لان ٱلله تعالىٰ يعين المجبور ، ويسدِّده ، ويكِل الطالب إلىٰ نفسه . والولاية أمور ثقيلة فلا يقدر علىٰ رعاية حقوقها ، وإذا تعين أحد للقضاء أو الإمارة أو نحوهما لزمه القبول ؛ لأنها من فروض الكفاية فلا يجوز إهمالها . ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أصلح من يقوم بما ذكر من التدبير في ذلك الوقت ، فاقتضت الحال تقلده وتطلبه إصلاحاً للعالم (1) .

وفي هٰذه الآية إشارة إلىٰ أن في كل شيء وعضو من أعضاء ظاهر الجسد وباطنه خزانة من القهر والحفظ فيها نعمة أخرىٰ كالعين فيها نعمة البصر ، فان استعملها في رؤية العين ، ورؤية الآيات ، والصنائع ؛ فيجد الحفظ ، وينتفع به . وإن استعملها في مستلذاتها ، وشهوات النفس ، ولم يحفظ نفسه منها ؛ فيجد القهر ، ويضره ذلك ، فقس الباقي علىٰ هٰذا المثال . ولهٰذا قال يوسف : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حافظ نفسي فيها عما يضرها ، عليم بنفعها ، أو ضرها ، واستعمالها فيما ينفع ولا يضر (2) .

وعليه : كل ما وصف به يوسف نفسه هو من واقع رؤية ، ولأن رؤية يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي ربانية ؛ لذا فإنه لم يقل إلا حقاً ، لا زيفاً ولا غموضاً ، ولا لبس فيه ، إنه رسول مكلف من ٱلله تعالىٰ ليصلح في الأرض ، ويُسهم في إصلاح حال الناس ، وليحكم بالعدل فيما أراه ٱلله من رؤية . ولهٰذا كانت مطالبه من أجل الآخرين ، وليس من أجل نفسه ، فلم يبق لنفسه إلا العمل الصالح ؛ الذي سيجازيه عليه الحفيظ العليم ، الذي حفظه من كل سوءٍ ، وحسدٍ ، وإيذاءٍ ؛ وهو في غيابات الجب .

قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ (3) . ﴿ قَدْ

---

(1) تفسير حقي ، ج 6 ، ص 125 .
(2) تفسير حقي ، ج 6 ، ص 29 .
(3) ق ، 4 .

عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي : ما تأكل من لحوم موتاهم ، وعظامهم ، وأشعارهم ، وهو ردٌّ لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه ، وهو أن أجزاءهم تفرقت ، فلا تعلم حتىٰ تعاد بزعمهم الفاسد . وقيل : ما تنقص الأرض منهم من يموت فيدفن في الأرض منهم ، وهـٰذا جواب لما كانوا يقولون : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [1] . يعني : أن ذلك إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ كما يعلم أجزاؤهم يعلم أعمالهم من ظلمهم ، وتعديهم بما كانوا يقولون ، وبما كانوا يعملون ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ تعميم لعلمه تعالىٰ . أي : وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، ويدخل فيها أعمالهم ، أو محفوظ عن التغير ؛ والمراد إما تمثيل علمه تعالىٰ بكليات الأشياء ، وجزئياتها بعلم مَنْ عنده كتاب حفيظ يتلقىٰ منه كل شيء ، أو تأكيد لعلمه تعالىٰ بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه . ويحتمل أن يقال معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء ، وذلك لأن العلم إجماليٌّ ، وتفصيليٌّ ، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتاباً ويفهمه ، ويعلم : أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب ، ولـٰكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفاً بحرف ، ولا يخطر بباله في حاله باباً باباً ، أو فصلاً فصلاً ، ولـٰكن عند العرض علىٰ الذهن لا يحتاج إلىٰ تجديد فكر ، وتحديد نظر . والتفصيليُّ مثل الذي يعبر عن الأشياء ، والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل ، وهـٰذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة أو مسألتين . أما بالنسبة إلىٰ كتاب فلا يقال : ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ يعني : العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزءاً جزءاً وشيئاً شيئاً . والحفيظ بمعنىٰ الحافظ ، أي : حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسىٰ شيئاً منها ، والثاني هو الأصح وذلك أن الحفيظ بمعنىٰ الحافظ واردٌ في القرآن ،

---

(1) السجدة 10 .

قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [2] ؛ ولأن الكتاب علىٰ ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء ، وهو مستغن عن أن يحفظ . وقوله تعالىٰ : (حفيظ) أي : بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء دقَّ ، أو جلَّ ، فكيف يستبعدون علىٰ عظمتنا أن لا نقدر علىٰ تمييز ترابهم من تراب الأرض ، ولم يختلط في علمنا شيءٌ من جزء منه بشيءٍ من جزء آخر فضلاً عن أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها [3] .

قال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [4] . ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارة إلىٰ الجنة وهي الوعد الحق ، والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمىٰ من غير قصد لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ العربي ، وقيل : هو إشارة إلىٰ الثواب . وقيل : إلىٰ مصدر ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ [5] ، والمراد هـٰذا القول هو الذي وقع الوعد به ، وهو كما ترىٰ [6] ، وقوله تعالىٰ : ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي رجاع إلىٰ ٱلله ، ﴿حَفِيظٖ﴾ بليغ في الحفظ ، حفظ ذنوبه حتىٰ رجع عنها ، كما قال مجاهد : ألا أنبئك بالأواب الحفيظ ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا ، فيستغفر ٱلله تعالىٰ . وعن قتادة قال : « أي : حفيظ لما استودعه ٱلله تعالىٰ من حقه ونعمته . وعن عبيد بن عمير : كنا نعدُّ الأواب الحفيظ الذي يكون في

---

(1) الأنعام 104 .
(2) الشورىٰ 6 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج 19 ، ص 307 ، وتفسير الرازي ، ج 14 ، ص 211 ، ونظم الدرر للبقاعي ، ج8 ، ص 171 .
(4) ق ، 32 ، 33 .
(5) ق 31 .
(6) تفسير الآلوسي ، ج 19 ، ص 340ـ 341 .

المجلس فإذا أراد أن يقوم ؛ قال : اللهُمَّ اغفر لي ما أصبت في مجلسي هـٰذا . وقيل : هو الحافظ لتوبته من النقض »[1] . ولا ينافيه صيغة : ﴿ أَوَّابٍ ﴾ . أي لكل شخص أواب . قال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا ﴾ وهـٰذا إشارة إلىٰ ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ ولو كانت الإشارة الىٰ الجنة لقال : (هـٰذا لكل أواب) بدل من (المتقين) بإعادة الجار ؛ أي : رجّاع الىٰ ٱلله ، فأولاً يرجع من الشرك الىٰ التوحيد ، وثانياً من المعصية الىٰ الطاعة ، وثالثاً من الخلق الىٰ الحق .

وعليه ، فالأواب كالتواب ، وهو الراجع الىٰ ٱلله بترك المعاصي وفعل الخيرات ، ومنه قيل للتوبة : أوبة . ويحتمل أن يقال : الأواب هو الرجّاع إلىٰ ٱلله بفكره ، والحفيظ الذي يحفظ ٱلله في ذكره ؛ أي : رجع إليه بالفكر ، فيرىٰ كل شيء واقعاً به ، وموجداً منه ، ثم إذا انتهىٰ إليه ؛ حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء ، والأواب : الحفيظ ، كلاهما من باب المبالغة أي : يكون كثير الأوب شديد الحفظ . وفيه وجه آخر أدق ، وهو : أنَّ الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال علىٰ ما سواه ، والحفيظ هو الذي إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ، ويكون هـٰذا تفسيراً للمتقي ؛ لأن المتقي هو الذي اتقىٰ الشرك ، والتعطيل ، ولم ينكره ، ولم يعترف بغيره ، ولذا فهو الحفيظ لما حُفظ به من الحفيظ المطلق ، والأواب هو الذي لا يعترف بغيره ، ويرجع عن كل شيء غير ٱلله تعالىٰ ، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه إلىٰ شيءٍ مما عداه[2] . قال تعالىٰ تتميماً لبيان المتقين : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ﴾ ولم يعد الجارَّ ؛ لأنه لا اعتراض قبله كالأول ، ونبه علىٰ كثرة خشيته بقوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ لأنه إذا خاف مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصي ؛ كان خوفه مع استحضار غيرها أولىٰ . وقال القشيري : « التعبير

---

(1) المصدر السابق ، ص 340 ـ 341 .

(2) تفسير الرازي ، ج ، 14 ، ص 244 .

بذلك للإشارة إلىٰ أنها خشية تكون مقرونة بالأنس يعني الرجاء كما هو المشروع ، قال : ولذلك لم يقل (الجبار) أو (القهار) قال : ويقال : الخشية ألطف من الخوف ، فكأنها قريبة من الهيبة (بالغيب) أي مصاحباً له من غير أن يطلب آية أو أمراً يصير به إلىٰ حد المكاشفة ، بل استغنىٰ بالبراهين القاطعة التي منها : أنه مربوب ، فلا بد له من رب ، وهو أيضاً بيان لبليغ خشيته . ولما كان النافع من الطاعة الدائم إلىٰ الموت ، قال : ﴿ وَجَآءَ ﴾ أي : بعد الموت ﴿ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي راجع إلىٰ ٱلله تعالىٰ بوازع العلم ، ولم يقل : بنفس ، لطفاً بالعصاة ؛ لأنهم وإن قصرت نفوسهم ؛ لم يكن لها صدق القدم ، فلهم الأسف بقلوبهم ، وصدق الندم » (1) .

خصائص اسم الحفيظ :

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (2) . ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ جاءت مطلقة الحفظ ، ولا استثناء فيها ، ولهٰذا فخاصية الاسم الحفيظ جل جلاله : الحفظ من كل سوء ، والحيطة والعناية من كل شر ، والنجاة في كل بر من النار والعار والأسحار . والحفظ من العطش والجوع والفاقة ، والمرض والمظالم ، والفوز بالمغانم والمنافع التي تبقي الكائن الحي تحت الرعاية والعناية الإلٰهية .

اللهُمَّ أحفظنا من كل شر في كل بر ! وأحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ، ولا يفسدون ، ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق ! وأرضَ عنا ، وارحمنا ، وأرحم آباءنا ، وأجدادنا الكرام ، واحفظ أبناءنا وزوجاتنا وإخوتنا الأعزاء ! وأرضَ عن صحابتنا ومشايخنا وصحابة

---

(1) تفسير حقي ، ج ، 14 ، ص 145 ، ونظم الدرر للبقاعي ، ج ، 8 ، ص 186 .
(2) سبأ 21 .

رسول ٱلله ، وأمهاتنا زوجات الرسول ﷺ !

ومن خاصية اسم الحفيظ تعالىٰ : لا يثقله شيء في السموات والأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (1) . وقوله : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ أي : لا يثقله ولا يَكْرِثُهُ حفظ السموات والأرض ، ومن فيهما ، ومن بينهما ، وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه ، وخصهما بالذكر دون الكرسي ؛ لأن حفظهما هو المشاهد المحسوس ، والقول بالاستخدام ليدخل هو والعرش وغيرهما مما لا يعلمه إلا ٱلله تعالىٰ بعيد ، بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم علىٰ كل نفس بما كسبت ، والرقيب علىٰ جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة ، وهو الغني الحميد الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وهو القاهر لكل شيء الحسيب علىٰ كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إلـٰه غيره ، ولا رب سواه . وإنَّ من كان بهـٰذه العظمة في هـٰذا التدبير المحكم ، والصنع المتقن كان بهـٰذا العلم وهـٰذه القدرة التي لا يثقلها شيء ، ولذا قال : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي يثقله . قال الحرالي : مِنَ « الأود » أي : بلوغ المجهود ذوداً ، والحفظ : تماسك بالرعاية عن كل ما يوهن ، أو يبطل (2) . ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ في قيوميته كما يثقل غيره أو يعجزه حفظ ما ينشئه بل هو عليه يسير ؛ لأنه لو أثقله لاختل أمرهما ولو يسيراً ولقدر غيره ولو يوماً ما علىٰ غير ما يريده . فقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

---

(1) البقرة 255 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 1 ، ص 681 ـ ص 682 .

كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ وكقوله : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ . وهـٰذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه [1] . وكل شيء بالإضافة إليه حقير ولما جليت علىٰ منصة هـٰذه الآية الكريمة عرائس المسائل الإلـٰهية ، وأشرقت علىٰ صفحاتها أنوار الصفات العلية ؛ حيث جمعت أصول الصفات من الألوهية ، والوحدانية ، والحياة ، والعلم ، والملك ، والقدرة ، والإرادة ، وما اشتمل اسمه تعالىٰ عليه من صفات ، وأفعال الكمال ظاهرة في بعضها ، ومستترة في البعض ، ونطقت بأنه سبحانه موجود منفرد في ألوهيته ، حيٌّ واجب الوجود لذاته ، موجد لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرأ عن التغير والفتور ، لا مناسبة بينه وبين الأشباح ، ولا يحل بساحة جلاله ما يعرض النفوس والأرواح ، مالك الملك والملكوت ، ومبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد العالم وحده بجلَيِّ الأشياء ، وخفيها ، وكلِّيها ، وجزئِّيها ، واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه ، لا يشق عليه شاق ، ولا يثقل شيء لديه ، متعال عن كل ما لا يليق بجنابه ، عظيم لا يستطيع طير الفكر أن يحوم في بيداء صفات قامت به تفردت بقلائد فضل خلت عنها أجياد أخواتها الجياد وجواهر خواص تتهادىٰ بها بين أترابها [2] .

ولما لم يكن علوه وعظمته بالقهر والسلطان والإحاطة بالكمال منحصراً فيما تقدم ؛ عطف عليه قوله : (وهو) أي : مع ذلك كله المتفرد بأنه (العلي) أي : الذي لا رتبة إلا وهي منحطة عن رتبته ؛ ولما في العلو من الظهور وفي العظمة من الخفاء لموضع الإحاطة ؛ لأن العظيم هو ما يستغرق كما يستغرق الجسم العظيم جميع الأقطار . لا يستطيع أن يحفظ إلا من كان

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 2 ، ص 319 .

(2) المرجع السابق 319 .

قديراً عظيماً ظاهراً في علوّه ، وكبريائه [1] .

خصائص آية الكرسي (الآية الحافظة) :

اشتملت آية الكرسي علىٰ ما لم تشتمل عليه آية في أسماء ٱلله تعالىٰ ، فلها من الخصائص الحافظة المانعة ، ولو نظرنا في خلفائنا علىٰ وجه الأرض فإنه لا يحفظ الخلافة إلا من كان قادراً عليها ، وذلك بما استودع ٱلله له من الهيبة والعلو والكبرياء في قلوب البشر من مسلم وكافر وجاهل وعارف ليلاً ونهاراً ؛ فالإنسان أضعف من أن يكون قادراً علىٰ حملها ، وبذلك أختص أناسا لحملها ورباهم تحت رعايته ، وشملهم بأسمائه ؛ وليحملوا رموزها وألفاظها ومعانيها فلولا هـٰذا الحفظ وهـٰذه الرعاية الربانية ما استطاع أن يسير الخليفة في خلافته ساعةً من نهار . والحمد لله رب العالمين ! عن رسول ٱلله ﷺ : أنه قال : « إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي » وعن أنس : « من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبةٍ حفظ إلىٰ الصلاة الأخرىٰ ، ولا يحافظ عليها إلا نبيٌّ ، أو صديقٌ ، أو شهيد » [2] . وهـٰذا الحفظ الظاهر في هـٰذه الآية لمن يقرأها ليلاً ، أو نهاراً ، وذلك لما اشتملت عليه من أسمائه الحسنىٰ فهي تلتقي مع اسمه الحفيظ لأنه هو الحافظ والقادر علىٰ حفظها جميعاً بما له من موجبات الحفظ .

قال تعالىٰ : ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [3] . وقوله : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أي : الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي : تعجبوا

---

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 1 ، ص 412 .
(2) المرجع السابق ، 413 .
(3) ق ، 1ـ4 .

من إرسال رسول إليهم من البشر ، كقوله تعالىٰ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [(1)] أي : وليس هـٰذا بعجيب ؛ فإن ٱلله يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن الناس .

ثم قال مخبرًا عنهم في عجبهم أيضًا من المعاد ، واستبعادهم لوقوعه : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ أي : يقولون : أإذا متنا وبلينا ، وتقطعت الأوصال منا ، وصرنا تراباً ، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلىٰ هـٰذه البنية والتركيب ؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ بمعنىٰ بعيد الوقوع ، ومعنىٰ هـٰذا : أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه . قال ٱلله تعالىٰ رادّاً عليهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ما تأكل من أجسادهم في البلىٰ ، نعلم ذلك ، ولا يخفىٰ علينا أين تفرقت الأبدان ؟ وأين ذهبت ؟ وإلىٰ أين صارت ؟ ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ حافظ لذلك ، فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة .

عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي : ما تأكل من لحومهم ، وأبشارهم ، وعظامهم ، وأشعارهم . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم [(2)] . فيقول الحقُّ ـ سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾ ولعلَّه يخبر الملائكة قائلاً : عَبدي الذي أخْرَجته من دنياه ـ ماذا بقي بينه مَنْ يهواه هـٰذه أجزاؤه قد تَفرَّقَتْ ، وهـٰذه عِظامُه بَلِيَتْ ، وهـٰذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ ! ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ : وهو اللَّوحُ المحفوظ ؛ أَثْبَتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلىٰ تَذكُّره [(3)] . ففي الكتاب كل شيءٍ بيِّن ثابت لا يهلك ، باقٍ دليل إثبات علىٰ الحق وإحقاقه ، فكل ما حدث وكل ما سيحدث في الدارين هو مُنزَّل في القرآن الكريم الرسالة

---

(1) يونس ، 2 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 395 .

(3) تفسير القشيري ، ج 7 ، ص 296 .

الخاتمة . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (4) وقال جل جلاله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (5) . ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ جاءت مطلقة جامعة لا مانعة ، (جامعة لِما يُعرف ومفتوحة علىٰ ما لا يعرف بعد) ولذلك فالحفيظ هو علاَّم الغيوب . حافظ لكل ما نعلمه ، وحافظ لكل ما لم نعلمه ، ولهٰذا يزداد علمنا كلما تعلمنا شيئاً من علمه الواسع ، سبحانه لكل شيء حفيظ ، وبكل شيء محيط .

قال تعالىٰ : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وقد علمنا إن النشأة الأولىٰ أوجدها ٱلله تعالىٰ علىٰ غير مثال سبق ، وركبها في إي صورة شاء ، وهٰكذا النشأة الآخرة يوجدها الحق علىٰ غير مثال سبق مع كونها محسوسةً بلا شك ، فينشئ ٱلله النشأة الآخرة علىٰ عجم الذنب الذي يبقىٰ من هٰذه النشأة الدنيا وهو أصلها فعليه تتركب النشأة الآخرة ، فقوله تعالىٰ ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ راجع الىٰ عدم مثال سابق كما في النشأة الأولىٰ مع كونها محسوسة بلا شك ؛ إذ ذكر

(1) الأنعام ، 38 ، 39 .
(2) الأنعام ، 59 .
(3) الأنعام ، 92 .
(4) الأنعام ، 114 .
(5) النحل ، 89 .

رسول ٱلله ﷺ من صفة نشأة أهل الجنة والنار ما يخالف هـٰذه النشأة الدنيا . وقوله : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ لا يقدح فيما قلنا ؛ لأن البدء إن كان عن اختراع فكر ، وتدبير ؛ كانت إعادته الىٰ أن يخلق خلقاً آخر مما يقارب ذلك ، ويزيد عليه أقرب الىٰ الاختراع في حق من يستفيد الأمور بفكره والله متعال عن ذلك علواً كبيراً ، فهو الذي يفيد العالم ولا يستفيد ، ولا يتجدد له علم بشيء ، بل هو عالم بتفاصيل مالا يتناهىٰ بعلم كلي ، فعلم التفصيل في عين الإجمال ، وهـٰكذا ينبغي لجلاله أن يكون . ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ بالغٌ في الحفظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظٌ من التغير . والمراد تمثيل علمه تعالىٰ بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم مَنْ عنده كتاب محيط يتلقىٰ منه كل شيء ، أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده [1] .

قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [2] . ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ أي : لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ السلطان : القهر والغلبة ، ومنه : السلطان لمن له ذلك . أي : تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء ، وإلا فهو ما سلَّ سيفاً ، ولا ضرب بعصا . ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ والعلم إدراك الشيء بحقيقته والعالم في وصف ٱلله تعالىٰ هو الذي لا يخفىٰ عليه شيء ، والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان ، وتساويهما . والمعنىٰ : وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً ممَّن هو في شك منها تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء فعلم ٱلله قديم ، وتعلقه حادث ؛ إذ هو موقوف علىٰ وجود المكلف في عالم الشهادة ، فلا يظنَّ ظانٌّ بالله ظنَّ السوء . إن ٱلله جل جلاله علام الغيوب ، وعالم الظاهر والباطن وهو

(1) تفسير حقي ج 14 ، ص 104 .
(2) سبأ ، 21 .

علىٰ كل شيء قدير ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ (1) . فالله تعالىٰ كان عالماً بحال الفريقين قبل خلقهم ، وهو الذي خلقهم علىٰ ما هم به ، وإنما سلط ٱلله الشيطان علىٰ بني آدم لاستخراج جواهرهم من معادن الإنسانية ، كما تسلط النار علىٰ المعادن لتخليص جوهرها . وقال بعضهم : العلم هنا مجاز عن التمييز ، والمعنىٰ : إلا لتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها ، فعلل التسلط بالعلم ، والمراد ما يلزمه . ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظة عليه دون أدنىٰ شك ، ولهـٰذا لن يمسه شيء إلا بإذنه .

وقال بعضهم : هو الذي يحفظ كلَّ شيء علىٰ ما هو به (2) . وعلم ٱلله من الأزل إلىٰ الأبد محيط بكل معلوم ، وعلمه لا يتغير ، وهو في كونه عالماً لا يتغير ، ولـٰكن يتغير تعلق علمه ، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر ، فعلم ٱلله في الأزل : أن العالم سيوجد ، فإذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم ، وإذا عدم يعلمه معدوماً بذلك ، مثاله : أن المرآة المصقولة فيها الصفاء ، فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته ، والمرآة لم تتغير في ذاتها ، ولا تبدلت في صفاتها ، إنما التغير في الخارجات ، فكذلك هاهنا .

قوله : ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي : ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن ، وكان قبله فيه : أنه سيكفر زيد ، ويؤمن عمرو . وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ إشارة إلىٰ أنه ليس بملجئ ، وإنما هو آيةٌ ، وعلامةٌ خلقها ٱلله لتبيين ما هو في علمه السابق ، وقوله : ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحقق ذلك . أي : الله تعالىٰ قادر علىٰ

(1) الأعراف 179 .
(2) تفسير حقي ، ج ، 11 ، ص 196 .

منع إبليس عنهم عالم بما سيقع ، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة ؛ إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ، ولا العاجز [1] . والحفيظ من الخلفاء مَنْ يحفظ ما أمر بحفظه من الجوارح والشرائع والأمانات والودائع ، ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الحكماء ، وذلك بالأسباب الإلـٰهية التي منحه ٱلله إياها من الحفظ الجد والمواظبة وترك المعاصي وتقليل النوم وصلاة الليل وقراءة القرآن . والله المستعان !

قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [2] . ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ، ومعطين ، ونهاهم عن العبث في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق . وقوله : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ قال ابن عباس : رزق ٱلله خَيْرٌ لكم . وقال الحسن : رزق ٱلله خير من بخسكم الناس . وقال الربيع بن أنس : وصية ٱلله خير لكم . وقال مجاهد : طاعة ٱلله [خير لكم] . وقال قتادة : حظكم من ٱلله خير لكم . وقال عبد الرحمـٰن بن زيد بن أسلم : « الهلاك » في العذاب ، و« البقية » في الرحمة . وقال أبو جعفر بن جرير : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ أي : ما يفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ، وهـٰذا خير لكم من أخذ أموال الناس [3] . ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ برقيب ولا حفيظ ، أي : افعلوا ذلك لله عز وجل . لا تفعلوه ليراكم الناس ، بل لله عز وجل . وللخليفة أن يأخذ بأيدي الناس بالنصيحة ، وتوجيه المستخلفين إلىٰ الطريق المستقيم بإيفاء الكيل والميزان ، وإيصال الحقوق إلىٰ أصحابها ، ومنعهم من

(1) تفسير الرازي ، ج 12 ، ص 413 .
(2) هود ، 85 ، 86 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 4 ، ص 343 .

العبث ، والإفساد ، والسعي بالشر بين العباد بالكلمة الصادقة تارةً ، والسيف تارةً أخرىٰ ؛ حتىٰ يكون قد أرضىٰ ربه بما كلفه به .

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (1) . وفي الصحيحين : « إن ٱلله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه ؛ لم يفلته » (2) ، ثم قرأ رسول ٱلله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (3) . يقول تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ ﴾ أي : حفيظ عليم رقيب علىٰ كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفىٰ عليه خافية ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ ﴾ (4) . وقال ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (5) . وجوده معكم رقيب حسيب حفيظ ، وعليم خبير ، سبحانه له الصفات الحسنىٰ !

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (6) . يخبر تعالىٰ عن أهل هـٰذه الأديان المختلفة من المؤمنين ، ومن سواهم من اليهود والصابئين والنصارىٰ والمجوس ، والذين أشركوا فعبدوا غير ٱلله معه ؛ فإنه تعالىٰ ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ، ومن كفر به النار ، فإنه تعالىٰ شهيد علىٰ أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ،

---

(1) الرعد ، 33 .
(2) صحيح البخاري ، ج 14 ، 268 .
(3) هود ، 102 .
(4) يونس ، 61 .
(5) الحديد، 4 .
(6) الحج، 17 .

عليم بسرائرهم ، وما تُكِن ضمائرهم [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [2] . من خير وشر وإيمان وكفر لـٰكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما ، فالآية رادة علىٰ المعتزلة رداً ظاهراً . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يتولىٰ التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة ، وكأن ذكر ذلك للدلالة علىٰ أنه سبحانه الغني المطلق وإن المنافع والمضار راجعة إلىٰ العباد . ولـك أن تقول : المعنىٰ : أنه تعالىٰ حفيظ علىٰ كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [3] . وحاصله : أنه تعالىٰ يتولّىٰ حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلىٰ احتياج الأشياء إليه تعالىٰ في بقائها ، كما أنها محتاجة إليه عز وجل في وجودها [4] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [5] . ولما كان الحبيب أسرَّ شيءٍ بما يريده حبيبه ، قال مسلياً له ﷺ عن استهزائهم به وردِّهم لقوله ، عاطفاً علىٰ ما تقديره : فلو شاء ٱلله ما خالفوك ، ولا تكلموا فيك ببنت شفة : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ ﴾ أي : ما وقع منهم إشراك أصلاً ، فقد أراد لك من الوقوع فيك ما أراده لنفسه ، فليكن لك في ذلك مسلاة . ولما كان التقدير : فإنه سبحانه حفيظ عليهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ ﴾ أي : بعظمتنا ، وأشار إلىٰ أن العلو ليس بغير ٱلله سبحانه فقال : ﴿ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ ﴾ تحفظ أعمالهم لئلا يكون منها ما لا يرضينا ، فتردهم عنه قسراً ﴿ وَمَآ أَنتَ ﴾ وقدم ما هو أعم من نفي التحقق

---

(1) تفسير ابن كثير ، ج ، 5 ، ص 2368 .
(2) الزمر . 62 .
(3) الزمر ، 41 .
(4) تفسير الآلوسي ، ج 18 ، ص 9 .
(5) الأنعام ، 107 .

بالعلو المحيط القاهر الذي هو خاص بالإلـه ، فقال : ﴿ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ فتأخذ الحق منهم قهراً ، وتعاملهم بما يستحقونه خيراً أو شراً ، إنما أنت مبلغ عنا ، ثم الأمر في هدايتهم وإضلالهم إلينا . هـٰذا هو شأن الخلفاء مع مستخلفيهم بين الرفض والقبول مثلما حدث مع الرسول ﷺ ، فهم مكلفون بتوصيل ما أمروا به لمستخلفيهم دون كلل ، أو ملل ؛ ليفوزوا بالدرجات العلىٰ في الدارين [1] .

قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [2] . ولما كان ذلك ربما أوهم أن لإبليس أمراً بنفسه ، نفاه بقوله : ﴿ وَمَا ﴾ أي : والحال : أنه ما ﴿ كَانَ ﴾ أصلاً ﴿ لَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ أي : الذين اتبعوه ولا غيرهم ، وأغرق فيما هو الحق من النفي بقوله : ﴿ مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي : تسلط قاهر لشيء من الأشياء بوجه ؛ لأنه مثلهم في كونه عبداً عاجزاً مقهوراً ، ذليلاً خائفاً مدحوراً . قال القشيري : هو مسلط ، ولو أمكنه أن يضل غيره أمكنه أن يمسك علىٰ الهداية نفسه ﴿ إِلَّا ﴾ أي : لـٰكن نحن سلطناه عليهم بسلطاننا وملـٰكناه قيادهم بقهرنا . وعبر عن التمييز الذي هو سبب العلم بالعلم ، فقال : ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي : يوجد الإيمان لله ليتعلق علمنا بذلك في عالم الشهادة في حال تميزه تعلقاً تقوم به الحجة في مجاري عادات البشر كما كان متعلقاً به في عالم الغيب . ﴿ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى ﴾ من الآخرة ، فهو لا يتجدد له بها إيمان أصلاً ، لأن الشك ظرف له محيط به ، وإنما استعار (إلا) موضع (لـٰكن) إشارة إلىٰ أنه مكنه تمكيناً تاماً صار به كمن له سلطان حقيقي . ولما كان هـٰذا ربما أوقع في وهم نقصاً في العلم ، أو في القدرة ؛ قال مشيراً إلىٰ أنه سبحانه يسره ﷺ بتكثير هـٰذا الفريق المخلص وجعل أكثره من أمته ،

---

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 3 ، ص 109 .

(2) سبأ، 21 .

فقــال : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي : المحســن إليــك بــإخــزاء الشيطان بنبوتك وإخسائه عن أمتك ، ومن المكلفين وغيرهم حافظ أتم حفظ محيط به مدبر له علىٰ وجه العلو بعلمه الكامل وقدرته الشاملة ، فلا يفعل الشيطان ولا غيره شيئاً إلا بعلمه وإذنه . وللخليفة أن يحذر أمته من كيد الشيطان ؛ ليفوز بهم إلىٰ دار النجاة وذلك بأمرهم بالسلوك الحسن ، وتحذيرهم من مهاوي الردىٰ بعدم اتباع خطوات الشيطان ، وإن عملوا بعدها ؛ فهو في حلٍّ مما يصنعون ؛ لأنه عمل ما هو مناط به ، وواجب عليه (1) .

قوله تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ (2) . ولما كان ضبط ذلك أمراً عظيماً ، استأنف قوله بياناً لهوانه عليه : ﴿ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ أحاط به عدداً كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً بما له من صفات الجلال والجمال . ولم يذكر إحصاءه له ، فكان ربما ظن أنه مما يمكن في العادة إحصاؤه ، فنفىٰ ذلك بقوله : ﴿ وَنَسُوهُۚ ﴾ فكلهم مجتمعين لخروجه عن الحد في الكثرة ، فكيف بكل واحد علىٰ انفراده ونسوا ما فيه المعاصي تهاوناً بها . فالله بكل شيء من ذلك وغيره عليم ، عطف عليه قوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ أي : بما له من القدرة الشاملة المطلقة والعلم المحيط علىٰ الإطلاق ﴿ شَهِيدٌ ﴾ حفيظ حاضر لا يغيب ، وهو الحفيظ المجيد ، ورقيب بيده الأمر ، والفعل ، فهو الفعَّال لما يُريد (3) .

قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ (4) . ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ ﴾ تنويع للكلام وصرف له

---

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 6 ، ص 492 .

(2) المجادلة ، 6 .

(3) نظم الدرر للبقاعي ، ج 8 ، ص 405 .

(4) الشورىٰ 48 .

عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة ، وتوجيه له الىٰ الرسول عليه السلام بمعنىٰ : إن لم يستجيبوا ، واعرضوا عما تدعوهم إليه ، فما أرسلناك رقيباً ، ومحاسباً عليهم ، وحافظاً لأعمالهم ، وفيه تسلية لرسول ٱلله صلىٰ ٱلله تعالىٰ عليه وسلم ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ ما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة ، وقد فعلت ، فلا يهمنك إعراضهم ، فإن أعرضوا عن ٱلله بالإقبال علىٰ الدار الدنيا ، ولم يجيبوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً تحفظهم ؛ لأن الحفظ من شأني لا من شأنك ، فإني حفيظ ، فليس عليك إلا تبليغ الرسالة ، ثم نحن نعلم بما نعاملهم بالتوفيق ، أو بالخذلان .

وخليفة ٱلله في الأرض هو الحفيظ من العباد ، وهو من يحفظ جوارحه ، وقلبه ويحفظ دينه من سطوة الغضب ، وخلابة الشهوة ، وخداع النفس ، وغرور الشيطان فإنه علىٰ شفا جرف هار ، وقد اكتنفته هـٰذه المهلكات المفضية الىٰ النار . ولذا فليسارع العبد الىٰ دفع الموبقات ، وجلب المنجيات بإصلاح النفس والتخلق بالأخلاق الإلـٰهية حتىٰ تكون نفسه مطمئنة ، ليكون من جنبه الطمأنينة والأمان ، وتكون أعماله خيِّرة تُسهم في إصلاح الأرض وإعمارها ، ومن تكون نفسه غير مطمئنة يملؤه الخوف بكفره ، أو شركه ، أو فسقه ، أو انحرافه عن الحق . في الحديث قال : « أتدرون من المفلس ؟ » . قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال ﷺ : « المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة ، وصيام ، وزكاة ، ويأتي قد شتم هـٰذا ، وقذف هـٰذا ، وأكل مال هـٰذا ، أو سفك دم هـٰذا ، وضرب هـٰذا ، فيعطىٰ هـٰذا من حسناته ، وهـٰذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضيَ ما عليه ؛ أخذ من خطاياهم ، وطرحت عليه ، ثم يطرح في النار » [1] . وعليه فلا ينبغي للعاقل أن تكون نفسه ضالةً ، بل عليه بالنفس المهتدية إلىٰ سواء السبيل ؛

(1) صحيح مسلم ، ج ، 1 ، ص 449 .

ليكون حالها مع المقبلين القابلين للبلاغ والإرشاد ، فالله تعالىٰ يحفظهم مما يخافونه يوم المعاد . ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ﴾ بمعنىٰ : نعمة من الصحة ، والغنىٰ ، والأمن . ﴿ فَرِحَ بِهَاۖ ﴾ بطر لأجلها .

اعلم : أن نعمة ٱلله وإن كانت في الدنيا عظيمةً إلا أنها بالنسبة الىٰ سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة الىٰ البحر ، فلذلك سمىٰ الأنعام بها إذاقة . فغير المؤمن إذا حصل له هـٰذا القدر الحقير في الدنيا ؛ فرح به ، ووقع في العجب ، والكبر ، وظن : أنه فاز بكل المنىٰ ، ودخل في قصر السعادات ، ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وإلا لاختار الباقي علىٰ الفاني ، كما هو حال الخلفاء في الأرض المؤمنين بما أمر ٱلله في الحياة الفانية بأنها متاع الغرور ، فالفاني عياره كالخزف مع أنه قليل ، والباقي عياره كالذهب النقاء والصفاء ، وهو كثير (1) .

وعليه فحظ الخليفة من اسمه (الحفيظ) : أن يتصف بهـٰذه الصفة الحسنة في حفظ الحق واتباعه ، وأن يؤمن بالحفيظ المطلق الذي لا حافظ غيره من جهنم ، ولا مدخل غيره للجنة ، وأن يحفظ نفسه من الضلال والشرك والكفر والفسق ، وأن يكون مصلحاً في الأرض وغير سافك للدماء فيها بغير حق ، وأن يتقي ٱلله ربه في نفسه وزوجه ، ووالديه وأبنائه ، وجيرانه ، وفي ذوي الحق عليه .

لذا عليه أن يحفظ نفسه من أكل أموال الناس بالباطل ، وأن يحفظها من شهادة الزور ، وارتكاب الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وإذا حكم بين الناس أن يحكم بينهم بالعدل حتىٰ يكون له مسلك صدق ، وأن يجعل الدنيا تراباً بين يديه ، ولا يجعلها فتنة في قلبه ، أو غاية نهائية في حياته ، وليعلم : أنه وما يملك منتهون ، ولن يبقىٰ إلا وجهه فليعبده حق عبادته ، ويتقيه في كل

(1) تفسير حقي ، ج ، 13 ، ص 125 .

كبيرة ، وصغيرة ، وليعمل علىٰ آخرته ؛ حتىٰ يفوز بالجنة ، ولا يكون في النار .

الحفيظ بالإضافة : هو الخليفة الذي يعلم الحق في والديه وزوجه ويتقيه ، فيُقدِّم لهم الرعاية ، والطاعة في غير معصيته جل جلاله ، ويبادلهم المودة والمحبة الخالصة التي بها يُصان العِرض ، ويسلم الشرف من النقيصة المعيبة . ويكون حفيظاً علىٰ أبنائه بالتربية الصالحة علىٰ الطاعة ، والشهادة بالله ربّاً وبمحمد رسولاً خاتماً ، وأن يعمل كل ما في وسعه من أجل أن ينقل أبناءه من الجهل إلىٰ الهداية والعلم الذي يُمكنهم من المعرفة التامة حتىٰ لا يجهلوا أمور دينهم ودنياهم . وهٰكذا يكون الخليفة حفيظاً مع والديه ، وبذي القربىٰ وجيرانه وأصحابه واليتامىٰ والمساكين وأبناء السبيل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [1] .

التقوىٰ خير حافظ ، فليتقِ الإنسان ربه ، ومن يتقِ ربه جل جلاله يُحفظ من كل سوء ، ومن كل زلة مذلة ، وينجو من النار ، ويفوز بالجنة .

قال رسول ٱلله ﷺ لابن العباس : « احفظ ٱلله يحفظك ، احفظ ٱلله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل ٱلله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم : أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بما كتبه ٱلله لك ، ولو اجتمعت علىٰ

(1) النساء ، 36ـ38 .

أن يضروك لن يضروك إلا بما كتبه ٱلله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » [1] .

اللهُمَّ إنك الحفيظ من كل شيء في الأرض وفي السماء فاحفظنا من كل شيء يضر في الأرض أو في السموات العلا ، واحفظ ألسنتنا من الزلات ، وأفعالنا من المفسدات ، وأعمالنا من الخطايا ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات !

اللهُمَّ أحفظ أولادنا من الانحراف عن اتباع الحق ، ولا تجعلنا ولا تجعلهم من المبذرين ، فإن المبذرين إخوان الشياطين !

اللهُمَّ إنك كما مكنت ليوسف في الأرض ، وجعلته حفيظاً علىٰ خزائنها ؛ مكِّنا في الأرض ؛ لنتبوَّأ منها أماكن خير ، وفلاح ، وإصلاح ، وأحِطنا بحفظك ورعايتك كما أحطته بها ، وأحِطنا بحفظك في الدارين إننا متقون !

اللهُمَّ إن اسمك الحفيظ اسم دائم فاحفظنا يا حفيظ علىٰ الدوام بكلماتك التامة ، واجعلنا من الطائعين الحامدين الشاكرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه !

اللهُمَّ احفظنا من كل شر في كل بر ، وأحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ، ولا يفسدون ، ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق ، وأرضَ عنا ، وارحمنا ، وأرحم أباءنا وأجدادنا الكرام ، واحفظ أبنائنا وزوجاتنا وإخوتنا الأعزاء ، وأرضَ عن صحابتنا ، ومشايخنا ، وصحابة رسول ٱلله ، وأمهاتنا زوجات النبي ﷺ !

اللهُمَّ يا الحفيظ احفظنا من الوقوع في الزلات والخطايا ، واحفظ عقولنا

---

(1) الإبانة الكبرىٰ ، ج 4 ، ص 39 .

من فقدان الذاكرة ، واحفظ أجسادنا من المرض ، والعاهة ، والعذاب ، وأحفظنا من وسوسة وأعمال شياطين الجن والإنس ، ومن كيد الكائدين ، ومكر الماكرين والغادرين !

اللهُمَّ احفظ أبصارنا ، وبصائرنا من تتبع ما نهيت عنه ، وحرمته ، واحفظ ألسنتنا من الزلات ، واجعلها لا تقول إلا صوابا !

اللهُمَّ اجعلنا من الناجين من النار والفائزين بالجنة ، واحفظنا بعينك التي لا تنام ، وعزك الذي لا يرام ؛ لنصل محفوظين إلىٰ دار السلام بالتمام !

✍ ✍ ✍

المُقِيتُ جَلَّ جَلَالُهُ

ٱلله المقيت فهو رازق الخلائق أقواتهم ، والحافظ لهم حياتهم ، وهو القادر علىٰ رزقهم جميعاً ، والمقتدر علىٰ حماية ضعفيهم من قويهم وذلك بتوازن وانسجام وعدل واعتدال ، وأول ما يلقانا من معانٍ للاسم (المقيت) أنه مصدر لكل قوت ، وهو ما يمسك حياة المخلوقات مادياً ومعنوياً ، فالقوت في الأصل اللغوي هو المشتق من المقيت ، أي : لو لم يكن ٱلله المقيت ما كان للقوت من خالق ، فاسم المقيت هو المصدر الذي جاء القوت منه اشتقاقاً ، ولهـٰذا فالمقيت المطلق هو مصدر لكل قوت ، وفي هـٰذا الأمر لا يتم الاتفاق مع اللغويين الذين يقولون : إن المقيت هو المشتق من القوت ، ولذا نحن نقول : استغفر ٱلله ، فالله المقيت مصدرٌ لكلِّ شيء ، ولأنه كذلك فالأشياء مخلوقة ، ولأنها كذلك فهي تشتق من خالقها ، أي : إن القوت يشتق من خالقه ولا يمكن للخالق أن يشتق من مخلوقه .

القوت لغة :(قوت) القُوتُ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ من الرِّزْق ، والقُوتُ والقِيتُ والقِيتَةُ والقائِتُ : المُسْكة من الرزق . وفي الصحاح هو ما يَقُوم به بَدَنُ الإنسان من الطعام .

والقَوْتُ مصدرُ قاتَ يَقُوتُ قَوْتاً وقِياتَةً ، وقال ابن سيده : قاتَه ذلك قَوْتاً وقُوتاً ، وتَقَوَّتَ بالشيء ، واقْتاتَ به ، واقْتاتَهُ : جَعَلَه قُوتَهُ ، والاقْتِياتُ والقَـوتُ واحـدٌ ، وأَنـا أَقُـوتُـه ؛ أَي : أَعُـولُـه بـرزقٍ قليـلٍ ، وقُتُّـه فـاقتـاتَ كما تقول : رَزَقْتُه فارْتَزَقَ ، وهو في قائِتٍ من العَيْش ؛ أَي : في كِفايةٍ .

واسْتَقاتَه : سأَله القُوتَ [1] ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا » [2] . أَي : بقَدْرِ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ من المَطْعَم . وفي حديث الدُّعاء : « وجَعَلَ لكل منهم قِيتَةً مَقْسومةً من رِزْقِه » . هي فِعْلَة من القَوْتِ ، كمِيتَة من المَوتِ .

ما يخصُّ اسم ٱلله المقيت :

لا شك : أن الخلق لا يعيشون بدون قوت يحفظ حياتهم المادية والمعنوية ؛ أي : الجسدية ، والروحانية ، وذلك الحفظ لا يأتي إلا من ٱلله المقيت الحافظ القادر المقتدر الشاهد ، لذا فالاسم المقيت ذو صلة بأسماء إلـٰهية أخرىٰ ، ويحمل معانيها في الوقت نفسه ، ولـٰكن في جانب حفظ الحياة بمقوماتها الأساسية تكون الهيمنة للاسم المقيت علىٰ سائر الأسماء ذات الصلة به ، وهـٰذا ما توضحه المصادر اللغوية والدينية من قرآن ، وحديث ، وتفاسير ، وشروح حولهما ، وآراء قد نضيفها للتوضيح والإبانة ؛ إن لزم الأمر .

وفي أَسماء ٱلله تعالىٰ المُقِيتُ ، وهو الحَفِيظ . وقيل : المُقْتَدِرٌ ، وقيل : (هو الذي يُعْطِي أَقْواتَ الخلائق) وهو مِن : أَقاتَه يُقِيتُه : إِذا أَعطاه قُوتَه ، وأَقاته أَيضاً : إِذا حَفِظَه [3] . وفي التنزيل العزيز قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [4] . قال الفراء : (المُقِيتُ : المُقْتَدِرُ ، والمُقَدِّرُ كالذي يُعْطِي كلَّ شيءٍ قوتَه) .

وقال الزجاجُ : « المُقِيتُ : القَديرُ . وقيل : الحافظ ، والحفيظ .

---

(1) لسان العرب ـ ج 2 ، ص 74 .
(2) صحيح البخاري ـ ج 20 ، ص 95 .
(3) لسان العرب ـ ج2 ، ص 47 .
(4) النساء 85 .

قال : وهو بالحفيظ أَشبه ؛ لأَنه مُشْتَقٌّ من القُوتِ . يقال : قُتُّ الرجلَ ، أَقُوتُه قَوْتاً : إِذا حَفِظْتَ نَفْسَه بما يَقُوته » [1] .

والقُوتُ : اسمُ الشيء الذي يَحْفَظُ نَفْسَه ، ولا فَضْلَ فيه علىٰ قَدْرِ الحِفْظِ ، فمعنىٰ المُقِيتِ : (الحفيظُ الذي يُعْطِي الشيءَ قَدْرَ الحاجة من الحِفْظِ) .

وقيل : المُقِيتُ : المُقْتَدِرُ كالذي يُعْطِي كلَّ رَجُلٍ قُوتَه . وقيل : المُقِيتُ الحافِظُ للشيء . وقال أَبو إِسحق الزجاج : إِن المُقِيتَ بمعنىٰ الحافظ ، والحفيظ ؛ لأَنه مشتق من القَوتِ ؛ أَي : مأْخوذ من قولهم : قُتُّ الرجلَ أَقُوتُه إِذا حَفِظْتَ نفسه بما يَقُوتُه . والقُوتُ اسمُ الشيء الذي يَحْفَظُ نَفْسَه . وعلىٰ هـٰذا فُسِّرَ قولُه عز وجل : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أَي حفيظاً .

وقوله في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ » [2] أَراد من يَلْزَمُهُ نَفَقَتُه من أَهله وعياله وعبيده . وقوله في الحديث عن أبي الدرداء : أن النبي ﷺ قال : « قوتوا طعامكم ؛ يبارك ٱلله لكم فيه » [3] . سئِلَ الأَوزاعِيُّ عنه ، فقال هو صِغَرُ الأَرغِفَةِ . وقال غيره : هو مثل قوله : كِيلُوا طعامَكم [4] .

فالمقيت جل جلاله هو الذي بيده المُلك الذي يقتات به ، ولذا فهو مصدر الإطعام والأرزاق التي بها تعيش الكائنات بسلام ، فالطائر المُفرَّخ من البيضة ساعة فقسه لها بالحركة الحية لا يقتات إلا بقدرة المقيت تعالىٰ ، وإلا كيف يعيش وهو لا يملك مقدرة علىٰ العيش بدون أمٍّ قادرة علىٰ الطيران لتلتقط له

(1) سنن أبي داود ـ ج 5 ، ص 2 .
(2) سنن أبي داود ـ ج 5 ، ص 2 .
(3) مسند الشاميين للطبراني ، ج 5 ، ص 31 .
(4) لسان العرب ، ج2 ، ص 47 .

قطرة ماء ، أو حبة شعير . أو قمح ، وتقوته بها بمنقارها ، وفمها ، آلا يكون المقيت مصدراً لكل رزق ، ومصدراً لكل قوة ، ومصدراً لكل حركة تمد بالحياة ؟! وهٰكذا حال المولود ، فهو لو لم تتلقفه أيدي لتحفظه ، وترعاه بالإقاتة ما سلم أحدٌ منا ، وأصبح من المستخلفين فيها ، أو الوارثين .

ٱلله سبحانه وتعالىٰ لمَّا أراد أن يخلق الإنسان ، ويستخلفه علىٰ الأرض خلق الأرض ، وقدَّر فيها أقوات الإنسان الخليفة ، وبقية المخلوقات من حيوان وشجر وحجر وبحار وغير ذلك التي سيستخدمها الخليفة لتحقيق خلافته علىٰ الأرض ؛ لذا وجب علىٰ الخليفة أن يستخدم الأقوات المعدَّة له في الأرض بحكمة ، وبمقدار وتناسب مع حاجاته دون إسراف ، أو تقتير . وهٰذا ما يسمىٰ بالوسطية ، ومن يفعل ذلك يكن من عباد ٱلله الذي وصفهم ٱلله بصفات منها هٰذه الصفة العظمىٰ التي تشير إلىٰ الوسطية ، وفيها تتحقق خلافة الاسم المقيت .

المقيت : هو المنقذ من الهلاك ، وهو الذي يعلم بأسباب الإقاته ، ويملك القوت الذي به يسد جوعاً ، أو يُشبع حاجة . قال ٱلله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [1] .

وجاء في التفسير : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْنًا . أي : أنهم الخلفاء الذين يعلمون : أنهم مستخلفون فيها ، ولهٰذا يحافظون عليها كما يحافظون علىٰ أنفسهم . وعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، قَالَ : (يَمْشُونَ) :

(1) الفرقان ، 63 ، 67 .

يَعْمَلُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْنًا ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ ، قَالَ : عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ . وعَنِ الضَّحَّاكِ : قال : أَعِفَّاءَ أَتْقِيَاءَ حُلَمَاءَ [1] .

وتأتي الصفة الاعتدالية للمستخلفين في الأرض اعتدالاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ قَالَ : هُمُ الْمُؤْمِنُونَ . عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، قَالَ : أُولَئِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فهم لَمْ يُسْرِفُوا . وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ﴾ قَالَ : لا يُسْرِفُونَ ، فَيُنْفِقُونَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ » [2] .

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ ، قَالَ : « فِي الْمَالِ ثَلاثُ خِصَالٍ ، إِنْ نَجَا مِنْ خَصْلَةٍ ؛ كَانَ قَمِنٌ أَنْ لا يَنْجُوَ مِنَ الثِّنْتَيْنِ ، وَإِنْ نَجَا مِنْ ثِنْتَيْنِ ؛ كَانَ قَمِنٌ أَنْ لا يَنْجُوَ مِنَ الثَّالِثَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ مِنْ طَيِّبٍ ، فَأَيُّكُمُ الَّذِي يَسْلَمُ كَسْبُهُ وَلَمْ يُدْخِلْهُ إِلا طَيِّبًا ؟! فَإِنْ سَلِمَ ؛ فَأَيُّكُمُ الَّذِي أَدَّىٰ الْحُقُوقَ كُلَّهَا ؟! فَإِنْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ فِي نَفَقَتِهِ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ ، وَلا مُقَتِّرٍ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قوله : ﴿ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ قالَ : « هُمُ الْمُؤْمِنُونَ لا يَقْتُرُوا فَيَمْنَعُوا حُقُوقَ اللهِ ، وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ : أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ﴿ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ يقُولُ : لا يَمْنَعُهُ مِنْ حَقٍّ ، وَلا يُنْفِقُهُ فِي بَاطِلٍ .

وَلَمْ يَقْتُرُوا فَيُمْسِكُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَا أُمْسِكَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَثُرَتْ فَهُوَ إِقْتَارٌ . ﴿ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [3] .

عن إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَشِيطٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ عُمَرَ مَوْلَىٰ غُفْرَةَ قُلْتُ لَهُ : مَا

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم ، ج 10 ، ص 347 .
(2) تفسير ابن أبي حاتم ، ج 10 ، ص 355 .
(3) السابق ص 356 .

الْقَوَامُ ؟ قَالَ : « الْقَوَامُ : أَلَا تُنْفِقَ فِي غَيْرِ حَقٍّ ، وَلا تُمْسِكَ مِنْ حَقٍّ هُوَ عَلَيْكَ » . وعَنِ الأَعْمَشِ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ قَالَ : عَدْلا . وعَنْ قَتَادَةَ ، قوله : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، قَالَ : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَقَاتَكُمْ قِيتَةً ، فَانْتَهُوا إِلَىٰ قِيتَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[1] .

ولهٰذا فالخليفة هو الذي يتقي ٱلله ربه في كل شيء ، ويتبع أوسط الأمور ؛ حيث لا إسراف ، ولا شح ، ولا يظلم أحداً ، ولا يتخذ الحروب غايةً ، بل من أجل السلام والاستقرار والأمن وإحقاق الحق .

وعلىٰ المستوىٰ الاجتماعي أن يكون الخليفة متقياً ٱلله في أهله وأقربائه وجيرانه ومع من يعمل ويشارك ويسافر ، وإذا حكم بين الناس أن يحكم بالعدل ، ولا يبالغ في القول ولا الفعل ، وأن يكون بين ذلك قواما .

وعلىٰ المستوىٰ الشخصي الفردي لا يلقي بنفسه إلىٰ التهلكة ، فيعتدل حتىٰ تطمئن نفسه ، وهٰكذا لا يظلم أحداً ، ولا يسرف في تناول طعام دون آخر فيصاب الجسم بأمراض لا قبل للإنسان بها ، ولا علاج منها إلا بالتوازن وبالادخار الذي يوفر حياةً مستقرةً للفرد ، وذلك له مردود طيب علىٰ الأمة .

وبفهم معاني الاسم المقيت ، والأخذ بأفعالها تحفظ الأشياء باعتدال ، واتزان ، والذي يتحقق بأنوار هٰذا الاسم يجد : أنه اسم عظيم جليل القدر علىٰ الرغم من وروده مرة واحدة في القرآن الكريم ؛ لأنه يعني الدقة المتناهية في تقدير الأرزاق ، وهٰذا يتطلب علماً واسعاً لا يحصيه إلا ٱلله المقيت ، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا المقيت سبحانه وتعالىٰ .

والخليفة المتحقق بهٰذا الاسم يجب أن يكون من العلماء الذين يقدرون الأمور تقديراً صحيحاً ؛ لأن العلم يرفع أقواماً ، ويخفض آخرين ، وقد يتساءل

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم ـ ج 10 ، ص 359 .

إنسان في غرابة ودهشة فيقول : وما علاقة العلم بالاسم بالمقيت ؟! نقول له : كما أن الأجساد يقيتها الطعام ، فالعلم يقيت العقول ، والذكر يقيت القلوب والأرواح ، لذا ففضل العلم في قوت الأبدان والمحافظة عليها فضل عظيم ، وكذلك في حفظ العقول والأرواح ، والخليفة هو العالم الذي يعرف المنهج الصحيح الذي به يحافظ علىٰ المرتبة التي تحصَّل عليها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بخلافته في الأرض . نقصد العلم الذي وهبه ٱلله سبحانه وتعالىٰ له .

ومن أسس هـٰذا المنهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعلم ، وفهـم ؛ لأنهمـا يحفظـان اتـزان العبـاد والبـلاد ، وقـد قـال الـرسـول الكريم ﷺ : « من أمر بالمعروف ، ونهىٰ عن المنكر ، هو خليفة ٱلله في الأرض ، وخليفة كتابه ، وخليفة رسوله » (1) .

وهـٰذا لب لباب البحث الذي نقوم به في أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ومعنىٰ الخلافة لله ، فليس من الضروري أن تنعقد الخلافة لشخص ما لأنه فتح البلاد قسراً ، وفرض سلطته جبراً ، واستولىٰ علىٰ لقب الخليفة قهراً . الخليفة هو من يأمر بمعروف ، وينهىٰ عن منكرٍ ، وهو الحاكم بين الناس بالعدل ، والحاكم بين الناس ليس هو حاكم الناس ، فالأول عادل بما أمر ٱلله تعالىٰ ، والثاني يحكم كما يتراءىٰ له ، ولذا من يحكم بما أمر ٱلله يطاع ، ومن يحكم بأمره الخاص يُعصىٰ ولا يطاع في غير مرضاة ٱلله تعالىٰ .

فالحاكم بين الناس ، هو الذي يحكم بما يُرضيهم ، ويرضي ٱلله ، ويرضي ضميره ، فلا يندم ، أما أن يحكم باسم الدين ، فالدين لا وكيل عليه ، ولا مسؤول عليه أحد غير الخليفة الذي يصلح بعمله الأرض ، ولا يسفك الدماء فيها بغير الحق ، ومع أنه خليفة إلا أنه لا يخلف ٱلله ، بل خليفة في الأرض من عند ٱلله ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ

(1) كنز العمال ، ج 3 ، ص 75 .

خَلِيفَةً ﴾ . والخليفة الذي جعله ٱلله في الأرض لا أن يحل محلَّه في شيءٍ ، بل ليطيع أمره في كل شيء .

والحكم بين الناس أساسه عدل علىٰ كفتي ميزان الحق والواجب ، فالكل يتمتع بممارسة حقوقه ، وأداء واجباته ، وحمْل مسؤولياته ، والذي ينظر في كتاب ٱلله سبحانه وتعالىٰ نظرةً جوهريةً ، ويعتبر : أن القرآن شريعة المجتمع ، ولا شريعة في غيره ، ويقتدي بالرسول الكريم ﷺ مع الإقرار بأن الأمة واحدة ، ولا يعترف بشيع ، ولا بأحزاب انطلاقاً من قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ (1) .

لذا فمن يجعل الدين مصدراً للحكم ؛ يعدل ، ومن لا يجعل ذلك ؛ ينحاز ، وقد ينحاز بغير حق ، ولهٰذا لا يعدل إذا حكم بين الناس . والحرية مهددة ما لم يكن للمجتمع شريعةٌ مقدسةٌ ، وذات أحكام ثابتة غير قابلة للتغيير أو التبديل بواسطة أيِّ أداة من أدوات الحكم ، بل أداة الحكم هي الملزمة باتباع شريعة المجتمع . ومن يخالف تلك الرؤية ، ويلهث وراء أفكار زائفة لا أصل لها في مصدر التشريع ، كمن يفرح فرحاً غامراً لا أصل فيه للفرح ، وسيعرف زيف ما أتىٰ به واتخذه شريعة وهمية بعد حين ، وفي هٰؤلاء يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (2) .

وٱلله يطمئن الخليفة ومن سار علىٰ دربه بأنها إرادة ٱلله سبحانه وتعالىٰ : أن هٰذا الاختلاف وفق إرادته أما من أحبهم ، وأراد لهم الرحمة ،

---

(1) الأنبياء ، 92ـ94 .
(2) المؤمنون ، 52ـ54 .

فلا يعرفون الخلاف ، فلهم الخلافة في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (1) .

ويقول جل وعلا : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (2) .

ويقول ٱلله عزَّ وجلَّ مخاطباً للنبي ﷺ : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (3) .

وعليه : الخليفة هو الذي يأمر بعدم الإسراف ، وما أكثر الإسراف اليوم فهو يهلك الأموال دون فائدة تذكر ؛ اللهُمَّ إلا للتباهي والفخر الزائدين عن الحد والعرف ، وأمثلة ذلك كثيرةٌ ، فمثلاً المناسبات من أفراح ، وأعياد مصطنعة ، ففي هـٰذه المناسبات يصرف فيها ما يكفي لبناء آلاف البيوت للشباب الذين لا يملكون بناء حجرة واحدة ، والمساهمة في إعداد الآلاف من بيوت الزوجية بأثاث بسيط الكلفة ، ولـٰكنه ثقيل علىٰ المحتاجين الذين هم في بداية الطريق كما يكفي لإعالة آلاف الأيتام والأرامل وطلاب العلم وغير ذلك

(1) هود ، 118 - 119 .

(2) يونس 19 .

(3) الروم ، 28 ـ 32 .

كثير ، وكثير ، ولـٰكنه التحدي الذي بسببه خرج إبليس من الجنة ، ونزل آدم إلىٰ الأرض ، فما زال الملعون يدعو بالإسراف ، وما زال الرحمـٰن يدعو بالاعتدال حتىٰ يقيت الخليفة من هم دونه في الأرض ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (1) .

فالتبذير يجعل الإنسان من إخوان الشياطين . أعاذنا ٱلله من ذلك في كل حين ! والتبذير هو الإسراف ، لذا فالله يحذرنا منه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (2) .

لذا فالخليفة لابدَّ أن يدعو إلىٰ الاعتدال ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يقبله المقيت تعالىٰ ، وبطبيعة الحال يكون النهي بالتي هي أحسن ؛ حتىٰ يتفاعل الخليفة مع الاسم المقيت ، فيقيت بعلمه ودعوته وحبه لله ، وحبه للناس يقيت الخلق الذي أصبح خليفةً بينهم .

---

(1) الإسراء ، 26 ـ 27 .

(2) الأنعام 138 ـ 142 .

وعليه : لم يستخلف ٱلله شخصاً بعينه كما يقولون ، أو يدَّعون ، بل استخلف النوع الإنساني الذي خلقه في أحسن تقويم ، ولهـٰذا يكون الخليفة بأحسن تقويم ، ولا يكون بأسوأ تقويم ، فالخليفة هو المخلوق علىٰ التمام ، وليس بمخلوق علىٰ النقص ، ولذا فالذين في أنفسهم النقص لا يرتقون إلىٰ مستوىٰ أحسن تقويم ، وهو المستوىٰ الذي تأسست عليه معطيات الخليفة ، فلا خليفة إلا المستخلف من عند ٱلله تعالىٰ ، والمراد بذلك الكافة ، ولـٰكن لا يتمُّ البلوغ إلا بالهداية والعمل الصالح ، مما يجعل أمر الخليفة في دائرة الممكن للجميع ، فلن يحرمك أحدٌ من أن تكون خليفةً إذا قدمت علىٰ ما يجعلك خليفة .

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرتقي الإنسان إلىٰ درجة عالية عند ٱلله سبحانه وتعالىٰ ؛ لأن الذي يفعل ذلك يحبُّ لله ، ويكره لله ، وينصح لله ، ويُسخِّر علمه لله ، وبذلك يحدث الاتزان علىٰ الأرض ، وهـٰذا الاتزان من تجلي الاسم المقيت ، فعن أنس بن مالك في فضل العلم : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم يوم القيامة الأنبياء ، والشهداء بمنازلهم من ٱلله ـ عز وجل ـ علىٰ منابر من نور يكونون عليها ؟ ! » . قالوا : من هم ؟! قال : «الذين يحببون عباد ٱلله إلىٰ ٱلله ، ويحببون ٱلله إلىٰ عباده ، وهم يمشون علىٰ الأرض نصحاء » . قال : قلنا : يحببون ٱلله إلىٰ عباد ٱلله ، فكيف يحببون عباد ٱلله إلىٰ ٱلله ؟ قال : « يأمرونهم بحب ٱلله ، وينهونهم عما كره ٱلله ، فإذا أطاعوهم ، أحبهم ٱلله » . قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وجاء عنه ﷺ قال : « علامة حب ٱلله حبُّ ذكر ٱلله ، وعلامة بغض ٱلله بغض ذكره » [1] .

لذا فآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خليفة ٱلله بالعلم الذي علمه ٱلله له ، والخليفة في كل

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 1 ، ص 479 .

عصر الذي له نصيب من هـٰذا العلم ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (1) .

والكرم والجود بالعلم والنصيحة وعدم الإسراف من الصفات الحميدة ، ولذا فالمقيت تعالىٰ هو الأكرم ، والنبي ﷺ كريم ، وهـٰكذا يستمد الخليفة صفة الكرم من صفة الكريم المقيت جلَّ جلاله . قال عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبركم بأجود الأجواد ؟ ». قالوا : نعم يا رسول ٱلله ! قال : « الله تعالىٰ أجود الأجواد ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجودهم من بعدي رجل عالم ينشر علمه ، فيبعث يوم القيامة أمةً وحده ، ورجل جاهد في سبيل ٱلله حتىٰ يقتل » (2) .

عن أنس رفعه : « أنا أجود ولد آدم ، و أجودهم بعدىٰ رجل علم علماً ، فنشر علمه ، ورجل جاهد بنفسه في سبيل ٱلله » (3) .

والجود من ٱلله رزق العباد بما يقيت حياتهم ، والجود من الخليفة علىٰ درجات :

إن كان نبياً ؛ يكون بتبليغ رسالته ؛ ليحفظ أمته من الشرك والإلحاد والكفر ، وإن كان الخليفة من العلماء ؛ فبنشر العلم الذي يحيي الأمة . ومعلوم : أن الحياة في جهل هي الموت بعينه ، لذا ففضل النبي علىٰ الأمة بحفظها لا يقتصر علىٰ الدنيا ، بل يتعداه إلىٰ الآخرة بالشفاعة الحسنة ، وكذلك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وخلفاؤهم ، ثم نجد : أنه يمكن لأيِّ إنسان أن تتحقق فيه خلافة هـٰذا الاسم بقدر الذي يبذله ليقيت الناس من خلال مجال عمله وتخصصه . وأعظم الرتب رتبة العلماء في هـٰذا الخصوص . قال

---

(1) البقرة ، 31 .

(2) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 470 .

(3) روضة المحدثين ، ج 1 ، ص 10 .

عليه الصلاة والسلام : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » . وقيل : أعظم مرتبة هي الواسطة بين النبوة والشهادة [(1)] .

أما عن فضل العلم الذي هو أداة الخليفة ؛ فقد روي عن معاذ بن جبل ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنه ﷺ قال : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، والأنيس في الوحشة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل علىٰ السراء والضراء ، والزين عند الأخلاء ، والقرب عند الغرباء ، يرفع ٱلله به أقواماً ، فيجعلهم في الخلق قادةً يقتدىٰ بهم ، وأئمةً في الخلق تقتص آثارهم ، وينتهىٰ إلىٰ رأيهم ، وترغب الملائكة في حبهم ، بأجنحتها تمسحهم ، حتىٰ كل رطب ويابس لهم مستغفر ، حتىٰ حيتان البحر وهوامُّه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ؛ لأن العلم حياة القلوب من العمىٰ ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأحرار ، ومجالسة الملوك ، والدرجات العلىٰ في الدنيا والآخرة ، والفكر به يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع ٱلله عز وجل ، وبه يعبد الله عز وجل ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، إمام العمل ، والعمل تابعه ، يلهمه السُّعداء ، ويحرمه الأشقياء » [(2)] .

إذاً فالعلم حياة القلوب من العمىٰ ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، وهـٰذا هو أثر الاسم المقيت في الخلق ، والمطلوب تنفيذه من الخليفة ، بل إن الخليفة المتحقق بهـٰذا الاسم يعمل جاهداً علىٰ تحقيقه بقدرٍ معلوم ؛ أي : بقدر المستفيد (الخليفة) من (المفيد) المقيت

(1) تفسير الرازي ج 1 ص 470 وانظر أخلاق العلماء للآجري ـ ج 1 ، ص 24 .
(2) المصدر السابق ، ص 24 .

جل جلاله الذي أنزل كل شيء بقدر ونظام ؛ حتىٰ يستقيم أمر الكون . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [1] جاء في تفسيرها : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ ﴾ عن أبي هريرة : « أن مشركي قريش أتوا النبي ﷺ يخاصمونه في القدر ، فنزلت : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ وفي هٰذا الأمر وجهان :

أحدهما : علىٰ قدر ما أردنا من غير زيادةٍ ، ولا نقصان .

الثاني : بحكم سابق وقضاء محتوم . ومنه قول الراجز في هٰذه الآية الكريمة : ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ يعني : إن ما أردناه من شيء أمرنا به مرة واحدة ولم نحتج فيه إلىٰ ثانية ، فيكون ذلك الشيء مع أمرنا به كلمح البصر في سرعته من غير إبطاء ولا تأخير . وليعلموا : أنه قادر علىٰ حفظ ما أنعم به عليهم ، ودوامه لهم [2] . وهٰذا هو مدلول اسم ٱلله (المقيت) القدرة علىٰ الحفاظ علىٰ النعم التي أنعم بها علىٰ عباده ؛ ليقيتهم بها . والخليفة هو الذي يسعىٰ للحفاظ علىٰ حياة الناس بعلمه وخبرته وحكمته .

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام ما يدل علىٰ أن العلم بمقدار الأمور التي يعالجها ، والذي يضع كل شيء في مكانه المناسب يقيت الناس بعلمه وحكمته ويحفظ حياتهم ، وهٰذا ما فعله سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما أصبح مكيناً أميناً عند ملك مصر ، فطلب أن يكون علىٰ خزائن مصر ؛ ليحمي الناس من مجاعة مهلكة توقَّع حدوثها ، فأخذ يعمل علىٰ مواجهتها ، يقول ٱلله تعالىٰ :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤

(1) القمر ، 49 ـ 50 .
(2) النكت والعيون ـ ج 4 ، ص 205 .

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ قال يوسف : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ ﴾ أرض مصر ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ذو حفظ وعلم بأمرها [2] .

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ اجعلني علىٰ خزائن الأرض ؛ أي : أرض مصر ، فاللام للعهد ؛ أي : ولي أمرها من الإيراد والصرف ، إني حفيظ لها عمن لا يستحقها ، وعليم بوجوه التصرف فيها ، وذلك : أنه لمَّا عبر رؤيا الملك ، وأخبر بإتيان السنين المجدبة ؛ قال له فما ترىٰ يا يوسف ؟ قال : تزرع زرعاً كثيراً ، وتأخذ من الناس خمس زروعهم في السنين المخصبة ، وتدخر الجميع في سنبله ، فيكفيك ، وأهل مصر مدَّةَ السنين المجدبة . وفىٰ بحر العلوم قال له : من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء ، فيأتيك الخلق من النواحي ، ويمتارون منك ، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك . فقال الملك ومن لي بذاك ؟ فقال : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ . وذلك لأنه علم في الرؤيا التي رآها الملك : أن الناس يصيبهم القحط ، فخاف عليهم القحط ، والتلف ، فأحب أن تكون يداه علىٰ الخزانة ؛ ليعينهم وقت الحاجة شفقةً علىٰ عبادة ٱلله ، وهي من أخلاق الخلفاء .

وفي الآية دليل علىٰ جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممَّن يقدر علىٰ إقامة العدل ، وإجراء أحكام الشريعة [3] .

إذاً فمن أخلاق الخليفة الخوف علىٰ الناس ، واتخاذ الإجراءات المناسبة لإعانتهم علىٰ حاجتهم ، والنظر بتمعن لتأمين مستقبلهم ، ومثال لذلك ما يُبذل

(1) يوسف 54ـ56 .
(2) تفسير حقي ، ج 6 ، ص 125 .
(3) تفسير الجلالين ، ج 4 ، ص 150 .

من جهود ، وما يجري من شق الطرق ليحدث التواصل والاتصال بمنابع المياه التي منها يروىٰ ظمأ الناس ، وبها يزرعون ، ويقتاتون . وعن طرق الاتصالات تتبادل العلوم والمعارف التي تُسهم في إحداث النقلة إلىٰ كل مفيد ونافع لإقاتة الناس من الجوع والمرض والجهل .

وفي قصة سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ العبرة في هـٰذا المجال ، فبالفكر والجهد استطاع أن يزيل خوف الملك من الجوع القادم علىٰ البلاد ، وأن يبتكر وسيلة ليحافظ علىٰ الثروة المتوفرة الآن ليعيد استخدامها بتوظيف جديد في المستقبل ، وهـٰذا ما ستوضحه الآيات : قال ٱلله تعالىٰ في قصة الملك مع سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (1) .

(فأرسلون) فيه اختصار تقديره : فأرسلني أيها الملك ، فأتىٰ السجن ، فقال : قال ابن عباس ولم يكن السجن في المدينة . ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ أي يا يوسف أيها الصديق ، إنما سماه صديقاً ؛ لأنه لم يجرب عليه كذباً قط . والصديق : الكثير الصدق ، والذي لم يكذب قط . وقيل : سماه صديقاً ؛ لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن . ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ فإن الملك رأىٰ هـٰذه الرؤيا . ﴿ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ يعني : أرجع بتأويل هـٰذه الرؤيا إلىٰ الملك ، وجماعته . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بتأويل هـٰذه الرؤيا . وقيل : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ منزلتك في العلم . قال يوسف : معبراً لتلك الرؤيا : أما البقرات السمان

(1) يوسف ، 46 ـ 48 .

والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة ، وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ وهـٰذا خبر بمعنىٰ الأمر ؛ أي : ازرعوا عادتكم في الزراعة ، والدأب : العادة . وقيل : ازرعوا بجد واجتهاد . ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله ؛ لئلا يفسد ، ويقع فيه السوس ، وذلك ابقىٰ له علىٰ طول الزمان . ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ يعني : ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة . وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضاً ، وهو وقت السنين المجدبة ، وهو قوله ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني : من بعد السنين المخصبة تأتي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة علىٰ الناس . ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يعني : يفنين ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يعني : يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام . وإنما أضاف الأكل إلىٰ السنين علىٰ طريق التوسع في الكلام لتحرزون ، وتدخرون للبذر ، والإحصان : الإحراز ، وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ، ولا يضيع [1] .

وهـٰذا بتجنيب جزء زائد عن حاجة الجماعة يدخر لوقت آخر لا يتوفر فيه هـٰذا الزرع أو أي شيء يمكن القياس عليه ، مثل الطاقة ، أو المياه أو غير ذلك من مقومات الحياة الآن ، ولذلك لا يقوم بقوت الناس إلا المتحقق بالاسم (المقيت) انطلاقاً من رؤية علمية منهجية صحيحة .

ونعود للجانب الاقتصادي ، ونسأل من الذي يتصرف في الأموال التي هي عماد الأمم وعصب الحياة ؟ وهـٰذا السؤال يجيب عليه القرآن في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا

(1) تفسير الخازن ، ج 4 ، ص 22 .

تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (1) .

فجاء في التفسير : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ ﴾ المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ، ولا قدرة لهم علىٰ إصلاحها ، وتثميرها ، والتصرف فيها ، والخطاب للأولياء . وأضاف إلىٰ الأولياء أموال السفهاء بقوله : ﴿ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ لأنهم يلونها ، ويمسكونها . ﴿ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ أي : قواماً لأبدانكم ، ومعاشاً لأهلكم ، وأولادكم . وكان السلف يقولون : « المال سلاح المؤمن ، ولأن أترك مالاً يحاسبني ٱلله عليه خير من أن أحتاج إلىٰ الناس » (2) .

وقياساً علىٰ الآية السابقة : فكل من لا يحسن التصرف في المال الذي رزقه ٱلله إياه يعدُّ سفيها وعلىٰ الخليفة الذي هو ولي أمره أن يعطيه هـٰذا المال بقدر معلوم ؛ حتىٰ ينضج فكره ، ويمتلك من الوسائل التي تتيح له حسن التصرف في هـٰذا المال الذي يقيم حياته وحياة آخرين ، ومن شروط التصرف الحسن في المال الذي يقيم الأمم ويحيي الأفراد ما ورد في الآية الآتية . قال ٱلله تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (3) .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ في غير حق . ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ يعني : ولم يمسكوا عن حق . ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ يعني : بين الإسراف ،

---

(1) النساء ، 5 ، 6 ، .
(2) تفسير النسفي ، ج 1 ، ص 209 .
(3) الفرقان 67 ـ 68 .

والإقتار مقتصداً . ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ﴾ يعني : لا يعبدون . ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ قتلها بالقصاص ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ يلقَ ذنباً لا يغتفر ، ومأواه جهنم [1] .

وجاء أيضاً في تفسير الإنفاق ، والاعتدال :

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ نفق الشيء : إذا مضىٰ ، ونفد إما بالبيع ، نحو : نفق المبيع نفاقاً ، وإما بالموت ، نحو : نفقت الدابة نفوقاً وإما بالفناء ، نحو : نفقت الدراهم ، وأنفقتها . ﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم . ﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ ولم يضيقوا تضييق الشحيح ، فان القتر ، والإقتار ، والتقتير هو التضييق الذي هو ضد الإسراف ، والإسراف : مجاوزة الحد في النفقة . ﴿وَكَانَ﴾ الإنفاق المدلول عليه بقوله : أنفقوا ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي : بين ما ذكر من الإسراف ، والتقتير ، وهو خبر (كان) وقوله : ﴿قَوَامًا﴾ خبر بعد خبر . والمعنىٰ : وسطاً عدلاً . سمىٰ به لاستقامة الطرفين ، واعتدالهما بحيث لا ترجح لإحداهما علىٰ الآخر بالنسبة إليه لكونه وسطاً بينهما كمركز الدائرة ، فإنه يكون نسبة جميع الدائرة إليه علىٰ السواء . ونظير القوام السواء سمِّيَ به لاستواء الطرفين . فالآية نظير قوله تعالىٰ في الإسراء : ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾ .

والإنفاق ضربان : محمود ، ومذموم :

فالمحمود : منه ما يكسب صاحبه العدالة ، وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله كالصدقة المفروضة ، والإنفاق علىٰ العيال ، ولذا قال الحسن : (ما أنفق الرجل علىٰ أهله في غير إسراف ولا فساد ولا إقتار فهو في سبيل ٱلله) ومنه : ما يكسب صاحبه أجراً ، وهو الإنفاق علىٰ من ألزمت

---

(1) تفسير مقاتل ، ج 2 ، ص 475 .

الشريعة إنفاقه عليه . ومنه ما يكسب له الحرية ، وهو بذل ما ندبت الشريعة إلىٰ بذله ، فهـٰذا يكتسب من الناس شكراً ، ومن ولي النعمة أجراً .

والمذموم ضربان : إفراط (وهو التبذير) وإسراف ، وتفريط ، وهو : (الإمساك والتقتير) وكلاهما يراعىٰ فيه الكمية ، والكيفية ، فالتبذير من جهة الكمية أن يعطىٰ أكثر ما يحتمله حاله ، ومن حيث الكيفية أن يضعه في غير موضعه والاعتبار فيه بالكيفية أكثر من الكمية ، فرب منفق درهماً من ألوف وهو في إنفاقه مسرف ، وببذله ظالم مفسد ، كمن أعطىٰ فاجرة درهماً ، أو اشترىٰ خمراً . ورب منفق ألوفاً لا يملك غيرها هو فيه مقتصد ، وببذله محمود ، كما رويَ في شأن أبىٰ بكر الصديق ـ رضي ٱلله عنه ـ حيث أنفق جميع ماله في غزوة تبوك ، ولما قال له رسول ٱلله ﷺ « ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ !» قال : (ٱلله ورسوله) . والحديث مقترن بآية ، فعن عامر الشعبي ، في قوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال : أنزلت في أبي بكر ، وعمر ، أما عمر فجاء بنصف ماله ، حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : « ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر ؟ ! » . قال : خلفت لهم نصف مالي . وأما أبو بكر فجاء بماله كله ، يكاد أن يخفيه من نفسه ، حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : « ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر ؟ » . قال : عدة ٱلله وعدة رسوله . فبكىٰ عمر ، وقال : بأبي أنت وأمي يا أبا بكر ! ما استبقنا إلىٰ باب خير قط ؛ إلا كنت سابقنا إليه »[1] . وعليه فقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يفهم منها علىٰ مستوىٰ الخليفة في الأرض : إذا أخلص الخليفة النية لله في إنفاقه لا يضره الإجهار ، أوالإظهار ، وربما كان أفضل لكي يقتدي به الناس بهـٰذا الفعل

(1) تفسير ابن أبي حاتم ، ج 10 ، ص 329 .

الخير الجميل ، فيكثر الخلفاء في الأرض ، وفي سبيل ذلك فليتنافس المتنافسون .

وقد قيل لحكيم : متىٰ يكون بذل القليل إسرافاً ، والكثير اقتصاداً ؟ قال : إذا كان بذل القليل في باطلٍ ، وبذل الكثير في حقٍّ ، ومن هٰذا الباب ما قال مجاهد : (لو كان لرجل مثل أبي قبيس ذهباً ، فأنفقه في طاعة ٱلله ؛ لم يكن مسرفاً ، ولو أنفق درهماً في معصية ٱلله ؛ كان مسرفاً) .

وقيل : « أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعيم واللذة ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ولٰكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع ، ويقويهم علىٰ عبادة ربهم ، ومن الثياب ما يستر عوراتهم ، ويكنهم عن الحرِّ والقرِّ » [(1)] .

ومن تجلي اسم ٱلله المقيت إحياء الأرض بالماء ، وإخراج أرزاق العباد منها ، لذا وجب علىٰ المتخلق بهٰذا الاسم ، والذي يكون خليفة لله في أرضه أن يحفظ تلك النعم ، ولا يهدرها ؛ وإن قلَّت . ومن هٰذه النعم الخبز الذي يقيت الإنسان . وقد جاء في قوله تعالىٰ ما يدعو إلىٰ الحفاظ علىٰ النعم مهما قلت وقد دعم ذلك ما ورد في كتب التفسير فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [(2)] .

﴿ وَءَايَةٌ ﴾ علامة عظيمة ودلالة واضحة علىٰ البعث ، والجمع ، والإحضار ، وهو خبر مقدم للاهتمام به . وقوله ﴿ لَّهُمُ ﴾ أي : لأهل مكة ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ اليابسة الجامدة : ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ استئناف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية ، كأن قائلاً قال : كيف تكون آية ؟ فقال : ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ والإحياء في الحقيقة إعطاء الحياة ، وهيٰ صفة تقتضىٰ الحس والحركة ،

---

(1) تفسير حقي ، ج 11 ، ص 350 .
(2) يس ، 33 .

والمعنىٰ هنا : هيجنا القوىٰ النامية فيها ، وأحدثنا نضارتها بأنواع النباتات في وقت الربيع ، وذلك بإقاتها بإنزال الماء من بحر الحياة و(كذلك النشور) فإنا نحيىٰ الأبدان البالية المتلاشية في الأجداث بإنزال رشحات من بحر الجود ، فنعيدهم أحياء كما أبدعناهم أولاً من العدم ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ الحب الذي يطحن ، والبزر الذي يعصر منه الدهن ، وهو جمع : حبة ، والمراد جنس الحبوب التي تصلح قواماً للناس من الأرز ، والذرة ، والحنطة ، وغيرها ، وهي التي بها يقتات الناس ، وتُقات الكائنات ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أي : فمن الحب ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ تقديم الصلة ليس لحصر جنس المأكول في الحب حتىٰ يلزم أن لا يؤكل غيره ، بل هو لحصر معظم المأكول فيه فإن الحب معظم ما يؤكل ، ويعاش به ، ومنه صلاح العباد .

ومن تجليات اسم (المقيت) إحياء قلوب العلماء ؛ ليكونوا سبباً في تنوير عقول العباد ، وإحياء قلوبهم ، وصفاء أرواحهم ، وطهارة نفوسهم . لذا فالخليفة يوجه الناس للإيمان بالله تعالىٰ لتعمر عقولهم وقلوبهم بالحكمة ويتقون ويصلحون ولا يفسدون في الأرض ولا يكفرون بنعمة ٱلله ويذكرهم بالحفاظ علىٰ الأقوات التي يقتاتون بها وحثهم للسعي لاستخراج أقواتهم من الأرض محل الخلافة وخزن القوت لمن أراد أن يقتات وقيت غيره وفي هٰذا المعنىٰ قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (1) .

الخليفة المقيت هو الذي يعلم رحمة ٱلله ، ويعمل بها علىٰ رحمة العباد ،

---

(1) فصلت ، 9 ـ 12 .

يتصدق ويزكي ويعطي ويجود دون إسراف ، ولا غاية له إلا طاعة المقيت المطلق مصدر كل إقاتة ورزق .

فالمقيت هو الذي بيده الخير وبيده إرادة الإنفاق ، وله دقة في تقدير زمن الإقاتة ، وتحديد من هو في حاجة للإقاتة ، ولذا فإن الإقاتة إنقاذ من الهلاك ، وعودة للحياة الفاعلة ، التي بها تتحقق الطمأنينة النفسية لمن يتعلق أمر الحاجة أو الفاقة به .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : ذلك الموجود الذي علمت من صفته وقدرته : أنه خلق الأرض في يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم ، فكيف أثبتم له أنداداً من الخشب ، والحجر ؟! ثم إنه تعالىٰ لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين ؛ أخبر : أنه أتىٰ بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك :

فالأول : قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ والمراد : وَجَعَلَ فِيهَا رواسي منها الجبال ، فإن قيل : ما الفائدة في قوله : ﴿ مِن فَوْقِهَا ﴾ ولم يقتصر علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ (1) . وقوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ (2) ؛ قلنا : لأنه تعالىٰ لو جعل فيها رواسي من تحتها ؛ لأوهم ذلك : أنَّ تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هـٰذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولـٰكنه تعالىٰ قال : خلقت هـٰذه الجبال الثقال فوق الأرض ، ليرىٰ الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال علىٰ أثقال ، وكلها مفتقرة إلىٰ ممسك ، وحافظ ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا ٱلله سبحانه وتعالىٰ .

والنوع الثاني : مما أخبر ٱلله تعالىٰ في هـٰذه الآية قوله ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح

---

(1) المرسلات ، 27 .

(2) الرعد ، 3 .

والبيان ، قال ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : يريد شق الأنهار ، وخلق الجبال ، وخلق الأشجار والثمار ، وخلق أصناف الحي ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ محيياتها ، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات المباركة بإذن المقيت عز وجل .

والنوع الثالث : وفيه أقوال :

الأول : إن المعنىٰ : وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم . قال محمد بن كعب : قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان .

والقول الثاني : قال مجاهد : وقدر فيها أقواتها من المطر ، وعلىٰ هـٰذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان ، والمعنىٰ : أن ٱلله تعالىٰ قدر لكلِّ أرض حظها من المطر كلَّما تُرحم ، وتقتات به .

والقول الثالث : إن المراد من إضافة الأقوات إلىٰ الأرض كونها متولدة من تلك الأرض ، وحادثة فيها ؛ لأن النحويين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنىٰ سبب ، فالشيء قد يضاف إلىٰ فاعله تارة وإلىٰ محله أخرىٰ ، فقوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ أي : قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها ، وذلك لأنه تعالىٰ جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة ؛ حتىٰ إن أهل هـٰذه البلدة يحتاجون إلىٰ الأشياء المتولدة في تلك البلدة ، وبالعكس أيضاً ، فصار هـٰذا المعنىٰ سبباً لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال ، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف ، والصنائع بركة ، لأن ٱلله تعالىٰ وضع الأرزاق والأقوات في الأرض وهيأها للإنسان الذي كلَّما نقب وبحث وسعىٰ أظهر شيئاً منها ليقتات بنعم ٱلله فيها . قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ وإذا كانت الأقوات موضوعةً في الأرض كان طلبها من الأرض متعيناً [1] ، ولما ذكر ٱلله سبحانه هـٰذه الأنواع الثلاثة من التدبير ؛ قال بعده : ﴿ فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ وهنا سؤالان :

(1) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 370 .

السؤال الأول : إنه تعالىٰ ذكر : أنه خلق الأرض في يومين ، وذكر : أنه أصلح هـٰذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام أُخر ، وذكر : أنه خلق السموات في يومين ، فيكون المجموع ثمانية أيام ، لـٰكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، فلزم التناقض ! واعلم : أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا : المراد من قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ مع اليومين الأولين ، وهـٰذا كقول القائل : رحلت من سبها إلىٰ طرابلس في عشرة أيام ، ورحلت إلىٰ بنغازي في خمسة عشر يوماً . يريد كلا المسافتين ، ويقول الرجل للرجل : أعطيتك ألفاً في شهر ، وألوفاً في ثلاثة أشهر ، فيدخل الألف في الألوف ، والشهر في الشهرين .

السؤال الثاني : إنه لما ذكر : أنه خلق الأرض في يومين ، فلو ذكر : أنه خلق هـٰذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة ، وأبعد عن الغلط ، فَلِمَ ترك هـٰذا التصريح ، وذكر ذلك الكلام المجمل ؟ والجواب : أن قوله : ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فيه فائدة علىٰ ما إذا قال : خلقت هـٰذه الثلاثة في يومين ، وذلك ؛ لأنه لو قال : خلقت هـٰذه الأشياء في يومين ؛ لم يفد هـٰذا الكلام كون هـٰذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال ؛ لأنه قد يقال عملت هـٰذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل ، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هـٰذه الأشياء ، ثم قال بعده : ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ دل ذلك علىٰ أن هـٰذه الأيام الأربعة صارت مستغرقةً في تلك الأعمال من غير زيادة ، ولا نقصان . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ قال السديُّ ، والحسن : أرزاق أهلها ، ومصالحهم .

وقال عكرمة ، والضحاك : معنىٰ « قدر فيها أقواتها ، أي : أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم منها » [1] .

---

(1) تفسير القرطبي ، ج 15 ، ص 342 .

ومن معاني المقيت المقتدر ، والشهيد ، والحفيظ وجاء ذلك في تفسير قوله تعالىٰ :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [1] .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أي : مقتدراً مجازياً بالحسنة ، والسيئة . مِنْ : أقات علىٰ الشيء : إذا اقتدر عليه . أو : شهيداً حفيظاً [2] .

ولا نستطيع أن نفصل بين أسماء ٱلله الحسنىٰ ؛ لأنها متصلة اتصالاً وثيقاً ؛ حتىٰ إنه نجد الاسم له مدلولات متعددة ، ومتصلة وبآنٍ واحدٍ مع بقية الأسماء بشكل بديع ، وهـٰذا يتضح من تفسير الإمام الغزالي للأسماء الحسنىٰ ، قال الإمام الغزالي في شرح الأسماء الحسنىٰ : « معنىٰ المقيت : خالق الأقوات ، وموصلها الىٰ الأبدان ، وهي الأطعمة ، والىٰ القلوب ، وهي المعرفة ، فيكون بمعنىٰ الرازق إلا أنه أخص منه ؛ إذ الرزق يتناول القوت ، وغير القوت ، والقوت ما يكتفىٰ به في قوام البدن . أو يكون معناه : المستولي علىٰ الشيء القادر عليه . والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم ، وعليه يدل قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ علىٰ إضطلاعه تعالىٰ ، وقدرته ، وبهـٰذا يكون معناه راجعاً الىٰ العلم ، والقدرة ، فوصفه بالمقيت أتمُّ من وصفه بالقادر وحده ، وبالعالم وحده ؛ لأنه دال علىٰ اجتماع المعنيين ، وبذلك يخرج هـٰذا الاسم من الترادف [3] .

ولما سئل ابن عباس عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ مَا الْمُقِيت ؟ قَالَ : قَادِرًا ، قيل : وَهَلْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ

(1) النساء ، 85 .
(2) تفسير مقاتل ، ج 3 ، ص 196 .
(3) تفسير حقي ، ج 3 ، ص 38 .

الْكِتَابُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ النَّابِغَةِ :

وَذِي ضَغَــنٍ كَفَفْــتُ النَّفْــسَ عَنْــهُ وَإِنِّــي فِــي مَسَــاءَتِــهِ مُقِيــتُ

قَالَ : صَدَقْتَ [1] . عن الضحاك ، قال : المقيت : الرازق [2] . بطبيعة الحال لا يقات الشيء إلا بشيء ، والشيء الذي يقات به هو رزق من عند المقيت المطلق جل جلاله .

المقيت هو ٱلله تعالىٰ الفعال لما يريد ، لمن يريد ، متىٰ يريد ، كيفما يريد سبحانه جل جلاله .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ قال ابن عباس ، وعطاء ، وعطيــة ، وقتــادة ، ومطــر الــوراق : (مُقِيتــاً) أي : حفيظــاً . وقــال مجاهـد : شهيداً . وفي رواية عنه : حسيباً . وقال سعيد بن جبير ، والسدِّيُّ ، وابن زيد : قديراً . وقال عبد الله بن كثير : المقيت : الواصب . وقال الضحاك : المقيت : الرزاق . وعن عبد الله بن رواحة ، يُقيت كلَّ إنسان علىٰ قدر عمله [3] .

قال تعالىٰ : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [4] فيه ثلاث مسائل :

الأولىٰ : قوله تعالىٰ : (من يشفع) أصل الشفاعة ، والشفعة ، ونحوها من الشفع ، وهو الزوج في العدد ، ومنه الشفيع ، لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً . والشفع : ضمٌّ واحد إلىٰ واحد .

---

(1) معجم الكبير للطبراني ، ج 9 ، ص 426 .
(2) السابق 473 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج 2 ، ص 368 .
(4) النساء ، 85 .

والشفعة ضم ملك الشريك إلىٰ ملكك ، فالشفاعة إذاً : ضم غيرك إلىٰ جاهك ووسيلتك ، فهي علىٰ التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع ، وإيصال المنفعة إلىٰ المشفوع له .

الثانية : واختلف المتأولون في هـٰذه الآية ، فقال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم : هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم ، فمن يشفع لينفع ؛ فله نصيب ، ومن يشفع ليضر ؛ فله كفل .

وقيل : الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة ، والسيئة في المعاصي .

فمن شفع شفاعة حسنة ؛ ليصلح بين اثنين ؛ استوجب الأجر ، ومن سعىٰ بالنميمة والغيبة ؛ أثم ، وهـٰذا قريب من الأول . وقيل : يعني بالشفاعة الحسنة : الدعاء للمسلمين ، والسيئة : الدعاء عليهم [(1)] .

وقيل : المعنىٰ : من يكن شفعاً لصاحبه في الجهاد ؛ يكن له نصيبه من الأجر . ومن يكن شفعاً لآخر في باطلٍ ؛ يكن له نصيبه من الوزر . وعن الحسن أيضاً : الحسنة ما يجوز في الدين ، والسيئة ما لا يجوز فيه . وكأن هـٰذا القول جامع . والكفل : الوزر ، والإثم [(2)] .

الثالثة : قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ (مقيتا) معناه : مقتدراً ، ومنه قول الزبير بن عبد المطلب :

وذي ضغنٍ كففتُ النَّفس عنه كنتُ علىٰ إساءته مُقيتا

وقال النحاس : وقول أبي عبيدة أولىٰ ؛ لأنه مشتق من القوت ، والقوت معناه : مقدار ما يحفظ الإنسان .

وجاء في الحديث : « كفىٰ بالمرء إثما أن يضيع من يقوت »

---

(1) تفسير القرطبي ، ج 5 ، ص 295 .
(2) السابق 297 .

و : « يقيت » ذكره الثعلبي . وحكىٰ ابن فارس في المجمل : المقيت : المقتدر [1] .

في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولىٰ : في المقيت قولان : الأول : المقيت : القادر علىٰ الشيء ، وأنشدوا للزبير بن عبد المطلب .

وذي ضغنٍ كففتُ النفس عنه وكنتُ علىٰ إساءته مُقيتا

وقال آخر :

ليت شعري وأشعرن إذا ما قرَّبوها منشورةً ودُعيت
إلىٰ الفضل أم علىٰ إذا حو سبت أني علىٰ الحساب مُقيت

وأنشد النضر بن شميل :

تجلَّد ولا تجزع وكن ذا حفيظةٍ فإني علىٰ ما ساءهم لَمُقيت

فالمقيت المطلق جل جلاله هو الذي يُشتق القوت منه ، ولهٰذا فالمقيت المطلق يشتق منه كل شيء ، وهو لا يشتق من شيء سبحانه لا إلٰه إلا هو ! وفي هٰذا الأمر يقال : قُتُّ الرجلَ : إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته ، فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء علىٰ قدر الحاجة . قال القفال رحمه الله : إنه تعالىٰ قادر علىٰ إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلىٰ الشافع مثل ما يوصله إلىٰ المشفوع فيه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولا ينتقص بسبب ما يصل إلىٰ الشافع شيء من جزاء المشفوع ، وعلىٰ الوجه الثاني : أنه تعالىٰ حافظ الأشياء شاهد عليها لا يخفىٰ عليه شيء من أحوالنا ، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق ، أو في باطل حفيظ عليه فيجازي كلاً بما علم منه . ولهٰذا أكد جل جلاله علىٰ أن من يشفع ينبغي أن يشفع شفاعة حسنة ؛ حتىٰ لا يلحقه ذنب . فقال

(1) السابق ص 297 .

تعالىٰ : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ ﴾ (1) .

المسألة الثانية : إنما قال : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ تنبيهاً علىٰ أن كونه تعالىٰ قادراً علىٰ المقدورات صفة كانت ثابتة له من الأزل ، وليست صفة محدثة (2) .

والمقيت : المقتدر . يقال : أقات علىٰ الشيء يعني : اقتدر . ويقال : المقيت الشاهد علىٰ الشيء ، الحافظ له من التلف والهلاك ، ويقال : ﴿ مُّقِيتًا ﴾ يعني : بيده الرزق ، وعليه قوت كل دابة (3) ، كقوله تعالىٰ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (4) .

القُوت يقوِّي البدَنَ ، ويحفَظُه من التلف والهلاك ومن فقدان المقدرة علىٰ البقاء ، والعيش ، وجاء أيضاً : ﴿ مُّقِيتًا ﴾ بمعنىٰ مقتدراً ، فيجازي كلَّ أحدٍ بما عمل (5) .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ في الأزل ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ شهيداً في إيجاد المحسن ، والمسيء ، مقتدراً ، عليماً حفيظاً ، يعطيهما استعداد شفاعة حسنة ، وسيئة لا يقدران اليوم علىٰ تبديل استعدادهما لقابلية الخير ، والشر (6) .

ومن خلال السياحة في عالم الاسم (المقيت) يتبين لنا : أنه من أسماء

---

(1) النساء ، 85 .

(2) تفسير الرازي ، ج 5 ، ص 311 .

(3) بحر العلوم للسمرقندي ، ج 1 ، ص 406 .

(4) فصلت 10 .

(5) تفسير الجلالين ، ج 2 ، ص 77 .

(6) تفسير حقي ، ج 3 ص 39 .

الذات الذي يتضمن مدلولات كثيرة لأسماء إلـٰهية أخرىٰ ، ولا ينفصل عنها بل يتمم معانيها ، وتكمل هي من مفاهيمه . والمتحقق بهـٰذا الاسم من العلماء الحكماء المخلصين الناصحين المحرضين لجماعتهم للخير الصارفين لهم عن الشر العاملين بجهد وافر لتحقيق ما يسعدهم ويحمي حياتهم بحرية وكرامة .

وعليه : فحظ العبد أن يقيت نفسه بما أمر ٱلله تعالىٰ من الهلاك ، وأن يقيت من له الحق عليه من الهلاك والضياع ، فالقوت قوتان :

أولاً : قوت الكلمة الحق ؛ التي بها تطمئن القلوب بالإيمان ، وتعيد الثقة بالنفس ، وتُحفِّز علىٰ بلوغ الطموحات والغايات العظام ، وتنير العقول بالعلوم والمعارف النافعة ، وتحدث النقلة في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية إلىٰ ما هو أفضل وأجود وأحسن ، وأنفع ، وأقوم .

الثاني : قوت العيش : الكريم والرزق الحلال ، من مأكل ومشرب ؛ الذي به يغاث الناس من الهلاك ، وبه تنقد ألأرواح من الموت . ولذلك يكون الفرق كبيراً بين من يُطعِمُ وبين من يُطعَمُ ، فالمقيت المطلق وحده لا شريك له الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ (1) . ولذا فإن الخليفة هو الذي يستمد صفة الإطعام والإقاتة من المقيت المطلق ، فيطعم المسكين التزاماً ، وإيماناً راسخاً بما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (2) . ولهـٰذا فالخليفة دائماً يحض علىٰ إطعام المسكين ، واليتيم ، والمحتاج دون منةٍ ، بل طاعةً لله تعالىٰ مالك الملك ، وهو الرزاق المقيت .

اللهُمَّ يا المقيت قتنا دائماً أبداً بواسع رحمتك ، وفضلك ، وجودك ، وكرمك ، وعطائك ، ورزقك !

(1) الأنعام 14 .
(2) الإنسان ، 8ـ10 .

اللهُمَّ إنك يا المقيت قد خلقت القوت سابقاً علىٰ خلقنا ، فكان قوتك لخلقك رحمة في الدار الدنيا ، وجعلت الجنة قوتاً واسعاً لمن آمن بربه واحداً أحداً ولا يشرك به شيئاً ، فاجعلنا يا مقيت من الوارثين في الجنة ، ولا تجعلنا محرومين في جهنم ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [1] !

اللهُمَّ اجعلنا من أصحاب الجنة الذين نادوا أصحاب النار : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] والحمد لله رب العالمين !

اللهُمَّ إننا علىٰ بينة منك نتبعها ، ولا نتبع الهوىٰ فقتنا في الجنة بأنهار مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ !

اللهُمَّ قتنا فيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، واغفر لنا ، إنك المقيت ، ولا تجعلنا كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ !

✍ ✍ ✍

---

(1) الحج ، 19 ـ 22 .
(2) الأعراف ، 44 .